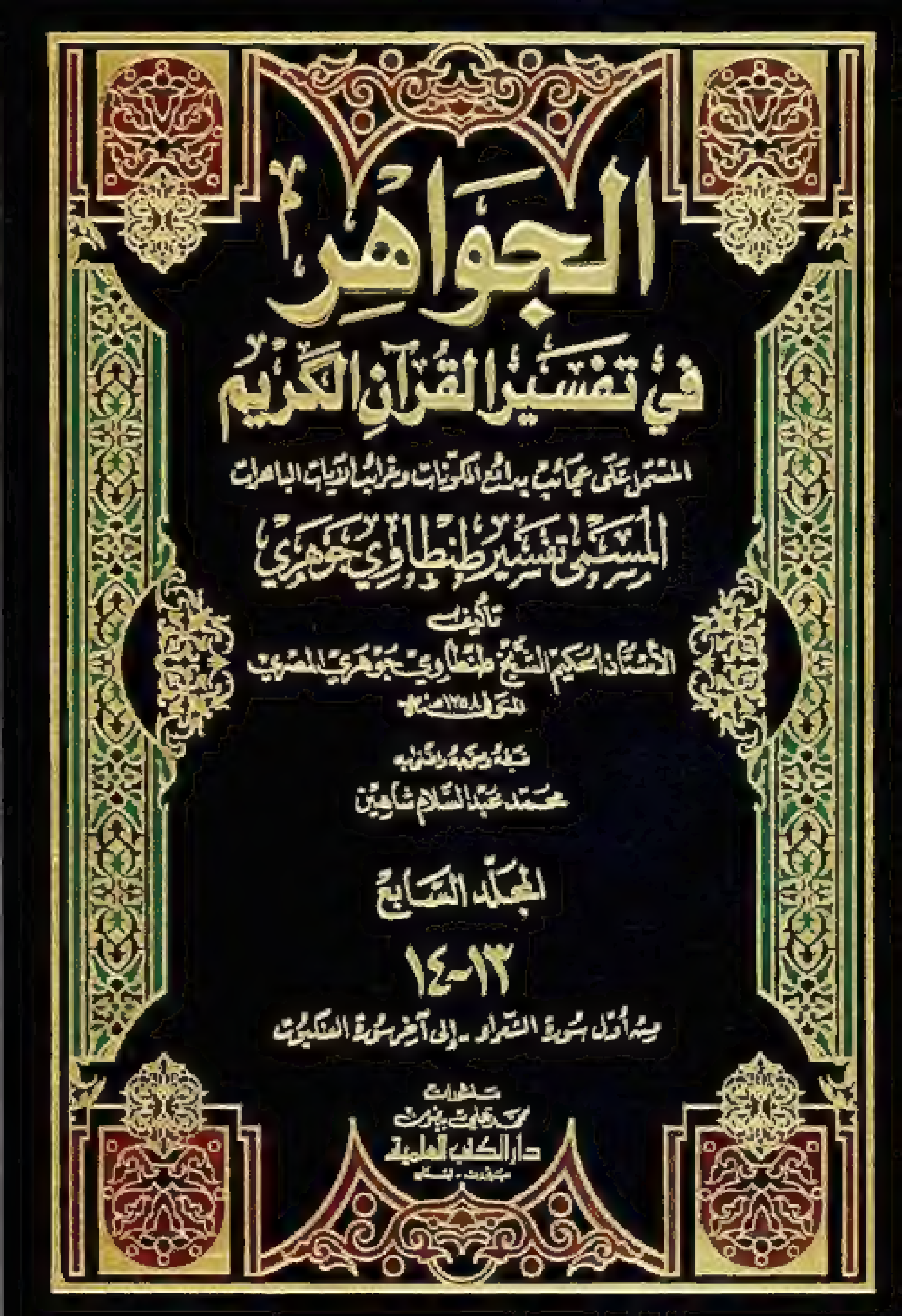
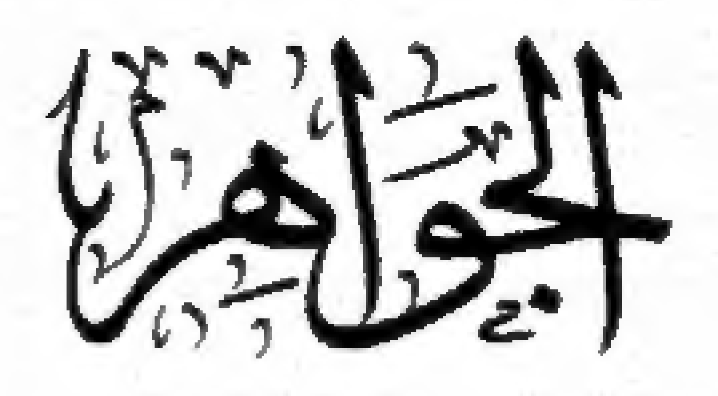

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه وخرّج آياته
محمد عبد السلام شاهين
المجلد السابع
١٣-١٤
من أول سورة الشعراء - إلى آخر سورة العنكبوت
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الرابع عشر

المحتوى:

سورة القصص وسورة العنكبوت

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الذاريات: ٥٥]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة القصص

وهي مكية، إلا من قوله:

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إلى قوله:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ فمدنية

وآية:

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

فبالجحفة أثناء الهجرة

وآياتها ٨٨، نزلت بعد النمل

ولأقدم قبل تفسير السورة مقدمات ثلاثاً قد كنت كتبتها في كتابي «النظام والإسلام» وفي كتابي «نظام العالم والأمم»، وقد كانت تدرج في جريدة المؤيد وغيرها قبل وضعها في الكتاب، تلك المقدمات ذات علاقة بالقصص القرآنية المذكورة في هذه السورة وغيرها.

المقدمة الأولى: نموذج في كيفية فهم قصص القرآن

التربية والآداب في قصص القرآن

طال الأمر على أمتنا فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة وكيف تنتقي الرجال الأكفاء في مهام الأعمال. يا ليت شعري ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها وأهملت أمرها وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين، القصص في كل أمة عليها مدار ارتقائها سواء أكانت وضعية أم حقيقية، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها، وناهيك بكتاب «كليلة ودمنة» وما ولاه من القصص الناسجة على منواله في الإسلام، ككتاب «فاكهة الخلفاء، ومقامات الحريري» وإن حاد بعضها عن سواء الصراط والجادة وطغى فخلط الجد بالهزل ككتاب «ألف ليلة وليلة» الذي استخلص زبدته الغربيون، كل يعلم ما صنعت الروايات في عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل

من الأفعال، وكيف يسمعون ويعقلون، جاء القرآن بقصص الأنبياء، وهي لا جرم أعلى مثالاً وأشرف مزية، كيف لا وقد جمعت حسن الأسلوب واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه والقدوة الحسنة بالكمّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم وتحققها في أنفسها لوقوع مواردها، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان لا سيما لمن يقتدى بهم، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت في سواها ككتاب كليلة ودمنة منتقى كتاب الهند وترجمة الفرس والإسلام جاء على ألسنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده، والروايات المنتشرة في الغرب أكثرها إيهاماً لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لأنفسهم لما تضمنته من النصائح في بواطنها مع زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب.

أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر، وما لنا ولهذا إذاً؟ تالله إن هذا لهو البوار، ما نحن إلا كما حكي في هذه الأيام عن فلاح جوبري فقير بنى منزله الحقير من حمأ مسنون مرصع بقطع من الماس الجميل المقدر بمئات الألوف من الجنيهات، جهلها الرجل وعرفها سائح أوروبي فكان ذلك من أهم الاكتشافات في تلك الأقطار. كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول في نفسه تارة وعلى الملأ أخرى: يا ليت شعري كيف توافق التاريخ وهل الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة في الأهرام والبرابي والهيلوغريف تؤيده، ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتاً مندهشاً. وقد يعثر على قول فلان الفرنسي والإنجليزي مما يؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحاً ويظن أن هذا مستند للدين، وفاته أنه إن وافقه كتاب فقد يخالفه كتب، إذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهارير.

لعمر العلم لم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها وأنها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر، أما الرجوع إلى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم وما سطره الأقدمون على مبانيهم وما يقوله القاصون في خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضل فيه الماهرون، يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف وكيف يقول: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف: ٢٢].

فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل، فإن قال: خمسة، قالوا: ستة، وإن قال: أربعة، قالوا: سبعة، فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص وما المقصود منها وليكون عبرة، وبالإجمال فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها والعبر المبصرة للسامعين، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان فلا نعتمد إلا على البرهان. تأمل يا صاح هذه القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها ولا معول عليها، فلا نرى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جميلة تلذ العقلاء، ولأقتصر من تلك القصص ما حكاه عن النبي يوسف الصديق عليه السلام وكيف جاوز فيها ما لا علاقة له بالأخلاق من مدنية المصريين وأحوالهم إلى الخلاصة والثمرة الخ. اهـ.

المقدمة الثانية

لأذكر لك نموذجاً آخر لذلك، وهي محادثة جرت بيني وبين فتى في حديقة الجيزة، إذ قال: إنني اعتقدت أن القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناساً يقولون:

(١) إن الدين لا علاقة له بالكون، وهؤلاء علماء أوربا تراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون، فأخبرني رعاك الله أين أنت من قصة سليمان وما حكاه الله في القرآن، ولقد سنحت أسئلة فلم أقدر على الإجابة عليها، فهاأنا ذا أعرضها الآن.

(٢) كيف سمع سليمان النملة وهي تتكلم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[النمل: ١٨]، وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات.

(٣) وكيف يقول الرب: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[النمل: ١٦]، وكلمه الهدهد فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٢٢-٢٣] الآية.

(٤) وكيف يقول: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩]، وكيف يقول: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠].

(٥) وما تلك الأبنية العظيمة المسماة بالمحاريب التي كانوا يعملوها له، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ﴾[سبأ: ١٣] الآية.

(٦) وما تلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان، وما تلك القدور الراسيات العظيمات؟

(٧) وكيف تسيل المعادن من الأرض المرموز لها بقوله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾[سبأ: ١٢]، أي: أسلنا له النحاس كالعين ينبع.

(٨) وما هي دابة الأرض التي أكلت عصاه في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

(٩) وكيف سخرت له الريح حتى قال: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ: ١٢]، شهر أول النهار وشهر آخره.

(١٠) ما هذه المحاورة بين بلقيس وقومها واستشارتهم في الأمور العامة والسياسية عند وصول كتاب سليمان إليها ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[النمل: ٣٢-٣٣]، وهذا السؤال الأخير ليس فيه إشكال، وإنما سألتكم فيه تكميلاً للمقام، وإنني أعتقد أن هذه لا علاقة لها بالعلوم لبعد منالها عن الأفهام، ولا ينبغي أن يفهمها إلا العامة، أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتلوا الحقائق فالأجدر بهم أن يكفوا عن هذا، وسكت. فقلت: أيها الفتى إن لكل أمة وجهة توليها وتناسب حالها، والأمم التي ذكرت لم يكن في دياناتها علوم، وإنما هي مواعظ، وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم، فنحن على هذا نقر لهم بالعلم والحكمة، وإنما كان هذا شأنهم لأن عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد

عما عداها ولم يلتفت قط في خطابه إلى غير ذلك، وموسى قبله أخذ بالجسمانيات، وأما القرآن فجمع بين الأمرين وتكلم عن الجسمانيات والروحانيات وأشار إلى العلوم إجمالاً، فإذا قلدناهم في ذلك سامت العقبى لأن المسلمين أمة عودها دينها أن يتكلم عن جميع شؤونها إجمالاً، حتى إنه يعلمهم المواريث والأحكام ويفصل بينهم بالحق، فإذا جاؤوا إلى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا في شؤونهم ولم يجتمعوا على رأي واحد، فالقرآن جامع بينهم. وأما مسألة نبي الله سليمان عليه السلام فإني أرى أنك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدهد وخطابه والأرضة وأكلها العصا مع نبي الله سليمان، ويلوح لي أنك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات.

ولنقدم لك مقدمتين قبل الخوض في الجواب عن أسئلتك العشر، فقال: نعم هات. فقلت: تعلم أيها الفتى أن الأمم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والإنسان، ألم تر إلى كتاب «كليلة ودمنة» نخبة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب، وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله في الإسلام، وقد علمت هذا المقام في قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلا أطيل بالإعادة.

إن الحيوانات على قسمين: حكيمة تعمل الأعمال العجيبة كالنمل في بناء المساكن والادخار، والأرضة في الهندسة والإتقان، والنحل وغيرها، فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتها.

والقسم الثاني: حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس، فلا قدرة لها على أعمال النمل ولا النحل ولا دود القز، فهي حيوانات عاملة لا عالمة، فأعطيت الضعيفة العلم، والقوية العمل، قسمة عادلة.

وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معلمة للإنسان: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١].

إذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم أن قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الأنبياء وهم أشرف ما يعلمه الإنسان، وهذه أول مزية واضحة الظاهر حقيقية. وهي مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والأخلاق، وهي مرتبة ثالثة خالصة مما لا علاقة له بذلك وهي مرتبة رابعة. وهذا نبي الله سليمان عليه السلام لم يذكر معه إلا النمل والهدهد والأرضة وهي دابة الأرض، فظاهر هذه الألفاظ أمور سهلة بسيطة، وكلم الهدهد وسمع النمل وأكلت الأرضة عصاه، فأما الجاهل فمتى سمع هذا اكتفى بها وقال: كفى بهذه معجزة، ويقف عند هذا الحد، ويظن أن هذه غاية ما في القرآن، وهذا في الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ في المدارس، فإنه يقرأ الحكاية ويقول: ما مغزاها وما المقصود منها؟ ولما علم أهل أوروبا أن التاريخ جعل للعظة والاعتبار وجهوا إليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علماً منهم أن المدار على ثمراته لا سرد حكاياته.

ثم إن علماء الإسلام ما وضعوا علوم البلاغة إلا لخدمة القرآن، ومن أجل تلك العلوم فن البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التي تشمل جميع الروايات والخيالات وما جاء على ألسنة الحيوان والنبات، ومنه مقامات الحريري، واعترضوا عليه بأن هذا خيال يلتبس بالحقيقة، ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة في زماننا هذا، فأما مثل «كليلة ودمنة» الذي جاء على ألسنة الحيوانات فقد قبله جميع

علماء الغرب والشرق لظهور أن القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية، وهناك نوع يسمى الكناية وهي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، فيكون المعنى الأصلي صحيحاً واللازم هو المقصود بالذات، وعلى هذا جاء قصص القرآن، فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ما وراء ذلك المعنى، فالعامي يقف عند مجرد الحكاية، فإذا سمع مسألة الهدهد مع سليمان والنمل وحد الله وأخلص له وعبده وأخذ يسبحه بكرة وأصيلاً، أما العالم فإذا سمع هذا قال: ليس القصد من هذه القصة مجرد الخطاب، فإن النمل ومسألته والهدهد وخبره والأرضة وأكلها أمور تشير إلى ما هو أدق من ذلك وأرقى، وكون نبي الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير صحيح في نفسه، ولكن الطير ليس عنده من العلم إلا مقادير محددة تناسب مأكله ومشربه. إذن هذه الأمور تستلزم بطريق الكناية معاني أرقى من هذه مرادة ومقصودة، وإذا كان كل كلام عربي وأعجمي له مغزى فكيف يحرم من هذا كلام الله ولأجله دون فن البلاغة، إن هذا لهو الخسران المبين، ومن ادعى أن المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من أن يكون تلميذاً بل هو حيوان، فالأولى أن يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامة فليس له في العلم من نصيب. فقال الفتى: ما مثال الكناية من كلام العرب؟ فقلت: أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء، وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح فجيده عاطل من حلي البلاغة، ولأذكر لك مثالا واحداً لتقيس عليه ما سواه: دخل صخر أخو الخنساء عليها يوماً واستشارها في أن تتزوج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب، فقالت في أبيات لها:

معاذ الله يرضعني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

فالجاهل إذا سمع مثل هذا يقول: أين المناسبة بين السؤال والجواب؟ فهو يقول لها: تزوجي دريداً، وهي تقول: أعوذ بالله أن أرضع طفلاً قصيراً شبره قصير، أما العالم فإنه يعرف اللازم والملزوم ويدرك سراً فهمه العربي في البادية بدون تعلم، بل بالفطرة والمنحة الإلهية، وهو أنها إن تزوجت فلا بد من الاقتراب، والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالباً، وأبوه قصير فيكون قصيراً، والأعضاء على حسب الجسم، ومنها الشبر فيكون قصيراً، فإذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمها أن لا تتزوج أباه المرتب على زواجه ما بعده، فهذه لوازم وملزومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الأقوام بفطرهم، وإذا كان هذا كلام أعرابية في البادية وقد تضمن هذه الحكم، وذكرت أمراً صحيحاً وهو الامتناع من الإرضاع، ولكن أرادت ما هو أرقى من ذلك عند الفطن، وهو عدم التزوج بدريد بن الصمة وهو المقصود بالجواب، وقد عد هذا من أجمل طبقات البلاغة، فما بالك يا سيدي بالقرآن الذي هو سيد الكلام، فكيف لا يكون فيه كنايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم وعجائب وغرائب، ولو نظرت في كلام العرب بإمعان لرأيت فيه كثيراً من ذلك جداً فما بالك بكلام الله جل جلاله؟.

الله أكبر كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر المدقق، وما مثل الكلام السهل الممتنع إلا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفاً عنده لشدة وضوحه، فإذا نظر العالم فيه وبحث عنه وقف على كنهه، وهاهم العلماء قديماً وحديثاً يبحثون عن كنهه ولا يزالون مختلفين إلى

يوم الدين . العلماء الثلاثة : عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيراً بسيطاً كل لفظة بما يراد منها ، وهذا في طبقة العامة لم يمتز عنهم والعامة بمثل هذا مولعون ، وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون . وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرف فيه بالمجاز تارةً والكناية أخرى ، والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه ، وهذا متوسط في العلم . وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل ويركب في المعلومات ، وهذا هو العالم حقاً وهو الحكيم الذي يأخذ بأمته إلى العلا ، وهو الذي أشار له الله في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] .

فتأمل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله في الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه وعجائبه . وإلى هذه الطبقات الإشارة بقوله : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ إشارة إلى الطبقة الأولى ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة : ١١] إشارة إلى الطبقتين بعدها ، وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس : « بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض » إشارة إلى تفاوتهم في الفهم كما هو مشاهد محسوس في كل فن من الفنون ، فإذا لم يمكنك أن تكون من الحكماء فاجتهد أن تكون من علماء البلاغة ، وهم أواسط الأمم الذين يناط بهم التحرير والإنشاء ، ومن سمع آية من القرآن ؛ فإن كان من الفريق الأول وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم إلا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة ، فإن ترقوا قليلاً للبلاغة فيا حبذا . ولقد أصبحت الأمم جمعاء تنحو هذا النحو في تعليم صغار تلامذة المدارس ، وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهود ، فمن ظن أن القرآن لا يفهم فالأجمل به أن يصمت ويعتزل العلماء . عجباً أن يكون لكل حكاية في العالم مغزى يراد منها ، ويسلب هذه المكرمة أبلغ الكلام ، أين البلاغة إذن؟ فقال الفتى : كفى هذا وأرجو أن أسمع ما ترمز إليه هذه القصة ، فأجلته إلى الغد ، رجعنا إلى الحديقة ، فقلت : يا بني إن هذه القصص تشير إلى مدنية كانت عند نبي الله سليمان ، فإن مدار المدنية الآن على :

(١) سرعة نقل الأخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلا سلك .

(٢) وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية « البالون » الذي سيخلف السكك الحديدية الأرضية بواسطة تبخير الغازات التي هي أخف من الهواء .

(٣) وإنشاء المباني العظيمة .

(٤) وفن النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة .

(٥) واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها .

(٦) والتدبير والإحكام والهندسة .

(٧) والسياسة بالتشاور وجعل الأمر بيد الأمة وأن لا يستبد الحاكم بالرأي .

(٨) والاعتماد على النفس .

(٩) والتحلي بالعلوم والمعارف .

(١٠) والاقتداء بالصنعة الإلهية .

فهل المدنية غير ما ذكرت لك الآن؟ فقال الفتى: هذه أمور عامة داخل تحتها فروع كثيرة. قلت: الهدهد إشارة إلى أن النبي سليمان عليه السلام أعطي سهولة نقل الأخبار بأي طريقة من طرق النقل، والهدهد رمز لذلك، وقد أعطي حكمة ورثها عن آبائه وأيدها الوحي بها، فنقل الأخبار بسرعة ليس خاصاً بالهدهد بل به وبغيره، ولعل عنده ما هو أرقى مما عندنا على سبيل الكناية. وتسخير الريح له إشارة إلى أن وسائط النقل متوفرة عنده عليه السلام حتى وصل إلى استخدام الريح الذي يبحث عنه الأوروبيون الآن بالطيارات المعروفة، وإن كان للنبي معجزة لا يصل لها البشر، ولغيره بالعمل وهو أقل وأضعف.

ويقال إن النقل في مستقبل الأمر يكون بها لتخلو الأرض للزراعة والمنافع الأخرى، ويشارك الإنسان الطير في الطيران، وهذا كان سراً لا يعلمه إلا ذلك النبي معجزةً له، ذكره الله في القرآن ليجدّ الناس في العلوم لعلهم يصلون إلى بعضه، أما الوصول إلى غايته فلن يصل أحد إليه، وأشار إلى المباني العظيمة بقوله: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾[سبأ: ١٣]. وأما فن النقش والتصوير ففي قوله: ﴿وَتَمَٰثِيلَ ﴾[سبأ: ١٣]. وأما استخدام المعادن فهي قوله: ﴿ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ ﴾[سبأ: ١٢]، وهو النحاس فقط، وهو رمز إلى المعادن على اختلاف أنواعها من إطلاق اللفظ وإرادة لازمه أو الجزء وإرادة الكل، إذ المدنية الهائلة العظيمة تستلزم الترقي في استخراج المعادن، وأما التدبير والإحكام في الصناعات وإتقانها، فإليه الإشارة بفهم كلام النملة وسماعها ولذلك يقول: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ ﴾[النمل: ١٦] فأطلق وأريد به لازم معناه، وهي الحكم والمعارف والعلوم والنظامات، التي أودعت في الطير والحيوان، وليس القصد مجرد تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على أشياء لا تخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان، من مأكل ومشرب لا تعني نبياً من الأنبياء إلا للإعجاز والتحدي، إلا فهو أرقى وأوسع علماً، فنبي الله سليمان أوتي الحكمة والعلم، أشار له بقوله بعد ذلك: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ ﴾[النمل: ١٦].

ثم أخذ يسرد حكايات النمل والهدهد ليدلك على الحكمة التي أعطيها، حتى لم يذكر في قصته إلا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقرة في قصته، إذ هو عليه السلام نبي وحكيم ورث بعض العلم عن آبائه الذين ألقيت إليهم النبوة والحكمة، أما سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن علمه ميراثاً، وإنما جاء كله بطريق الوحي، فهو أمي لأمة أمية جاء في جزيرة العرب لهم خاصة، وللناس عامة، فأمرهم بالتوحيد والنظر في الكون والأخذ بأحاسنه. ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾[الأنعام: ٩٠]، فأمره أن يقتدي بهم، ومنهم نبي الله سليمان وقد أوتي الحكمة والعلم فوجب إذن على أتباعه أن ينظروا في قصته ويطلبوا العلم الذي يرقي مدنيتهم من الأمم حولهم، فإن بعض العلوم عند نبي الله سليمان ورثها عن آبائه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان، وقد كان فيثاغورس تلميذاً لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام كما قيل، وقد انتشر علمه في اليونان والهند كما في كتاب «الملل والنحل»، ومنهم إلى الرومان فالعرب فأهل أوروبا، فكان أدواراً شتى وطرقاً مختلفة، فقصة سليمان إشارة لمدنية قديمة معلوم عهدها ومجهولة آثارها، إذ سندهم متصل بقدماء المصريين، وكان بيت بني إسرائيل مجتمع الحكمة من الأمم الغابرة ودام ملكهم

قروناً متطاولة، ولذلك لما خرجوا من مصر أمرهم موسى بذبح البقرة لأن أذهانهم قريبة عهد بالعجل المسمى أبيس وعبادة المصريين له، ولهذه الحادثة سميت بها أكبر سورة في القرآن فقيل سورة «البقرة».

وكان بنو إسرائيل إذ ذاك غلاظاً شداداً لا يفقهون الحكم، فأمروا بذبح البقرة التي على هيئة عجل «أبيس» معبود المصريين، ولما كثر فيهم الأنبياء وتمادى الزمان رقت أذهانهم وجاء فيهم نبي الله سليمان عليه السلام وأوتي الملك والحكمة وقال: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦] وذكر حديث النمل وغيره، فتأمل رعاك الله تجد الأمم المتأخرة الآن تبحث عن هذه الحيوانات وتأملها حتى في أصغر كتاب للتلامذة، فميزان الأمة نظرها في الكون، فكلما دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الأشياء ترقوا في المدنية والعكس بالعكس، وهذا هو المقصود بذكر هذه الحيوانات في قصة ذلك النبي.

ومن العجيب أن السورة التي ذكر فيها النمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة. وإنني لا أزال أيها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات في قصة سليمان ولم يقل فخاطب البقرة والخيل. والحكمة ما علمت. فقال الفتى: كفى في هذا السؤال، فقلت: وأما التشاور في الأمر فهو ظاهر من محاورة بلقيس لقومها واستشارتهم في الأمر وآدابها، وهذا ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح. وأما الاعتماد على النفس فهو ما ذكره من مسألة العفريت من الجن وادعاء الجن أنهم يعلمون الغيب فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. فهذا هداية للإنسان أنه متى حاز النهاية في العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات، إذ هو خليفة في الأرض وهو أقوى من الجن، فهذا أول داع لذوي العقول أن يتقدموا في العلوم والمعارف، وقال: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. فهذه كلها تريك أن الاتكال على الإخبار بالغيب عجز وجهل، بل الاعتداء بالأمور المعهودة والتأمل في أعمال الخليقة يهدي الإنسان إلى الطريق الأقوم، فإن كثيراً من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعول عليهم ما عدا المعصومين من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين. والعفريت والجن في هذه الآية يناسب ما انتشر في أوروبا الآن من ظهور عالم الأرواح وتكليمهم إياهم بما هو شائع مستفيض، والجن والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين في أوروبا، وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الإنسان لا يلتفت إلى كل خبر منهم، بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضح من هذه الآية، ونتيجة ذلك أن الاعتماد على النفس والعقل في كل شيء علوّ للهمة في العلوم والمعارف، وأن الإنسان في علمه فوق الجن مكانة كما في مسألة دلالة دابة الأرض على موت سليمان وجهل الجن به، والإنسان أسمى قوة كما في نقل عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر. فقال الشاب: وكيف انتقل سريعاً وبين الشام واليمن شهر، فقلت: ذلك إشارة إلى أن فوق هذه المدنية الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى، وإن كان ذلك معجزة للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام، ولكن يطلب الأخذ بالأسباب لكل ما يسهل وسائل النقل والإسراع فيها.

أما الاجتهاد في العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠]. وأما الاعتناء بالكون والصنعة الإلهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمل في النمل وانظر.

فقال الشاب: ما رأيت أعجب من هذا البيان، ثم قال الفتى: أخبرني عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله في القرآن، وما لنا بهم من علم وفي أي زمن خروجهم؟ فقلت: أيها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه في «مجلة الهلال» وهي في نظام العالم والأمم، وقد تقدم في سورة «الكهف».

المقدمة الثالثة

أحوال الدول في قصص فرعون وموسى عليه السلام

الإنسان في حياته ينتهج سبيلاً سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم، فإما مكباً على وجهه أو سوياً على صراط مستقيم. كل ابن أنثى يتخذ طريقاً سنه الأبوان أو الأقربون أو الإخوان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربي مع ملاحظة الأمزجة، وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير أو الشر، وبمقال آخر: إن هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقاً للسعادة أو الشقاء، والتاريخ مثل واضح يتمثل به الإنسان سيره في نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل، وحوادث الأصحاب والإخوان تاريخ تشاهده العيان وتسمعه الآذان، ولا جرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل في سيرته الشخصية والمنزلية، أما سيرة المدن وتقلبها فمرجعها إلى مرآة أوسع وأعظم ألا وهي تواريخ الأمم العابرة فهي المنظار المعظم تدرس بها الأخلاق في شكل بهيج جميل. لعمرك ليس كل تاريخ يغني «وما كل مصقول الحديد يماني»، فقد يستسمن ذو الورم وينفخ في غير ضرم، يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، ولن تجد العبر إلا في آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج، ونوائجها ظاهرة واضحة خيراً أو شراً، فيخرج القارئ من بساتينها مقتطفاً من رياضها أزهاراً، وجانياً من أشجارها أثماراً.

ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ إن عدل عن هذه الوجهة كان شغلاً بلا فائدة وضياع وقت وحياة. نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين، وقد كان فرعون يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]. ذلك تذكرة للكاتب والقارئ لأنا نعلم أنه لم يكن ليجعل حكاية يسلي بها القارئ نفسه كما يشعر به قارئ رواية أو يقتل به الزمن كلا. كيف وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، والعبرة مشتقة من عبور البحر، فينقل قارئ التاريخ حال غيره إلى نفسه ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق، ويقول تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ويقول جل وعز: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام: «ما تحت الشمس من جديد»، ويقول علماء العصر: «التاريخ يعيد نفسه».

غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد، وخبلاً عن الفحوى، ورضاء بالقشور، وابتعاداً عن أسرار البلاغة. جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ، ولكل مثل مورد ومضرب، وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها، أو المعاني دون مغزاها، ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام: «شيبتني هود وأخواتها»، وترى كثيراً من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ذكر له قصصاً تشبه

حاله فيردعه عن غيه، فتكون أشد تأثيراً من وقع الحسام، وتثير في القلب حمية وإقداماً أو خيفة وإحجاماً، فزال المراء ورفع الغطاء، إن الخبر في مغزاه كالسهم في مرماه، فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا، ونذكر تلاشي الأمم في قصص فرعون وموسى عليه السلام.

أشرنا فيما تقدم إلى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين، ونحن لا نعلم من تاريخ دولهم إلا أنهم كانوا في ليل الجهل الدامس، حتى بعث لهم نبي الله إدريس المسمى بـ «هرمس»، ويسمى المثلث لأنه كان نبياً وملكاً وحكيماً، وورد أنه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن في النواويس تحت الأحجار والصخور، وكانوا موحدين وتناهوا في ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثاراً لجلاله، ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله، ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن وبقي التوحيد سراً مكتوماً عند حملة الدين وحرموا العامة منه، فأرسل النبي موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجع في الخاصة وهم القليل، وآمن بنو إسرائيل، وبقي المصريون في عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فأغرق فرعون جنوده، وأما بقية الشعب فجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الآشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين، فجاء «قمبيز» فلعمرك ما سدد عليهم فأصماهم، وأقصد القلب إلا بقوس من شعائر دينهم، عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة، فوضعها قمبيز بين الجيشين، فتحرج المصري عن قتلها فأصابها وأصابه قمبيز فملك وقتل وسبى وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين، وكان ما كان من هلكته.

مضت دولة الفرس فورثهم إسكندر المقدوني وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ما حرمه الظالمون، فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم، وجاء عمر مهيمناً عليهم بجناح الرحمة، وأسدل ستاراً من العدل، وحرسه بجند من الإيمان، وبنى عليه هيكلاً من العلم، وزينه بزخرف من الكياسة، ووشاه بنقوش الحكم، وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نوراً على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة، فوسمه بما وسم إمام الصحابة رضي الله عنهم في قضية ابنه وابن القبطي إذ ضرب الثاني الأول بمحضر من الصحابة في المدينة حتى قال القبطي قد شفيت نفسي، كل هذا وحال المصريين تنادي:

وإنك عادل يا عمر فينا ولكن جئت في الزمن الأخير

فأكثرهم أبيد بيد الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب، مصداقاً لما روي عن إدريس عليه السلام: «يا مصر، يا مصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك في أحجارك» والكتاب أوضح هذا فقال في فرعون: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [القصص: ٤٠-٤٣]. العبرة في هذا أن الأمم لها باب ترتقي فيه، وآخر فيه تضعف قوتها، وإذن لا بد لها من إصلاح، فإما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين، وإلا فلا مناص لها

من السير على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة، وأن الأمة إذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهي دابة كل راكب خادمة كل سيد، طفلة كل مربي، زوجة كل بعل، وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والآشوريين والفرس واليونان والرومان، بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار.

فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فما دمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القانصين، ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان، فليس لنا في ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملاً، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾[الأنعام: ١٣٣] إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة، بل تراهم تفرقوا شيعاً فذاق بعضهم بأس بعض، فانظر كيف كان عاقبة الجامدين.

أما أهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشي أهل فرعون، فإن أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا إليها، وهم وإن نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة في عرب البادية المصرية، وتقل في الفلاحين وتضعف في أهل الأمصار والمدن الكبار، إلا في أناس أرجعها لهم التعليم إن صح. فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التي قبلهم ولا أرى أن يسأم الحاضرون بالغابرين.

هذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت في هذه الديار زمراً زمراً زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين إلى نحو القرن السادس الهجري، وأن ما في البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين، كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم، فإذا قيل مصر بقيت في الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكماً علينا، كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون، وعليه فإن أمتنا قابلة لإسراع الرقي في أقرب الأزمنة متى تعلموا، وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهي جنين، وكيف تشب وهي طفلة لعوب.

إنشاء الأمم

سبق القول أنا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهي أجنة في البطون في مدارج الحياة ونشأتها، وأن ذلك سنة لا محيص عنها.

للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها، وكإنسان طفل فشاب فشيخ فميت، وكالسنة: ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت، كسير القمر: توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنباتات ينبت فيستوي على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفراً فيكون حطاماً، وكل بائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبهه إما بالحركات في الأفلاك أو بالولادة في العناصر، الزوجان من الإنسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه للجمهور شاؤوا أم أبوا، فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها تحت سيطرتها، ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة في الوجود وتدمج سواها في جسمها، فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدي الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور،

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[القصص: ٥-٦].

وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبدانهم، والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون، وما كان من تمزق الرومان بأيدي الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق، وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول، هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم في أعصر النبوة، وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. هذا وليس رقي الأمم بلا موجب، فللرقي أسباب وللتدلي أسباب.

ولقد فصلنا القول في أسباب السقوط، فلنشرح الآن أسباب الرقي من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام، إذ هما أقرب لنا مكاناً ومولداً ومهاجراً، وقدمنا أنها ذكرت في الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموماً والمصريين خصوصاً ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب، ويعتبروا بالأمم السالفة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأنعام: ١٦٥].

وقد استخلصنا أسباب الرقي إذا هي عشرون: عشرة منها بكسب الإنسان، وعشرة من الله، ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله بما عنده من الهبات والمنح، العشرة الأول أن تمنح الأمة رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأخلصوا في أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا رياء ولا سمعة، بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم هبة لهم، وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام ابنتي شعيب عليه السلام في سقي الغنم إذ ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[القصص: ٢٣]، فرفع الحجر عن البئر ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾[القصص: ٢٤]. وكان ما كان من زواجه بإحدى الابنتين ورعيه الغنم (١٠) سنين.

وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بأنطاكية، وقد أبى القوم أن يضيفوهما، وما كان ذلك إلاّ عملاً أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور.

(١) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وإفهامها حاجات الأمة المغلوبة بما في الإمكان واجتذابها إليها بما جمل من العلم والمعرفة، كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۝ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه: ٤٢-٤٤] إلى أن قال: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[طه: ٤٧]. فجمع بين الإرشاد واللين في القول أو الشفاعة في قومه، وهذا واجب شرعاً على كل من أوتي حكمة في القول وجاهاً وعلماً وقدرة أن يتذرع بها إلى الأمم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى في علو شأن أمته، لهذا نزل القرآن لا تغنياً أو إعراباً فحسب، أو تاريخاً، ومن أعطاه الله حكمة أو جاهاً فانتبذ من أهله مكاناً قصياً عاكفاً على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفاً حكمه عامة الأديان.

(٢) القوة العلمية وإقناع الخاصة بما يلائمهم، والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد، يشير إلى الأول قوله تعالى في موسى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا

﴿ ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٤٩-٥٠]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾[طه: ٥٣]. فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والأنفس الراقية، وهي تشير إلى ما يعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء، ثم تلقفت عصاه إفك السحرة وأخرج يده فإذا هي بيضاء، وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضاً لدى السحرة.

(٣) الأنفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف العار بإزالة المنكرات جهاراً واستئصالاً ليلاً ونهاراً عند القدرة، كما قتل موسى القبطي الظالم للإسرائيلي: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ ﴾ [القصص: ١٥]، وإن ندم بعد ذلك. وهكذا إن أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوماً على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم أنه سيضل به الوالدان، فهذه إشارات وملامح يراد منها إنتاج خطة الصلاح والإصلاح، فهذه أشجار هذا زهرها، وأثمار هذا طعمها، وفاكهة هذا حلوها.

(٤) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتي هي أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾[الكهف: ٧٩]. وهكذا أم موسى وضعته في التابوت لنجاته قال تعالى: ﴿ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[القصص: ٧].

(٥) الثبات على المبدأ، والصبر أمد العمر، ألم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٨] الخ. هذا في العلم وفي المحاربة، قالوا له: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[المائدة: ٢٤]، وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام، فقال: «والله لأقاتلنهم ولو وحدي». وليس قصدنا من هذا إلا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بعاذل أو ناقم.

(٦) إشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس، وأن لهم اتصالاً بمبدع العالم، ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بني إسرائيل في القرآن بهذه العبارة: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧]، تذكرة لهم في زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد. فويل لأمة تقرؤه وهي ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى، كيف وهذه الأمة عموماً وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الأرض مدنوا العالم، منا الأمويون والعباسيون والفاطميون. وما الطولونيون والإخشيديون إلا موالي آبائنا، وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالي أسلافنا، ولقد أدركت القوم في القرى إبان نعومة أظفاري وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف وينشدون الأشعار الحماسية، وما عهد اكتساح التتار بمائتي ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد، ولعمري لأن تمتلئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب إقداماً خير من أن تراها ذليلة منكسة الأعلام مرتاعة الأفئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة، وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى.

(٧) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقي والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا، كما وقع لبني إسرائيل، لما جبنوا عن الحرب بقوا في أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة، ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[المائدة: ٢٦].

(٨) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم إلى هاوية العذاب إلى حال أخرى كالخروج من أرض إلى أرض، وأن ذلك يسهل متى أراد الإنسان وهو أبو العجب، ألم تر إلى موسى عليه السلام كيف مر ببني إسرائيل من أرض فرعون إلى أرض كنعان.

(٩و١٠) ازدواج اللين والشدة، وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام، هذه العشرة متى ظهرت في أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة، وهي عشرة سنذكرها في مقال آت إن شاء الله.

قلنا فيما سبق: إن الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال: «إخلاص العمل لأمتهم، والحنو والشفقة، وتذليل العقبات بين أيديهم، ومن غلبوا على أمرهم. وما من أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية، فعليهم أن يخلصوا لبلادهم في العمل رغبة في حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر إن كانوا أوساطاً في العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده في صنع الجميل بلا طلب أجر إن كانوا حكماء، وإقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن، ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام.

فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة في بني إسرائيل، ومع هذا لم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون وإشعار النفوس بمكانتها وشرفها، فلا ينبغي أن تصغي الأمة إلى من يصغرها في عينها». ولقد قال ابن خلدون رحمه الله: «إن هؤلاء الذين يسكنون الخيام في البادية، هم أبناء ملوك الأعصر الغابرة، وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم». وأنا أقول: إننا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال قريبة العهد لا تقتضي بأن يضرب علينا الذل والمسكنة، ولا يقال في مصر: «هي لمن غلب»، فإنما كان هذا المثل مضروباً لأمة خلت، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة: ١٣٤]. وتربية النشء على المبادئ القويمة والعبرة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكاناً أو صفاتاً أو أخلاقاً أو ملكاً الخ.

هذا ملخص ما ذكرناه أمس، ونقول: هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التي قلت إنها هبات من الله، وهي تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب، فضلاً من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم وإحساناً.

(١) الإلهام، وذلك يكشف الغطاء عن القول فتظهر لهم وجوه المنافع ومساوئ المضار، فإن النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾[القصص: ٧]. وهذا وإن كان بلا كسب ففيه إشارة إلى ما نحن فيه.

(٢) إجابة الدعاء والنصر: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾[يونس: ٨٩].

(٣) شد الأزر وتقوية الأفئدة بالإخوان والأنصار: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[القصص: ٣٥].

(٤ و٥) النصر والنجاة من الضر: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾[الصافات: ١١٤-١١٦].

(٦) الهداية إلى الطريقة المثلى: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[الصافات: ١١٧-١١٨].

(٧) حسن السمعة والذكر والصيت: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[الصافات: ١١٩-١٢١].

(٨) القرب من الله تعالى: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾[مريم: ٥٢].

(٩) التمكن من الخلافة في الأرض: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[القصص: ٥-٦].

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين، ألم تر إلى حديث رجل من آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[غافر: ٢٨]. فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة أن قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه، ولعمرك إن في هذا لبلاغاً للأمم المهضومة الحقوق. إن من أعطي فصاحة أو جاهاً أو حكمة وعلماً وجب عليه وجوباً عينياً أن يقوم ليناضل عن أمته بماله أو جاهه أو قلمه، فإن الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين، حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيباً والخاذل ناصراً والمعادي موالياً، وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ولما جاهد بنو إسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكاً عظيماً دام ألفاً وخمسمائة سنة مع قلة عددهم، وأخذت مصر في التلاشي إذ ذاك، ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وآشوريين وبطالسة، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٧]. انتهت المقدمات.

تفسير السورة

هي أربعة أقسام:

القسم الأول: من قصص موسى عليه السلام، من أول السورة، إلى قوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[الآية: ٤٦].

القسم الثاني: من قوله: ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾[الآية: ٤٧]، إلى قوله: ﴿ فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾[الآية: ٦٧].

القسم الثالث: من قوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[الآية: ٦٨]، إلى قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[الآية: ٧٥].

القسم الرابع: من قوله: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾[الآية: ٧٦]، إلى آخر السورة.

القسم الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا

ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ
قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ
ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ
خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾
قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ
أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ
ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ
مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا
تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ
يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا
هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن
جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ

فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴾ تقدم في أول سورة «آل عمران» ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ إن هذه السورة آيات القرآن المبين، يقال: بان الشيء وأبان، بمعنى واحد، ويقال: أبنته فأبان، لازم ومتعد، والمعنى: مبين خيره وبركه، أو مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ نقرأ عليك، أي: يقرؤه جبريل بأمرنا، ومفعول «نتلو» قوله: ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي: نتلو عليك بعض خبرهما ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ حال كوننا محقين ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به، وهاهنا ذكر فصلين:

فصل يدل على علو فرعون في الأرض وظلمه.

وفصلاً يدل على أن المظلومين نصرهم الله.

ليفهم المسلمين أنهم إن كانوا مظلومين، والناس تؤذيهم كما كانوا في مكة، فإن الله ينصرهم كما حصل بعد ذلك، وهكذا اليوم هم أذلاء بظلم الأمم لهم، وهو الآن يريد نصرهم لأنهم مستضعفون وأيضاً يريد الله أن يفهم المسلمين أنهم إن ملكوا الأرض لا يطغون وإلا دالت دولتهم كما حصل سابقاً لهم وللأمم بعدهم.

إنهم أسرفوا في الشهوات، وهم في الأندلس فأذلهم الإسبان فأخرجوهم أجمعين، والإسبان طاردوا المسلمين في أصقاع إفريقية ولكن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا في أرض أفريقية من المغاربة المسلمين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، ولقد ابتدأ ذلك بقتال أهل الريف ورئيسهم عبد الكريم جنود الإسبان، ولقد قتلوا منهم ما بين أربعة آلاف وعشرة آلاف في الحقول والقفار، حتى إن كاتباً إفرنجياً وصف ذلك وصفاً مريعاً، فقال إنه عد في عشرين دقيقة (٣٥٠) قتيلاً، وأن القتلى في طول الحقول والقفار وعرضها لا تجد من يدفنها ولا مقابر لها إلا بطون الغربان والجوارح الحائمة والكلاب العاوية، وهذا من أسرار هذه الآية: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، ولكن بعد هذا نفي عبد الكريم ولم يتم الاستقلال. اهـ وهاك ذكر الفصلين:

الفصل الأول

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وهذا تبيان لبعض نبأ موسى وفرعون، والمراد بالأرض أرض مصر ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ فرقاً، وقد استعمل كل صنف في عمل وجعلهم أحزاباً أغرى بعضهم ببعض كيلا يتفقوا عليه، كما هي سياسة الأمة الإنجليزية وعنوانها «فرّق تسد» ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل، وأبدل من «يستضعف» قوله: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، ذلك لأن كاهناً أخبره أن مولوداً يولد من بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، فلذلك اجترأ على القتل، فملخص هذا الفصل:

(١) أنه علا في الأرض.

(٢) واستضعف حزباً من أحزاب مصر.

(٣) وقتل الأبناء.

(٤) واستبقى النساء.

(٥) وأنه مفسد.

الفصل الثاني

ذكر فيه سبحانه أنه قابل الخمسة الأولى بخمسة، هي:

(١) من أن يتفضل ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بإنقاذهم من بأس فرعون.

(٢) قال: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقدمين في أمر الدارين.

(٣) ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ لأرض الشام.

(٤) ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض الشام فنسلطهم عليها.

(٥) ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم ﴾ من بني إسرائيل ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم بالإغراق.

هذان الفصلان عظة وصف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ولقد حصل هذا في كل زمان ومكان، أفلا ترى كيف أحاطت أوروبا بالأمة التركية فقضت على ملكها ثم قام طائفة منهم بالأناضول فأزالوا الظلم وأرجعوا الملك، وتم نظيره في بلاد الفرس وبلاد الأفغان، ولقد كانت الدولة الروسية قائمة بالقياصرة فاستذلوا بنحو مائة وعشرة ملايين من الناس، وكانت البلاد بأيدي أفراد من العظماء، والثروة كلها في أيديهم فقتل القيصر وبدد وشرد جميع الأغنياء، واقتسم الناس تلك الثروة في تلك الأصقاع وصارت الأمة بلشفية، فهذا هو ما قاله الله هنا: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]. فهذا هو الحاصل الآن، أصبح المساكين الصعاليك في يدهم مقاليد الحكم في تلك البلاد، ويودون أن يعمموه في سائر الأقطار، وهم لذلك ساعون.

رأي سقراط في السياسة

(١) يرى سقراط في السياسة أن الحكم يكون بأيدي قوم يصطفون من الشعب يتعلمون تعليماً أرقى من سائر الناس مع التعليم العسكري.

(٢) فإذا انقرض هؤلاء تولى الحكم قواد الجيوش، وهم أقل ممن قبلهم رتبة.

(٣) فإذا تمادى الزمان قام بالأمر أبناؤهم الذين لا هم حكماء ولا قواد، ولكن ميزتهم إنما هو المال فكل عملهم لأجل المال.

(٤) ويعقب هؤلاء أن الأمة تقوم فتقسم مالهم وتزيل ملكهم ويصير الحكم فوضى لا رابط ولا رادع.

(٥) ثم يتولى فرد يقهرهم ويسخرهم ويذلهم.

فالحكومات عنده خمس درجات: أرقاها حكومة الحكماء والفلاسفة، وأدنى منها الحكومة العسكرية، ويليها حكومة ذوي المال والشهوات والترف، ثم حكومة الجموع الذي هو أشبه بالفوضى ثم حكومة الفرد، فالحكومة الرابعة لا مناص منها إذا استبد الأغنياء وأرباب الشهوات بالأمر فأخذوا المال وحدهم وسخروا الأمة لمطالبهم، وهذا هو الذي حصل في بلاد روسيا إذ قام الشعب فأزال القياصرة وأرباب الأموال. وهذا من قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[القصص: ٥]. اللهم إن الشرق الآن ضعيف فليقم فيه قائمون ليرجع إليه مجده، ويزيل الظالمين من أرضه. وهنا أذكر لك حادثتين: الحادثة الأولى: وقعت أيام الفراعنة، فقد جاء في بعض المجلات في بلادنا وهي مجلة «كل شيء» ما نصه:

البولشفية في مصر قبل ٤٠٠٠ سنة

كلما تفاقمت الشرور وتعاظم الناس أمرها شعروا كأن نهاية العالم قد اقتربت، وهذا ما شعر به المسلمون عند قدوم التتار عليهم، وما شعر به الأقباط عندما اضطهدهم «دقلديانوس»، وهذا أيضاً ما شعر به النبلاء في فرنسا سنة ١٧٨٩ وفي روسيا سنة ١٩١٧ عند نشوب الثورة، ولعل في هذا الشعور رحمة للمضطهدين لأنه يعزيهم عن فقدهم مجدهم ويوهمهم أن العالم كله سيذهب بعدهم بقليل.

وقد حدث سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ثورة بولشفية في مصر تغلبت فيها الكثرة من العامة على القلة من الخاصة وطردتهم من الأرض والمسكن واحتلت مكانهم، وكان ذلك في الأسرة العاشرة، والغريب في هذه الثورات القديم منها والحديث أن يسبقها على الدوام ثورة فكرية تهيئ الأذهان للانقلابات القادمة، فأدباء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر طبخوا الثورة طبخاً في أذهانهم قبل وقوعها، وأدباء روسيا هم الذين أحدثوا الشيوعية في كتبهم قبل أن يقتل الثائرون القيصر وأسرته، وكذلك الحال في مصر في الأسرة التاسعة كانت مشهورة بكثرة المفكرين، حتى إذا جاءت الأسرة العاشرة كانت العقائد قد ترعزعت وزالت من النفوس تلك الكرامة التي كانت للحكام والأخلاق، وكانت الأسرة العاشرة تحكم الوجه البحري وجزءاً من الوجه القبلي، وكان في طيبة أمام الأقصر أسرة فرعونية أخرى تحكم جزءاً صغيراً من الصعيد، وفي هذه الأسرة العاشرة انهزم سلطان فرعون، وأخذ كبار القواد والأعيان يؤلفون الجيوش يقاتل بعضهم بعضاً، حتى ساءت إدارة البلاد وكثر اللصوص وعم القحط، فقام العمال فجأة وهجموا على الأغنياء فقتلوهم واستولوا على الأرض والمنازل. ونحن نعرف خبر هذه الثورة من كاتب مصري يدعى «ايفور» رأى بعينيه هذه الثورة وكان أميناً لفرعون يواليه، وكان

فرعون قد فر من أعدائه إلى مكان خارج مصر، فأرسل إليه « ابفور » خطاباً يستحثه على الرجوع لكي يعيد النظام إلى نصابه، ومما قاله في خطابه هذا: إن من الناس قد ثاروا على التاج وقامت منهم عائلة قليلة العدد لا نظام لها تريد التخلص من الملوكية، وقد ذهب النظام القديم وهدم البلاط في لحظة وطرد العمال الملك وأصبحت خزانة الدولة ملكاً لكل إنسان.

وبعد ذلك يصف أحوال الناس في تلك الفوضى فيقول: إن لم يكن يملك شيئاً قد أصبح الآن غنياً، فأثرى فقراء البلاد وبات الأغنياء لا يملكون شيئاً، ومن كان قبلاً خادماً قد صار الآن مخدوماً وكفّ الخدم عن تأدية المهام التي يكلفهم بها أسيادهم وصاروا لا يخشون مخالفة أوامرهم، وانطلق لسان الخادمات حتى صرن لا يطقن كلمة من سيداتهن، وهؤلاء الخادمات يزينّ نحورهن بالذهب والجواهر، ومع أن البلاد لا تزال غنية فإن ربات البيوت يقلن ليتنا نجد شيئاً نأكله، وذلك لأن الفقراء قد امتلكوا البلاد. ثم يقول: إن من كانوا يلبسون الملابس الفاخرة قد صاروا الآن يلبسون الأهدام البالية، ومن لم يكن يجد الخبز قد صار له بيدر وامتلأت خزائنه بأموال الناس، ومن لم تكن ترى وجهها إلا في الماء قد صارت تقتني المرآة، فالأغنياء في حزن، ومن كانوا في فقر يفرحون الآن، ومن كان له أب عظيم صار لا يعرف الآن أو يميز عمن لم يكن له أب مثله، لأن عائلات النبلاء طردت من بيوتها إلى الشوارع، وقد جاع الأمراء والأميرات وصارت أجسامهن في حال محزنة للخرق والأسمال التي يلبسونها.

ثم يقول « ابفور » أيضاً: لقد حدثت حوادث مدلهمة فحملت أطفال النبلاء وضربوا بالحائط، وفتحت المحاكم وبعثر ما فيها من الكتب وداس عليها الناس في الأماكن العامة، وسرقت مصالح الحكومة وذبح الموظفون وأخذت أوراقهم وكل شيء صار في خراب، وجميع البلاد تقول: هلموا نذل الولاة والحكام وذوي السلطان بيننا، ومع أن الناس ينادون بالحق بأفواههم فإن ما يفعلونه هو الباطل.

ثم يصف بعد ذلك ثمرات الثورة يقول: إن وجوه الناس شاحبة لأن المجرمين مطلقون ولم يبق أحد من ذوي السلطان، فإذا قصد الفلاح إلى حقله حمل معه سلاحه، ويقول الخدم هلموا نسرق شيئاً، والأب يقاتل ابنه ويعدّ أخاه عدواً له، وقد قست قلوب الناس والدم يسفك في كل مكان والموت يحصد الناس وليس بالبلاد صناع يعملون الآن، وكفّ الناس عن حرث الأرض وصارت المواشي ترعى هاملة سائبة ليس لها راع. والناس يأكلون العشب ويشربون عليه الماء، وتؤخذ الأعمدة والبوابات والسياجات للحريق، والصناديق المصنوعة من الأبنوس تحطم. انتهى.

الحادثة الثانية. إن الأمة الإنجليزية متى تحكم بلادنا قد انتصر العمال فيها، ولكن هذا الانتصار مبني على العقل وعلى الحكمة، لا على الظلم والفتك كما فعل الروس والمصريون القدماء، وهذا ما جاء بجريدة الأهرام يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ عند طبع تفسير هذه الآية.

في بريطانيا العظمى انتخبت « مس بوند فيلد » وزيرة العمال، وهي أول امرأة في تاريخ الإنجليز ذكية الفؤاد كفء تشترك مع الرجل في تخطيط سياسة الإمبراطورية ومصير بلادها، فهي تفتخر كذلك بأنها عاملة في دكان كما يفتخر رئيسها المستر « ماكدونالد » بأنه لما وصل إلى لندن لأول مرة في حياته كان لا يمتلك أكثر من شلنين ونصف، وكان يستبدل الشاي بالماء الساخن في شربه، ولا تزيد مصاريف

يومه عن ثمانية بنسات، هذا هو المستر «ماكدونالد» مدير الإمبراطورية اليوم، وهذه «مس بوند فيلد» شديدة التأثر والانفعال بل كانت أشد من زملائها الوزراء من الرجال حينما ذهب أعضاء الوزارة الجديدة إلى قصر وندسور لمقابلة جلالة ملك الإنجليز، فقد كانت تسير بين الجمهور بحنان ثابت وعزيمة قوية، إذ ابتسمت وهزت رأسها حينما مثلت عصا إذا كان المركز يثقلها وقالت: لا يا عزيزي لست كذلك بعد مجهود أربعين عاماً، إني مفتخرة بأن أكون أول امرأة تصل إلى كرسي الحكم، وأشعر بسعادة لأن الفرصة قد هيأتني للعمل في مسألة كانت ولا تزال موضع اهتمامي، والواقع فإن «مس بوند فيلد» كانت في مجموع العموم المنحل كثيرة الاهتمام بمسألة العمال وعائلاتهم، فقد قدمت في دوره الماضي مشروعاً لحماية أطفال العمال بإعانة الحكومة لهم، وشراء الأحذية اللازمة لهؤلاء الأطفال، وهذا المشروع معروف بمشروع أحذية الأطفال. اهـ.

اللطائف الإلهية والتدبير لإنقاذ بني إسرائيل من الذل

ولما أتم الله هذين الفصلين شرع يبين الناس لطائفه وتدبيره في إبراز ما أراده لتستيقظ الأمة الإسلامية إذا ضعفت، ولتعلم أن الله ما أنزل القرآن إلا لإسعادهم. علم الله أن أمة الإسلام سيحل بها ما حل بالأمم قبلها من عز وذل، وقد أخذت حظها من الرفعة ثم سقطت إلى الحضيض، فأنزل هذه القصة ليبين أنه يلهم أناساً إسعاد الأمة فينبغي أن لا ييئسوا، وليعلموا أن الله الذي نجى بني إسرائيل هو نفسه حي ينجي المسلمين متى صحت العزائم، والقلوب لا تزال قابلة للإلهام. والله لا يخلف وعده. فلنذكر لك الآن الحوادث المتتابعة التي انتهت بإنقاذهم، ثم نتبعها بما يناسبها من حوادث العصر الحاضر ثم نذكر المسلمين أن الله معهم ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وتلك الحوادث (١٣):

الحادثة الأولى

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ بإلهام أو رؤيا ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أي: بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن يعلموا به ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ في البحر وأراد به النيل ﴿ وَلَا تَخَافِى ﴾ عليه من الغرق ﴿ وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ على فراقه ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.
يروى أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني إسرائيل فعالجتها، فلما ولد موسى أحبته حباً جماً فأرضعته أمه ثلاثة أشهر، ولما أحست بالأرصاد والعيون وضعته في التابوت وألقته في اليم، هذه هي الحادثة الأولى.

والحادثة الثانية: التقاط آل فرعون له. والثالثة: رضاع أمه له. والرابعة: نبوغه في العلم. والخامسة: قتله القبطي. والسادسة والسابعة والثامنة: فراره إلى مدين، وسقيه للبنتين، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام. والتاسعة: نزول الوحي عليه. والعاشرة: ظهور المعجزة. والحادية عشرة: كفر فرعون. والثانية عشرة: هلاك فرعون وجنوده أئمة الضلال. والثالثة عشرة: خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لاستيقاظ أمته.

الحادثة الثانية

قال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ «اللام» للتعليل بحسب الأصل، وجعلت هنا للعاقبة، لأن آل عمران لم يريدوا أن يكون عدواً وحزناً، بل هذه هي العاقبة.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ مذنبين يقتلون أبناء بني إسرائيل، ويستحيون نساءهم، فلا يدع رنا ربي موسى بين ظهرانيهم وصار عدواً فاقتص منهم، لأن هذا هو العدل، ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ لفرعون حين أخرجته من التابوت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه، ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع. يقال إنه كانت لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها، وكان بها برص، وقد وصف لها الأطباء ريق مخلوق يشبه الإنسان يخرج من البحر في ساعة كذا حين تشرق الشمس، فلما كان ذلك اليوم، جلس فرعون على شفير النيل ومعه آسية امرأته، وابنة فرعون معهم، ظهر التابوت فلم يقدر على فتحه إلا آسية، لأنها هي التي رأت النور مشرقاً منه، فظهر منه صبي صغير وجهه منير، وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمص منه لبناً، فأحبه فرعون وآسية، فأما ابنته فإنها عمدت إلى ما يسيل من أشداقه، فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته إلى صدرها، ولما قال له القوم: اقتله قالت آسية: ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾، وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون، فوهبه لها وقال لها: أما أنا فلا حاجة لي فيه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو قال يومئذ: قرة عين لي كما هو لك، لهداه الله كما هداها الله»، فقيل لآسية: سميه. فقالت: سميته موسى لأنا وجدناه في الماء والشجر، لأن «مو» هو الماء، و«سا» هو الشجر. هذا قول بعض المفسرين.

وأقول لكن قال أساتذة علم قدماء المصريين الذين يقرؤون الخط الهيروغليفي: إن «مو» هو الماء، كما قال هؤلاء، أما «سا» فمعناه ابن، أي: ابن الماء، فهذا قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ أي: نتبناه فإنه أهل له، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من الملتقطين.

الحادثة الثالثة:

خوف أم موسى عليه وفزعها وإرجاعه لها وإرضاعها إياه

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ﴾ صفراً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي: خلاء لا عقول بها، ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ أي: لتصرح بأنه ابنها من شدة وجدها وتقول: «وابناه» ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ بالصبر والتثبيت ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المصدقين بوعد الله إياها فلما ربط الله على قلبها وصدقت وعد الله أخذت في الأسباب لحفظ ابنها ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ لمريم أخت موسى ﴿ قُصِّيهِ ﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بعد، وقرئ «عن جانب» وهو بمعناه، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنها تقص أثره وأنها أخته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾ أي: حرمنا عليه أن يرتضع من المرضعات جمع مرضع ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل قصها ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ لأجلكم ﴿ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، فأمرها فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمها، وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها وأجرى عليها فرجعت إلى بيتها من يومها، وهذا هو

قوله: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدها ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ بفراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ علم مشاهدة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن موعده حق فيرتابون فيه. وقوله: ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون. انتهت الحادثة الثالثة.

الحادثة الرابعة: نبوغه في العلم

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ مبلغه الذي لا يكاد يزيد عليه نشؤه، يقال: إنه في نحو ثلاث وثلاثين سنة ﴿ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ أي بلغ أربعين سنة، ويقال: انتهى شبابه وتكامل ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ عقلاً وفهماً في الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبياً ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: مثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه نجزي المحسنين على إحسانهم.

الحادثة الخامسة: قتله القبطي

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ ﴾ ودخل مصر آتياً من عين شمس ﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعون فيه، يقال: إنه وقت القيلولة ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل، والآخر من مخالفيه وهم القبط ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ أي: القبطي، فسأله أن يغيثه بالإعانة ولذلك عدي بـ«على» ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ فضرب القبطي موسى بجمع كفه ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي: فقتله وأصله فأنهى حياته ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ولأنه كان مؤمناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح في عصمته قتل الخطأ ﴿ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بقتله ﴿ فَٱغْفِرْ لِى ﴾ ذنبي ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ باستغفاره ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بهم، وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر منه لأن المقربين يستعظمون كل ما فرط منهم ولو خطأ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ أي: أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فلن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم. قال ابن عباس إنه لما لم يستثن ابتلي به مرة أخرى ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ يترصد الاستقادة ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ يستغيثه، مشتق من الصراخ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ مبين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ لموسى والإسرائيلي، ومعلوم أن القبط أعداء بني إسرائيل ﴿ قَالَ ﴾ الإسرائيلي ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ ولم يكن أحد يعلم من قوم فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي، حتى أفشى عليه الإسرائيلي، فسمعها القبطي فأتى فرعون فأخبره، وإنما قال الإسرائيلي ذلك لأنه ظن أن موسى همّ بقتل القبطي عمد إليه هو لما سمع من قوله ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال ما تقدم، وتمامه ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي: ما تريد ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر العواقب ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ ولما فشا أن موسى قتل القبطي أمر فرعون بقتله، فخرجوا في طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال له سمعان وهو قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ يسرع في مشيته حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره بما سمع ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ وقيل يأمر

بعضهم بعضاً بقتلك ﴿ فَٱخْرُجْ ﴾ من المدينة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي في الأمر بالخروج ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ موسى ﴿ خَآئِفًا ﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ينتظر لحوق طالب فيأخذه ثم لجأ إلى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا إليه ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم.

الحادثة السادسة، والحادثة السابعة، والحادثة الثامنة
أنه ورد ماء مدين، وسقى لابنتي شعيب، وتزوج بإحداهما

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ نحوها، والتوجه: الإقبال على الشيء، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه، وإنما توجه نحوها لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة، لأن أهل مدين من ولد إبراهيم وموسى من ولد إبراهيم ومدين بن إبراهيم. ولما خرج لم يكن معه زاد ولا ظهر ولا طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه، وبين مصر ومدين كما قيل ثمانية أيام، قال ابن عباس: وهو أول ابتلاء ابتلاه الله لموسى ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قصد الطريق إلى مدين فهداه الله إليها ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ على الماء ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ سوى الجماعة ﴿ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ تمنعان أغنامهما من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم، تحبسان غنمهما من الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما تذودان غنمكما ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ﴾ يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال فإذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقي في الحوض ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يقدر أن يسقي مواشيه فلذلك احتجنا نحن إلى سقي الغنم اضطراراً لذلك. قيل: أبوهما شعيب أو ابن أخي شعيب بعد ما مات شعيب. أو رجل ممن آمن بشعيب. فلما سمع موسى كلامهما رق لهما، فلما فرغ الرعاء من السقي غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر، فجاء موسى فرفع الحجر وحده وسقى الغنم بالدلو كما سقى الرعاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ مواشيهما رحمة ورأفة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير، والمراد به الطعام ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج. قال ابن عباس: سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه، فلما رجعتا إلى أبيهما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه إلي ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ مستحيية متخفرة، واسمها صفوراء، وهي التي تزوجها موسى ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾ ليكافئك ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ جزاء سقيك لنا، فأجابها تبركاً برؤية الشيخ وليستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر، فلما قدم له الطعام امتنع عنه وقال: «إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا»، فقال الشيخ: هذا عادتنا مع كل من ينزل بنا ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ كما دعا موسى ربه إذ قال: ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٢١] أي: فرعون وقومه ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ التي استدعته ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ لرعي الغنم ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ فقال الشيخ: وما علمك بقوته وأمانته؟ فذكرت

إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ﴾ أي: إني أريد أن أزوجك صفوراء التي طلبتك على أن تكون أجيراً لي ﴿ ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾ أي: ثمان سنين ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أي: فإن أتممت عشر سنين فذلك فضل منك وليس بواجب عليك ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ أي: ألزمك تمام العشرة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ أي: ما شرطت علي فلك، وما شرطت من تزوج إحداهما فلي والأمر بيننا على ذلك ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ أي: أي الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ﴾ أي: لا ظلم علي بأن أطالب بأكثر منه ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ شهيد بيني وبينك قال ابن عباس: قضى أكثر الأجلين لأن رسول الله إذا قال فعل. ويقال: إن شعيباً بكى ثم عمي فرد الله بصره، وكرر ذلك ثلاث مرات يعمى ويرد الله بصره عليه، فقال الله له: ما هذا البكاء أشواقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار؟ فقال: لا يا رب شوقاً إلى لقائك، فأوحى الله إليه هنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى. ويقال: إن العصا كانت عند شعيب ورثها عن الأنبياء فسلمها إلى موسى.

الحادثة التاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة
إرسال موسى، وظهور المعجزات على يديه
وكفر فرعون وجنوده وملائكهم وأنهم أئمة الضلال

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾ قاصداً مصر بامرأته بعد أن استأذن من شعيب ﴿ ءَانَسَ ﴾ أبصر ﴿ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ من الجهة التي تلي الطور ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ بخبر الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ عود غليظ سواء أكانت في رأسه نار أم لم تكن، ولذلك بينه بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ﴿ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ ﴾ جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبياً ﴿ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ أي: من ناحية الشجرة، وكانت من العليق، و«من الشجرة» بدل اشتمال من «شاطئ»، ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ أي: يا موسى ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقد خلق الله في نفس موسى علماً ضرورياً بأن المتكلم هو الله تعالى، وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ أي: حية صغيرة في سرعة حركتها ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ هارباً منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع فنودي عند ذلك ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف لدي المرسلون ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أدخلها ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ عيب وبرص، والمعنى أنه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس. ولما اعترى موسى الخوف تارة من العصا وتارة من الدهشة بشعاع يده، أمره الله أن يتجلد ويظهر الثبات والجرأة بقوله: ﴿ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ من أجل الرهب، أي: الخوف، مأخوذ من حال الطائر، فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، ويجوز أن يرد واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من فرق، حتى قال ابن عباس رضي الله

عنهما : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه . ولا غضاضة في إرادة المعنيين معاً ، أي أنه يتجلد بقلبه ويضع يده على صدره ليكون تأكيداً لزوال الرعب ﴿ فَذَٰنِكَ ﴾ أي : العصا واليد ﴿ بُرْهَٰنَانِ ﴾ حجتان ﴿ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾ معيناً ﴿ يُصَدِّقُنِىٓ ﴾ بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهات ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ سنقويك به وكان هارون بمصر ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ حجة وبرهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بقتل ولا سوء ، تسلطكما ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فهو متعلق بقوله : « سلطاناً » ، أو : فلا يصلون إليكما بسبب آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ لفرعون وقومه ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي : سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله وليس معجزة ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي تدعونا إليه ﴿ فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾ العاقبة المحمودة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي : ربي أعلم منكم بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبياً ووعده حسن العقبى ، يريد بذلك نفسه ، وهو لا يرسل الكاذبين بل يخذلهم ولا ينبئ الساحرين ، والمراد بالدار هي الدنيا ، والعاقبة المحمودة أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ .

إن قدماء المصريين كانوا يجعلون الأمة ثلاث طبقات : عليا وهم الكهنة ، ووسطى وهم الجيش ، وسفلى وهم بقية الطبقات ، وفرعون مصر من صنف يشرف على الكهنة . كانت لهم قوانين يتبعها الملوك والرعية ، وكان الملك مطاعاً سواء أكان عادلاً أم جائراً ، ولكن إذا مات يحاكمونه ، فإن كان عادلاً دخل المقبرة التي له وإلا فلا ، وكان الملوك على كل حال مقدسين منزهين متصلين بالآباء وبالآلهة . هذا كان اعتقادهم ، وليس يعتقد فرعون أنه هو الرب وحده ، وإنما كانت الألوهية هنا كالربوبية في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] ، وفسرها صلى الله عليه وسلم بأنهم يشرعون لهم الشرائع كما تقدم ، فهذا يقول فرعون تارة : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وتارة : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ .

ولقد كان الكهنة يحرمون على الشعب أن يعرف الحقائق ، وعلى تمادي الزمان قدسوا الأشخاص الإنسانية وبعض أنواع الحيوان ، والفراعنة كانوا أكبر المقدسين عندهم فيكونوا أكبر الآلهة لأنهم متصلون بالآلهة الذين فوقهم ، ولا تظن أن هذا بعيد ، غاية الأمر أن كثيراً من الناس غافلون . إن أمة اليابان كان لها ملك يزعمون أن أجداده منذ أربعة آلاف سنة جاؤوا من نسل امرأة من السماء ، أي من الآلهة فهو عندهم كأنه نصف إله ، وعلى ذلك تجد أن القائد الياباني الذي غلب دولة الروس في الحرب بينهما ويسمى « توجى » لما مات الملك تقرب إلى الله بالانتحار هو وزوجته العجوز وإنما انتحرا ليدفنا مع الملك ، وذلك على حسب القاعدة الدينية : من قتل نفسه عند موت الملك كان الله راضياً عنه مع أن هذا القائد يعرف جميع العلوم العصرية . ولا تظن أن المسلمين والنصارى وسائر الأمم خلوا من هذه الفكرة ، فإن كثيراً من مشايخ الطرق يفهمون تلاميذهم أنهم ينفعونهم ويضرونهم ، وهذه الفكرة

عامة في كل طبقة جاهلة من أي نحلة وأي دين على وجه الأرض، وترى كثيراً من أتباع الشيوخ أحياء أو أمواتاً متى سمعوا لهم أمراً التزموه كأنه منزل من الله، بل بعض الصوفية في عصرنا وفي غيره يقدسهم تلاميذهم ويلوون وجوههم عن كل ما يقال في الدين، فإذا أعطوهم ورداً انكبوا عليه وإن كانوا جهلاء بهذه الدنيا وبنظام الكون، ومنهم من يحرم عليهم النظر في العلوم والمعارف، ومنهم من يقول لهم: إن الفقهاء قوم لا يعرفون إلا القشور، ويقولون: دعوا علم الفقه واتبعوا الذكر وحده، وهكذا تنوعت الطرق وتنوعت الاعتقادات فتفرق أهل الإسلام وأخذتهم الفرنجة، كل هذا لأن كل ذي طريقة أو فكرة يفهم أتباعه أنه لا نجاة إلا بما عرفوه منه ويتركون بقية الدين، وكل ذلك كقوله تعالى: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾. فلا فرق بين أتباع فرعون في الجهالة وبين أتباع أي دين إذا جمدوا على عقول شيخهم، وإنما ديننا هو ما أوضحناه في هذا التفسير بحيث يكون المؤمن عارفاً بربه ناظراً في الطبيعة من حيوان ونبات وإنسان وفلك، فإن لم يعلم ذلك فليلم به وليأمر المتعلمون الجهال بالنظر على قدر الإمكان.

ولعلك تقول إذن جميع الأمم وجميع أهل الطرق بل جميع المسلمين كافرون، أقول لك: كلا. المسلمون جميعاً ناجون لا أفرق بين جماعة وجماعة، هذا اعتقادي الذي ألقى الله عليه ولكن الكلام في النقص، ففرق بين من ينجو وهو ناقص، وبين من ينجو وهو كامل، والتعاليم الإسلامية اليوم في غاية النقص والجهالة. فإذا لم يتعاضد جميع الشيوخ على تعليم الشعب النظر في هذا الوجود فلا فلاح لهم في الدنيا وهم في الآخرة ناقصون. حقاً إن من لم يفتح أبصار المسلمين من السنيين والشيعيين والزيديين وغيرهم إلى ما نقوله في هذا التفسير وقد اطلع عليه، فإن الله سبحانه يعاقبه لأنه علم وكتم، إن الله يعاقب المسلمين اليوم جميعاً في الدنيا على جهلهم، ويعاقب الرؤساء إذا لم يفتحوا عيون تلاميذهم إلى ما أبدع الله في السماوات والأرض. ليفتح المسلمون المدارس في الأرض، وليعلموهم العلوم تعليماً إجبارياً لينظروا صنعة ربهم، وحرام ثم حرام على كل شيخ أن يأمر تلاميذه بالجهالة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إذا عرفت هذا فقد عرفت قول فرعون هنا: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ فله السلطة الدنيوية والقوة الروحانية في نظر الشعب الجاهل، والآلهة كلهم متى أشار بإشارة أنفذوها في الشعب. هذا هو الاعتقاد الذي كان سائداً وترى نظيره في الأرض.

حكاية: قد تقدم في هذا التفسير لا سيما في آخر «النساء» أن حكايات جرت لي مع الفلاحين وفيها أن المرحوم عمي الشيخ محمد شلبي سأل القائم بحديقته المسمى «أبا حمودة» أن يحلف بالله على الحنث فحلف، ولما قال له: احلف على أبي مسلم؛ قال: لا إني أخاف منه. فانظر كيف جعل الشيخ أبا مسلم الذي له ضريح يزوره الناس في بلادنا بالشرقية قادراً أن يؤذيه، فأما الله فإنه رحيم، وأي ألوهية أكثر من ذلك. أفلا يكون فرعون عند المصريين قديماً كالشيخ أبي مسلم عند أبي حمودة، وإذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن تشريع الشرائع وتحليل الحلال وتحريم الحرام أوجب أن يسمى الأحبار والرهبان أرباباً»؛ فكيف إذا انضم لذلك عقائد التصرف في أنفس الأحياء بالنفع والضر، أفلا يحق لفرعون إذن أن يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، وأن يقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾.

يقول المؤلف : وأنا أحمد الله على هذه المعاني في هذا المقام لأن هذا يوافق العلم المنتشر عن قدماء المصريين، وسيزيد هذا العلم وضوحاً وانتشاراً بين المسلمين فمتى عرفوه وقرؤوا هذا التفسير وجدوه مطابقاً لما قرؤوه في الرسائل وعلى الأحجار وفي الأوراق البردية وفي القبور والبرابي والأهرام ولما كان هذا شأن فرعون وأنه سلط تسلطاً مادياً وروحياً على الناس أخذ يتمم تعاليمه فطلب من وزيره أن يطبخ له الطين فيجعل اللبن آجراً أي طيناً محرقاً ويبني له منارة عالية جداً ليرصد منها أوضاع الكواكب ويحسب حركاتها وينظر هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل حال الأمم، وهذا قوله تعالى : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي : اتخذ لي الآجر واطبخه ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ منارة ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي : إلى فعله هل في الأفلاك الدائرات وحركات الأجرام التي خلقها دليل على أنه اختار موسى للنبوة، أو هل هناك إله غير من نعرفهم من آلهة المصريين ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في زعمه أنه نبي عن إله العالم الذي يغاير من نعرفهم في أرض مصر ونحن نفعل كل شيء ونتصرف بإمدادهم ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالنشور ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ كما تقدم في التفسير ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحذر قومك أن يكونوا مثلهم ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوة للضلال بالحمل على الإضلال ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا يدفع العذاب عنهم ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طرداً من الرحمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين أو ممن قبحت وجوههم.

الحادثة الثالثة عشرة

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من « الكتاب »، والبصيرة : نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة، كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجسام، أي : آتيناه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف الحقائق ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بما فيه من المواعظ، أي : ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب منه، وهو الذي وقع فيه ميقات موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي كلمناه وقربناه نجياً ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحي إليه حتى تقف بالمشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ بعد موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي : طالت أعمارهم وفترت النبوة فنسوا عهد الله واندثرت العلوم ووقع التحريف والتخريف في كثير منها فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار مبيناً ما وقع فيه التحريف فلذلك أعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى، يقول الله : أنت يا محمد ما كنت مشاهداً ما حصل لموسى من الوحي وطالت الفترة فكان ذلك سبباً لإرسالك، فالاستدراك بين به سبب الوحي الذي يفهم من السياق، ومثل ما قيل هنا يقال في قوله : ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً ﴿فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلماً منهم، أي لم تقرأ الآيات التي فيها قصة شعيب ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي : ولكنا أرسلناك

واخترناك بها وعلمناكها بعد ما مضت قرون اندرست فيها العلوم ، فأرسلناك لتبين للناس ما اندرس منها وتذكر الحقائق وتدحض المحرف منها ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى لما أخذ الكتاب بقوة ﴿ وَلَٰكِن ﴾ أعلمناك وأرسلناك بعد ما اندرست العلوم وحرفت القصص ﴿ رَّحْمَةً ﴾ للرحمة ﴿ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ في زمان الفترة بينك وبين عيسى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون بما سمعوا من هذا القصص. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة .

هاأنت ذا اطلعت على الحوادث التي عددناها (١٢) التي منها اثنا عشرة حادثة حصلت لتمام أمر موسى ونجاة بني إسرائيل وهلاك أعدائهم ، ابتدأت هذه الحوادث بفكرة خطرت لأم موسى أن ترضعه ، وألهمت أو رأت في المنام أنه محفوظ لها وسيرجع ، لم تكذب هذا الإلهام ولم تيئس من رحمة الله ، فكم في أمة الإسلام من رجل ومن امرأة ومن شاب ومن شيخ ومن عالم ومن جاهل تخطر لهم خواطر تحثهم على خروجهم من مأزق الذلة ومن اقتناص براثن أوروبا لهم ، تخطر لهم هذه الخواطر فلا يعيرونها التفاتاً ، يقولون : الأمر انقضى والإسلام انتهى والدنيا أدبرت والآخرة أقبلت والعالم سيزول والأرض ستذهب .

هذه هي الأراجيف والأكاذيب والوساوس التي تقوم في عقول المسلم الجاهل ، لماذا؟ لأنه لم يعرف القرآن ، لماذا؟ لأنه لم يعرف هذه القصة إلا كما يعرف الطفل جمال الزهرة وجمال الورق وجمال الشجر ، ولكن أباه يعلم أن الزهرة ذابلة والورق إنما خلق للمساعدة على تغذية الشجرة ، والأغصان والقضبان والجذوع إنما هي وسائل للثمرات والثمرات هي المقصودة ، أكثر المسلمين هكذا يقرؤون هذه الآيت ويمرون عليها كما يمر الطفل بالزهر والورق في الحقول والبساتين ولا يفكر في الثمر ، أما أبوه فإن قلبه معلق بالثمر . يظن المسلم أن المقصد من هذه القصة أن يفرح بزهراتها فيقول ما أعجب هذه القصة . انظر أيها الأخ إلى موسى كيف وضع في التابوت وكيف حفظه الله ، وكيف تعلق بالشجرة في البحر ، وكيف اتفق أن فرعون وزوجه وبنته كانوا يشاهدونه وقت طلوع الشمس ، وكيف شفى الله بنت فرعون بريقه ، وكيف ظهر نوره فأحبه فرعون وآسية .

فيا عجباً لذلك ، وكيف رجع إلى أمه ثانياً فأرضعته ، وكيف أيد الله أخته فدلتهم على أمه ، وكيف كتم الخبر وربط الله على قلب أم موسى ، وكيف جاء رجل من شيعة موسى يقول له : اخرج ، نصيحة له ، وكيف قدر أن يرفع الحجر الذي لا يرفعه إلا عشرة وما أشبه ذلك ، فهذه العجائب يقف عندها أكثر الناس ، وهم في ذلك أشبه بالأطفال يفرحون بالزهرات ، أما العقلاء فإنهم يقولون : يا قوم لا تقفوا موقف الأطفال ، فكما أن الزهرات مقدمات للثمرات هكذا هذه العجائب مقدمات لما هو أهم منها ، إن جمال تلك القصص مسوق لما به السعادة ، وما به السعادة إما حفظ الأخلاق للأفراد وإما حفظ الأمم للجماعات . هذا هو المقصود ، فإذا قرأ القارئ أن موسى كان عفيفاً حين رأى بنت شعيب وأنه كان أميناً عليها ، حتى أمرها أن تمشي خلفه ، وأن هذه العفة وهذه الأمانة رفعته في عين شعيب وابنتيه ، تشوق القارئ الذكي أن يكون كموسى أمانة وعفة ، وكذلك يقلده في العطف على كل ضعيف ويقول : إن هذه الأخلاق انتهت بالنبوة ، فهكذا كل الأخلاق الفاضلة تنتهي بجلال المرء ، وبالفتوح الذي يفتحه الله عليه .

نظرة المسلمين في هذا الزمان

وإذا نظر المسلمون هذه القصة في هذا الزمان علموا أنها مسوقة لإسعادهم وإعزازهم وإخراجهم من المآزق والهلاك . إن المسلمين اليوم في ذل وجهل ما بعده جهل ، ولكن عقول المسلمين أشبه بأرض خصبة تحتاج إلى البذر وإنزال الماء فيخرج نبات حسن منها ، هكذا إذا عرف المسلمون مقاصد أمثال هذه الآيات خرجوا مما هم فيه من الذلة . علم الله أن المسلمين سينامون وسيمر عليهم ما مر على الأمم قبلهم ، وسيذوقون السوء ، فأنزل لهم هذه القصة يقول : أي عبادي ، إن نجاة بني إسرائيل كان مبدؤها فكرة خطرت لأم موسى ، وإلهاماً ألهمته لها فلم تنبذ الإلهام ، وتبع ذلك أمور وأمور ، أخذت هذه الصالحة تفكر . فليم فكرت ؟ فكرت في نجاة ابنها ونجاة فرد من مجموع نافعة للمجموع ، فأرسلت ابنتها تدلهم على من يكفله ، وكتمت السر وظهرت لفرعون كأنها ليست أمه وهكذا ، كل ذلك بعد الفكرة الأولى لم تيئس من رحمة الله .

أيها المسلمون أتدرون لم وقعتم في الذل ؟ إنكم يئستم من رحمتي في الدنيا ولم تيئسوا منها في الآخرة ، وهذا خطأ محض ، أنا رحيم في الدنيا ورحيم في الآخرة ، إن يأسكم في الدنيا من نصري لكم أقعدكم عن التفكير في الخروج من الذل ، وأنا لا أعطي إلا من فكر ، كم من رجل منكم خطر له أن ينفع أمته ، كم من شاب ، كم من امرأة ؟ كثير جداً منكم يفكرون كل يوم في الخروج من الذل ، ولكن إذا جاء بهم الفكر طردوه كأنه من كلام الأبالسة ، كأنه من كلام الشياطين . أي عبادي إن الفكر الصالح يمر بخواطرهم ، أنا لم أقص عليكم هذا القصص لأقول لكم إن الإلهام خاص بمن مضى أو بأم موسى . كلا . إن الإلهام الخير موجود مستفيض كما يستفيض ضياء الشمس على أرضكم ، وقد يحجبه ليل أو سحب ولكنه لا يزال موجوداً ، ولكن خطباءكم والجهال من شيوخكم قالوا لكم . إن الزمان قد قرب والدنيا ستخرب فصدقتموهم ، مع أني لم أطلع أحداً على غيبي ، فكيف تحرمون من السعادة ؟ كلام هؤلاء الشيوخ هو السحب المانعة لضوء شمس العلم التي ألقيها على قلوبكم ، هو الليل البهيم الذي تنام فيه الناس وتقفل أبصارها ، لذلك حرمتم من النصر وحرمتم من السعادة ، أي عبادي إن حرمانكم من الرقي هذا هو سببه وإلا فإن خطرات السعادة محيطة بكم ، فإياكم أن تسمعوا لكلام هؤلاء الشيوخ المثبطين ، فإذا خطر لكم خاطر النصر وأن تقوموا بإسعاد هذه الأمة أو بإسعاد أنفسكم أو بحفظ بلادكم أو بطرد العدو منها ؛ فلتعلموا أن هذا الخاطر بذر يجب أن يسقى بماء الفكر والسعي والجد والكتمان وحفظ السر ، كما فعلت أم موسى فإن فكرتها نمت وترعرعت وكان من نتائجها أن موسى قوي وكبر وتعلم وابتلي بقتل القبطي ، وهذا الابتلاء كان سبب نعمة لا نقمة ، لأنه به خرج إلى أرض مدين وقابل شعيباً وتزوج ابنته ، ورجع فأوحي إليه ، فرجع إلى فرعون فأخرج بني إسرائيل . يقول الله : لا تدعوا أيها المسلمون خواطر الإصلاح فليس إنعامي محجوباً عن عبادي . أنا إليكم ناظر ، ومن خطر له خاطر الإصلاح فليعلم أني معه لا سيما الإصلاح العام فإني مع المحسنين ، ودعاة من يدعو إلى إصلاح الجميع مقبول نافع ، وكلما كان المرء ساعياً في مصلحة العموم كنت معه مؤيداً وحافظاً وناصراً .

كم من المسلمين أضاعوا حياتهم سدى يقرؤون هذه الآيات فلا يزيدون على التعجب ولا يزيدون على أن فرعون ادعى الألوهية ويذمونه، وليس لهم وراء ذلك مطلب، بل المتعلم الذي قرأ علوم قدماء المصريين المنتشرة حين يقرأ هذه الآية يقول: كيف يقول فرعون: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾[القصص: ٣٨] مع أنهم كانوا يعبدون آلهة مثل «سيزوستريس» و«إيريس» وما أشبه ذلك ويظن أن القرآن غاب عنه ما قرأه هو في أوراق البردي أو تلقته عن قرأه، ويقول: ما لي ولهذا القصص، وهو غافل عما ذكرناه من معنى الألوهية والربوبية فيما تقدم بأوضح مقال، وذاهل عما سيق له الحديث الذي نحن بصدده حديث رقي الأمم وخروجها من الذل والاستعباد.

هكذا فليخرج المسلمون اليوم أو غداً، وهذا الأمر محقق لا شك فيه عندي، وسيقرأ هذا المسلمون بعدنا ويرون أنهم نالوا ما ذكرناه. وستشيع أمثال هذه الآراء في الإسلام وسيكونون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، وكيف لا يصيرون كذلك وقد تقدم في سورة «النمل» أن الله يقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[الآية: ٩٣]

أليس هذا وعداً لنا بأننا سنعرف العلوم وعجائب الأرض والسماوات، وهل وعد الله يخلف؟ أليس نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له المقام المحمود ويعطى لواء الحمد؟ أوليس الحمد إنما يكون على نعم؟ أوليس أهم النعم هو العلم؟ أوليس حمد الأولين والآخرين له على العلم الذي ترقى به أمته، فإذا كان مقامه محموداً، وهو رافع لواء الحمد، فنتيجة ذلك كله أن تكون أمته أعلم الأمم، وإذا كان شافعاً لأمته فإن الشفاعة على مقتضى الهداية، ولا هداية إلا بعلم، فالعلم سيعم على الأمة الإسلامية وسيخرجون من الذل، وسيفكرون في إخراج أنفسهم من الهوان والجهل كما فعلت أم موسى إذ انبعث الإلهام بأن ابنها سيرجع لها بالعمل وتسلسلت حوادث كانت نتيجتها خروج أمتها من المذلة.

وهنا لطائف:

اللطيفة الأولى

أعلم أن الناس يعجبون من أمر موسى، ويتعجبون من أمر موسى، وكيف نجا، وكيف خرج بنو إسرائيل وهم في كل وقت يشاهدون هذا ولا يتعجبون؟. أليس الإنسان يأكل الفاكهة مع أن حصولها بين يديه عجيب كأم موسى وموسى وخروج بني إسرائيل. أليست الفاكهة من البستان؟ فهل الحداد الذي يصنع المحراث يقصد الشجرة التي منها فاكهتك؟ وهل كانت البهائم التي خرج منها ما به تستمد الأرض تقصد أن تنال أنت الفاكهة؟ وهل كان الذي يستخرج الليف من النخل لصنع حبال البهائم التي تحرث الأرض يقصد فاكهتك؟. انظر حوادث كثيرة من بحار وسحاب ومطر وحديد وخشب تجمعت من أقطار شتى، نتيجتها وصول الفاكهة إليك. إن المفكرين يعجبون من الطبيعة وغرائبها كما تعجب أنت من قصص موسى وأمه وخروج بني إسرائيل، ولكن لما كان لهذه القصص غالباً حلاً في السمع، أما عجائب الطبيعة فإن اللطائف الموجهة من الله إليها أعجب وأعجب، وإلا فأين دوران الشمس في فلكها ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس بحساب بديع؟. أليس ذلك من أسباب هذه الفاكهة؟.

ولو أن حساب الشمس والأرض اختل ما أمكن ظهور هذه الفاكهة لأنها تحتاج إلى حرارة بمقدار، فمتى اختلت الشمس في سيرها اختلت الحرارة في نزولها على الأرض فذهبت المنافع، ولكن هذه العجائب يجهلها أكثر الناس ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

اللطيفة الثانية

لعلك تقول: من أين لي أن اعتقد ما اعتقدته أم موسى، ومن لي بذلك، ومن أنا؟ إن ذلك في زمان مضى وانقضى، فأين البرهان على ذلك في هذا الزمان؟ أقول: على رسلك، أليست الحرب العظمى قلبت الكرة الأرضية؟ أليس سببها أن عالماً يسمى «ماركس» هو ألماني أخرج كتباً للناس قائلاً يجب إزالة هذه النظامات الأرضية، ومن هذه المكرة تعلم الروسيون، وبها وحدها انقلبت الدولة فصارت بلشفية. ألم تكن دولة الفرس مقسمة بين الإنجليز والروس؟ أليست الحرب العظمى جعلتها حرة مطلقة من كل قيد. انظر أين فكرة ماركس الألماني وخلاص الفرس.

أليس ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف: ١٠٠] وأي لطف أعجب من هذا؟ تلطف في خلق الأفكار وبثها بين الناس حتى عمت الكرة الأرضية وانتهت باستقلال الروس، وتبع ذلك بلاد الفرس. أليس هذا كمسألة أم موسى قصدت إنقاذ ولدها فأنقذ بنو إسرائيل، وكدوران الشمس بحساب بلا خطأ في سيرها فكانت الحرارة منتظمة على قدر إنضاج الفاكهة، ولولا ذلك ليئس الفلاح ولم يزرع. أليس ذلك كما فعل الله في ماء النيل. أنزله في الأرض كل عام، فيصل ما بين (٤١) مليار من الأمتار المكعبة وبين (١٠٠) مليار، ونتيجة ذلك ظهور المزارع. ولا ينزل ذلك الماء إلا بالبخار ولا بخار إلا بالحرارة، ولا حرارة منتظمة إلا بانتظام سير الشمس، فأين سير الشمس؟ وأين الفاكهة؟.

هناك سلسلة منتظمة انتهت بالفاكهة. وهناك سلسلة منظمة انتهت باستقلال الفرس. وهناك سلسلة منتظمة انتهت بخروج بني إسرائيل، ومبدؤها إلهام أم موسى، وهناك سلسلة منتظمة بها استقلت دولة الأفغان لما قام الأفغان فحاربوا الإنجليز أيام الحرب العظمى واستقلت البلاد إلى الآن. وهناك سلسلة منتظمة ستحصل بعد قراءة هذا الكتاب فينظر المسلمون ويقرؤون قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾[القصص: ٤٥]، إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٤٦]. فهذا الذي قررته هو الرحمة وهذا هو التذكير، يتذكر المسلمون هذا القصص فيستخرجون منه خلاصة وثمرة، هي أن يفكروا في الخلاص ويستمروا فينجوا، يفكر المسلمون فيقولون. نحن ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، فكيف كانت هممنا منحطة؟.

لنرجع إلى القرآن وليعرف الناس أنه يأمرنا أن نعشق جمال الله في العوالم العلوية والسفلية، وهذا الجمال لا حد له والعمر كله مدة دراسة، والارتقاء لا حد له، وهذه القصة وأمثالها إنما هي كشجرة فلنأخذ ثمرها، ولا نكتفي بظلالها، والثمرات إما أخلاق كعفة موسى، وإما إيمان بالله خيفة الهلاك كما هلك قوم فرعون، يقول المسلم: أنا مسلم فكيف أهلك؟ نقول له: ولكنك دليل بعيد عن العلم، فانظر كما نظرت أم موسى وخلص أمتك من الذلة والهوان، قل لها كوني منتظمة، كوني مفكرة، تعلمي، اسعي للرقي والنجاح، اجتهدي، انشري العلوم، إن العلوم بها محبة الله. إن الإنسان

لا خير في حياته بدون النظر في هذا الجمال. إن العقول إذا وقفت تقهقرت، وإذا تقهقرت انحطت، وإذا نزلت هلكت وبئس المصير.

سيقول المسلمون بعد هذا التفسير وانتشاره إن شاء الله: ما لنا قد امتزنا في جميع الكرة الأرضية بالجهالة في بلاد الشرق والغرب، وأصبحنا عالة على الأمم، لماذا نرى المسلم في بلاد سيام كما يقول رجالها لا يرتقي عن الملاحة إلا قليلاً، وأما غيره فيمسك بعنان السعادة ويسافر للعلم ويحظى بالخير والعز، ما لنا نرى المسلم الصيني شاذاً بعيداً عن العلم، والوثني هو القائم بالعلم والحكمة وشؤون الدولة، ما لنا نرى المسلم أينما حللنا أو ارتحلنا واقفاً في مكانه؟ ومتى قال من بعدنا هذا القول تجلت لهم الحقائق وأظهروا مكنون العلم وأيقظوا الأمة ونشروا فيها ما كتبناه في القرآن وما يكتبه غيرنا، وانقلب الأمر فأصبح المسلم أقوى من غيره في العلوم والمعارف لما يرى من عجائب القرآن التي شرحناها وشرحها المتقدمون والمتأخرون. هذا بعض ما يقصد من هذا القصص ومن قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[الآية: ٤٦] إلى قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[الآية: ٤٦].

هذا هو القصد من إنزال هذا القصص، فالقصد الرحمة والتذكر، أي أن الله يرحمنا بالتذكر فيما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك هو المذكور في الحادثة الثالثة عشرة ليرينا أن القرآن لهذا أنزل فليس يقصد أن نفرح بنبي إسرائيل، بل نفرح بما نتذكر وبالرحمة التي تنالنا من التذكر، فلا خير في شجر لا ثمر له، ولا خير في علم لا نفع له، ولا خير في أمة لا همة لها، ولا خير في قراءة دين لا يعقله قارئوه، ولا خير ولا رحمة إلا لمن يتذكرون ويعقلون والحمد لله رب العالمين.

البلاغة والعلوم

ينظر قوم إلى القرآن من جهة البلاغة ويظنون أنهم إذا عرفوا الجناس في قوله: ﴿ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾[الآية: ٣٨] وعرفوا ما سأقصه عليك، وهو قول الأصمعي حكاية عن فتاة عربية قالت: إن في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الآية: ٧] قالت الفتاة: إن فيها أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، فالخبران: أوحينا وخفت، والأمران: ألقيه وأرضعيه، والنهيان: لا تخافي ولا تحزني، والبشارتان: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الآية: ٧]

أقول ينظر قوم إلى القرآن من هذه الوجهة فيطربون لعجائب التركيب والبلاغة، ولهم الحق في ذلك، ولكن هل لهذا أنزل القرآن.

إن البلاغة علم يرجع إلى تركيب الألفاظ ونسق الكلام، فهل هذا كاف؟ كلا ثم كلا، إن المقام ليس مقام استدلال على أن القرآن معجز فليس هذا نهاية العلم، إن نهاية العلم أن ندرس ونستخرج منه ما يجب علينا دراسته في هذه الحياة

قصص موسى أيضاً ومناسبة قوله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

لقد عرفنا آنفاً مقاصد البلاغة، وإنها لقوم مبتدئين في العلم، وأنها مفتاح الفهم، أما الفهم فإنه وراء ذلك، فالبلاغة مفتاح خزائن العلم، والعلم في نفس الخزائن، وفرق بين مفاتيح الخزائن وبين

المخزون، هل أنبئك بشيء من المخزون في هذه السورة؟ أنت تعلم أن قصص موسى قد كرر في القرآن وتكراره يصعب على كثير من الناس إدراك سببه. فأما عالم البلاغة إذا كان حاد البصيرة فإنه يقول: الإطناب في مقام والإيجاز في مقام لمراعاة المقامات وهذا لا بأس به وهو حق، ولكن أين الفائدة الحقيقية؟ فعالم البلاغة لا قدرة له على الإجابة، ولكن انظر مخزون العلم ومكنون الحكمة، انظر وتعجب، ذكرت قصة فرعون وموسى في «طه» وفي «الشعراء» وفي هذه السورة. لقد اطلعت على «طه» فانظر ألست ترى أنه فيها شرح مسألة العصا ومسألة عجل السامري، وأطنب فيهما ليريا أن المدار على العلوم العقلية، فأما خوارق العادات فإنها تنفع مؤقتاً. فالإيمان بها كأنه ظل لا ثبات له، وذلك لأن الصور المادية ظلال الحقائق فيكون بها ظلاً لا ثبات له. وملخص ذلك أنه يراد أن تكون الأمة الإسلامية أمة علم وحكمة، لا أمة خوارق عادات للصالحين ولا للطالحين، وقد تقدم هذا.

ولقد ذكر في تلك السورة عجائب الأرض والسماء ليتم القصد من هذه الموازنة. هذا في سورة «طه» وليكون ذلك تبصرة للمسلمين أما في سورة «الشعراء» فقد أطال القول في السحرة وشرح المقام شرحاً وفياً فأوجب ذلك النظر في السحر وحده وشرحه كما فعلنا هناك وذكرنا سحرهم على قدر ما يسعه المقام. أما في هذه السورة فإن القصة أتت لغرض آخر كأنها شرح لقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ»

إن الأمة الإسلامية في أول أمرها كانت قليلة العدد وكانوا مضطهدين من الكفار، وهاجر بعضهم إلى الحبشة، ثم هاجروا جميعاً إلى المدينة، ثم أعزهم الله فبدؤوا بدءاً غريباً لم يكن له نظير في سرعة الرقي والانتشار والمنعة، بعد الخوف والقلة والضعف، ثم ماذا؟ إنهم انتشروا في الأرض، وترجموا علوم الأمم فتحقق بذلك كونه رحمة للعالمين، لأنه أمته حفظت العلم وسلمته إلى أمم الغرب والشرق، والبرهان على عموم رحمته للشرق والغرب الألفاظ الآتية في العلوم، فإنها تنطق بلسان فصيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين في جميع الكرة الأرضية، لأنه لولا أمته ما حفظت هذه العلوم.

الألفاظ العربية في العلوم العصرية

علم الفلك: السمت والنظير.

الكيمياء والطب: الأنبيق. الكحول. القلي. الورق. الشراب. الجلاب. الاكسير. اللعوق. السنا. الكافور.

الموسيقى: العود. الطبل. الطنبور.

فن الملاحة: أمير البحر. الترسانة. الحبل. الجلفاط. الرصيف. الموسم. الفلك.

فن التجارة: التصريف. الديوان. المخزن. البازار. القيروان. الترجمان

هكذا أخذ الأوروبيون عن المسلمين الأرقام الهندية وأصول الجبر والهندسة والنقوش وبناء الحصون والقلاع والسفن الحربية والحجزة والمثاور وكثيراً من الفوائد الصناعية والزراعية التي هذت أوربا إلى الحال الحاضرة من العمران والتقدم، وإنما نقلت لك هذا لتفهم هنا قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وتفهم أيضاً ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]،

هذا هو معنى هذه الرحمة، فانظر كلمات العلوم العربية التي لا تزال تنطلق بلسان فصيح بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤] هذا ما حصل في الزمان الماضي، ولكن هذه السورة جاء فيها ذكر قصص فرعون بطريق آخر كما قلمنا، لم يقصد فيها شرح السحر ولا الموازنة بين عصا موسى وعجل السامري، بل أريد أن تجعل القصة باباً للحرية وخروج الأذلاء من ذلهم، فذكر الحوادث الثلاثة عشرة التي بها خرج بنو إسرائيل. يقول للمسلمين إذا وقعتم في الذل فلتخرجوا منه كما خرج بنو إسرائيل، وسيكون شأنكم غريباً بعد ذلكم كما كان غريباً في أول أمركم، فإذا تقهقرتم أيها المسلمون ولا مناص من تقهقركم ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠].

لا فرق بين الأمم والديانات في الأرض كلها، فإن الباب مفتوح لخروجكم من ذلكم، وانظروا قصص بني إسرائيل فلتخرجوا كما خرجوا ولترجعوا المجد الذي فقدتموه، ولتكونوا رحمة للعالمين كما كنتم سابقاً، وإذا كنتم في مجدكم الأول حفظتم العلوم وسلمتموها للأمم، فإذا رجعتم هذه المرة فاقرؤوا العلوم وعلموا الأمم كيف يكون العدل وعمارة الأرض لأنكم كنتم رحمة أولاً لمناسبة ذلك الزمان فلتكونوا رحمة على حسب الزمان المستقبل، ولهذا كله يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[القصص: ٤٦]، بعد ذكر انتصار بني إسرائيل فيكون الإسلام غريباً في سيره اليوم، بأن ينتشر أهله بسرعة غريبة لا نظير لها كما انتشر في المرة الأولى انتشاراً لا نظير له، وكما حفظ المسلمون العلوم أولاً، ونفعوا الأمم، فليرثوها من أهلها ثانياً وليرقوا النوع الإنساني. هذا ما فهمناه من قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[القصص: ٤٦] وفي التعبير بمعنى التربية إشارة إلى ما ذكرناه و﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾[الروم: ٤-٥].

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

اللهم إنك أنت المنعم المتفضل الملهم، أنت الرحيم، رحمت الجنين في بطن أمه، ورحمت الحشرات في الفلوات، والأنعام في المراتع، لم تذر عالماً من العوالم إلا شملته برحمتك

اللهم إننا في هذه الأرض قد غمرتنا رحمتك، وشملتنا أنوارك ظاهراً وباطناً، كما قلت في سورة «لقمان»: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[الآية: ٢٠] ولكننا محبوسون في حواسنا مغمورون في ذنوبنا وعواطفنا ومطالبنا فصرفتنا عن فهم النعمة، وحولتنا عقولنا إلى أمور غير عظيمة تحويلاً مزرياً بإنسانيتنا وبشرف أصلنا في العالم العلوي، فكأننا بهذا الصرف معذبون ونحن غير عالمين.

أنت رحمن رحيم للأفراد وللأمم، وهذه أمتنا الإسلامية المترامية الأطراف قد بذرت بذور العلم والرقي في الأمم شرقاً وغرباً، ثم دالت دولتها ونامت آماداً وآماداً، وهاهي ذه تريد الرقي كرة أخرى، وهذا كتابك بين يدي الآن أكتب هذه الكلمات في تفسيره، وقد قدرت في علمك القديم أن يكون هذا التفسير في زمان نطلع فيه على عمل سياسات الأمم الإسلامية القديمة والحديثة وعلى سياسة الأمم المحيطة بنا.

فهانحن الآن ننظر فنرى آباءنا العرب ومن اهتدوا بهديهم من الأمم دين الإسلام قد سلطتهم على أرضك وخولت لهم ممالك وأودعتهم ودائعك فقاموا بالأمانة ما شاء الله أن يقوموا، ثم خلع

الأبناء عن أنفسهم فضائل الآباء وتركوا مواهبهم وناموا وكسلوا وبطروا ولم يقوموا برعاية عبادك كما وصيتهم في كتابك، فأخذت منهم أرضك وأعطيتها لغيرهم وقرأنا تاريخهم وعرفنا مدى رقيهم ومدى ضعفهم، وتبين ذلك فيما تقدم في سورة «النمل عند الآية ٣٤»: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ وما بعد ذلك من أن بيوتهم خاوية بما ظلموا. إذن هذا التفسير اليوم قد جاءت فيه ملاحظات على الأمم الإسلامية السابقة، وأن ما تم لهم كله مصداقاً للقرآن الكريم.

يا سبحان الله ويا سعداه، فكيف نسمع الله عز وجل يقول في سورة «النمل» ما تقدم من إفساد الملوك للأرض إذا دخلوها، وكيف يذكر أن بيوتهم خاوية بما ظلموا ثم تأتي هذه السورة فيكون مبدؤها فيه هذا المعنى نفسه، ونهايتها فيه مصداقه، فكان فيها رد العجز على الصدر المذكور في علم البديع.

إن تفسير القرآن على هذا النمط في زماننا مرآة ترى فيه آثار الأمم والدول المصدقات لكتابنا المقدس. أول هذه السورة أمران: الأول: علو فرعون في الأرض مع استضعاف أهلها وجعلهم شيعاً وتذبيح أبنائهم. الثاني: أنه مفسد من المفسدين. هذا هو الذي جاء أول هذه السورة.

فانظر أيها الذكي إلى ما جاء في آخرها، ما هو؟ هو ذكر قارون وأنه كان من قوم موسى، فماذا فعل؟ بغى على قومه وفرح بماله الوفير ونصحه الناصحون فقالوا له: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]، وهذه القصة القارونية تضمنت: إن الله لا يحب الفرحين ولا يحب المفسدين، ومعلوم أن الفرح صفة لمن يعلو في الأرض. إذن هذه القصة تضمنت النهي عن العلو المذكور في أول السورة وعن الفساد. إذن قصة فرعون جاءت في أول السورة لذم العلو والفساد ومثلها قصة قارون في آخرها. ثم انظر كيف قال في آخر السورة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]. فجلَّ الله وجلَّ العلم وجلت الحكمة. هذا معنى قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١].

انظر لحكم الله عز وجل في القرآن أيها الذكي، انظر إلى القرآن في ظاهر الأمر، إن الناظر للقرآن نظراً سطحياً لا يتخيل هذا الحكم. العربي في البادية عرف تأثير القرآن بغريزته وفطرته، ولكننا نحن الآن نقف على جوهره وبدائعه وحكمه، جلَّ الله. إن ما نعرفه الآن في حكم القرآن وبدائعه، أجلّ وأرفع مما عرفه علماء البلاغة السابقون. إذن كان هذه السورة يقصد بها ألا نعلو في الأرض وألا تفسدوا فيها.

المفسدون في الأرض هم الذين يغلبون الأمم ويحكمونهم ليكونوا عالة عليهم ليذلوهم وليكونوا أشبه بالنمور والأسود والذئاب، والناس أمامهم كالغزلان والأرانب. وهذه الصفة هي التي وصفها ابن خلدون فيما نقلناه في سورة «النمل» في الآية المتقدمة في صفة الأمم العربية المتأخرة التي تركت دينها، فكان ذلك مصداقاً لتخوف النبي صلى الله عليه وسلم من فتوح البلدان ومصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾[محمد: ٢٢]، ولما ظهر من سورة «الأنفال»، تلك السورة التي جاء نظمها في الحكمة أشبه بما جاء في هذه السورة ألا تراه تعالى يقول في أول السورة: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[الآية: ٥] إلى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[الآية: ٧] الخ.

وملخص المعنى هناك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يريدون أن يستولوا على العير التي مع أبي سفيان، ويتركوا الجيش الكبير الذاهب إلى بدر لمحاربتهم، لأن العير التي مع أبي سفيان غنيمة لا تحتاج إلى قتال، أما الجيش المتوجه إلى قتالهم فإنه يحتاج إلى قتال وعمل شاق، فاختار الله لهم مواجهة الجيش لأن المال ليس هو المقصود، بل المقصود إعلاء كلمة الله لا غير، وإعلاء كلمة الله لا تكون بالاستيلاء على الغنائم بل بمحاربة الرجال والطعن والنزال. وجاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[الأنفال: ٦٧-٦٩]. فتأمل في هذه الآيات وتعجب، حذر الله المسلمين فقال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾[الأنفال: ٦٧]، ثم ذكر العذاب وأبان أنه ملازم لعرض الدنيا، غاية الأمر أن الله أباح الغنائم لنا لأجل حفظ بلاده، فهذه الغنائم يلازمها العذاب ولكن الله لم يعذب المسلمين ولم يمنعهم من الغنائم، ذلك لأنهم بها كانوا نعمة على الأمم، ولكن المفسدون في الأرض من الأجيال التي جاءت بعد القرون الثلاثة لم يجعلوا الغنائم لحفظ الأمم، بل جعلوها لشهواتهم، وهذا هو الذي يهلك الأمم. فالدمار الذي حل بأمم الإسلام كله تطبيق على القرآن. فإذا رأينا أهل الأندلس كما تقدم في السورتين السابقتين لهذه صاروا (٢٠) مملكة فاقرأها فيما تقدم. وإذا رأينا بني العباس في آخر أمرهم تفرقت دولتهم شذر مذر في أيام خلافتهم. وإذا رأينا أمة الترك بعد ذلك كانت تعمل تحت خلافة بني عثمان ما كانت تفعله الأمم العربية بعد الصدر الأول، أيقنا أن هذا كله تفسير لهذه الآية، وأن مال الغنائم المستعمل في غير ما وضع له يجعل الأمم التي ملكته فرحة به مفسدة في الأرض والله لا يحب الفرحين، ولا يحب المفسدين، وإنما فرح هؤلاء بالمال لأنهم وجدوا أن القصد من الحياة هي اللذات والنوم والكسل بلا عمل، وهذه صناعة الديدان في الأرض، فالله ينتقم من هذه الأمم بالإذلال.

ومن تأمل أول «القصص» وآخرها وجدهما مطابقين لأول «الأنفال» وآخرها. وما القصص في القرآن إلا إيضاح للحكم المودعة في القرآن، فالله أبان في الأنفال أن عذاب الله يمس من يأخذون الغنائم، ولكنه أباحه لكم بمقتضى ما سبق في علمه القديم وهو أن أمثال أبي بكر وعمر وكثير من الصحابة والتابعين لم يجعلوا المال وجهتهم، فكان عمر يخطب على المنبر بثوب مرقع، وأبو بكر يحرم على أهل بيته أخذ شيء من الغنائم إلا للضرورة، فهؤلاء هم الذين فهموا القرآن، وفهموا فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وفهموا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[القصص: ٤]، وفهموا قصة قارون وما فيها من ذم الفساد في الأرض وذم الفرحين، لذلك تبرؤوا من المال.

أما ملوك الإسلام فأكثرهم جهلوا هذه المعاني، فانحطت عزائمهم وخارت قواهم وذهبت دولهم لأنهم لم يفهموا لِمَ أحلت الغنائم، ولم يفهموا قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال: ٦٨]، فكأن قصة فرعون في هذه السورة وقصة قارون إيضاح لما تقدم في سورة «الأنفال» من المذكور في أولها والمذكور في آخرها، ثم اعجب من قول قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[القصص: ٧٨] والرد عليه من الله بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ

مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾[القصص: ٧٨] الخ، فهذا مثل قوله في «الأنفال»: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال: ٦٨]. ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص: ٨٠]، فهذا فتح باب للعلم والحكمة، والعلم هو الذي شرح أمر المال، فترى الفيلسوف «قابس» قبل الميلاد بنحو (٥٠٠) سنة ألف الكتاب المسمى «لغز قابس» وفيه أبان أن السعادة ليست هي المال وحده ولا الملك ولا الأدب المزور ولا غيرها من عرض الدنيا، وإنما السعادة ترجع إلى كمال النفس بالصبر والوقار والحلم، فاقرأ ملخصه في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الآية: ١٥٥] الخ. وترى كتاب «الكوخ الهندي» المؤلف حديثاً ينحو هذا النحو. وترى أفلاطون في جمهوريته يبين طبقات الحكام والمحكومين، ويذكر أن الأمة إذا حكمها أهل الطمع في المال وجمعه أحاط بها وبهم الذل. فالأغنياء يجمعون المال والشعب يذل وكل منهم في شقاء. والأغنياء مهددون من الفقراء لقلة الأولين وكثرة الآخرين.

ونظرة فيما تقدم في سورة «النمل» عند آية الملوك المفسدين وغيرها تعرف أن المال آلة للشقاوة عند قوم وللسعادة عند آخرين، فهو تابع لعقول المستعملين له شرفاً وضعة، إن القرآن لم يهمل نظام الأفراد ولا نظام الأمم بل سلك كل سبيل لإسعادهما، وإنما هذه الأمم الإسلامية حيل بينها وبينه، فهو كتاب يفسره كل علم في الأرض قبله وبعده، ومن عجب أن أكبر الفلاسفة جاء بحثه على مقتضى هذه الآيات.

ولقد قرر أفلاطون وقبله سقراط أن هذه الحياة الدنيا أشبه بالعدم لأن المادة في نظرهم ليست شيئاً مذكوراً. لماذا؟ لأنها متغيرة، وكل متغير متقلب غير ثابت لا يستحق اسم الوجود بل الذي يستحق اسم الوجود إنما هو الدائم، والدائم إنما هي النفوس والعقول وفوقهما الله. وبناء عليه رجعوا عقول الناس إلى مبدع الكون وازدروا بالدنيا ازدراء تاماً بهذا البرهان مع أنهما وضعا أشرف النواميس والقوانين للحكومات وللجيوش وللأمم ليعيش الناس بسعادة. اللهم إني لأعجب من كتابنا كيف يكون هذا هو مشربه ثم يجهله المتأخرون.

يا سبحان الله. كيف يختم الله السورة بهذه الآية: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٨٨]، وكيف يكون نفس هذا القول ملخص آراء أكابر الحكماء في العالم وعليه يجب علي أن أكتب في سورة «القتال» عند آية: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩] تلك الرسالة المسماه «مرآة الفلاسفة» ليطلع المسلمون بعدنا على ملخص فلسفة الأمم قديماً وحديثاً ويفهموا كيف يقول أولئك الفلاسفة: إن المادة غير موجودة وإن هذه العوالم أشبه بالخيال، وكيف يتجه أفلاطون وسقراط إلى الخير المحض «الله»، وكيف يقول علماء أوروبا الحاليين: إن علومهم في هذا المقام ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة لعلوم علماء اليونان المذكورين، وكيف نرى ألمانيا تتبع مذهب «كنت» الألماني فمذهبه يقرب من رأي أفلاطون، إن المسلمين يجب أن يطلع كبراؤهم وعظماؤهم على هذا، وواجب علي أن أكتبه لهم ليظموا دولهم وعقولهم ومدارسهم على نهج علمي، وليكونوا بمنجاة من الفساد في الأرض الذي ورد في سورة «القصص» هنا وفي سورة «النمل»، ولا يدخلوا في

زمرة من نهاهم الله في سورة «الأعراف» فقال: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾[الآية: ٥٦]، فإن الإفساد في الأرض إنما يفعله الجاهلون الذين ورد ذكرهم في آية: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[النمل: ٣٤] الخ، وفي آية: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[النمل: ٤٨]، وفي آية: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[النمل: ٨٩]، وفي آية: ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾[القصص: ٧٧].

إن قراء هذا التفسير حينما يطلعون على هذا مجرد اطلاع يدخلون في زمرة قال الله فيها في آخر هذه السورة: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾[القصص: ٨٣].
ولولا أن الله علم أن الأمم العربية التي حملت هذا الدين سيكون من ذريتهم قوم فرحون بالمال وملوك مفسدون في الأرض ما صرح لهم بالنهي عن الإفساد في آية: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا ﴾[الأعراف: ٥٦]، ولا عرض لهم في آية: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[محمد: ٢٢].

علم الله عز وجل أن آباءنا ستكون هذه حالهم فملأ القرآن بهذه الحكم التي تقرّ بها وتشهد بها تلك العقول الحكيمة أيام اليونان وبعدها، ثم غشي على عقول أمم إسلامية فجهلت ذلك واستحلت مرعى البغي والإثم فأتاهم الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وجعلنا نحن أبناءهم وعلمنا خطأهم وبصرنا وأفهمنا الحقائق فكتبناها واقتبسناها من القرآن وانشرحت بها صدورنا، فسيكون خلفنا إن شاء الله خلفاً شريفاً صالحاً نافعاً لعباد الله، مستخرجاً لكنوز الله التي خبأها في الأرض، رؤوفاً بالأمم عاطفاً على الإنسانية كلها لأنهم عباد ربه وهو يحبه ويحب عباده، والحمد لله رب العالمين. انتهى يوم الخميس ٦ يوليو سنة ١٩٢٩.

القسم الثاني

﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ

نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم: ربنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين، ما أرسلناك. وملخص الآية إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم.

روي أن مشركي العرب بعثوا إلى رؤوس اليهود يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا ساحران تظاهرا، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ أي: هلا أوتي الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها مما اقترحناه تعنتاً، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ومعنى هذا أنهم سألوه الآيات التي اقترحوها كما كان يفعل موسى من خوارق العادات، فرد عليهم بأنكم قد كفرتم بي، وبين ذلك بقوله: ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ بمعنى ساحران، أي: محمد وموسى ساحران تعاونا يقوي كل واحد منهما الآخر. وعبر بالمصدر مبالغة، ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ أي: بكل منهما ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ مما نزل علي وعلى موسى ﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أنا ساحران، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فإنهم لو اتبعوا العقل لأتوا بحجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ استفهام بمعنى النفي حال كونه كائناً ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في الشهوات ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل

التذكير، ووصلنا خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون ويتعظون ويقيسون أحوالهم بأحوال الأمم.

روي أنه آمن أربعون من أهل الإنجيل منهم اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر من الحبشة، ومنهم ثمانية جاؤوا من الشام فهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ والضمير للقرآن ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ أي بأنه من كلام الله تعالى ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ فقوله: ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ علة لقولهم: ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ أي: ليس إيماننا به مستحدثاً بل إنا كنا به مسلمين من قبل لأنا قرأناه في كتبنا الدينية ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ إحداهما على إيمانهم بكتابهم، والثانية على إيمانهم بالقرآن، ﴿ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي: بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية كما قال صلى الله عليه وسلم: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» ويدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ تكرماً ﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ للاغين ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ متاركة لهم وتوديعاً ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها، أو لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه لأنا نترفع عنهم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ لا تقدر أن تدخله الإسلام ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ فيقذف في قلبه نوراً يشرح صدره للإسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ المستعدين لذلك.

روى مسلم قال: نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راوده عمه أبا طالب على الإسلام، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الموت: «يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». وهذه وإن كان نزولها على ما ترى ليست خاصة بذلك، إنها قاعدة عامة، فتجد المستعدين للحكمة والعلم والهدى أناساً لا تجمعهم رابطة ولا بلد ولا أمة، فتجد أن المستعدين للفنون وللعلوم وللحكمة يخلقون ونفوسهم قابلة لذلك، فالمدار على الفطرة الأصلية لا على القرابة وأمثالها. جاء الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أي. أولم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن، فإن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون أنى كانوا، وذلك لحرمة الحرم فهو مكان منعنا عنه الأذى ممن عداه وأغدقنا النعم على أهله، فالشر عنه مدفوع والخير إليه وارد، وهذا قوله: ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الشام ومصر والعراق واليمن ﴿ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: جهلة لا يفطنون ولا يتفكرون في أن حرمهم آمن من الغارات تجبى إليه الثمرات، فالشر عنه نازح والخير إليهم وارد وهم في ذلك على طريقة أكثر النوع الإنساني جهلوا ما هم فيه من نعمة العقل والأعضاء والجوارح والسماوات والأرض والأنهار والجبال والنعم التي لا حصر لها، فكل يجهل النعم العامة.

فإذا قال الله في أهل مكة: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال في الإنسان كله: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[العصر: ٢]، واستثنى بعضه وقال: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾[عبس: ١٧] فهذا هو الكفر وهذا هو الجهل. فلا فرق بين جهل الجاهل بنعمة الحرم وجهل الجاهل بنعمة المال والولد والجسم والعقل والحواس والسماوات والأرض. لا فرق بين الكل والجزء، فالناس إلا قليلاً يجهلون هذه النعم لا أهل مكة وحدهم، ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[هود: ١١٩].

ثم أشار الله لذلك فقال: لم يختص أهل مكة بهذا البطر بل سبقهم أمم فبطروا فهلكوا، وهو قوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي: وكم من أهل قرية أشرت وطغت وبطرت أي ساء احتمالها للنعمة، كحالكم في ذلك، فخرب الله ديارهم ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ خاوية ﴿ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي: لم يخلفهم فيها أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي: ما كانت عادته سبحانه أن يهلك القرى حتى يبعث رسولاً في أكبرها وأعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل كمكة وأهلها ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ بتكذيب الرسل أو الجهل والمعاصي وبطر النعمة وما أشبه ذلك، وكيف قصرتم نظركم على الحياة الدنيا، أفلا تعلمون أن للنفوس الإنسانية حياة ودواماً ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ تتمتعون به وتتزينون مدة حياتكم المنقضية ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴾ وهو ثوابه ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة لا يخالطها كدر ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ وأدوم لأنه لا آخر له ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فتستبدلون الفاني بالباقي ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وهو الجنة ﴿ فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾ مدركه ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الذي هو مشوب بالآلام الكدر والانقطاع ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ للحساب والعذاب، و« ثم » للتراخي في الزمان، وهذه الآية زيادة بيان لما قبلها والاستفهام بمعنى النفي أي لا يستويان، فإن الحسن الباقي خير مما ليس بحسن وهو منقطع.

ثم أخذ يبين ما يلاقونه يوم القيامة بياناً لقوله: ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ وإظهاراً لمناقشتهم الحساب ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ بثبوت مقتضاه وهو قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود: ١١٩]، ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أي: هؤلاء هم الذين أغويناهم. ثم استأنف فقال: ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا، فنحن لم نفعل إلا ما هو من عادتنا وسجيتنا ولم نغوهم إلا لما وجدناهم قابلين كما لا يقع الذباب إلا على عين قذرة فليس ذنبهم علينا، وإنما عيبهم عليهم هم لأنهم مشاكلون لنا، ولو كانت نفوسهم أرقى ما أضللناهم ولا أغويناهم لعدم المناسبة والمشاكلة، فإذا فعلنا ما كان من طباعنا فهم فعلوا ما كان من طباعهم، فلا يلومونا وليلوموا أنفسهم ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم فليس علينا ذنبهم ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وهل الذنب على الذباب إذا وقع على العين القذرة، إنما

العيب على صاحب العين لأنه لم ينظفها، ولو نظفها لتباعد الذباب عنها طبيعة، فهكذا هؤلاء هم الملومون لا نحن، هكذا الأمم الإسلامية اليوم لقلة العلم فيها يرسل أهل أوروبا لهم أقواماً من العظماء منهم يعطونهم أموالاً ليثبتوا فيهم أن هؤلاء يحمونهم ويحفظونهم من غوائل الأمم، ويدخلونهم تحت حمايتهم ورعايتهم، فيطيعهم هؤلاء فيقول الأوروبي: ليس الذنب علي إنّما أنت جاهل، ومن طبعك أنك ضعيف ولا تهمهم إلا الحياة الحيوانية، فأنا استعبدتك لأنك جاهل، ولو كنت متعلماً ناظراً في هذه الدنيا وفيما خلق الله في السماوات والأرض، حافظاً لثغورك متسلحاً بالأسلحة التي تقيك ما تجاسرت أن أكلمك، وكيف أجسر أن أكلم من هو مثلي أن يدخل تحت حكمي، فليس العيب علي في استعبادك، ولكن العيب عليك لأنك أهل لتخضع للأقوى لضعفك وجهلك ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ من فرط الحيرة ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾ لعجزهم عن الإجابة ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ أي لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب في الآخرة.

ثم إن هؤلاء يسألون سؤالين: سؤال عن إشراكهم بالله، وسؤالاً عن تكذيبهم الأنبياء، ولما ذكر الأول أتبعه بالثاني فقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: خفيت واشتبهت عليهم الأخبار والأعذار والحجج، فلم يكن لهم عذر ولا حجة ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة فهم إذن يسكتون ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أي: جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ عند الله، ثم إن «عسى» تحقيق على عادة الكرام. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ الخ

حديث بيني وبين العالم صديقي الذي اعتاد أن يباحثني في هذا التفسير

بعد أن كتبت ما نصه: «إن توصيل القول لهم فيه معان غزيرة وعجائب وحكم»؛ حضر صحبي فقال: أتريد أن تولد هنا معاني من هذه الجملة، هذه جملة مفهومة بنفسها، وإنك بهذا تطيل التفسير إطالة ربما لا تكون مجدية، وربما يسأم منها كثير من الناس.

فقلت له: إني أرى أن هذا غير إطالة، إنّما التطويل هو القول الذي يكون أشبه بالمكرر، وما سأكتبه هنا ليس بالمكرر، بل هو حكمة ازينت للناظرين، وحسناء أسفرت للعاشقين، وحوراء برزت للمحبين.

كأنّما تبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو إقاح

جمعت إلى اعتدال قوامها وحسن شكلها زينة حلاها وفصاحة لسانها وجمال جنانها وحسن خلقها ورجاحة عقلها، بها هام العاشقون، وبحديثها طرب السامّعون، ألا فلأكشف لك عنها القناع بعد أن تنقد مهرها. فقال: وما مهرها؟ قلت: أن تشعر أن جسمك وروحك قد أحضرت صورتهما أمامك وأخذت تدرسهما، ومتى فهمتهما فهمت معنى التوصيل وهنالك يتم لك الوصال. فقال: إذن توصيل القول في الآية يعوزه دراسة جسمي ودراسة روحي. فقلت: نعم. فقال: إذن هذا تطويل لأنه تكرار

كما قلت لك أولاً لأن دراسة الروح قد تقدمت في مواضع كثيرة . فقلت له : لكل مقام مقال والحديث ذو شجون والكلام ذو ألوان .

فلا تدوم على حال تكون به كما تلون في أثوابها الغـول

هذه الدنيا عروس ذات ألوان ونحن خلقنا فيها فعلينا أن نبرز علومـها ببدائع الألـوان وأفانين الصور و مختلف الأصباغ . فقال : وكيف ذلك؟ فقلت : إن ذلك منا إنّما هو نسج على منـوال ما نرى في وضع الحكمة في خلق أجسامنا ، نحن نأكل ونلبس لمنافعنا ، وهذه المآكل والملابس والأصباغ والزينة والأزهار والطيور المفردة لم يكن شعورنا بها ولا علمنا بمحاسنها من طريق واحد ، بـل الطرق لعلمـها مختلفة . فهذا التفاح نلمسه أيدينا ونذوقه بألسنتنا ونشمه بحاسة الشم ونسمع صوت وقعه على الأرض بحاسة السمع ونرى شكله بحاسة البصر ، فهذه طرق خمس لنعرف ثمـرة التفاح ، إن الحكمة قضت أن لا يكون العلم بالتفاحة عن طريق واحدة ، بل نرى لنا حاسة تلمسه من قرب وحاسة ذوق تحس بحلاوته ، فإحساس الحلاوة غير إحساس النعومة ، فالحلاوة بالذوق فتحت الباب لأكلها وتمثلـها بأجسامنا ، فأما الحرارة والبرودة والنعومة والثقل والخفة التي عرفناها باللمس فهي أقل درجة من الطعم الذي هو أقرب إلى استعمالها من الثقل والخفة ، وحاسة الشم وظيفتها أنها تتقبل ذرات دقيقة منفصلة عن التفاحة وصلة إلينا من الهواء فشوقنا لاجتنائها .

أما حاسة السمع فالواصل لها من التفاحة إذا سمعت وقعها إنّما هو الحركات الآتية في الهواء فهي حاسة ألطف من سوابقها . فأما حاسة البصر فإنها ألطف وألطف ، لأن الرسول الموصل لها إنّما هو الضوء ، وهو ألطف من الهواء الذي استعمله الشم والسمع .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذه أقوال غريبة . إن المقام مقام سؤال مني لك في مسألة التوصيل في الآية ، فأجبتني بدراسة الجسم والروح ، فقلت أنا : فيه تكرار ، فأجبتني قائلاً : إن العلم يجب أن ينوع ويكون أصباغاً وألواناً ، ثم أخذت تقول : إن الله جعل العوالم التي حولنا تصل لنا من طرق شتى ، وضربت مثلاً بالتفاحة فإننا نعرفها بلمسها وذوقها وشمها وسمع صوتها ورؤية شكلها فهل ذلك القول هو نفس المقصود من تفسير الآية؟ وبعبارة أخرى : هو نفس الأسلوب الذي نتوصل به إلى معنى التوصيل في الآية ، أم هو تبيان نظام الله في تعليمنا الذي نقيس عليه تعليم أممنا العلوم من حيث التفنن؟ إني أرى أن هذا الذي تكتبه يظهر لي أنه شروع في الأمرين معاً أي أنك أن تضرب بحجر واحد طيرين . فبينما أنت تمثل لتنوع المناهج في تعليم الناس العلوم مما فعله الله في جسم الإنسان من الحواس التي تدرك التفاحة بأنواع من الإدراك رحمة من الله بمن أن يربنا بطرق مختلفة لازدياد العلم ؛ إذ أنت بنفس هذا المثال أخذت تشرح المقصود وهو الجسم والروح اللذان أردت أن أتصورهما أمامي وأفهمهما ، وبهذا الفهم أصل لمعنى التوصيل في الآية وبمص سره . فقلت : لقد أحسنت . نعم إني بهذا التمثيل أبين الأمرين معاً . أبين أن تعليم الأمم الإسلامية وغير الإسلامية يجب أن يكون على طرق شتى وكلها ترمي إلى غرض واحد ، كما أن الله لما خلق العالم وخلق الإنسان فيه جعل عِلمه بما حوله بطرق مختلفة ليحيط به علماً على مقدار طاقته ، ويكون من نتيجة هذا أن أفهمك معنى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ [القصص : ٥١] . قال : فاضرب لي مثل ذلك حتى أعقله . فقلت : إنّما مثل الإنسان

في هذه الأرض كمثل ملك عظيم الشأن رفيع المقام عالي المنزلة واسع الملك كثير الجنود والأعوان. ولا جرم أن مثل هذا الملك له عاصمة يعيش فيها وله بلاد نائية عن العاصمة، فمنها ما هو قريب من العاصمة، ومنها ما هو بعيد عنها، فأهل العاصمة يمكنهم المثول أمامه بأنفسهم ورفع قضاياهم له بدون رسول. قال: نعم. قلت: وسكان القرى المتوسطة في البعد يمكنهم أن يرسلوا نواباً عنهم. قال: نعم. قلت: وسكان القرى التي هي في أقاصي بلدانه يقدرون على محادثة الملك بإرسال رسائل كتابية بطريق البريد المعروف أو بطريق الحمام الزاجل أو بطريق البرق «التلغراف»، قال: نعم كل هذا ممكن. قلت: هذه صفة الإنسان في هذه الدنيا إن الملك في عاصمته له أعوان يحيطون به في نفس قصره وله خواص يعيشون في عاصمته، قال: نعم. قلت: فالأعوان المحيطون به من خدام قصره يراهم كل حين، فأما ضواحي المملكة فإنه يراهم حيناً بعد حين لمصالح المملكة، قال: نعم. قلت: هكذا هذا الإنسان هو هذا الملك، والعاصمة هي جسمه، فأما الحر والبرد والثقل والخفة والنعومة والخشونة وما أشبهها ـ وهي عشرة أحوال ـ من أحوال المادة فإنها تحيط بالجسم وهي تعرف بحاسة اللمس فقد أشبهت أعوان الملك المقيمين معه في قصره، وأما طعم التفاحة وطعوم المآكل المختلفة من الحلاوة والملوحة والحرافة ونحوها فالقائم بها حاسة الذوق التي هي أرقى من حاسة اللمس، لأن حاسة الذوق هي أشبه بوزراء المملكة الذين يترددون عليها آناً فآناً ليتشاوروا في حياتها وإصلاحها.

ثم إن المشمومات والمسموعات أشبه بسكان المملكة الذين ابتعدوا عن عاصمة الملك، فأما المشمومات فإنها ترسل ذرات دقيقة جداً كذرات المسك التي تتطاير في الهواء كل حين، ولشدة دقتها لا يظهر أثر النقص فيه على طول الزمان، فهذه الذرات التي تخللت الهواء لم تخرج عن كونها نماذج من جرم التفاحة المخلوقة في الشجرة أرسلت مع الريح يشمها الإنسان، فهي أشبه بالوفود التي أرسلها سكان القرى المتباعدة عن المملكة ليعرف الملك مقدار طاعتهم ممن حضروا منهم ونابوا عنهم في الخضوع أمام الملك، وتقول تلك الذرات التي نسميها رائحة: أيها الملك إننا طائعون لك فهل ترغب أن يحضر بقية الجماعة ليكونوا خدماً لك وعبيداً، بل سيصبحون جزءاً من جسمك ولحماً ودماً وعظاماً ومخاً وعيناً وأذناً.

ولا جرم أن هذه الذرات أغلظ من الحركات، لأن الحركات عرض والذرات جسم، ثم إن حركات تلك التفاحة في الشجرة وهي تترنح يميناً وشمالاً وتعانق الأوراق وتضحك القمر والنجوم وتفرح وتمرح وترسل تلك النغمات في أمواج الهواء فيسمعها صاحب البستان تعطي نفسه شوقاً وتوقاً إلى إحضارها والتغذي بها، وهذه أشبه بإرسال البريد بالخط في القطارات أو مع الحمام الزاجل.

ولا جرم أن الحركات في الهواء وسماعها ألطف من الذرات المشمومات في الهواء، كما أن حاسة السمع أشرف من حاسة الشم، فتلك أقرب إلى عالم الروح، وهذه أقرب إلى عالم المادة، ثم إن صورة تلك التفاحة لا يحملها النسيم ولكن يحملها عالم الأثير الذي يتموج ويتموجه آلاف آلاف المرات في الثانية يحدث لنا ما نسميه ضوءاً، فهذا الضوء يحمل تلك الصورة ويدخلها في حدقات الأعين المركبات من أغشية متناسقة معدة لقبول تلك الصورة فتعجبنا فنتناولها. هذه هي الفنون وأنواع الطرق وألوان الطرق التي أبدعها المبدع الحكيم في صورة الإنسان فلم يقتصر الإنسان على:

(١) لمس التفاحة.

(٢) ولا على ذوقها.

(٣) ولا على الإحساس بأجزاء منها بحاسة الشم.

(٤) ولم يقف عند سماع حركات الهواء بسبب تحركها.

(٥) بل تعالى إلى عالم الأثير وضوئه، فارتقت هذه النفس إلى عالم الأفلاك، لماذا؟ لتعرف التفاحة، فهي إذن استعانت بكل ما حولها، استخدمت اللمس مباشرة والهواء والضياء، وهذا الضياء مسافر لها من أقاصي العوالم التي ربما كان ضوؤها قد سافر إلينا منذ مائة مليون سنة نورية. اقرأ هذا في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الآية ٦١] ، فإنك ترى هناك هذا المقام مشروحاً، وأن من الأجرام السماوية ما بعده عنا مائة سنة نورية. هذه مراتب العلم عند الإنسان.

(٦) إن العين كما تدرك صورة التفاحة بنفسها تدرك اللفظ الدال عليها مكتوباً بصناعة اليد.

(٧) وتدرك صورة رسمها بالآلات المصورة. فهي إذن تعرف من طرق سبعة: ثلاث منها طريق البصر، والأربعة الباقية بطرق الحواس الباقية.

ثم إن الحواس الثلاث الأولى أقرب إلى العالم الأرضي، ولذلك كانت صناعاتها سهلة قريبة المنال. أما حاسة السمع والبصر فإنهما أقرب إلى عالم الأرواح، ولذلك ترى أن حاسة السمع تسمع كل ما حولك قريباً، وهذا المسموع يشمل كل ما هو قريب وكل ما هو بعيد باللفظ، لأن الكلام يعبر عن كل موجود قريباً أو بعيداً.

والبصر كما يدرك نفس الأشياء يدرك صورها التي صورت بآلات التصوير، هذا هو الشرح الذي أردت أن أبينه لك أيها الصديق. وهاهنا نتيجتان: النتيجة الأولى: أن العلوم والمعارف في هذا النوع الإنساني يجب أن تنوع وتكون لها طرق مختلفة، وقد عرف هذا علماء البيداجوجيا كما تقدم في تفسير سورة «الفاتحة»، فإنهم يقولون للمدرسين: ليسمع التلميذ القول وليكتبه هو بيده، وليكن مكتوباً بخط جميل، ولتكن صورة الأشياء مرسومة أمامه، إذن يشترك السمع من المعلم وبصر المتعلم وكلام نفس المتعلم وكتابته للكلمة وصورة الأشياء المرسومة أمامه، كلها تشترك في تفهيم التلميذ، إذن علماء تعليم الأطفال أخذوا يدركون الحكمة الأولى وهي حكمة صانع العالم أنه أرانا ما حولنا بطرق مختلفة. فهاهم أولاء أخذوا يسيرون على منواله، ومن ضل طريق الصانع الحكيم عاش جاهلاً. هذه هي النتيجة الأولى التي جاء الكلام عليها عرضاً.

أما النتيجة الثانية وهي المقصود من أصل المقال: فهي أن الله عز وجل جعل جسم الإنسان كأنه النور أو كأنه بطارية كهربائية، وخلقه مناسباً ما حوله ومهد السبيل لانتفاعه بكل ذلك، فالنور والهواء ونفس الأجسام كلها مستعدات لإبلاغه العلم ومنفعته. إن الله لما خلقه أراد أن يرفعه إلى عالم أعلى ولا طريق إلى رفعه إلى عالم أعلى إلا العلم فحاطه بطرقه وأكثر منها، وابتلاه بالآلام واللذات والمرض والصحة والموت والحياة، كل ذلك ليوقظه للعالم الذي هو مسوق إليه فأكثر من الطرق، ليزعجه ليخرجه من هذه الأرض الضيقة، وجعل في الأرض حكماء وعلماء وأنبياء، فهؤلاء زادوا فوق

الحواس، وإنما زادهم في الأرض ليساعدوا هذه الحواس وهذه المزعجات من حوادث الأيام والليالي على خروج الإنسان من مضايق الأرض، فأسمعوهم أقوالاً توقظهم إلى عوالم عرفوها تارة بعقولهم كالفلاسفة، وتارة بالوحي كالأنبياء، فهؤلاء استعملوا حاسة السمع فسمعوا الكتب السماوية ومنها القرآن. إن البصر ازداد قوة برسم صورة الأشياء بعد رؤية نفس أجسامها وبنظر الألفاظ الدالة عليها بوضع اللغات المختلفات شرقاً وغرباً، هكذا السمع فضلاً عن سماعه حركات المخلوقات سمع الألفاظ الدالة عليها، ثم هو فوق ذلك سمع ما أنتجته العقول أو جاء به الوحي. كل ذلك تكميل للنفوس لارتقائها إلى العالم العلوي وإزعاجها عن هذا العالم الضيق. فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٥١] تبيان لآخر ما يترقب من حاسة السمع، وهو سمع الوحي الذي يأتي للنفوس بما يحدث فيها حكمة فتستيقظ بعد الغفلة وتتلقى أشعة من نور الحكمة والعلم فتبعث للدراسة ما حولها، وهذا الذي كتبته الآن لم يبحث في نفسي إلا عند قراءة: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٥١]، فهاهي الذكرى التي وصلت إلينا من هذه الآية.

فقال صاحبي: هذا بيان حسن، ويظهر أن هذا الجسم الإنساني مستودع علم فعليه نظام الدول الأرضية كما في كتابك «أين الإنسان» وبه علم «البيداوجيا» أو علم تعليم الأطفال، وبه الازدياد في الحكمة ودراسة العلوم الطبيعية وعلم الفلسفة.

فقلت: نعم إن نوع الإنسان بعدنا سيكون فيهم أناس أبرع من العلماء في زماننا، أما الأمم الإسلامية فإن حوادث الدهر ومزعجات الليالي والأيام وأمثال هذا التفسير كلها متعاونات على إخراج أجيال منهم يكونون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، وسينهجون منهج ما أكتبه في هذا التفسير، وسيكون منهم حكماء وعلماء يتلمون علوم الشرق والغرب بعشق وغرام وحب ولا يثنيهم عن ذلك الجمال عائق، وهم الذين يقولون: إن الله قد جعل أجسامنا مستمدة من كل ما حولها فعلينا أن نستمد من كل مخلوق، فنتعلم كل علم، وندرس كل موجود، ومتى قصرنا في أي عالم من العوالم التي حولنا فالله لنا بالمرصاد، ويقول لنا: أيها الناس أنا لم أترك فرصة إلا انتهزتها لتعليمكم، ولم أقف عند اللمس ولا الشم ولا البصر، بل خلقت لكم اللغات المعبرات عن صور الموجودات ووصلتها لكم تكثيراً للعلم، فإذا أغمضتم العين ولم تشموا ولم تلمسوا أرسلت المعاني بطرق الألفاظ حتى إن هذه الحاسة كأنها جميع الحواس، فإذا كانت هذه أعمالي فعليكم أن تتخلقوا بأخلاقي ولا تدعوا فرصة إلا انتهزتموها فانتفعوا بكل شيء، بالهواء وبالماء وبالضوء وبكل موجود، فهذا هو التوصيل وهذا هو حديث حجة الوداع: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع»، وهؤلاء هم الذين يعقلون قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[القصص: ٥١] فهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم هم الذين يتذكرون. اهـ صباح يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أن هذا القسم إلزام للكفار واحتجاج عليهم وقطع لأعذارهم بعد أن مهد لهم السبيل بذكر قصص موسى حتى يكون مدخلاً للكلام معهم ومخاطبتهم وقطع أعذارهم، ثم أعقبه بالقسم الثالث وهو من قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨]، إلى قوله: ﴿ وَضَلَّ

عنهم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥] . وهو تذكير بآيات الله سبحانه في الأرض والسماوات، كما ذكرها في القسم الأول بآياته في الأمم الماضية حتى تتضافر الدلائل وتتحد الحجج، فأخذ يذكر أنه سبحانه هو وحده مصور الصور باختياره، يخلقها كما يشاء، لا راد لقضائه فلا شريك له كما يزعمون، وعلمه محيط بما ظهر وما بطن، وهو محمود في الدنيا والآخرة، وقضاؤه نافذ، ومن أعظم نعمة أنه لم يجعل ظلام الليل دائماً ولا نور النهار دائماً، بل أدار الأفلاك، فكان ليل ونهار لينام الناس ليلاً ويعملوا للرزق نهاراً. وإليك بيان القسم الثالث.

القسم الثالث

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أي: وربك يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء لا موجب عليه ولا مانع منه، ولذلك كان هذا العالم على غاية النظام والإتقان والإبداع، فليس لأحد من المخلوقين اختيار في شيء من ذلك ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي: التخير كالطيرة بمعنى التطير، فليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم، ومما يدخل في هذا أنه له أن يرسل من يشاء رسولاً، فلا يجعل ذلك منوطاً بمال أو بجاه فيسقط بذلك قولهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] وهما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، فالله مطلق التصرف وهو أعلم بمن استعدادهم قابل لذلك، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ تنزيهاً له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره، فإذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدي أحداً من أحبابه أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولاً من عظمائهم، قال الله: ليس لكم من الأمر شيء، فلا النبي يهدي عمه، ولا أهل مكة ينالون أن تكون الرسالة في عظمائهم، تنزيهاً لله ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم. ولما كانت القدرة المسبوقة بالإرادة المعبر عنها بالاختيار يتقدمها العلم الذي هو مقدم على الإرادة أعقبه بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ تخفي ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون، فلما اختص بالاختيار فخلق ما يشاء كما يشاء ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾ ذلك أنه يحمده المؤمنون وأولياؤه وأنبياؤه في

الدنيا ويحمدونه في الآخرة مثل قولهم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقولهم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ القضاء النافذ في كل شيء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني يا معشر الكفار ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ دائماً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ يقول الله: أخبروني من إله غير الله يقدر أن يأتيكم بضياء إن جعل الله عليكم الخ، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واستبصار، وكان الإنسان إذا جن عليه الليل وفرض أن الشمس لن تطلع يقول في نفسه ذلك، فعبر بالسمع لأن الليل يناسبه السمع والنهار عكسه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ استراحة من التعب ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾. ولما كان الضوء في نفسه نعمة، والظلمة إنما هي عدم الضوء لم يصف الضوء اكتفاء بذكره هو وصف الظلمة لتبيان فائدتها ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ بالليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ في النهار بالمكاسب المختلفة والتنقل في الأسفار والتقلب في الأعمال ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي: ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها، ولا شكر لغيره، لأنه لا يكور النهار على الليل ولا الليل على النهار إلا الله تعالى، فلذلك يعترف الكافرون بهذه الحقيقة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة بعد أن جهلوها أو تجاهلوها في الدنيا، وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ هذا تكرير للتوبيخ على اتخاذ شركاء، فهو فيما تقدم دليل على فساد آرائهم، وهنا تقرير أنه لا حجة ولا شبهة وإنما هو هوى وشهوة، وهو قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أخرجنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا يعملون ﴿ فَقُلْنَا ﴾ للأمم ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ ﴾ حينئذ ﴿ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ في أن الله ألوهيته لا يشاركه فيها أحد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وغاب عنهم كما يغيب الضائع ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: يختلقون في الدنيا من الكذب على الله. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة.

عجائب القرآن في هذه الآيات

تأمل قوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، تأمل في هذا وتعجب كيف يقول هنا: ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾. نعم الله محمود في الدنيا يحمده الناس على ما عرفوا من نعم يحمدونه إذا أحسوا بها، فيحمده الفقير متى أحس بالغنى، ويحمده المريض متى نال الشفاء، ويحمده الذليل متى أحس العز، وبالجملة حمد الناس وثناؤهم على ربهم إذا أحسوا بنعمة، وذلك عام في جميع النوع الإنساني، فأما في أوقات الفراغ وهدوء البال فإن الناس لا يتذكرون نعمة ربهم، فلا يذكرون صحة البدن ولا قوته ولا العقل المركوز فيهم ولا الذكاء، ولا يفكرون في نعمة الوالد والأهل والأصحاب والأقارب، ولا نعمة نظم المدن التي تحفظهم ليعيشوا فيها، ولا نعم السماوات والأرض والكواكب والشمس والقمر والأنهار والبحار، فالناس ما داموا في خفض وسعة الرزق وبحبوحة العيش فإنهم غافلون. لذلك أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله ليذكروا الناس بالنعم ليدرسوها، ومتى درسوها أحسوا بها، ومتى أحسوا بها حمدوا الله عليها.

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وأمر بالحمد كما رأيت في سورة « النمل » إذ قال الله له : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ﴾[الآية : ٥٩] ، أمر صلى الله عليه وسلم أن يصلي المسلمون بفاتحة الكتاب فقال : « لا صلاة لمن لم يقرأ لفاتحة الكتاب » ، وإنّما قال ذلك لأن الله أمره بالحمد ، ولا حمد إلا حيث تعرف النعمة لأن النعمة التي لا يعرفها الإنسان لا يحمد عليها ، كما لا يحمد الأصحاء على العافية ولا المبصرون على خلق أعينهم إذا لم يعترهم مرض فيذكرهم فلهذا ترى المسلمين في أقطار المسكونة قد اتخذوا الفاتحة شعارهم ، وتسمع في كل آن وقت الصلاة وفي خارج الصلاة قولهم : الحمد لله ، وفي عقب الأكل وعقب كل نعمة : الحمد لله ، فهذا من الحمد في الدنيا .

ولا جرم أن الحمد يتقدمه العلم بالمحمود عليه حتى تشعر النفس بالنعمة . فالشعور إنّما بحادث طبيعي أو بطريق علمي ، والحادث الطبيعي المذكر بالنعم غير دائم بل هو قليل ، لأنه خاص بالمصائب والأمراض . أما الطريق العلمي فهو عام في النعم الجزئية والنعم الكلية . فبه يعرف نعم السماوات والأرض والأنهار وخلق هذا العالم ، حتى يدرك الإنسان أن هذه كلها مساعدة له على بقائه ونعمها واصلة إليه ، بل يرى أن الناس جميعاً ينفعونه في أمته وفي غير أمته ، فإذن العالم كله نافع له لا فرق بين شمس وقمر وبحر وأمة نشأ فيها وأمة لم ينشأ فيها ، فالعلم يعرف الإنسان هذه العوالم فيحمد عليها ويعرفه أن الناس إخوانه فيحبهم ، ومتى حمد الإنسان على نعم الله في الدنيا حمد عليها يوم القيامة ، بل لا حمد في الآخرة إلا إذا تقدمه حمد في الدنيا ، إذ لا حمد حقاً إلا على علم ، والعلم في الدنيا يبقى في النفس بعد الموت ، فمن لا يدرك هذا الوجود في الدنيا لا يدركه في الآخرة ، فإذا حمد العامة والجهال ربهم على طعام أو شراب أو مال أو جاه ، فالعلم أرقى وأرقى لأنه يحس في نفسه بحمد الله كلما نظر كوكباً أو نبتاً أو حيواناً أو هبت ريح أو جرى نهر ، لأنه يراها كلها متعاضدة متعاونة لخدمته وخدمة الناس ، بل يحمد لله لذلك الجمال البديع والبهجة والرونق والحسن ، ويرى هذا العالم كله جميلاً ، فيكون الحمد أجلى وأبهى وأدوم وأبهج وأجمل ، وهذا الجمال هو المقصود لذاته وهذا غاية الحمد .

ولما كان الأنبياء هم المذكرون بتلك النعم ، وآخرهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورد أنه هو رافع لواء الحمد وأنه له المقام المحمود ، فيرجع الأمر كله إلى العالم ، لأنه لا حمد إلا بعد علم . ونتيجة هذا القول أن هذه الأمة الإسلامية أمة حمد ، ويلزم من ذلك أن يكونوا علماء بهذا الوجود ، انظر إلى الأمر اليوم معكوساً ، إن حمد المسلمين اليوم لفظي إذ حمد العامة هو الغالب ، أما الحمد الإسلامي العقلي المبني على العلم والحكم والفهم فإنه غائب اليوم ، إنه سيقوم فيهم أناس ينبغون في العلوم ويعلمون هذه الأمة أنواعها ويتصرفون فيها ويعم الأكابر وهم يفيضون على الأصاغر ، وهذا هو السر في قوله في سورة « النمل » : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[الآية : ٥٩] ، وأتبعه بقوله : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[الآية : ٩٣] لأن الحمد بلا معرفة حمد لفظي لا معنى فيه ، وهو جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، وأي فضل في حمد لا يحس حامده به ، فالحمد بعد المعرفة ، ولذلك قال في هذه السورة : ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[الآية : ٧٠] ، لأنه ذكر المعرفة هناك في آخر سورة « النمل » ، ومثل هذا يقال في سورة « الفاتحة » ، ابتدأ الله فقال : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، ولا جرم أن الرحمة قسمان : رحمة أفيضت على الأجسام ، ورحمة أفيضت على العقول ، ورحمة الأجسام مقدمة ورحمة

العقول نهاية، ثم أتبعها بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، فذكر التربية ليوجه عقولنا إلى نظام هذه العوالم كما تقدم في «الفاتحة» وأتبعه بذكر الرحمة للدلالة على أنها سارية في العوالم كلها لتستوجب الحمد والإحساس بالنعمة. ولما كان أكثر الناس كما قلنا لا يحسون إلا بما تشعر به حواسهم من النعم الطارئة، ولا يفقهون النعم المترادفة لأنها بتكرارها عليهم يبطرون ولا يذكرونها ذكر العبادة وأنها خاصة بالله وسأل المؤمن أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم. فذكر هداية الله للمنعم عليهم إلى الصراط المستقيم، وهذه الهداية منشؤها العلم، والعلم بالنعمة هو الذي يثير في النفس الحمد والاعتراف به. إن الأمة الإسلامية أمة حمد، ونبينا صلى الله عليه وسلم رافع لوائه، ولا حمد إلا على علم بالمحمود عليه، والمحمود عليه جميع النعم، والمسلم يسأل الله الهداية لصراط المنعم عليهم، وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين وهو الصراط السوي، وهو العلم بالنعم. هو العمل الصالح، والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، هؤلاء هم المنعم عليهم، فالأنبياء والصديقون متحققون بالعلم والأخلاق والشهداء تبع لهم. وأما الصالحون فهم متحققون بالعمل أكثر من العلم، فالصراط المستقيم شامل للعلم والعمل، وبالعلم كما قلنا يثور الحمد في الإنسان.

إن هذه الآيات التي نحن بصددها جاء فيها التسبيح ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، وتبعه التوحيد إذ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾، ثم الحمد على النعم، وهو قوله: ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾. فهذه درجات ثلاث: تقديس وتوحيد: أي أن الذات المقدسة ليست متعددة، ثم حمد.

وقد ورد: «من قال سبحان الله فله عشر حسنات، ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة». وورد أيضاً: «أفضل الدعاء الحمد لله». وقيل: ليس شيء من الأذكار يضعف ما تضاعف الحمد لله. قال الإمام الغزالي: ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات. اهـ.

يقول مؤلف الكتاب: إن أول الأمر وآخره المعرفة والعلم، إن هذه كلها مذكرات بالعلم، فإذا سمعت قوله تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠]، فإنما ذلك الحمد لمعرفة أوجبته في الدنيا والمعرفة في الدنيا هي الاطلاع على نظام هذه الدنيا وجمال الله فيها وحكمته وبهائه، وتلك النظم البديعة البهية التي تدهش العقل وتبهره فينطق بالحمد في هذا الجسم وبعد مفارقته. وهذا الذي ذكرته كله واضح في هذه الآيات، فإنك ترى التقديس تلاه التوحيد، أتبعه الحمد.

ولما كان الحمد لا يكون إلا على نعمة والنعمة العامة لا تعرف إلا بالعلم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾ الخ، يقول الله: أيها المسلمون إن ربكم مختص بالحمد في الدنيا والآخرة ولا حمد إلا بعلم، فانظروا في الليل والنهار، فلو أن الليل دام عليكم أفلستم تحرمون من التصرف في معاشكم، وإذا كان النهار دائماً عليكم أفلستم تمنعون من وقت الراحة؟. انظروا في رحمتي التي وسعت كل شيء انظروا فيها فإني جعلت ظلمة وجعلت نوراً بنظام دوران الشمس ليكمل هناؤكم وسعادتكم فحمدكم لا يكون إلا إذا عرفتم رحمتي ولا تعرفونها إلا بالعلم، ألم آمركم أن

تقولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قبل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١-٢]. أليس هذا لتذكروا رحمتي التي وسعت هذا النظام وذلك بالتعليم ومتى عرفتم حمدتم. انتهى.

النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر، وهذه الآية ذكر فيها أعظمها

نمط آخر في تفسير هذه الآية

ذكر الله الليل والنهار وأنه رحمنا بهما، مريداً بذلك أن نعلم النعم فنشكر عليها، والشكر أعم من الحمد المتقدم، فالحمد باللسان وحب جميع الناس بالقلب، وصرف النعم والمواهب كلها فيما خلقت لأجله، فهذه الثلاثة هي الشكر وأسها كلها العلم، ومجامع النعم وأضداد النعم جمعت هنا. إن الله لما خلقنا في هذه المادة أراد تربيتنا، والتربية لابد لها من ضدين: نعمة ونقمة، فالنعمة موهبة، والنقمة تسوق الناس إليها، وعبر عن هذا كله بالليل والنهار، والأصل كله دوران الشمس ومبدأ ذلك كله الحركة، فبالحركة كان دوران الشمس ظاهراً، وبدوران الشمس ظاهراً كان الليل والنهار، والنهار عنوان النعم، والظلمة أشبه بعدمها، وعدم النعم هو النقم إذ لا نقمة إلا عدم النعمة، فهذا الدوران أنتج فيما على الأرض ما هو من طباعه، وإذا كان من طباع الدوران الظلمة والنور، أي عدم النعمة ووجودها.

كان في الأرض: جبل وواد وسهل وجرز وبحر وبر وعامر وخراب وخصب وجدب وحلو ومالح وهواء وحجر وخشن وناعم وحر وبرد ولطيف وكثيف ومر وحلو في النبات وحيوان مفترس ضار لنا وأنعام تنفعنا.

وكان في أجسامنا ونفوسنا: أعمى وبصير، وأصم وبصير وأخرس وفصيح وأعرج وضده وأقطع وذو يد ومريض البدن وسليمه، وكذا مريض القلب أو الجنب أو المعدة أو الأمعاء أو الكبد أو الطحال، وهكذا بقية الأعضاء ومقابلة الصحيح في ذلك كله، وكان في الإنسان الغني والفقير والعزيز والذليل والبخيل والكريم وهكذا مما لا يسعه المقام. وكان فيه أيضاً الذكي والبليد والعالم والجاهل والأحمق والعاقل، كل ذلك داخل في ذكر الليل والنهار، فالأول لعدم النعم، والثاني لوجودها وما ذكرناه كله لا يخرج عنهما وكل ما على الأرض ناجم من آثار الحركات السماوية النازلة على الكرة الأرضية، فكأن النتائج تابعة للمقدمات ناهجة منهجها سائرة على منوالها. ولما كانت هذه تمر على الناس وهم غافلون؛ ذكر الله الناس بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢] أي: لعلكم تعرفون فتشكروا على النعم.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى ألم الجهل وألم الذل وألم الفقر وألم المرض والجوع وألم الفراق وألم الوحدة محرضات على نعمة العلم والعز والغنى والصحة والطعام والاجتماع وهذه أشبه بالسائق للناس إلى حوز النعم وجعل لذة العلم ولذة النصر ولذة الثروة ولذة الصحة ولذة الطعام ولذة الاجتماع أشبه بالقائد، فلكل من ذلك سائق مؤلم وقائد ملذ تحمله على استجلابه، ومن أكبر قائد للنعم جمال الزهر وحسن القمر وبهجة ضوء الكواكب، وغرائب المخلوقات التي تلفت النظر وتكون في باب السائق أشبه بالمقطوعي الأيدي والأرجل في باب النقم. ثم الجمال الفائض والقبح الزائد أحدهما قائد للنعم وثانيهما سائق يسوق الناس للبعد عن قبح المنظر وشناعة الملبس وسوء الحياة.

هذا كله هو ما وضعت عليه الحياة في أرضنا، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠]، فقوله: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ هناك أي بالعلم، وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[البقرة: ٥٢] ولا شكر إلا بعد علم.

نتيجة هذه الآيات

عليك أيها الذكي أن تفهم المسلمين أن الله يغضب على كل أمة نامت عن العلوم، أيقظ المسلمين وقل لهم: اقرؤوا جمال هذه الدنيا من نبات وحيوان وتشريح وعلم نفس وعلم فلك وعلوم البحار وبهجة هذه الدنيا، وعلى كل غني وعالم وذي جاه أن يفهم المسلمين أنهم يجب عليهم أن يعمموا التعليم في سائر بلاد الإسلام، وأن تكون معرفة الله بأشياء مشوقة من بهجة الأنوار ومحاسن الأشجار وجمال البحار وصولة البخار وعزة النضار وضوء الماس ونفائس الأحجار وبدائع الأسرار وعجائب الآثار وحساب الليل والنهار وعجائب الفلك المدار ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[آل عمران: ١٣].

قال: ابدؤوا بهذه العلوم فاقرؤوها، فإذا قرأتموها للصغار، فمعنى ذلك أن تقتطفوا من ثمارها وتسمعوهم من أخبارها فيكونون مشتاقين فرحين بها، وهذا الشوق يدفعهم إلى اكتناه أسرارها إذا كبروا. ذلك هو المسمى « درس علم الأشياء » فيؤتى بنبذ من كل علم وتعطى لهم كأنها حلوى بها يفرحون وفاكهة بها يتفكهون فإذا كبروا قرؤوا دروسها وعرفوا نظمها وتناولوا آياتها.

هذا هو شكر ربكم فادرسوه، وهذا هو دين الإسلام في المستقبل فتربصوه، وهذا هو توحيد الله وشكره فاشكروه، وهذا هو الذي به تعمر مدنكم وتعظم أممكم وتقوى شوكتكم وتحفظ ثغوركم وتكثر نعمكم وتقل نقمكم ويهابكم عدوكم، هذه هي العلوم التي ترفعكم في الدنيا بما ذكرناه، وفي الآخرة بلقاء الله، فالدنيا تكون لكم سامعة مطيعة وقلوبكم تعشق ربها وتحب خالقها وتأنس به في هذه الحياة، فإذا ما قرب موتها أنست بعالم الجمال وفرحت لقاء الله، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[المائدة: ١١٩].

وهاهنا أربع جواهر:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[الآية: ٦٨].

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[الآية: ٧٠] الخ.

الجوهرة الثالثة: في بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ ﴾[الآية: ٧١] الخ.

الجوهرة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[الآية: ٧٣] الخ.

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول المسلم في صلاته: « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ». هذا لأنه أعلم بالمصالح فهو يعطي وهو يمنع لحكم هو وحده يعلمها، ولن يعرف أحد من بني آدم حقائق هذه الحكم إلا بقراءة كل علم على قدر الطاقة، وهو يخلق ما يشاء ويختار، ليس الخيار لنا لأن علمنا قاصر وهو يعلم كل شيء، وإذا أردنا ضرب مثل هنا على ذلك

وجدنا العالم كله والعلوم كلها مضرب أمثال ، ولكني أقتصر على مسألة واحدة تأخذ باللب وتشرح الصدر فأقول :

يعيش الجنين في بطن أمه وفيه يتغذى بدمها ، فأمه تهضم الطعام في بطنها وينقلب دماً ، والدم يقابل الهواء الجوي بالتنفس في رئتيها فيصلح لتغذية جسمها ، فيرجع إلى القلب ويدخل الجهة اليسرى منه فيدخل من أعلاه في تجويف يسمى البطين وينزل منه بفتحة إلى تجويف أسفل منه يسمى الأذين وهو أكبر من التجويف الأول ، ومن هذا التجويف الأكبر في الجهة اليسرى يخرج منتشراً في البدن أعلاه وأسفله ثم يرجع إلى نفس القلب من الجهة اليمنى وهو ممتلئ بمواد فحمية كربونية فيدخل في تجويف صغير هناك ثم ينزل منه لتجويف أسفل منه يسمى البطين أيضاً ، ومن هذا الأسفل يخرج متجهاً إلى الرئتين ـ أي رئتي المرأة التي كلامنا فيها ـ وهو يحمل المواد الفحمية فيقابل الهواء الجوي الداخل فيعطيه بتنفسها تلك المواد ويصفى كما نصفي نحن الماء ونخلصه من المواد الغريبة بآلات التصفية ، فهذه الرئة أشبه بالأواني التي نضعها في منازلنا وفيها الماء ، فينزل من مسامها خالصاً سائغاً للشاربين لا ضرر فيه ، فالرئة كالأواني المذكورة والدم كالماء ، ومتى صفي الماء في الرئة وطهر بمقابلة الهواء الجوي أخذ من الهواء في نفس الحال مواد الحياة « الأكسوجين » بعد ما أعطاه المواد المهلكة السامة الفحمية « الكربونية » ورجع الدم يجري إلى الناحية اليسرى ودخل فيها كما تقدم .

هذه هي الأعمال التي تحصل في قلبي وقلبك أيها الذكي وفي قلب المرأة ، ونحن لا نشعر ولا نعلم ، وليس شرح هذا المقام مقصوداً بهذا المقال . كلا لأنه قد تقدم مستوفى في سورة « المؤمنون » عند آية : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الآية ٧٨] . وإنما الذي سقت له هذه المقالة أمر عجيب وغريب . سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذي اخترت هذا الوضع للقلب واصطفيت له هذه الدورة الدموية التي تتوقف حياتنا عليها .

ولما كان هذا النظام معلوماً لجميع الأطباء ويتبعهم المتعلمون في الكرة الأرضية لم يكن أمراً غريباً لأن كل مألوف متروك ، وكل غريب مرغوب ، فلتكرار هذا العمل زالت غرابته كما زالت غرابة الليل والنهار ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والكواكب فلا تحرك ساكناً في أكثر هذا النوع الإنساني ، كذلك هذه الدورة الدموية التي تدور في أجسامنا المعلومة حكماً وعلماً ، قد أصبح الإنسان كله إلا قليلاً معرضاً عن بدائعها وعجائبها ، وإذا رأى الناس كسوف الشمس وخسوف القمر أخذوا يتعجبون من ذلك لأنه نادر فهي غائبة عنا ، فربما بعث الأذكياء منهم إلى التفكر . هذا في عالم السماوات الذي نره بأبصارنا أما الدورة الدموية فهي غائبة عنا لا نراها بل لا يعرفها إلا العلماء الدارسون لها ، بل الدارسون لها أيضا قل منهم من يفكر في عجائبها .

إن دراسة العوالم حولنا أسهل علينا من دراسة نفوسنا وتشريح أجسامنا ، ولكن إذا اطلع هؤلاء الدارسون لتلك الدورة على ما سقت الكلام لأجله دهشوا من تلك الدورة وعجبوا وذلك هو المقصود من هذا المقال كله . ذلك أن التجويفين الأعليين الصغيرين اللذين يسميهما العلماء « بطينان » بينهما في أجسامنا الآن فاصل وحاجز فلا صلة بينهما . ذلك لأن الدورة الدموية لا تتم إلا بهذا الحاجز بينهما . انظر شكل الدورة الدموية في سورة « المؤمنون » .

وإنّما لم تتم الدورة إلا بهذا الحاجز ، لأنه يفصل الدم الوريدي ، أي الذي لا يصلح للتغذية في البطين الأيمن عن الدم الشرياني الذي يصلح للتغذية في البطين الأيسر كما علمت . إذن الله فعل في الدورة الدموية في جسمي وجسمك أيها الذكي مثل ما فعله في البحرين العذب والملح ، وقد جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً فلم يخلط أحدهما بالآخر وجعل الحلو مشتقاً من الملح بالبخر منه فيخرج إلى الهواء فيخلص من الملح ثم يكون مطراً ، هكذا فعل الله في هذه الدورة خرج الدم الوريدي الذي لا يصلح للتغذية لما فيه من الكربون من البطين الأيمن ورفعه إلى الرئتين فقابله الهواء الداخل بالتنفس فصفاه وجعله صالحاً للتغذية هذا هو فعل الله في جسمي وجسمك أيها الذكي الآن وجسم المرأة التي تحمل الجنين . إنّما الأمر الأعجب هو أن الحاجز الذي بين الأذين الأيمن والأيسر الذي بينا أنه لابد منه لأنه حاجز بين الدمين الشرياني والوريدي الآن لم يكن له وجود في الجنين فهو لي ولك ولأم الجنين ، ولكنه لم يكن عند الجنين . ومتى ولدته أمه سدت هذه الفتحة حالاً فكأن هنالك بواباً فتح هذا الحاجز قبل الولادة وعند الولادة أقفله وبقي مقفلاً ، والسبب في ذلك أن الجنين إذا وصل دم أمه إليه اتجه أولاً إلى الأذين الأيمن ، فبدل أن ينزل إلى البطين الأيمن ومنه يتجه إلى الرئة ليخلص فيها كما قدمنا ، يتجه حالاً من الأذين الأيمن المذكور إلى الأذين الأيسر مباشرة ، ومن الأذين الأيسر إلى البطين الأيسر ومنه ينتشر في الجسم كله ، ذلك لأنه دم الأم ، ودم الأم الذي يجري إلى الطفل كله شرياني . إذن لا حاجة إلى دخول الدم في البطين الأيمن ثم خروجه إلى الرئتين لأنه لا يعوزه ما يعوز دمنا نحن ، لأن ذلك دم مصفى في رئة الأم فهو دم شرياني . فرئة الطفل لا نفس فيها لأن نفس الأم في رئتها قائم بما يجب . إذن لا حاجة لهواء يدخل في رئته لقيام رئة الأم مقام رئته ، وعليه لا بد من اتجاه الدم من الأذين الأيمن إلى الأيسر مباشرة ويعطل البطين الأيمن مادام الجنين في بطن أمه وتعطل الرئة أيضاً ، ومتى ولد الطفل قابل فمه وأنفه الهواء الجوي ودخل الهواء إلى الرئتين ، فهنالك حالاً يسد ذلك الحاجز ويدور الدم دورته المعلومة المشروحة شرحاً كافياً وافياً ، والحمد لله رب العالمين . اهـ . صباح يوم الثلاثاء ٤ يونيو سنة ١٩٢٩ .

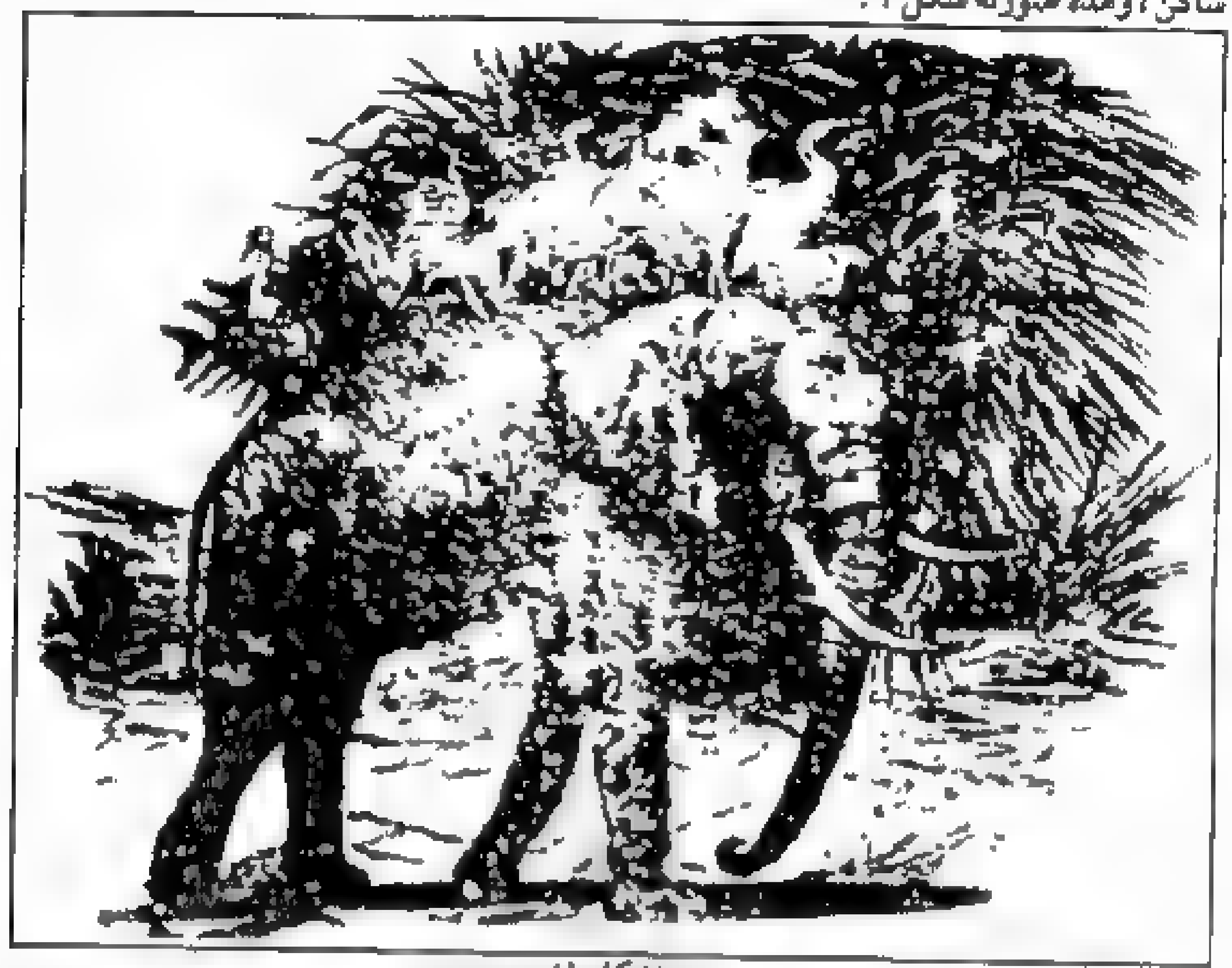
ضوء الجوهرة في قوله تعالى أيضاً:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾

عبر بلفظ الرب إيذاناً بالتربية فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية . وبعبارة أخرى : لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ ، فالمبتدأ هو « ربك » ، والخبر هو « يخلق » ، وفي إضافة الرب لضمير الخطاب إيذان بشرف المخاطب وأنه جدير بأن يكون خليفة في الأرض يربي الأفراد والأمم ، فالله يربي ما خلق ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التي أمرهم بها ليكونوا مربين للناس ، وجعل المشيئة خاصة به تعالى والاختيار ولم يجعل لأحد من عباده اختياراً في إعطاء أو منع .

المربي الخالق الذي يعلم ما خلق لا يجعل لأحد سلطاناً ولا وزارة ولا استشارة فيما يدبره ، وهذا القول الإجمالي هو معنى الآية وهذا المعنى معلوم ، وإذا أردنا أن نجعل له مثالاً تواردت آلاف الأمثلة ، بل ما في هذا التفسير من عجائب الحكمة يصلح في هذا المقام ، ولكن وقع اختياري على هذا

الفيل المسمى بالإنجليزية «جميو»، وعليه صف من طير أبي قردان تأكل الدود من جلده وهو مطمئن ساكن، وهذه صورته شكل ١.



(شكل ١)

أنا اخترت هذا المثال لأنه أثر في نفسي أعظم أثر، وكيف لا يؤثر وأنا أرى أكبر الفيلة والفاً ساكناً، وهذه الطيور واقفة فوقه وهو مستلذ ساكن بل مبتهج. هذا الفيل معلوم من طبائعه أنه قوي جداً وهو يقوم في العمل مقام جماعة من الرجال، وهو يقاتل الأسد والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة، ولكنه في نفس الحال حبيب صديق لأبي قردان، ذلك الطائر الضعيف الذي لا سلاح له ولا قوة، إن الفيل وإن لم يغلبه غالب من الحيوانات المفترسة فقد غلبه أضعف المخلوقات الذي هو أعدى أعدائه ولكنه لم يقدر أن يصل إليه.

إن له جلداً متيناً قوياً جداً وقد سلط عليه حشرة ضعيفة تسمى «تيكس» فهي تعيش فيه وتتغذى بأكله وتؤذيه بأكلها وهو يحتك بالحجر والشجر لينحيها عن جسمه، ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص: ٣]، وكلما أوغل في حكها أوغلت هي في جلده وتعمقت وغاصت فيه فلن يقدر عليها فهي في مأمن وأمان فمن ذا الذي يعبث الفيل إلا أصدقاؤه، أولئك القوائم على ظهره الأكلات عدوه المطهرات جلده من الآلام. وهذه الطيور البيض الحسم الصفر العيون والمناقير قد عملت للفيل ما لم يقدر الفيل أن يعمله لنفسه، إذن هذه الطيور خير أصدقائه.

قال شارح هذه الصورة باللغة الإنجليزية: فعلينا أن يخدم بعضنا بعضاً. هذا هو الذي استنتجه العالم الإنجليزي من هذه الصورة.

ننظر نحن في هذه الصورة فنجد الفيل العظيم احتاج إلى الطيور الضعيفة وصارت صديقات له وهذا هو خلق الله وتربيتم بمشيئته، ليس المدار في هذا المقام على كثرة العلوم، بل المدار على الإتقان والفهم، وسترى أيها الذكي في سورة «الروم» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الآية: ٢٢] كيف تكون الصور في أنواع الحيات وفي بعض الطيور وفي بعض الحشرات متشابهة، وتشابهها يجعل سبباً في حفظ الضعيف الذي لا سلاح له لمشابهته والتباسه بالقوي إذ يحيل إلى الذي يريد إهلاكه أنه ذو سلاح أو بطش شديد. هذا ما ستراه هناك وسترى الصورة الجميلة الموضحة الدالة على حكمة تفوق كل حكمة وعلم لم تعلمه الأمم إلا في أيامنا هذه، فإن علم الألوان كما تقدم في سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الآية: ٧] لا يزال الآن في حال الطفولة ومع ذلك قد أصبح ما ظهر منه الآن معجزة قرآنية، فإن تلك الألوان وتلك الصور والإبداع فيها والتفنن لا يدع أدنى شك لعاقل في الحكمة التامة التي لا يعقلها إلا من عرفها، وهل يعرفها إلا علماؤها؟، وهذا معنى كونه آيات للعلماء لا لجميع الناس. هذا ما سيأتي هناك ومعه شرحه لتبيان تلك المعجزة، وهي أن هذه الآيات إنّما يفهمها العلماء بفن الألوان، وهي أيضاً تصلح لهذا المقام، لأن قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[القصص: ٦٨]، إذا تلوت ما ستراه في الصور التي هناك أو الصور المذكورة في سورة «المؤمنون» عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[الآية: ١٧] فيما تقدم، أيقنت أن هذا الاختيار يسحر العقول ويدهشها. إذن أنا في هذا المقام لا أكثر من الأمثلة فإن ما مضى وما سيأتي كاف في ذلك.

وإنّما الذي أقول الآن: إن منظر الفيل وفوقه أبو قردان ما هو إلا كتاب كتبه الله بيده وقال اقرؤوه. الفيل أقوى والطير ضعيف والحشرة أضعف. الفيل كمن العدو في جسمه ولم ينجه منه إلا طير ضعيف، إذن تعاون الفيل وأبو قردان على هذا الضعيف. إن هذا الكتاب الذي كتبه الله لنا بيده يجب علينا دراسته، فنقول: الفيل من الحيوانات الأرضية ذوات الأربع، وأبو قردان من حيوانات الهواء، والدود من الحيوانات التي تختفي عن الأعين في الأجسام.

هذه أمم ثلاثة: أمة تكون غالباً في الأجسام أو تحت الثرى، وأمم فوق الثرى، وأمم في الهواء هذه كلها ظهرت في هذه الصورة، فساكن الأرض وساكن الهواء تعاونا على ما يسكن تحت الثرى أو في طيات الأجسام. أيها الناس، طير وحيوان أرضي بري تعاونا معاً، هذه هي الصورة التي ترونها، تعاونا لأن الحاجة ماسة، فهناك دفع أذى عن الفيل وغذاء لأبي قردان، فهذا العمل أشبه بمن ضرب بحجر طيرين فهو غذاء للطير وشفاء للفيل، إذن هو غذاء وشفاء. وهنا نقرأ درسين: الدرس الأول: بعض أسماء الله تعالى. والدرس الثاني: نظام نوع الإنسان.

الدرس الأول بعض أسماء الله الحسنى

انظر إلى الصورة وتفكر فإنك تقرأ فيها أن الله (ملك)، فالملك يدير الرعايا وهم في رحابه يعيشون، وأي ملك ينظم كهذا النظام، وهو (قدوس) منزه عن كل ما لا يليق بكماله، ومنها أنه لا يخلق داء إلا خلق له دواء مثل ما رأينا هنا، (السلام) فهاهنا أمان للفيل وأمان لأبي قردان، وهو (مهيمن) فهو

يفعل مع هذه الحيوانات فعل الطائر يهيمن على صغاره بأجنحته، وهو (عزيز) قد غلب الفيل بتلك الحشرات وغلب تلك الحشرات بأبي قردان، وهو (مؤمن) جعل هذه الحيوانات آمنة في أماكنها فرحة بنعم خالقها، وهو (جبار) حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه فذل لأضعف الحيوان واحتاج لبغاث الطير، وهو (متكبر) لا يريد أن يدخل أحداً في هذا النظام فهو عمله وحده، (الخالق) أي المقدر لهذه الموجودات، (البارئ) الموجد لها، (المصور) صورها على مقتضى الحكمة التي رأيناها هنا عياناً، وهو (قهار) قهر الفيل وقهر الحشرة، وهو (وهاب) وهب هذه الطيور أغذيتها من تلك الحشرات، (رزاق) رزقها من جلده، (فتاح) فتح لها باب الرزق، (عليم) بما يصنع في هذا وفي غيره، (قابض) قبض أرواح تلك الحشرات، (باسط) بسط الرزق لتلك الطيور بأجسام تلك الحشرات، (خافض) تلك الحشرات، (رافع) تلك الطيور على الفيل، (معز) لهذه الطيور، (مذل) لهذه الحشرات الخ. إذن أسماء الله الحسنى دراستها تكون أكمل في الحقول، وهو (لطيف) وبهذا اللطف خلق المنقار الحاد والعيون القوية والأجنحة لهذا الطائر فغاص على تلك الحشرات فصار لطيفاً بالفيل ولطيفاً بالطير، وهكذا.

الدرس الثاني: نظام الأمم الأرضية

وحق لي الآن أن أخاطب الناس كافة. ذلك لأن هذا كتاب الله وهذا خلق الله وأنا مفسر لكتابه، وقد ينشرح صدري لما أقول فيه، فعلي أن أخاطب أهل الشرق وأهل الغرب، فأخاطبهم بكلام ربهم وأعماله العجيبة فأقول:

يا أهل الشرق، ويا أهل الغرب، إن الله جعلكم أرقى من هذه الأمم الحيوانية، وجعلها هي أنفسها دروساً لكم، فاقرؤوا هذه الدروس وانظروا أمة من أمم الهواء قد اتحدت مع أمة من أمم الأرض مع تباعد ما بينهما وشدة اختلافهما واتساع نطاق البعد بينهما، هذا قوي وهذا ضعيف، هذا أرضي وهذا هوائي، هذا له أجنحة، وهذا له أرجل. هذا له معدات وهذا له قانصة وحويصلة، هذا أسود وهذا أبيض، هذا طعامه نبات، وهذا طعامه حيوان. نعم أنتم درستم يا أهل الأرض صفات الحيوان ولكن لم تدرسوا فن الأدب ونظام الأمم منه، فإذا كانت هذه الحيوانات المتباعدات تباعداً تاماً قد اتحدا وتعاونا وفرح كل منهما بأخيه، فما أجهلكم يا أهل الأرض. رأت الأمم الكبيرة أن الأمم الصغيرة لضعفها لم تستخرج ما في أرضها من كنوز ولم تستثمر مواهبها، فماذا فعلوا؟ هجموا عليهم وأذلوهم ومنعوهم العلم وهذا هو الخطأ والجهل.

يقول الله لكم جميعاً: انظروا الفيل وأبا قردان، الألفة بينهما جامعة لا عداوة فيها ولا اضطهاد، قتل الإنسان ما أجهله، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، تقرؤون ولا تفهمون، تدرسون ولا تعقلون، ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٧١].

أعجزت الأمم العظيمة أن تكون مع الصغيرة كالفيل مع أبي قردان تعاونا بالمحبة والمودة لا بالإذلال والإكراه. ارتقت الأمم الأوروبية ولكنهم جاهلون طرق الاستعمار، الأرض لم تزل مملوءة بالمتوحشين من نوع الإنسان وهؤلاء لم يقدروا أن يعلموهم، وغاية ما يعملونه أنهم يستعبدونهم وينهجون معهم نهج جماعات النمل القوية مع النمل الضعيف كما تقدم في سورة « النمل » فيكون هؤلاء سادة، وهؤلاء عبيداً، وتكون النتيجة أن السادة بعد أجيال وأجيال يألفون الراحة ويكرهون

التعب ويفرحون بالبطالة، وهناك تنقرض تلك الجماعات من الوجود. هذا هو استعمار أوروبا المعطوف على استعمار الرومان والأمم العربية في القرون المتأخرة، ومثلها استعمار التتار والترك العثمانيين، فهؤلاء في أواخر أيامهم كانوا عالة على الأمم يستنزفون ثروتهم وهم مذمومون، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ٤٥].

والحق الذي لا محيص عنه أن الأمم الأرضية اليوم لا سعادة لها إلا بالمعاونة العامة، وهذه يحوزها مفكرون دارسون لها حتى يكون الضعاف في أواسط إفريقيا وفي غربها مع الأقوياء في أوروبا أشبه بأبي قردان مع الفيل.

هذا هو الذي فهمته من هذه الصورة أي (شكل ١) في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨]، فهو الذي وضع لنا في الأرض نملاً يأسر بعضه بعضاً، وطيراً يصاحب فيلاً، وقد اخترنا أسوأ المثالين في القرون الحالية فلنختر أشرفها في الأيام المقبلة لنكون ناهجين في العمل أحسن المنهجين. انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ م

الجوهرة الثانية في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

جاء في هذه الآية أن الله واحد، وأنه محمود أولاً ومحمود آخراً، وأنه هو سبحانه له الحكم وأن المرجع إليه، ثم أعقبه بذكر الليل والنهار والضياء والظلام. ومن عجب أن المحاورة بين «طيماوس» وهو حكيم من أصحاب «فيثاغورث» وبين «سقراط» الفيلسوف المشهور تناسب كل ما في هذه الآية، وألخصها هنا جميعها لمناسبتها هذا المقام بعد أن أثبت منها في سورة «الشعراء» ما هو أكثر مناسبة للطب في آية: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الآية: ٨٠]، ذلك أن طيماوس ابتدأها بقوله: إنه يستعين بالله في شروعه في معرفة مبدأ العالم عسى أن يلهمه الله القول الحسن ويلهم السامع قبوله، ثم أخذ يفرق بين القديم والحادث، فالقديم متصف بالوجود ويدركه العقل، أما الحادث فليس له وجود حقيقي وإنما يدركه الحس والخيال ويحتاج إلى علة في وجوده المجازي. ثم أخذ يثبت حدوث العالم بأنه مرئي ملموس مادي، وكل ما ثبت له هذه الصفات فهو محسوس، فكل ما هو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث والحادث لا بد له من علة. ثم أبان أنه عاجز عن شرح وفهم الإله لأن المتكلم والسامع من البشر، ثم ذكر سبب خلق العالم وقال: سببه أن الله جواد وقد عمد إلى الأشياء المضطربة فوزنها فركب لها عقلاً، والعقل جعله في النفس، والنفس جعلها في الجسد، فجعل صورة العالم كله كصورة حيوان واحد مشتمل على كل حيوان، والعالم في نظره حيوان عاقل مرئي جسده مركب من العناصر الأربعة في نظره، إذن العالم مركب من العقل والمادة وشيء مشترك بينهما، فهو كله أشبه بجسم إنسان واحد، وقبل ذلك التكوين لم يكن ليل ولا نهار لأنهما حصلا عند تكوين الأفلاك.

إذن لا نحكم إلا على الحادث، أما القديم فلا، والكواكب التي هي من هذا الحيوان الكبير وهو العالم سواء أكانت سيارة أم ثابتة أجرام حية ـ في نظرهم هم ـ بها تكونت الأيام والشهور والسنين. ويقول: إن الله لما خلقها خلق لها أرواحاً وهي الملائكة تدبرها، وخاطبهم يقول: أنتم حادثون وهذا الحدوث ليس نقصاً لكم، لأن قوتي تحفظكم فأنتم لا يلحقكم موت، وهنالك خلق أرواحاً في كل

كوكب وفي الأرض والقمر والكواكب الثابتة وأطلع تلك الأرواح على العوالم كلها ، ثم قال لها : أنا خلقتكم من عنصر الروح الملكية وسأنزلكم إلى عوالم المادة ، وتكون لكم شهوة ، فمن اتبع العقل رجع إلى كوكب سعيد ، ومن اتبع الشهوة نقلته في حيوان بعد حيوان على حسب ما غلب عليه من اثر الشهوة ، وقبل ذلك خاطب أرواح الكواكب فقال لها : أنتم دائمون وأنا آمركم أن تأخذوا هذه الأرواح التي هي أيضاً إلهية وتسكنوها في أجسام وتغذوها بما يناسبها ، وتكون تلك الأشخاص مركبات مما يموت وهو الجسم ومما لا يموت وهو الروح مع إحداث حيوانات أخرى ليكمل النظام العام .

وهذا القول الذي قاله طيماوس لسقراط أكثره موافق للإسلام ، فقد ذكر بقاء نفوسنا ونفوس الملائكة ، وذكر العقاب للمذنب والسعادة للصالح ، وذكر أن الملائكة موكلون بالعالم ، وذكر أن العالم حادث ، وهذا عجيب جداً أوقفنا على أن نقل الفلسفة من اليونانية إلى العربية كان مشوهاً ، إذ نقلوا القول بقدم العالم ، فظهر أن ذلك النقل كان عن صغار علمائهم ، وأن ذلك الخلاف في الكتب كان ضياعاً ، وأقول الآن : يجب الاستقلال في جميع المباحث ، فإن الاتكال على الأمم مضيعة لأمتنا ، والذي ينافي ديننا مسألة كون العصاة يصبحون حيوانات ، فنفس « طيماوس » يقول : هذا ظن لا يقين ، وعليه فإن شريعتنا ذكرت جهنم وهذا عذاب يقين ، ومن الحكم العجيبة أنه يقول : « إن الله خلق الأرواح وخاطبها » ، وهذا بعينه آية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الخ وهذا من أعجب العجب أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم قد نزل الوحي عليه وهو لم يزاول علماً مما كان يختلج في قلوب علماء اليونان . وأقول : إن هذه معجزة كبرى ، بل كل هذا المقال معجزة وأي معجزة ، وكيف يثبت طيماوس المبدأ والمعاد وقدم الله وإثبات اليوم الآخر والعذاب والثواب وإن أخطأ في تعيينها ، ويثبت بالظن خطاب الله للأنفس قبل نزولها إلى عالمنا الأرضي ، كل ذلك قبل الرسالة المحمدية بنحو تسع قرون .

وهنا بهجة العلم التي هي أنسب لهذه الآية بذكر النور والعين ، قال ما نصه بحرف الواحد :

قال أفلاطون : ثم بين « طيماوس » تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره ، قال : إن البصر نار جعله الله في داخل العين ، فمن تلاقيه بالنار الموجودة من خارج يتولد الأبصار وبسط القول في مدح البصر وبيان منافعه ، قال : إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس والكواكب ما كنا نتمكن من الكلام عن السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليل وتحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فمنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على البشر .

ثم قال : إن الله لم يقصد من إيجاده البصر إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا وتنظيمه على نسق ما نراه في السماء من ترتيب العقل في دورانه إذ هو وذاك طبيعة واحدة . انتهى .

يقول طنطاوي جوهري مؤلف هذا التفسير : إني لما اطلعت على هذه الجملة الأخيرة اعتراني ما يشبه الدهش والبهر وفكرت في هذا النوع الإنساني في الوقت الحاضر لا سيما أمة الإسلام ، اللهم

إنك أنت خلقتنا في هذه الأرض غرباء عن المادة، فحجبت هي أكثر عقولنا فكيف نرى هذا الجمال؟ جمال النجوم ونظام الشمس والقمر والكواكب، ونرى الشهور والسنين، ونحن غافلون لم يخطر ببالنا من تلقاء أنفسنا أن تهلك العوالم المنظمة قد جعلت نبراساً لعقولنا التابعات لها، ونحن نقرأ كل يوم: ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الحجر:١٦] ونقرأ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق:٦]، ونقرأ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾[القصص:٧١] الخ فهاهو ذا ذكر الليل والنهار وأنهما لمنافعنا، ويقول في آية أخرى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ ﴾[يونس:٥] الخ، أوليس من أعجب العجب أن يأتي رجل يوناني فيقول: إن البصر لم يخلق فينا إلا لنلاحظ هذه الكواكب وسيرها، ونفكر أن نظامنا يكون على نظام السماوات التي نظمتها عقول عالية عقولنا مخلوقة على مثالها. أوليس هذا هو قوله: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن:٧-٨].

أيتها الأمم الإسلامية، إني أكتب هذا وإن نفسي في خجل أن أرى أن هذه الحكمة وهذا الإشراق وهذه النظرات السامية تكاد تكون مفقودة في أمتنا الإسلامية في القرون المتأخرة، أنا أقول: لن يكفي المسلم أن يقرأ هذا في كتاب. كلا. بل لا يتسنى للمسلمين أن يتأثروا بهذه المباحث إلا إذا نظروا بأنفسهم وفكروا بعقولهم فكراً استقلالياً، فمن وفقه الله لهذا هداه إلى النظرات في الكواكب ليلاً فيفكر في جمالها الظاهري ويتأمل في عجائبها بنفسه يوماً فيوماً، ثم يدرس مبادئ الفلك وهذا هو قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف:١٨٥]. هنالك يتأثر الوجدان، ومن هذا التأثر تحصل المعرفة، فالكتب وحدها لا تفيد بل لا بد من النظر الاستقلالي.

اللهم أنك أنت المنعم وأنت الهادي. اللهم إني ألجأ إليك أن تجعل هذا الكتاب ذكرى لشبان من النوع الإنساني مسلمين وغير مسلمين، لأنك أنت رب الجميع والمنعم على كل نسمة بما يناسبها، وخير النعم ما كان علماً وحكمة، فاجعله يا الله نوراً لبصائر المستعدين من العالمين، والحمد لله رب العالمين. انتهى صباح الاثنين يوم آخر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ .

الجوهرة الثالثة في بهجة العلم في قوله تعالى:
﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

حدثني الحارث بن همام قال: رأيت في المنام كأني مت وغسلت وكفنت وصلي علي ودفنت وفي نفس الوقت كأن روحي ترفرف بهيئة تشبه هيئة جسمي ولكنها هيئة روحية نورية فأخذني ملائكة أوقفوني في عوالم من النور البهيج الذي لا مثيل له في الأرض بحيث لا أتمكن من وصفه لبهجته وجماله، ثم أحسست في نفسي بخواطر على هيئة السؤال والجواب وأنا في حال الدهش من الجمال وكأن الحق يخاطبني بلا حرف ولا صوت وأنا أجيب في سري، وكأنه يقول لي يا عبدي أنا أحبك فقلت في سري: ربما كان هذا الخاطر شيطاناً، وإلا فكيف أستحق هذه المحبة وأنا مقصر في أعمالي كلها، فقلت في سري: وما علاقة حب الله لي؟ فكان الجواب ما يأتي: « علامة حبي لك أنني شغلت عقلك بي طول حياتك، فأنت في حضرك وسفرك وفي كل حال من أحوالك تبحث عني وتفكر في أعمالي، فهذه لم تكن إلا من الحب الذي ألقيته في قلبك لي، ولن يحبني أحد إلا كنت

أنا محباً له قبل أن يحبني ، ألم تقرأ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة : ٥٤] » ، ثم قال : « وقد خلقت العالم كله لأجلك » .

قال فلما خطر لي هذا الخاطر وكأنه خطاب من الله اعتراني الذهول ورفعت طرفي إلى السماء وقلت : يا الله أنا لست بقادر على أن أفهم هذا ، فأجبت بما يأتي : « طب نفساً وقر عيناً وسأعلمك معنى ذلك ، من أين أتت روحك؟ فقلت : هي قبسة من نورك ، فقال : وهذا النور حكمت عليه أن يتربى تربية تدريجية في العوالم المادية ولا يكون ذلك إلا بأبوين يلدانك وأمة يعيش فيها هذان الأبوان وأمم تحيط بهم تساعد هذه الأمة بتجارة ومعاملة ، وهذه الأمم كلها لابد لها من الحيوان والنبات والماء والمعادن والأرض والهواء والكواكب الثابتة والسيارة . فقلت : نعم حقاً أنا لا أخلق إلا وأنا مصحوب بهذا كله ، فقال لي الله في سري : فأنا لأجلك خلقت الشمس والقمر والمجموعة الشمسية والمجرة والسدم والأرض ومن عليها ، قال فقلت في نفسي : إنه لم يخلقها لي وحدي ، فأجابني قائلاً : أضرب لك مثلاً رجلاً له عشرة أبناء أسكنهم بيتاً مزخرف الحيطان مفروش الأرض مضاء السقف بالمصابيح ، وهؤلاء الأبناء يتعاونون على جلب الرزق ودفع الأعداء ، فهل هؤلاء الأبناء كل واحد منهم شر على البقية من إخوانه أم هو خير؟ فقلت : بل هو خير لأنه وإن شارك إخوته في الرزق فقد شاركهم في العمل والمنفعة لهم ، فقال : إذن كل واحد من العشرة الأبناء في حياة وسعادة بالمنزل نفسه وبجميع إخوته المساعدين له ، فقلت : نعم . قال : فهكذا أهل الأرض كلهم فكل امرئ منهم يصح أن يقول خلق العالم كله لأجلي ، ولا ينافي هذه القضية بل يؤيدها وجود أمثاله من بني آدم في الأرض لأن كل إنسان منتفع بالناس تعليماً وتجارة ومدنية ونظاماً كما انتفع من الشمس والقمر والسحاب والهواء . إذن لكل عاقل أن يقول : خلقت لي السماوات والأرض وما بينهما ، كما تقول المرأة في حق زوجها وإخوتها وذريتها : هؤلاء كلهم لمنفعتي وخدمتي ، وكل من هؤلاء يقول مثل ما تقول هي ، وعليه لكل إنسان في الأرض أن يقول : خلق العالم كله أجلي ، قال : ثم هجس في نفسي أن هذه المعاني كامنة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾[الضحى : ٦] ، فاليتم اللغوي معروف وهو الذي يحبب القلوب في ذلك اليتيم فتكفله ، أما اليتم العلمي فهو احتياج النفوس إلى تربيتها في الأجسام وإصلاحها بهذه العوالم كلها . وأول اليتيمين رمز لثانيهما ، فكل نفس في حد ذاتها مفتقرة إلى هذه العوالم افتقار من فقد أباه إلى من يعوله ، وقوله : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[الضحى : ١-٢] قد شمل العوالم كلها ، فالعالم العلوي والسفلي ليلاً ونهاراً مسخر لكل امرئ في الأرض .

قال الحارث بن همام : فلما تم هذا الخاطر في نفسي قلت : يا عجباً وهل هذا دليل على حب الله لي؟ فخاطبت الله في السر قائلاً . إذن أنت تحب كل مخلوق وكل إنسان كافر أو مسلم لأن كل واحد من هؤلاء يقول مثل ما أقول ، فأجابني الخاطر في سري يقول - إن الله لم يخلق الخلق إلا وهو يحب أن يخلقهم ، ومن كشف منهم له الغطاء عن حقيقة الأمر وأحس بوجدانه بما ذكرته لك الآن فهو المقصود الحقيقي لأن روحه أصبحت راقية ، أما بقية الخلق المغمورين في الجهالة فأمامهم دهور ودهور يتيهون في بحر الجهالة والعماية والضلال ، ثم قال : إن الله خلق الخلق وأعدهم للرقي ، ومن أحس بهذا الوجدان وثبت في نفسه فذلك دليل على أنه استعد للمحبة الحقيقية والنور والبهجة والجمال .

ثم قال الحارث بن همام: فقلت في سري: إن المحبة في أهل الأرض إذا ملكت قلب امرئ أضنته وأحرقت فؤاده وأمرضته، وما هي إلا أن يحب الرجل امرأة ردحاً من الزمن، فما بالك إذا أحب العالم مبدع هذه الصور وأنواع الجمال؟ فكيف يطيق ذلك؟ وكيف يكون ذلك الحب؟. قال: فأجابني الخاطر في سري قائلاً: أما قولك كيف يكون ذلك الحب؟ فأقول. أذكرك بما تقرأ في الحكمة والعلم فتفكر في رجلين رأيا طائراً على شجرة مثل الزرزاق البلدي ـ المرسوم في سورة «يوسف» وفي سورة «النمل» ـ فهذا له نوع من الجمال فوق الشجرة وقد تمايلت الأغصان وهبت الرياح وتغنت الأطيار فأحدهما لم يفكر فيه والثاني فكر في جماله ومنفعته، وكيف أعد لأكل الدود الذي يأكل الزرع، فهنالك يحار لبه ويدهش ويقول: إني كما أنتفع بالشمس والقمر والكواكب وأهل بلدي وأمتي والأمم وبالجبال والأنهار هكذا أنتفع بهذا الطائر وهو وأمثاله التي تبلغ نيفاً وثلاثين كما تقدم في سورة «طه» وسورة «يوسف» فهذه كلها جيوش وجنود مجندة أرسلت إلي من العالم الأعلى لتلتقط الدود وتحافظ على حياتي، هنالك يخرج من هذا الخاطر إلى ما هو أرقى عنده ويقول في نفسه: من أنا؟ وما هي حياتي؟ وما هذه الطيور والأمم والدول والكواكب؟. إن الأمر لأعظم وأكمل، أي حكمة دبرت. وأي تدبير أحكم؟ إن الأمر لعظيم. هنا تدبير محكم ربط الشجر والطير بالدود والزرع والإنسان. هذه حكم ونظم محكمة مضبوطة، هنالك تطير روح هذا المفكر إلى عالم الجمال وتفكر فيه وتنشرح وترجع إلى مبدع هذه النظم، وهنالك يرى الجمال بالبصيرة ويدهش عقله ويطير لبه، وهذا الحب والدهش والتعجب ليس اختيارياً، بل هو أشبه بحب المرأة لولدها والعاشق لمعشوقه. والناس في حق أصحاب الجمال على قسمين: قسم عرف الجمال وهام به، وقسم عرفه ولم يهم به لعدم استعداده. وكما أن إذا أتينا بطفل أمام مائة امرأة وهو يبكي طالباً إرضاعه لا نرى واحدة منهن تتقدم إليه أكثر من غيرها إلا امرأة واحدة هي أمه التي تلقمه ثديها لأنها هي التي بينها وبينه مناسبة أشد من غيرها، وإن كان النساء كلهن يتأثرن لبكائه ويردن إرضاعه. هكذا مناظر هذا الوجود كمسألة الطائر المتقدمة والتقاطه الدود وحسن النظام العام، فهذا ينظره العالم والجاهل وعلماء الزراعة وغيرهم، ولكن لا يتأثر بالحب لمبدع العالم إلا نفوس خاصة كما لم يؤثر بكاء الطفل الأثر القوي إلا في أمه. هنالك دعيت في سري وقيل لي: إذن أنت محبوب فعلاً لأنك إذا نظرت أمثال هذا الطائر طار لبك وأخذ منك العجب كل مأخذ، ووجدت في نفسك حباً لا يحس به من حولك مع أنهم يشاهدون مثل ما تشاهد ويعلمون مثل ما تعلم، بل نفس علماء الحيوان وعلماء النبات يعلمون هذا أكثر منك ولكنهم لا يتأثرون، فيرى عالم الزراعة أن ورق السنط قد حفظ بشوكة طلعت بجانب كل ورقة، وأن عنق ورقة البازلاء وعنق ورقة الورد قد حفظ كل منهما بما خلق ملازماً له كما تقدم في سورة «النمل» رسم ذلك. يرى ذلك عالم الزراعة فلا يتأثر به لأنه ربما لم تكن روحه من الأرواح المستعدة لفهم الجمال كما لم يستعد الطفل لإدراك جمال الغانيات.

ثم قال الحارث بن همام: وختم الهاتف في سري خطابه لي قائلاً: إن كل العوالم ساعية مجدة للرقي ولم يحظ بتلك المحبة إلا نفوس خاصة هي التي أدركت ذلك الجمال، أما البقية فإنهم إلى الآن لم يصلوا إلى درجة الكمال فلم ينالوا هذه المحبة. هذا جواب السؤال الأول، وهو كيف يكون هذا الحب.

أما قولك كيف يطيق ذلك الحب؟ فأقول: هذا هو بيت القصيد. اعلم أن أرواحكم في هذه الأرض لها صلة بالأرواح العالية فهي نفوس جزئية لها نسبة إلى النفوس الكلية التي بها نظمت العوالم كلها بأمر الله وهي المدبرات أمراً، فهذه وضعت في الأرض، والأرض كلها جمال وحكم وعجائب وبدائع، فلو أن هذه النفوس كشف لها الجمال فيما حولها لماتت وتصدعت، ولكن الله لرحمته أحاطها بالمصائب والجهل والحسد والحرب والمرض وغيرها لئلا تعرف الجمال فيدهشها فلا تحمله فتهلك، فانظر إلى آثار رحمة الله، جهل وذل وعمل وأشغال متعبة وهموم، كل ذلك جعل غطاء يغطي جمال هذه العوالم المحيطة بالإنسان من كل جانب، بل على مقدار كثرة الجمال في العوالم كان الغطاء الذي غطاه، فكثرة الأعمال والجهل والثورات والفتن في الأرض وضعت بمقدار وفرة الجمال لتغطيه وتحجبه. فأكثر الخلق محجوبون عن الجمال في أنفسهم وأجسامهم وحيواناتهم ونباتهم وأرضهم. فأما الذين كشف لهم بعض الجمال فهؤلاء أيضاً تنزل بهم الكوارث والنوائب فتحجب عقولهم عن ذلك الجمال كالباقين، وإنما يتجلى لهم وقتاً بعد وقت على مقدار طاقتهم، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦].

نور الجوهرة الثالثة: الصحة والشمس

جاء في جرائدنا المصرية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ ما نصه: يقول الدكتور «بنتي» عميد كلية الطب بكلكتا: إن الشمس تسبب زيادة سكان الممالك أو نقصها كما تسبب نمو المحصولات أو ضعفها. وعلى ذلك يقول الدكتور إنه في أمريكا والهند استدلوا على أن الشمس تؤثر في إنماء الأجسام والمحصولات الزراعية، وأن عدم وجود الحرارة يضعف الأجسام والمحصولات أيضاً. ويزيد أن الصحة لا تسلم إلا في نور الشمس وتحت حرارتها. اهـ.

الجوهرة الرابعة في قوله تعالى:

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[الآية: ٧٣] الخ

بعد قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ﴾[الآية: ٧١] الخ

اعلم أيها الذكي أن هذا المقام عظيم القدر سامي المنزلة، ففهم الرحمة هنا يعوزه أن تجتهد النفس في أن تتملص من عاداتها وتخلص ولو مؤقتاً من شؤونها حتى تتفرغ إلى فهم رحمة الله بشمسه وكواكبه نهاراً وليلاً وبالظلمات والأنوار. واعلم أن السبيل لذلك ما قاله الله في سورة أخرى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه: ١٣٠-١٣٢]

خلقنا الله في الأرض وأفاض علينا نعم الشمس والكواكب والأنوار، ولكنه في الوقت نفسه سلط علينا الأعداء من كل جانب، كلما أحسن إليهم المرسلون والعلماء بإفاضة العلم والخير آذوهم وسلقوهم بألسنة حداد، ومن جهة أخرى سلط على كثير من الأخيار في الأرض حب الموازنة بينهم وبين معاصريهم في المال والرزق والولد والجاه.

إن أهل الأرض من الصالحين والطالحين جميعاً قد أحاطت بهم هذه المزعجات عن حولهم ومن أنفسهم، يجدون من بني آدم العداوة والبغضاء، لاسيما الأقارب والقرناء، ويجدون من أنفسهم طمعاً لا حد له وميلاً لزخرف الحياة الدنيا، فالأنفس في عذاب واصب مزدوج من داخلها ومن خارجها، فأنى وكيف تقدر هذه النفوس أن تخلص للنظرة العامة في هذه الشمس الجميلة والكواكب البهجة وبهائها وظلمة الليل وضياء الشمس؟ كلا. فالقوى النفسية في الإنسان محدودة وقد وزعت بين قوتين قوة داخلة وأخرى خارجة.

اللهم إنا نحن بني آدم على الأرض مساكين خلقتنا في أرضك الجميلة تحت شمسك البهية المتلألئة وكواكبك البديعة، ثم أحكمت أقفال أبواب السماء على أكثر نفوسنا فغابت في دجى ظلماتها وانهمكت في مطالب دفاع الأعداء وجلب الكساء والغذاء، فنفوسنا أبداً ما بين قوى الدفع والجلب، فأنى لها أن تخلص من ذلك وتنظر رحماتك الواسعة المحيطة بها؟.

علم أن ذلك الخلق فينا فقال لنا: أيها الناس، أما ذم الأعداء وحسدهم وإيذاؤهم فدواؤه الصبر، وما الصبر إلا الجنة ـ بضم الجيم وتشديد النون ـ التي تتخذونها لكم دروعاً تتقون بها إيذاء الأعداء وأنا مع الصابرين، وأما مطالب أنفسكم وحبها لزهرة الحياة الدنيا فإياكم أن تمدوا أعينكم إلى ذلك لأنها زهرات وهل للزهرات بقاء؟ إذن لا بد من صبر على الضراء وصبر عن الشهوات.

إذن الناس موثوقون بوثاقين والوثاقين لهما حل واحد وهو الصبر، صبر على قول الأعداء وصبر عن الشهوات. وبعبارة أخرى: احتقار ما يصيب الإنسان داخلاً وخارجاً. هذا هو قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[طه: ١٣٠] راجع للصبر على كيد الأعداء، وقوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾[طه: ١٣١] الخ راجع للصبر عن الشهوات. وهاتان الخصلتان يرجع إليهما كل مكروه من مرض وفقر وفراق وهكذا. فهذه هي القواطع التي تقطع الناس وتصرفهم عن معرفة رحمة الله عز وجل في شمسه وقمره وكواكبه. وبالصبر والرضا بالقضاء والقدر رضاً مبنياً على العلم والحكمة يتفرغ الإنسان لهذا الوجود ويفهم إذ ذاك قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه: ١٣٠]، لأن النفس لا ترضى إلا بالعلم والعلم لا يكون إلا بعد أن تذهب تلك القواطع.

يأمرنا الله بالتسبيح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ويأمرنا بذلك في بعض ساعات الليل ويقول لنا في هذه الآية التي نحن بصددها ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[القصص: ٧٣]. قد قلنا إن الإنسان موثق بوثاقين من الداخل والخارج، والوثاقان يحلان بالصبر، ولكن الزهد في الدنيا والصبر على الأذى وحدهما ليس معناهما أن الإنسان فهم هذا الوجود لأن هذا ما هو إلا تخلية ولا بد من التحلية كداخل الحمام يتجرد من الأقذار ثم يلبس الثياب، هكذا هنا إذا خلت النفس من هذه القواطع فلتشرع في درس هذا الوجود. ولتقف أيها الذكي صباحاً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في موضع خال والجو جميل فسيح وقد أقبلت جيوش المصابيح البيض الصباح أو المشرقات الحسان البهجات في دياجي الظلمات. فهنالك تنظر فترى دولة وموكباً مقبلاً، فتطلع الشمس وترسل الحرارة إلى الهواء فتجري الرياح، وإلى الماء فيثور البخار الذي

يصير سحاباً فتقابله الرياح فتحمله إلى الأقطار فيمطر فيكون أنهاراً تسقي النبات والحيوان والإنسان. أو ترى الثريات اللامعات التي لا حد لها لجمالها في الدجى وهن باهرات لا يعرف لهن أمد ولا يوقف لهن عدد، ثم تنظر فترى أن حياة كل مخلوق موقوفة على الشمس وضوئها وحرارتها، وأن كل ما هو جميل في الأرض مشتق من بهاء تلك المشرقات، وما هذه الزينة التي تتباهى بها الغانيات الحسان في الأرض إلا من آثار ذلك الضياء، ألم تر أن الأصباغ التي نوعها الإنسان في الثياب ما هي إلا من الفحم الحجري الذي حفظ ضوء الشمس قبل آلاف الآلاف من السنين ثم استخرج الناس منه تلك الأصباغ الآن والأضواء، وبتلك الحرارة المخزونة أجروا المركبات في الطرقات ونوعوها ووزعوها في الأقطار.

نفس الإنسان شريفة كبيرة عظيمة تعطي الملك والنعم والمال والولد وتملك الأقطار والبلاد ولكنها تقول: كلا. كلا. هل من مزيد، هي حقاً من نور الله، نحن لا نرضى في الأرض بما نملك. لو ملك كل منا هذه الأرض جميعها لقال: هل من مزيد؟ فكيف إذا كانت الأرض موزعة بيننا فلا سبيل لنا إلا العداوة والبغضاء في اقتسامها، وإنّما لم نرض بذلك لأن هذه النفوس عالية شريفة لا ترضى إلا بمعرفة حقيقة هذا الوجود، ومتى عرفت اطمأنت وسكنت. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]، إما إهلاك الأعداء، وإما مد عينيك إلى ما متعناهم به من مال وولد، فهذا لا يرضي هذه النفوس إلا وقتاً ما ثم ترجع للمطالبة وتقول: أين المنتهى؟. ومتى أدرك الإنسان جمال هذا الوجود ـ ويكفيك مؤقتاً قراءة هذا التفسير أو أكثره ـ رضيت نفسه وفهم معنى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾[طه: ١٣٠] الخ، وأدرك السبب في ترتب الرضى على التسبيح والتنزيه لا غير، إذ يرى أن ما يصيبنا لم يكن إلا لارتقائنا، والله منزه عن قصد الإيلام بلا فائدة. ومتى اعتقد ذلك اعتقاداً مبنياً على النظر والعلم رضي وفهم سر معنى كون رضوان خازن الجنان فهو من هذا الوادي، وكم في هذا المقام من أسرار. وبهذا المقام يفهم المسلم في صلاته معنى مخاطبة ربه قائلاً: أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت »، فأنت أهل الثناء والمجد دائماً. ومعلوم أن الثناء لا يكون إلا على نعمة، وهذا المنع بعد فهم الحقائق صار نعمة. والمصلي يقوله إما تعبداً وتكلفاً إن كان جاهلاً، وإما بعلم وعقل إن كان عارفاً بأمثال ما يذكر في هذا التفسير، وهنالك درجات فوق ذلك.

فهناك يمتزج التسبيح بالتحميد إذ يرى في طلوع الشمس والكواكب وغروبها حياة وموتاً وزرعاً وحصاداً، ويدرك النعم ويعقل السبب في الموت والمرض، وأن كل شر لم يكن إلا لخير وأن الأمر عظيم، ويفهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[الإنسان: ٢٠]، ويرى أن الملك الكبير كما يكون يوم القيامة يكون في الدنيا بالفهم والعلم غاية الأمر أن يكون هناك أظهر، ولكنه ظاهر لذوي الأبصار الآن. إن هذه الطائفة التي اتصفت بما أقوله الآن وعرفت مقصود الوجود على مقدار طاقتها تعرف نعم الله فتحمده عليها وتشكره، ويخامر قلوبها حبه لما ترى من جماله وإحسانه الذي لا حد له، وتفهم أن رحمته لا حد لها وتعقل أن الموت الذي هو أعظم المصيبات المخيفات في الدنيا ما هو إلا مقدمة لا بد منها من مقدمات الرحمات، لأنه يستحيل أن تكون هذه الرحمة التي لا حد لها تأتي بنقمة إلا مقدمة لنعمة. وبعبارة أخرى إن النقمة ضرورية لجلب نعمة أرقى من النعم السابقة.

هذا هو الذي تضمنه قوله تعالى هنا : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[القصص: ٧٣] الخ . فبهذا الإجمال نتصور مبادئ الرحمة التي في هذه الآية فننزه الله عن الإيلام لغير نتيجة ، وهذا هو التسبيح ، ونعرف نعمه التي لا حد لها وهذا هو التحميد ، وهذا هو غاية الرضا ، وإذن نفهم ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[طه: ١٣٠] ، هذه هي الرحمة العلمية .

أما الرحمة العلمية فانظر أيها الذكي إلى بني آدم تجدهم قد تخبطوا في قبول هذه النعمة رأوا الشمس وضوءها فماذا فعلوا؟ رأوا الطيور والأنعام والحشرات متمتعات فرحات بضوء الشمس فقلت أمراضها وكثرت خيراتها ونعمها . أما هذا النوع الإنساني فإنه لما أعطي قوة الفكر والتمييز أخذ يتوارى عن السعادة ويحط في دركات الشقاء بسوء تدبيره ، وكبل في قيوده ، وحيل بينه وبين سعادته بالتباهي ، وألهاه التكاثر في المال والولد والزينة والزخرف وجمع المال والإكثار من الملابس والتفنن في الأطعمة والانزواء في القصور والمنازل ، فحرم الهواء النقي وضوء الشمس والأطعمة الطبيعية فأحاطت به المكروبات « الحيوانات الذرية » ، وأوردته موارد الهلكة بالطاعون والحصباء والجدري والحمى وأمثالها وقتله الأسقام بسبب البطنة وسوء اختيار الأغذية واتباعه ظواهر اللذات الحسية ونبذه مقاصد المطاعم والمشارب ، ولذلك الإشارة بقصة أبينا آدم التي ذكرت في مواضع من القرآن يقول تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾[طه: ١٢١] . فانظر هذا المقام في أول سورة « الحجر » وفي أواخر سورة « طه » ، فهنالك ترى حصل هذا الإنسان وجهله في الشرق والغرب ومرض بدنه بجهله ، سواء في ذلك أطباؤه وعامته وعلماؤه وجهلاؤه .

لعمر الله ما نزلت تلك القصة ولا كررت تأديباً لآدم . كلا . وإنما ذكرت عظة لنا وتأديباً ، وهذه القصة قد نزلت على الأنبياء ثم على نبينا صلى الله عليه وسلم ، والناس لا يكادون يفطنون لها ، حتى إذا كان هذا الزمان أخذ الناس يفطنون لهذا الوجود وبحثوا فأداهم بحثهم إلى أن التواري عن الشمس والانزواء في البيوت والانهماك في اللذات كلها عذاب واصب . أما المطاعم واللذات فقد تقدم الكلام عليها مفصلاً في سورة « الشعراء » عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الآية: ٨٠] ، وفي سورة « طه » عند قصة آدم ، وفي سورة « الحجر » كما تقدم ، وفي سورة « الأعراف » عند قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[الآية: ٣١] ، وفي سورة « البقرة » عند قوله تعالى : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[الآية: ٦١] ، فاقرأ ما هناك ، فإن فيه غنى لك ولذويك وحكمة ونوراً مبيناً .

وأما أمر الشمس فإن الناس اليوم عرفوا قيمة الخلوات والهواء والتعرض لضوء الشمس ، فعلى المسلمين أن يذروا ما عندهم من العادات ، وليكن لهم وجهة صحية بعلم وفهم ، وليعلموا أن الله عز وجل عمم نور الشمس وجعله سعادة وصحة للطيور وللأنعام وللحشرات المقيمات في الحقول والبساتين ، فليس من المعقول أن يكون نعمة لهذه المخلوقات ، ثم هو نفسه يكون نقمة على الإنسان .

قد أجمع الأطباء أن ضوء الشمس يجب أن يتخلل جميع حجرات المنزل حتى تقتل الحيوانات الذرية ، بل إن الأمر فوق ذلك . هاهم أولاء أهل ألمانيا أخرجوا التلاميذ من المدن والمنازل وأخذوا يعلمونهم في الخلاء ليتلقوا العلم وهم معرضون للشمس التي هي رحمة مرغوبة لا نقمة مرهوبة ،

فهاك ما اطلعت عليه في مجلة « كل شيء » ، فاقرأه قراءة من يريد أن يعمل بالعلم ، فإذا قرأته فتفكر فيه وغيّر نظام مدارس المسلمين وأخرجهم من ظلمات الحجرات الحقيرة القذرة ، وقل لهم : أيها الناس إن الله جعل ضوء الشمس رحمة بنص الآية ، ثم ألهم الأمم وعلمها فعرفت فوائد الضوء فاغترفوا من رحمته بضوء الشمس ، ولا تحبسوا أبناءكم في تلك الأماكن القذرة التي لا يدخلها ضوء الشمس ، وابتغوا من فضل الله ، فهذا كلام الله وهذا عمل العلماء من عباده ، فهذا ما جاء في تلك المجلة بنصه :

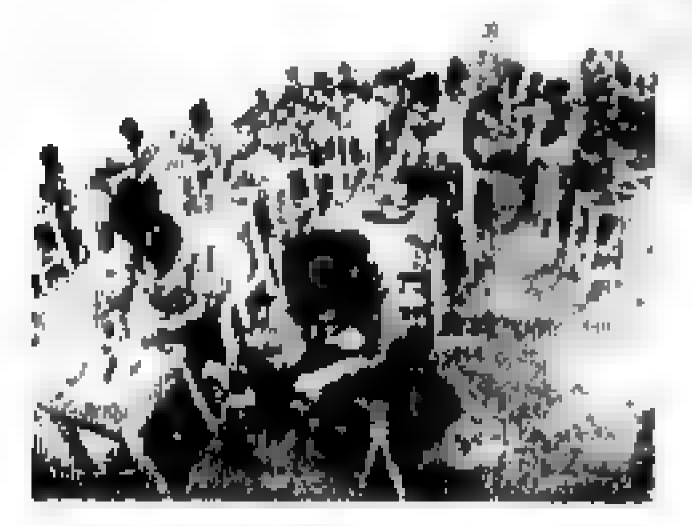
التعليم في الهواء الطلق

يؤمن الأطباء الآن إيماناً عظيماً بفائدة الضوء والهواء الطلق ، ولذلك هم ينصحون للمرضى بالتعرض لضوء الشمس والتخفيف من الملابس ، بل ينصحون باستعمال الضوء الصناعي إذا كانت الغيوم كثيرة كما هي في لندن .

وقد بنى الألمان وغيرهم مدارس مكشوفة يجري التعليم فيها في الخلاء ، فإذا أمطرت السماء أوى التلاميذ والمعلمون إلى الغرف ، ويرى القارئ هنا ثلاث صور لمدرسة أطفال جديدة أنشئت قريباً من « بورجيه » في فرنسا ، وهي تجمع الصغار من منازلهم كل يوم بالأتوموبيل وتخرج بهم للخلاء فيجري التعليم بين الحقول تحت الشمس عند اعتدال الهواء ، فإذا لم يكن الجو موافقاً قعد التلاميذ في المدرسة الأصلية ، وهي بناء عادي به الغرف الخاصة بالتدريس ، وبهذه المدرسة الآن ٨٠ تلميذاً ، انظر شكل ٢ ، وشكل ٣ ، وشكل ٤ .



(شكل ٢ ـ التلاميذ في المدرسة الجديدة التي أنشئت أخيراً في فرنسا يلعبون في الحقل أثناء الاستراحة بين الدرسين)



(شكل ٣ ـ التلاميذ على الموائد)



(شكل ٤ ـ التلاميذ في خيامهم في الخلاء يستريحون عقب الغداء)

فلما اطلع صاحبي العالم على هذه الصورة وفيها التلامذة في الخلاء معرضين للشمس، قال: أتدري ما يقول الناس حين يرون هذه الصورة؟ يقولون إنك تأتي بالجزئيات فتجعلها كليات، هذه فرنسا ربما قام فيها أفراد وصنعوا هذه للتجربة، وجعلوا مدارسهم في الخلاء تحت الهواء والشمس فهل يصح هذا قاعدة وعلماً؟ وأيضاً إن أمر الشمس يحتاج إلى إيضاح، ثم لماذا أدخل «من» على الرحمة؟ وما رأيك في تعليم المسلمين اليوم وغداً؟.

فقلت: سأشرح هذا المقام في هذه الفصول:

الفصل الأول: في منافع الشمس وما يتخيله الناس في مستقبل أمرهم بالنسبة لها

الفصل الثاني: علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم، وفي ذلك مقصدان:

المقصد الأول: آراء ابن خلدون في أن التضييق على المتعلم يورثه الخيبة ويقعد به عن المعالي.

المقصد الثاني: فيما قاله العالم السويسري الذي جاء إلى مصر الآن.

الفصل الثالث: في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم.

الفصل الرابع: في شرح الكلام على الرحمة في هذا المقام.

الفصل الخامس: آرائي في التعليم عند المسلمين اليوم وفي المستقبل.

الفصل الأول
في منافع الشمس وما يتخيله الناس في أمرها غداً

(١) إن الشمس بها يكون البخار فيصير سحاباً فمطراً فيكون النبات والحيوان.

(٢) إن الفحم الحجري المطمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس، وهاهو الآن تجري به المركبات وتسرع الحركات.

(٣) بالشمس كانت الرياح اللاتي تجري بها السفن والمطاحن. إن الشلالات بها تستخرج الكهرباء والشلالات وما أشبهها نتائج الشمس، لأن نفس الأنهار سببها الشمس.

(٤) وكل محرك كهربائي لا يسير إلاّ بوقود وقوة، والقوة أصلها من الشمس

(٥) وقد تخيل العلماء أن الشمس في المستقبل سيجعل لها زجاج بلوري يجمع الأشعة ثم يوزعها.

ومعنى هذا أننا بدل أن نرجع إلى ما خزن من حرارتها قديماً في الفحم المطمور في باطن الأرض نأخذه مباشرة لنفس الضوء بآلات خاصة ونخزنه ونستعمله، أي أننا نأخذ ضوء الشمس مباشرة ودون تلك الوسائط القديمة التي صنعها الله لنا لضعفنا وجهلنا، أما الآن فالعلم يفتح لنا كل مغلق. وهذا الرسم الذي تخيله الناس نقلته من مجلة «كل شيء».

انظر شكل ٥ في الصفحة التالية.

الشمس مصدر كل قوة في الأرض

هذا الرسم يبين أهمية الشمس للبشر وكيف أنها المرجع الأصلي لكل القوى التي نستخدمها على وجه الأرض، وقد رسمت الشمس في الوسط ورسمت حولها بعض الأشكال التي نستخدم بها قوتها، أي الأجهزة التي تستمد قوتها من الشمس.



(شكل ٥)

(١) آلة لاستخدام أشعة الشمس في المستقبل، وهي صورة تخيلية.

(٢) الأحياء كلها تستمد قوتها من الشمس إما مباشرة أو غير مباشرة.

(٣) الفحم ليس إلا نباتاً مطموراً، والنبات إنّما يحييه الشمس.

(٤) الشمس تسبب حركة الرياح فتستخدم في المطاحن وفي السفن.

(٥) الشلالات والأنهار إنّما نشأت عن تبخر المياه وسقوطها مطراً.

(٦) الحركات الكهربائية لا تسير إلا بوقود، أي بقوة مستمدة من الشمس.

إيضاح الصورة المتقدمة

تكثر الصحف هذه الأيام من ذكر القلق الذي ينتاب العلماء بشأن نفاد الوقود؛ فالبترول والفحم سينفدان عن قريب، وقوة المياه الساقطة محدودة. أما قوة الرياح والمد والجزر فلم يمسها أحد إلا قليلاً، ولذلك يكد العلماء قرائحهم لابتكار طريقة للانتفاع بقوة الشمس مباشرة، فكل ما في الأرض من قوة مخزونة ماضية أو مستقبلة مرجعه إلى الشمس وحدها.

ففي : (١) رسم يمثل آلة لتوليد القوة من الشمس رأساً، وبها زجاج بلوري يجمع الأشعة ثم يوزعها، والرسم خيالي لأنه لم يتحقق للآن، ولن يتحقق إلا في زمن بعيد جداً.

وفي : (٢) صورة حارث يحرث الأرض، فكل ما فيه وفي الأشجار والثيران من قوة مستمدة من الشمس؛ فالشجر يختزن قوة الشمس بواسطة ورقه، وحياة الحيوانات كلها متوقفة على حياة النبات، والنبات لا يمكنه أن يعيش بدون ضوء الشمس.

وفي : (٣) يرى القارئ صورتين : العليا تمثل الأشجار القديمة والزواحف المنقرضة، وهذه الأشجار قد طمرها التراب فصارت الآن فحماً، فمصدر القوة في الفحم هو الشمس أيضاً، لأنها هي التي أنبتت نباته.

وفي : (٤) ترى مطحنة هوائية وسفينة، وكلتاهما تستغل الرياح، والرياح لا تتحرك إلا بفعل الشمس التي تسلط أشعتها على بعض الأماكن فيخف الهواء عندما يسخن ويرتفع فيأتي غيره مكانه فتتولد الريح.

وفي : (٥) يرى القارئ شلالاً ينتفع بسقوط المياه منه في توليد الكهربائية، وقوته تعزى أيضاً إلى الشمس التي هي سبب تبخر المياه وتكوين الأمطار والأنهار.

وفي : (٦) يرى دينام كهربائي ولده البخار الذي تولده الشمس أيضاً، فهي التي أوجدت الوقود لإيجاد البخار. وبهذا تم الكلام على الفصل الأول.

الفصل الثاني

في بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم

وفيه مقصدان :

المقصد الأول: آراء العلامة ابن خلدون في التضييق على المتعلمين

لقد عقد فصلاً عنوانه :

فصل: في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم

قال : وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك، إلى أن قال : وفسدت الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالاً على غيره، ثم أخذ يقيس الأمم على الأفراد وضرب مثلاً باليهود وأنهم يوصفون في كل أمة وعصر بالخرج والتخابث والكيد وسببه ما تقدم، ثم أخذ ينصح المعلم أن لا يستبد بالمتعلم، ونقل من الأستاذ محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين أنه لا يزيد في الضرب عن ثلاثة أسواط، وهنا ذكر موعظة عمر، وخطاب الرشيد للأحمر معلم ولده وقوله له : يا أحمر إن أمير المؤمنين، الخ.

هذا ما قصدت نقله من مقدمة العلامة ابن خلدون، وهو إن لم يكن فيه نص على الهواء والشمس اللذين نحن بصدد الكلام عليهما لمناسبة الآية، ففيه ذكر العناية بالمتعلمين، وأن في إذلالهم

بوضعهم في حجر ضيقة ومنع الهواء والشمس عنهم ضرراً أشد وذلاً أعظم من الضرب. وهذا هو الذي صرح به المستر «مان» الذي انتدبته وزارة المعارف المصرية أثناء طبع هذه السورة من علماء النفس والتعليم في بلاد سويسرا وهو الذي عقدت له.

المقصد الثاني

فإن وزارة المعارف كلفته أن يضع تقريراً وافياً عن التعليم في مصر بجميع فروعه؛ فمن حسن حظ هذا التفسير أني اطلعت على ما كتبه في هذا الصدد فرأيته يقول: لقد رأيت مدارس كثيرة في نفس بلاد الريف والجو حول المدارس حسن جميل والمزارع تحيط بهم، والتلاميذ مع ذلك لا تبدو عليهم ملامح السرور فكأنهم محبوسون وقد حرموا من الهواء والشمس، ونصح المعارف أن تجعل الشمس والهواء يحيطان بهم، وأن يجعل لهم حرية في الذهاب والإياب، وأن يشعرهم المعلمون بأن لهم كرامة الخ. واقترح أن المعلمين يذهبون بهم أحياناً إلى الخلاء في الشمس والهواء ويعلمونهم هناك. اهـ.

أفليس هذا من العجب؟ أني بعد أن أحضر صورة المدرسة الفرنسية أطلع على التقرير أثناء ترجمته فأجده يصرح بإخراج التلاميذ إلى الخلاء في الشمس أحياناً. أليس هذا من التأييد لهذا التفسير؟ ومعلوم أن جميع مدارس أوروبا تنحو نحو الخلاء والشمس والاستقلال.

الفصل الثالث

في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم

أن هذا الموضوع مناسب لما قبله مرتبط به، ذلك أن العلامة «فلند» ألف كتاباً موضوعه «إطالة العمر»، فقد قال هو وغيره: إن الكلب يبلغ تمام نموه في سنة ونصف، والحصان في ثلاث سنين، وهكذا لكل حيوان زمان يتم نموه فيه، ومدة تمام النمو المذكورة تبلغ ثمن عمره إذا لم يقتل بسبب آخر، فيعيش الكلب (١٢) سنة، ويعيش الحصان (٢٤) سنة، ويقاس عليهما بقية الحيوانات.

ثم قال هو وغيره: إن نهاية نمو الإنسان تكون في (٢٥) سنة وبضربها في (٨) تكون مائتي سنة، والسبب الذي منع عن الناس طول عمرهم أنهم لا يعيشون بالبساطة والقناعة والاعتدال، بل يفرطون في كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعي، ومن ذلك العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزي. أنا لست أقول هذا الكلام حق من كل وجه، كلا. وإنما أقول علينا أن نعتدل لتصح أجسمنا، وقد ذكر أن «هنري» عاش (١٦٩) سنة وهو إنجليزي، و«جون بافن» البولندي عاش (١٧٥) سنة، و«يوحنا» النوروجي عاش (١٦٠) سنة، و«طوزمابار» عاش (١٥٢) سنة، وهناك رجل زنجي يعيش الآن وعمره (٢٠٠) سنة. اهـ.

الفصل الرابع

في الكلام على الرحمة

يقول الله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [القصص-٧٣] الخ. معلوم أن أول السورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والمسلم في كل صلاة يذكر الرحمة عشرات المرات، فالرحمة تكرر في كل زمان ومكان.

يقول الله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [القصص. ٧٣] الخ، فهذه الشمس المضيئة التي جرت بها الأنهار والرياح والسحاب واخضر الزرع وعاش الحيوان والإنسان وجرت السفن

والقطرات والكهرباء، وبها كانت الأصباغ المخترعة الكثيرة التي تفتخر بها الغادات، فهي كلها من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم في آخر سورة « النمل ».

فهذه الشمس ومنافعها التي لا تحصر لها من بعض رحمته. ومعلوم من الحديث الصحيح أن الرحمة في الأرض واحدة نشأ عنها هذه السعادة في الأرض والرحمة بين الأمهات وذريتها والآباء وأبنائهم في الإنسان والحيوان، وهذه الرحمة واحدة من مائة رحمة أخرها جميعها للناس في عالم آخر بعد فراق هذه الأرض.

الفصل الخامس
آرائي في التعليم عند المسلمين اليوم

إن الأمم الإسلامية في الأكثر اليوم ليس عندها إلا الكتاتيب المعدة لحفظ القرآن وهي في أكثرها أشبه بالمقابر، قذرة لا ضوء فيها ولا هواء إلا قليلاً، وهذه مضرة بالمتعلمين بإجماع الأمم. فقال صديقي العالم: هل تظن أن المسلمين يقنعهم هذا القول؟ هذا يقنع الراقين منهم لأنهم يعلمون اتساع ديننا. أما الأمم المتأخرة منهم فإنها لا تثق إلا بما يرد عن المتقدمين. فقلت: أذكرك بما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه وهو سائر في الغزوات، ومتى نزلت عليه آيات أو سورة اجتمع القوم أولهم في الطريق وآخرهم وهو على دابته يقرأ لهم ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم، فهاهو صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم الدرس في الشمس والهواء الطلق. أفليس هذا يكفيك أن تعرف جلوس المسلمين في الهواء الطلق موافق للسنة النبوية. ومن عجب أن الحج فيه الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة وهكذا جميع أعمال الحج. وترى الحاج قد امتنع عن كل زخرف في هذه الحياة ولا يلبس المخيط وإنما يلبس إزاراً ورداء، فكيف كان الحج على هذا النمط؟ نعم هذا أمر تعبدي، نحن لا ننكر ذلك ولكن هذا التعبدي ظهر بعض سره اليوم.

الله أكبر. يتجرد الحاج من المخيط ويقف عاري الرأس تحت الشمس المحرقة يوم عرفة، ويهرول بين الصفا والمروة. أليست هذه مبادئ ستبنى عليها أمم بعدنا سعادة للإنسانية غير هذه الحال.

إن آدم أكل من الشجرة، والقرآن والتوراة وغيرها صرحت بذلك، وعصيان آدم ربه نزل به القرآن، فهو مع صحته يرمز به لحالنا نحن، فهاهي ذه الأعمار قصرت لانحراف الناس في مأكلهم ومشاربهم وملابسهم وفي طمعهم وشرههم ولذاتهم فهلكوا سريعاً.

إن بني آدم بإجماع الأطباء انحرفوا عن سواء السبيل في أحوالهم النفسية والجسمية، فرأينا الصحابة رضي الله عنهم يأكلون الخبز غير منخول زهداً في الدنيا، ولكن العلم الحديث اليوم أثبت أن هذا صحة لأبدانهم، وهاهي ذه الأمم تنحو نحوهم طباً لا زهداً، ومثلها مسألة الحج فهي لنا تعبد ولكن من الذي تعبدنا؟ الذي تعبدنا هو الله، ولما نظرنا وجدنا أن الأمم اليوم تستشفي بالشمس. (انظر ما تقدم في سورة « الشعراء » شكل ١٠)، فإنك ترى الفتيات في الشمس يستشفين بنورها، ثم انظر المدرسة الفرنسية في هذه المقالة التي ترى تلاميذها مكشوفين للشمس. إذن البساطة في الحج من حيث الملابس وظهور بعض الجسم للشمس هو أولاً عبادة مقدسة وثانياً هو مبدأ يتخذ للشفاء والصحة والقوة والعلم، وهذا ضد الترف المهلك للأمم، ونفس الهرولة بين الصفا والمروة مبدأ يقاس عليه

الحركات التي تقوي الأجسام، وهذه كلها حكم غير حكمة العبادة المقدسة العالية؛ ألست ترى أن تقليل الملابس وكشف بعض الجسم للشمس وترك الترف هو الذي يحبه النوع الإنساني الآن ليسعد بالحياة وتصح أجسامه. إذن الحج من فوائده فتح باب التجرد من أمور الزينة والشهوة لتصح الأجسام ومنها فتح باب الرياضة البدنية، وأيضاً اجتماع الناس في مكان واحد ولبسهم ملابس متماثلة رجوع بهم إلى الفطرة الأولى، وفيه إشارة أنكم أيها الناس جميعاً يجب أن تتعارفوا وتتركوا الترف والنعيم وهذا الترك هو الذي يجمعكم واللذات تفرقكم، والصوم يلحق بالحج لأن فيه ترك الأكل، فأما الصلاة فهي درس إجمالي لجميع العلوم كما أوضحته في بعض هذا التفسير، الصلاة مبدأ العلوم، والزكاة مبدأ المودات بين الأمة، والحج مبدأ المساواة العامة وصحة البدن وهكذا. انتهى نصف الليل ليلة الأربعاء ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٩، وبهذا تم الكلام على القسم الثالث من السورة.

القسم الرابع

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

هذا القسم تطبيق على ما تقدم من أقسام السورة، راجع إليها، متمم لها، مكمل لمقاصدها، منبه لما ترمي إليه. ابتدأ الله السورة بما يأتي:

(١) بذكر أن فرعون علا في الأرض وأنه من المفسدين.

(٢) ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأول وهلاك الثاني وقومه.

(٣) ثم أردفه بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخربت ديارهم.

(٤) ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا.

ذلك ملخص السورة. ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه وقد كثر ماله فأبطره الغنى ونسبه إلى علمه وتكبره على قومه، وانقسم الناس في أمره قسمين: قسم العلماء وهؤلاء حقروا زينته وماله. وقسم الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ما أعطي قارون، فلما وقعت واقعته وانشقت سماء مجده فكانت واهية، وسقط قارون في الهاوية، عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثة وأدركوها بتلك الكارثة. فأما أهل العلم فلم تردهم إلا ثباتاً. إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وكفار قريش، ففرعون كقارون، وكأهل مكة لما طغوا وأسرفوا واستكبروا، وتدمير قارون وما يملك كتدمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش. لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها اثنان: العالون في الأرض، والمفسدون، وينالها من تنزهوا من هذين، وهذا نظير ما في أول السورة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، فهاهنا يقول الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين وتجرد من الأمرين وفاز بالحسنيين التواضع وإصلاح الأرض. ثم ختم السورة بأن كل شيء هالك إلا ما كان على نسق برضاء الله كما كان موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والذين أوتوا العلم مع فرعون وقريش وقارون. وملخص ذلك أن لا آخرة إلا لنبي أو حكيم أو عالم أو متبع سننهم. فهؤلاء هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فكأن السورة في هذا القسم لخصت مرتين: مرة في قصة قارون، ومرة في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨] في آخر السورة. إذا عرفت ذلك فلنشرع في:

تفسير الألفاظ

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابن عمه ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره وتكبر عليهم وظلمهم ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ الأموال المدخرة ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: خزائنه، جمع مفتح بفتح الميم، وأما ما يفتح فهو بكسرها، و«ما» بمعنى الذي منصوب والجملة صلته ﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أي. لتثقل العصبة، فـ«الباء» إذن للتعدية، يقال: ناء به الحمل: إذ أثقله حتى أماله، والعصبة: الجماعة الكثيرة، والقوة: الشدة، وقوله: ﴿إِذْ﴾ متعلق بـ«تنوء» ﴿قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ المؤمنون ونبيهم موسى عليه السلام ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر بكثرة المال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد: ٢٣]، وكيف يفرح الناس بما أوتوا وهم زائلون من هذه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ بزخارف الدنيا لأنهم قوم غافلون. ثم أبان المقصود من المال في هذه الدنيا فقال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بأن تكون أباً

لأمتك ناظراً في شؤونهم مرقياً لهم حافظاً لكرامتهم حريصاً على إسعادهم بحيث يكون مالك معيناً لفقرائهم مرقياً لهم ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ لأنك واحد منهم والمال مال الله والخلق عياله، فليس معنى إنفاق المال للناس أن تنسى نفسك. كلا. بل ابدأ بنفسك فإذا نسيت نصيبك من الدنيا فأنت مذنب لأنه لا معنى لإحياء نفوس الناس وإماتة نفسك، وإصلاح حياتهم وإفساد حياتك.

ولما قرر هذه الحقيقة أخذ يتمم تحريضه على الإحسان فقال: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ لأن ما لديك من المال والقوة والعلم ليس منك وإنّما هو من الله، وكما أن ضياء الشمس والكواكب من الله خلقه، فإنه إلى خلقه منفعته، هكذا ما أنعم الله به عليك فهو من الله وإلى عباده ومنهم نفسك ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بالظلم والبغي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ لسوء فعلهم، فأجاب قارون ناسياً أن الله هو الذي وهبه هذه النعم مدعياً أنه استحقها بقوة فطنته وذكائه وعلمه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم في المال والجاه، أي: إنّما أوتيته حال كوني على علم كائن عندي، كعلم التجارة والكيمياء، ولا جرم أن العلوم كلها كشجرة ذات أغصان وفروع، فمن اقتصر على أحدها أغرم به وجهل سواه، وما مثل الناس إلا كمثل قوم عمي أمسك كل بجزء من الشجرة، فقال أحدهم: إن هذه الشجرة ناعمة رائحتها طيبة، وهو قد أمسك بالزهرة، وقال آخر: إن هذه الشجرة خشنة مدورة، وقد أمسك بالجذع، وقال ثالث: إن هذه الشجرة رقيقة كورق الكتابة كثيرة القطع معلقة في سقف مربوطة بحبال دقيقة، يريد الورق، وهو متصل بفروع صغيرة دقيقة. هكذا العلوم من قرأ منها علم التجارة أو علم الكيمياء على فرض استخراج الذهب به فإنه يغرم به، ويقول: إنّما العلوم لجمع المال وهو المقصود وما عداه فجهالة. ومن قرأ علم الزهد والتصوف احتقر المال وتعلق بأسباب الكمال وتهذيب النفس، وهاهنا قارون كان من القسم الأول، وكلا القسمين في نقص الشين، فلا بد من معرفة سائر العلوم معرفة إجمالية ثم التفرغ لواحد منها، ولا يكون المسلم كما كان قارون يحفظ علماً واحداً ويجهل سواه فيعيش ناقصاً وحيداً لأن ذوقه لا يطابق أذواق الناس، فيصبح عالم التجارة عدو صاحب تهذيب الأخلاق، ويكون الناس في تقاطع، فعلى الناس أن يقرؤوا سائر العلوم، فعلم الزهد لا بد منه لذي المال حتى لا يكون أحدهم مغرماً بالمال فتضيع حياته سدى، ولذلك وبخه الله فقال: لماذا عرفت علوم الدنيا وتركت علوم الآخرة، والدنيا والآخرة لي، هلا قرأت العلمين؟ ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ للمال، أي: أغره علم المال فافتخر به وجهل علم تواريخ الأمم الغابرة والقرون البائدة وكم فيهم من كانوا أكثر منه مالاً وأعز نفراً فهلكوا.

فقل لمن يدعي علماً ومعرفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

ولذلك يقال: البلاهة خير من الفطانة البتراء. فهؤلاء جميعاً واقعون في الهلاك محكوم عليهم بالإعدام لا فرق بين الأولين وبين الآخرين ومنهم قارون، إنهم يهلكون بذنوبهم لأن الله عليم بظواهر ذنوبهم كما هو عالم ببواطنهم فيهلكهم ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وكيف يسألون وأمرهم عنده معلوم ثم أعقبه بذكر بعض ذنوبه ليعلمنا الله كيف تكون الذنوب الكبائر والموبقات كامنة في مظاهر لا يظنها الناس إثماً ولا يعتقدونها ذنباً، بل تلك المظاهر أحوال عادية وأمور مباحة مظاهرها

رحمات وبطنها زلات، بل أعظم الزلات، فيا ليت شعري أي شين وأي إثم في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ ﴾ وماذا فعل؟ يقال إنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس، وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان، ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهن الحلي والثياب الحمر وهن على البغال الشهب، ولا حاجة إلى نقل أقوال غير هذا لأنها عبارات متقاربة، وإنّما المقام مقام هذا السؤال: أي ذنب في هذا؟ وهل ظهور الإنسان مع نسائه ومع فرسان وعليهم ملابس جميلة حرام؟ إن هذا ليس بحرام إلا إذا كان هناك بعض ملابس محرمة، وهذه الملابس حرمتها من الصغائر. إن هذا المظهر مظهر مباح فما ذنب قارون إذن؟ ولماذا يذكر ذلك المظهر بعد قوله: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، وهل إذا تمنى الجهال مثل ذلك الجمال والزينة إذ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من الدنيا، هل هذا ذنب لقارون؟ وإنّما هؤلاء لجهالتهم تمنوا مثل قارون كما نرى ونسمع في كل قرية وبلدة وضيعة هذه العبارة بعينها، حتى إن الرجل والشاب والمرأة والفتاة ليقول كل منهم: يا ليت لي مثل ما أوتي فلان وفلانة، على أي نعمة كثوب جميل أو دابة يركبها أو بهيمة يأكل لبنها أو مزرعة يحصد غلتها وما أشبه، ذلك إن هذه عادة جميع أهل الأرض في زمن قارون وقبل قارون وبعد قارون، فما ذنب قارون إذن؟ نعم ذنبه ظاهر في الآية إذ قال تعالى: ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾، وسيأتي ما فعله من أنه برطل المرأة الباغية لتتهم سيدنا موسى، فهذا بعض البغي منه ولذلك ذمه الله وخسف به وبداره الأرض.

أقول ولكن ذكر خروجه على قومه في زينته لا بد فيه من أمر خفي، وإلا فلماذا يذكر بعد ذكر هلاك الأمم وأن المذنب منهم لا يسأل عن ذنبه كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، والجواب على ذلك أن من الذنوب ذنوباً باطنية، وقال علماؤنا رحمهم الله: إنها أشد فتكاً بالإنسان من الذنوب الظاهرية. إن الله لم يذكر في القرآن إلا أنه بغى على قومه وأنه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، وأنه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ ﴾ الآية، ولم يذكر ما سأقصه عليك مما نقله المفسرون عن بني إسرائيل من أمر المرأة وغيرها، فلنبحث في هذا الذي جاء في الآية.

إن فيه لكبائر الذنوب مثل الكبرياء والإعجاب والتعالي على الناس، فهذه وأمثالها ذنوب كبائر ويقول علماؤنا إنها هي المهلكة. إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال وإما أن تكون من أصلها، فإذا كانت لإظهار مجد الأمة وقهر عدوها وكسر نفسه وإظهار العظمة الدينية والقومية فهي جهاد في سبيل الله. فأما إظهارها لإذلال النفوس وكسر القلوب والتعالي على الإخوان وأبناء البلاد فذلك تفريق للكلمة وإظهار للعظمة في غير موضعها، فإن الناس إخوانه ومتى تعالى عنهم خفضهم فلا جامعة بينهم ولا رابطة تربطهم فيذلون في الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم وفي الآخرة بجهنم. فمظاهر قارون كانت من القسم الثاني قصها الله ليعلم المسلمين ويقول لهم: لتكن نفوسكم شريفة، وإياكم وأن تطغوا، إنّما نظري لقلوبكم لا لصوركم، فكم مظهر نعمة يريد بها التعالي والتفاخر. وكم مقيم زينة وصانع وليمة أو عرساً أو مأتماً وهو في ذلك كله كقارون، ليست هذه المظاهر عند كثير من الناس إلا ليظهروا بها الكبرياء والتعالي على الناس وإظهار العظمة،

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٥-١٦] إن هذه الآية وردت في المرائين، فعمل قارون وأمثال قارون من كل ذي مال ولو قل في الأمة الإسلامية يدخله الرياء والإعجاب بالنفس والكبرياء والتعالي على الأقران، وهي هي المهلكات المزعجات، قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[الأحقاف: ٢٠] هذا هو القرآن وهذا كلام الله، وأكبر مصيبة حلت بالإسلام أن الذنوب الباطنية لم تذكر في مدارس التعليم، واكتفى الناس بالأحكام الشرعية الظاهرة وظنوا أن التعليم في البواطن خاص بالمجاذيب والصوفية، وهذا من أكبر عيوب التعاليم الإسلامية، إن هذا هو السبب في أنك ترى بعض المسلمين في الاكتتابات العامة النافعة لا يساعدون، وترى الناس يصرفون أموالهم في الزينة والزخرف والسفر إلى أوروبا للنزهة والرياضة، ومصر التي هي بلادي يسافر منها كل سنة نحو خمسين ألفاً يصطافون في أوروبا، وترى الناس في المآتم والأعراس يدفعون أموالاً كثيرة، كل ذلك لأن التعاليم الإسلامية اليوم لم تدخل القلوب. إن التعاليم الإسلامية إنما قصرها الناس على ظواهر الأجسام وتركوا القلوب فارغة لا علم ولا رحمة ولا إحساس إلا ما جاء عفواً وبدون قصد، فأما تربية الوجدان فإنها متروكة للأهل والأقارب والبيئة

إن المسلم إذا سمع هذه الآيات يقول إنها في الكفار فأما أنا فيكفيني الإسلام، وهذه أكبر خطر. يقول المسلم: مادمت لا أوذي أحد ولا أسرق ولا أزني فأنا لا ذنب علي. وهذا هو الخطأ الفاحش والذنب العظيم، إذن أين أمثال هذه الآية ولم أنزل القرآن. إن استتار المسلم بالدين واحتجاجه به وقوله إني مسلم وإنما هذه الآية واردة للكفار، هو الذي أوقع الأمة في الجهل وضياع المال والبذخ والزينة والإسراف، فخسف بنا وبدارنا الأرض خسفاً معنوياً وذلاً حقيقياً. فلئن خسف بقارون وبداره الأرض فهلك هلاكاً حسياً؛ فلقد خسف بنا وبدارنا الأرض خسفاً معنوياً. فأينما تول وجهك في بلاد الإسلام لا ترى إلا جهالة عمياء وضلالة ورياء، إلا قليلاً من ذوي النفوس الشريفة فهم الذين يرجع إليهم، وسيقومون بنشر أمثال هذه بين المسلمين، وسيرجع للإسلام مجده على يديهم ويكونون نوراً للمسلمين.

إن الله ما قص هذا القصص إلا ليرينا أن أمثال هذه الذنوب كالكبرياء والرياء والتعالي ليس ذنبها في الآخرة وحدها، بل شؤمها يحصل في الدنيا كما حصل اليوم للمسلمين، هذا في ضمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوال الدنيا والآخرة لأولئك المتمنين ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى كيف تتعالون بالزينة وتفخرون بالحلية ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ مما أوتي قارون ومن الدنيا وما فيها ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي المثوبة أو الجنة والعمل الصالح ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي، وبذلك الصبر وحفظ الشهوات يصرفون مالهم لوجه الله وللأعمال العامة، ويكونون قدوة صالحة ويرفعون أممهم ويحفظون مجدهم ويجعلون مالهم لإسعاد أمتهم، فينالون بذلك الصبر الثناء في الدنيا وحب الناس، وفي الآخرة يدخلون الجنة فإنه لا آخرة إلا على حسب الدنيا.

إن النفوس الإنسانية مصروفة إلى الهوى والعادات الموروثة والأمور المحسوسة. انظر إلى المصلي إنه يريد أن يوجه قلبه في الصلاة لله وللذكر وللقراءة وللمعاني، فلا تطاوعه نفسه وتنصرف إلى أمور تهمها. هذا طبعها فإذا جاهدها مرة بعد مرة قرت وثبتت وتذكرت، ثم يصير ذلك عادة جديدة، ثم يستلذ بها، هكذا في المال تنصرف النفس إلى الزينة وإظهار الشرف والغنى والجاه والثروة، فإذا وجدت من يفهمها أن المال ليس لهذه السفاسف بل لتلبية الدين وشريف العواطف ويذكرها مرة بعد أخرى، صار ذلك عادة لازمة واستلذ بها لذة دائمة، ويسمع ثناء الناس عليه والآخرة خير وأدوم.

إن اتجاه قلب المصلي بعد شموسه وجماحه وشروده وانقياده بعد نفوره للحضور في الصلاة، وصرف ذي المال ماله للمحتاجين وللمنافع العامة بعد ريائه وكبريائه وجهالاته، لم يكن إلا بالصبر. إن ردع النفس عن طبعها لا يكون إلا بالصبر عن المألوف والبذل والمعروف. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾، ولا جرم أن قارون لم يكن منهم، ككثير من أمثاله من أغنياء الأمة الإسلامية الآن؛ بل إنه استعان بالمال على إهانة قومه وعصيان ربه ككثير من أغنياء المسلمين الآن، وقد ذكر المفسرون منها ما يأتي:

(١) أوحى الله إلى موسى أن مر بني إسرائيل أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي، فامتثل بنو إسرائيل وتكبر قارون، وقال: هذا فعل الأرباب لعبيدهم.

(٢) جعل الله الحبورة لهارون وهي رياسة المذبح، فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها في المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله، فحسد موسى وهارون وقال: أنا أقرأ التوراة وأنت تنال الرسالة وهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك، فأقام له موسى الحجة أن هذا من الله فعدها سحراً. ذلك أن القوم وضعوا عصيهم في قبة وحرسوها طول الليل، فأورقت عصا هارون ولم تورق سواها من العصي، فقال: هذا سحرك المعهود ولكم سحرت قبل هذا.

(٣) أمره بالزكاة فلما جمعها استكثرها وعصى ولم يعطها.

(٤) أراد أن يفضح موسى بين بني إسرائيل فبرطل بغياً لترميه بنفسها، فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً، فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه، ومن زنى محصناً رجمناه، فقال قارون: ولو كنت أنت، قال: ولو كنت أنا، قال: إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فاستحضرت فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق، فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي. فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحي إليه أن مر الأرض بما شئت، فقال: يا أرض خذيه، فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال: خذيه. فأخذته إلى وسطه، ثم قال: خذيه. فأخذته إلى عنقه، ثم قال: خذيه. فخسفت به، وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه، فأوحى الله إليه ما أفظعك! استرحمك مراراً فلم ترحمه، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته. ثم قال بنو إسرائيل: إنما فعل ذلك ليرثه، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله.

إن ذلك كله كان نتيجة عدم صبره، أي أنه لم يكبح جماح نفسه عن رعونتها وميلها إلى الكبرياء والشهوات. والقرآن لم يجئ فيه هذا، وليس فيه إلا قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

مرشداً بذلك المسلمين أن يصرفوا هواهم عن التعالي والكبرياء والتغالي بالزينة لئلا يخسف بهم وبمالهم الأرض كما حصل الآن، فقد أصبح مالهم تحت تصرف غيرهم من الأمم المحتلة، وذلك لجهلهم وقلة علم وعاظهم إلا قليلاً، فصرف الله أموالهم وعقولهم في الرياء والمباهاة، وجهلوا المقصود من المال ومن الحياة، فضاعت بلادهم. وهذا هو الخسف العظيم، وأي شيء خسف قارون وداره؟ الخسف الآن خسف الأمم بتمامها، يدخل جيش الأعداء القاهر في بلدة من بلاد الإسلام فيصبح الناس عبيد الغاصبين وضحية الطامعين، وذلك هو الخسف الأكبر، خسف أمة لا خسف فرد، فليخسف الفرد ولتبق الأمة، أما الأمم الإسلامية الحديثة فإنها ابتليت بخسف الأمم والأفراد لجهل كثير من الوعاظ الغافلين الساهين النائمين الجاهلين، الخسف حتم لكل مراء وباغ وجاهل بمقاصد المال ومقاصد الصحة والعلم، يخسف بهم سوء أكانوا أمماً أو أفراداً كقارون، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ ﴾ أعوان ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فيدفعون عنه عذابه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ الممتنعين منه، يقال: نصره من عدوه فانتصر، إذا منعه منه فامتنع. وكيف يكون له معين؟. وكيف يكون للأمة الغافلة ناصر وهو وهي قد فرطوا في قواهم وأضاعوا مجدهم وخربوا بيوتهم بأيديهم. إن النصر للصابرين. إنما النصر نتيجة الصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول، وجعل ذلك كله للفضائل والمنافع العامة.

ضرب مثل لحال المسرفين في مالهم بالمسرفين في مآكلهم

أضرب لك مثلاً يوضح لك الحق كله، لتعلم أن هذه الآية لم تنزل في القرآن ليتعجب الجاهل من قارون وكيف خسفت به الأرض وكم كانت البغي لم يغرها المال بل نطقت بالحق وهو براءة موسى وأشباه ذلك. كلا. إن هذه القصص جاءت لحقائق علمية ومعاني قدسية وحكم عقلية وآيات عمرانية وعجائب نظامية وسعادة إسلامية للمسلمين في مستقبل الزمان. قال أطباء هذا العصر من النمساويين والألمان وغيره: «إن الذين يتعاطون اللحم والبيض واللبن وأمثالها من كل ما فيه غذاء كثير التغذية تقوى أجسامهم وتحمر وجوههم ويحسدهم أقرانهم، لأن المواد الغذائية في هذه الأصناف الثلاثة قوية فتدخل في نسيج الجسم وخلاياه بقوة فتملؤها، فيظهر ذلك على الوجوه والأعضاء وتحمر الوجوه وتقوى الجسوم».

وهناك فريق ثان ضعيف البنية منهوك القوى قد أضر به المرض فظهر في جسمه القروح والبثور والعوارض الكثيرة، وهو يئن من المرض، ولا يقوى على هضم الطعام أحياناً، فيقول الناس إذا رأوا الأول قائماً بينهم هاشاً باشاً يا ليتنا كنا مثله، ويحسدونه على ما آتاه الله من قوة الجسم والبدن والجمال والحسن، وبينما الناس على هذه الحال إذا ذلك القوي المتين خر صريعاً في يوم أو بعض يوم، أما ذلك المريض الضعيف فإنه كثيراً ما يعيش بعد ذلك سنين وسنين، وهذا أمر عجيب، العداء حسن جميل مقو، فهل المقوي ضار؟ وماذا يصنع الناس؟ فأجاب هؤلاء الحكماء قائلين: اعلم أن الرجل القوي الجسم كان ضعيفاً والضعيف الجسم كان قوياً، لأن القوي الجسم لما أكل هذه المواد الدسمة وامتلأت به أنسجة جسمه ولم ترحم تلك الأنسجة ولم تشفق عليها ولم تكن كالأغذية الواردة عليها من المواد النباتية والفواكه والحبوب، تلك الأغذية التي تدخل تلك الأنسجة بلطف وتؤدة، لأنها ليست كثيرة

التغذية، بل قوة الغذاء مصحوبة بمواد أخرى تحول بينها وبين تلك الأنسجة فلا ترهقها كما أرهقها أمثال اللحم وما معه، أقول: لما حصل كل هذا في جسم ذلك القوي ظاهراً؛ وامتلأت الأنسجة بالمادة الغذائية؛ احتاج الجسم أن يخرج الفضول ويستريح مما زاد عن قوة الأنسجة الممتلئة، فلا يجد لذلك سبيلاً، فامتلأ الجسم كما يمتلئ النهر بالماء حتى يفيض، ولا بد من قطع موضع من الجسر، هكذا ذلك الجسم يتمزق في يوم أو بعض يوم، أما ذلك الضعيف فإن جسمه لما امتلأ كذلك القوي فإنه لقوته فتح منافذ سماها الناس أمراضاً، كالقروح والبثور والأمراض، فتخرج المادة من الأجسام ويستريح الجسم، وما ذلك بداء وإنما هو صحة للجسم وإخراج الفضلات، فتكون النتيجة هكذا: المريض قوي والصحيح ضعيف.

وهذا هو الذي قاله الأطباء في العصر الحاضر، وبنوا على ذلك أن الإنسان خير له أن يأكل البقول والفواكه والحبوب، وأن يمتنع عن اللحم والبيض واللبن، أو يقلل منها ما استطاع لذلك سبيلاً. أفلست ترى أن صاحب الثروة الواسعة الذي أشبه قارون في بذخه كذلك القوي الجسم؟. أولست ترى أن الذي أنفق ماله لأهل قريته ونفع أمته وذلك العالم الذي جعل علمه لأمته أشبه بذلك المريض الذي قوي جسمه على دفع الأذى؟. ألا ترى أن ما يظنه الناس أنه فقر عندما يعطون المال لمستحقه أشبه بما يظنه الناس مرضاً بظهور القروح والبثور؟. فإذن يكون المنفق غنياً والمتباهي بالزينة فقيراً. أوليس هذا أشبه بما في قوله: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ ﴾ منزلته ﴿ بِٱلْأَمْسِ ﴾ منذ زمان قريب ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ يبسط ويقدر بمقتضى المشيئة، لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض، فالقبض والبسط كالليل والنهار والصغر والكبر والصيف والشتاء يمران على الصالح والطالح امتحاناً لهما واختباراً وتربية من رب العالمين، وقد أخطأ الإنسان فإنه إذا أكرمه الله ونعمه يقول: ﴿ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] ثم كلا، إن الأمر امتحان واختبار وتربية، ولفظ «وي» للتعجب، و«كأن» للتشبيه، أي: ما أشبه الأمر، إن الله يبسط الخ. ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فلم يعطنا ما تمنينا ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لأنه يحيق بنا ما حاق فيخسف بنا ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ لنعمه الصارفون لها فيما نفعه قليل، ومن هؤلاء المكذبون برسله. أليس هذا هو ما يحصل الآن أمام أعيننا في الدنيا لا سيما في هذا العصر:

(١) ألم تر إلى قيصر الروس كيف كان له السلطان التام والقدرة والصولة والعظمة والجاه وقد ملك مقاليد الروس، وما أدراك ما الروس، أمة عظيمة قوية تحتها أمم وأي أمم، مائة مليون أو يزيدون فماذا حل به لما جاءت الحرب الكبرى؟ أنزله قومه من على عرشه، وذبحوا أبناءه أمامه، وأنزلوه بعد ذلك دار الهوان، وقتلوه قتلاً شنيعاً بعد أن أجاعوه وأذاقوه من النكال. أليس ذلك هو عين ما حصل لقارون وللمسرفين في مآكلهم مخالفين نصح الأطباء، يحسدهم الناس ويقولون: يا ليت لنا مثل قيصر إنه لذو حظ عظيم، يا ليت لنا صحة مثل هذا السمين الوسيم من الأصحاء، أفليس الناس بعد انقلاب الأمر على قيصر وحلول المنون بذلك السمين الوسيم يقولون نفس هذا المقال، يقولون نتعجب كأن هذه الدنيا دار خدعة، انظر إلى قيصر كيف أبادته الجنود وأهلكه من كان يفتر بهم، وذلك لأنه استبد

بالأمر وخرج على قومه في زينته، وهو يريد الحياة الدنيا، والناس كلهم كانوا له كالعبيد. هكذا حصل في الأستانة وخلع عبد الحميد من ملكه، وهكذا كثير من ملوك أوروبا.

(٢) أولست ترى أن أولئك الموسرين من مصر وأهل الشام والمغرب وغيرهم من أقطار الإسلام الغافلين عن منفعة المال يتباهون بالدور والعقار والولائم ويتظاهرون بها، وقد ركبهم الدين ورهن العقار، والفرنجة واقفون لهم بالمرصاد يخربون بيوتهم بالدين وهم غافلون، والناس من حول هؤلاء المثرين يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي فلان المثري. انظروا إلى زينته، انظروا إلى قصوره، انظروا إلى الجموع التي جمعها في عرسه أو مأتمه، ثم ينقض عليه دائنوه فيبيعون العقار ويخربون الديار ويصبح كأن لم يغن بالأمس. ذلك مشاهد في كل قرية وبلدة وضيعة ولكن الناس غافلون، وترى الذين كانوا يحسدونه بالأمس بعد سقوطه يقولون: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾، لولا أن الله لطف لكان جعلنا مثله مغرورين، فأصبحنا عبرة وشماتة للأعداء في الداء العضال. ذلك هو المقصد من قصة قارون.

ثم ذكر الله نتيجة جميع ما تقدم فقال: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾ الإشارة للتعظيم، أي: تلك التي سمعت من أنباء الأمم وعرفت وصفها، وقوله: «الدار» بدل، و«الآخرة» صفة الدار، والخبر ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ غلبة وقهراً ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون وكفار مكة لما آذوا النبي وأصحابه، ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ ﴾ المحمودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ما لا يرضاه الله ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون. ولما كان الصابرون الذين لا يفخرون على الناس وتكون أموالهم وحياتهم وقفاً على أنهم موعودين بالثواب بالآخرة؛ أعقبه بما يفيد أن الحظ في الدنيا والآخرة لهم فلهم الآخرة ولهم الدنيا، فالذي لا يتبع الهوى في شهوة الطعام له الصحة الحقة، والذي يسلك سبيل الإنفاق في المنافع العامة يرى في الدنيا سعادة لا يحلم بها ذلك المسرف المرائي بما يتهيأ له من حب الناس وثنائهم عليه وإكرامهم له وتبجيله وإعظامه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ دنيوي وأخروي، أما الدنيوي فإنك ترد إلى مكة إذا اشتقت إليها لأنها مولدك ومولد آبائك، وأما الأخروي فإنك ترد إلى المقام المحمود الذي وعدت أن تبعث فيه، وهذا المقام أنت تعرفه ويحمده كل من عرفه. ولقد تقدم أن هذا المقام يشير إلى ارتقاء العلوم في هذه الأمة في مستقبل الزمان كما ارتقت عند أسلافنا، فهم رفعوا منار العلوم التي هي مناط الحمد كما قدمناه، وسيرفعونه كما أوضحناه. وملخصه أن هذه الأمة سترقى في مستقبل الزمان. وملخص ذلك كله أن الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وهم منفقون أموالهم في الخيرات، ينالون الخير في الدنيا والآخرة، كما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل لما نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها: «أتشتاق إلى بلدك»؟ قال: نعم. قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، فهذه الآية لا مكية ولا مدنية، ثم قرر ذلك فقال: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وما يستحقه من الثواب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦]، والمقصود من ذلك نفسه عليه الصلاة والسلام، والمشركون، وكذا كل مهتد وكل ضال كما عرفت.

ولما كان الصبر على شدة الكفار ومقاساة الأهوال شديداً على النفوس ـ وقد وعد الله نبيه على صبره على أذى قومه وما يلاقيه من الصعاب أن يرده إلى مكة في الدنيا وإلى المقام المحمود في الآخرة ـ أكد ذلك بما سبق له من شوقه إلى لقاء جبريل ونزول الوحي أيام الفترة في أول النبوة، فلقد كان لشدة وجده وهيامه وغرامه بملاقاة جبريل وتلقيه الوحي منه يكاد يلقي نفسه من فوق الجبل؛ وذلك الشوق جعله الله في الأنبياء والحكماء ليكون ذلك أدعى إلى صبرهم على مقاومة الأعداء ومفارقة الإخوان ومصادمة الحوادث، فإنهم لو لم يتشوقوا لتلك المراتب ولم يترقبوا تلك الفضائل بل أتت لهم سهلة هنيئة مريئة؛ لمجوها إذا أوذوا أو لتركوها إذا قهروا، فالمشتاق للشيء الذي لج في طلبه وكربه وهو ممتنع عليه محبوس عنه إذا بلغ مناه بعد اليأس كان أحرص الناس عليه وألزمهم له وأعزمهم به وأحبهم إليه، وهذا قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي: يوحى ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك الكتاب، فأنت أوتيت الكتاب بعد الشوق وقطع الرجاء فهانحن أولاء وعدناك بالعز في الدنيا والمقام المحمود في الآخرة الآن، وقد كنا شوقناك إلى الوحي ومنعناه عنك وقد قطعت رجاءك استزادة لشوقك لتزيد بالكتاب غراماً، وعليه حرصاً، حتى تصبر على الأذى وتقاوم المشركين ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: لا تكونن معيناً لهم بمداراتهم والإجابة إلى طلبهم، وكيف يكون ذلك منك وأنت ما نلت هذا الكتاب إلا بعد الطلب القوي والشوق؟ إن ذلك أدعى لصبرك، هكذا أكرمناك ودبرنا أمرك ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧].

وهكذا جميع العلماء والحكماء والمصلحين يشوقون إلى المعالي ثم يمنعونها زماناً ليصبروا على ما أحبوا متى نالوه، وهذه سياسة الله في هذا العالم الأرضي ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ عن قراءتها والعمل بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ إلى عبادته وتوحيده ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بمساعدتهم ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ وذلك القول لقطع أطماع المشركين، وكيف يصدونك أو ينالوا بغيتهم منك أو تكون أنت معهم، ونحن قد أحكمت أمرك بما ذكرناه، فشوقناك ثم أرسلناك. وهذا القول يقتضي أن سياسة الشوق أعظم وسيلة للمنفعة العامة، فالدعاية والتشويق للأفراد وللأمم والجماعات إلى فضيلة من الفضائل هي الداعية للاستزادة منها.

فعلى المسلمين في أنحاء المعمورة أن يشوقوا الشبان إلى مجد آبائهم، وإلى حفظ بلادهم، وإلى استخراج ثمرات أرضهم ومعادن جبالهم، ويبثون فيهم هذه الفكرة ويحضونهم حضاً دائماً على ذلك وعلى النظر في العجائب بذكر بعض جمالها، وكلما تمنعت هذه المطالب ازداد الشبان بها غراماً، حتى إذا نالوا بغيتهم استمسكوا بتلك المزايا أجيالاً وأجيالا، حتى تخور العزائم وتدور الدوائر وتضمحل الأمم وتموت الهمم، ذلك يؤخذ من هذه الآيات، إذ رتب الله أمره لنبيه بأن لا يعاون الكافرين، ولا يصدن عن آيات الله، وأن يدعو إلى ربه، وأن لا يكون من المشركين، وألا يتخذ غيره وكيلاً على أموره

كلها ولا يعتمد إلا عليه . كل ذلك رتبه على أنه شوقه إلى الوحي وأوحى إليه بعد اليأس . هكذا فيفعل المسلمون وليقم بذلك المدرسون في البلاد الإسلامية ، وقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ معروف ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ أي : إلا ما أريد به وجهه ، لأن كل شيء أريد به غير الله فهو هالك ، فكل ما لا مصلحة فيه كما تقدم من الأمثلة بقيصر الروس ، وبالأغنياء في الإسلام المسرفين الجاهلين ، وبقارون وفرعون وكفار مكة ، كل فعل هؤلاء هالك ، ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ فصل القضاء فيخذل المسرفين المرائين ، وينصر الفاضلين العادلين على وجه الحكمة وطريق الصواب ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء بالحق . انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة . وهنا لطائف :

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾

لقد ذكرنا في هذا التفسير في سور كثيرة أن التنعم مضعف للأجسام والعقول والهمم ، ومن لطائف الإسلام أنه حرم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، ذلك ليقفل باب التنعم الذي يورث القعود عن المعالي ، والأمم لا حياة لها إلا بالرياضة البدنية ومزاولة الأعمال العسكرية ومشاق الجندية لحفظ الثغور ونظام البلاد وقوة الأجسام وصيانة النفوس والقوى من الضعف .

إن السعادة كل السعادة في ترك التنعم وكثرة الأعمال الجسمية وترك النعيم فإنه أدعى للسعادة والهناء والصحة والقوة وحفظ البلاد .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

إن ذكر هذه الجملة بعد ما قص الله من قصص قارون وموسى ، وما تجلى للناس من أمر المال وأنه زائل ، وأن الذين أوتوا العلم قالوا : إن ثواب الله خير الخ ، ثم خسفت الأرض بالمال وصاحب المال ، أقول : إن ذكر هذه الجملة بعد ما تقدم فتح باب لأرقى ما وصلت إليه الحكمة والفلسفة .

يا سبحان الله ، أليس من العجب أن يكون أرقى الحكماء في نظر علماء العصر الحاضر والغابر يقولون : إنه لا يصح أن يسمى موجوداً إلا ما كان معصوماً من الزوال . ولقد نسمع كثيراً من حكماء القدماء يقولون : إن الحركة وجودها ضعيف وبرهنوا على ذلك . فهذه هي القاعدة التي بني عليها أن العلم لا يبنى إلا على ما هو ثابت ، فأما ما لا ثبات له فلا يبنى العلم عليه . ولا جرم أن ما في السماوات والأرض كله متغير ، والمتغير غير ثابت ، وغير الثابت لا يبنى عليه علم ، فالعلم الذي نعقله مبني على أمور وراء هذه المادة ويسمونه « عالم المثال » ، وكل ما نراه أو نحس به فما هو إلا ظلال لذلك العالم أو صور له أو آثاره لا غير ، وذلك العالم هو الثابت الذي يبقى ، فلذلك نرى العلم باقياً ، فهو باق ببقاء ما بني عليه ، والمادة لا بقاء لها فلا علم يتعلق بها ، وعلى ذلك يقول أولئك الفلاسفة : فلنوجه وجوهنا للعالم الذي يبقى ولنحتقر هذه الدار الفانية .

أما الدار الدنيا فليست دار حياة وإنما هي دار متقلبة متغيرة ، فليس من حقها أن تسمى حياة كما أنه ليس من حقها أن تسمى موجودة ، فاعجب من القرآن ومن أن تشرحه حكمة الحكماء وعلم العلماء ، فجل الله وجل العلم ، واعجب كيف يقول الله في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤] ، فأفاد أن عدم العلم هو الذي يمنع الناس من أن يفهموا

عالم الأرواح هو العالم الثابت وهو الموجود على الحقيقة وما سواه من المادة باطل، وهل يفهم هذا القول إلا أولو العلم المذكورين في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]، وأفاد أن ذلك يعوزه الصبر. انتهى صباح يوم السبت قبيل ظهر ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩م.

اللطيفة الثالثة

الموازنة بين فهم الصحابة رضي الله عنهم وبين فهمنا في القرآن

كيف كان سلفنا الصالح يفهمون القرآن، وكيف كان فهمهم سبباً في أنهم ملكوا ملك فارس والروم، وكيف كان فهمنا للقرآن بعد ذهاب الدول الإسلامية والقوة العربية غير مجد ولا مفيد فغلبتنا الأمم وصرنا لهم خاضعين. ذلك نفهمه من حكاية الربيع بن زياد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً، أي: يتخذ كل واحد منهم له خليفة يقوم بالحكم في غيابه، قال: فلما قدمنا أتيت «يرفأ» فقلت: «يا يرفأ»، مسترشد وابن سبيل أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأومأ إلي بالخشونة، فاتخذت خفين مطارقين أي مطبقين ـ يقال: طارقت نعلي، إذا أطبقتهما، ويقال لكل ما ضوعف: قد طورق، ولبست جبة صوف، ولثت عمامتي على رأسي، أي: أدرت بعضها على بعض على غير استواء، ويقال: رجل ألوث، إذا كان أهوج، مأخوذ من اللوثة ـ فدخلنا على عمر، فصفنا بين يديه، فصعد فينا وصوب، فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني، فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي، قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين قال: كم ترتزق؟ قلت: ألفاً، قال: كثير فما تصنع به؟ قلت: أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي، فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس ارجع إلى موضعك، فرجعت إلى موضعي من الصف، فصعد بنا وصوب فلم تقع عينه إلا علي، فدعاني فقال: كم سنك؟ قلت: خمس وأربعون سنة، قال: الآن حين استحكمت، ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوعت له، فأتى بخبز وأكسار بعير ـ الكسر والجدل، بكسر الأول في الثلاثة، العظم ينفصل بما عليه من اللحم، وجمع الكسر: أكسار ـ فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر إليه يلحظني من بينهم، ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سخت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا. فزجرني ثم قال: كيف قلت؟ فقلت: أقول يا أمير المؤمنين أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً واللحم غريضاً، أي: طرياً، فسكن من غربه، أي. لانت حدته، وقال: أهاهنا أغرت، أي: ذهبت، قلت: نعم، فقال: يا ربيع إنا لو شئنا ملأنا هذا الرحب من صلائق ـ الصلائق كل مطبوخ ومشوي بالنار ـ وسبائك ـ هو ما يسبك من الدقيق فيؤخذ خالصة وهو الحوارى والرقاق تسمى سبائك ـ وصناب ـ هو صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ـ ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم، أي: عابهم ووبخهم، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ثم أمر أبا موسى بإقراري وأن يستبدل بأصحابي. اهـ.

الكشف الحديث في إيضاح قوله تعالى:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

اعلم أن هذه الآية أصل عظيم من أصول العلوم الطبيعية، والذي جاء في نص هذه الآية هو آخر رأي وصل له العلماء، انظر إلى علوم اليونان فلقد ابتدأت حياتي العلمية الفلسفية بقراءتها، ولم أكن أعلم بالحديث، فرأيت القوم يقولون: إن السماوات والكواكب كل هذه أزلية أبدية، ولا يمكن خرقها ولا التئامها، فهي قديمة كما أن الله قديم، وباقية كما أن الله باق، ولا يمكن أن تجزأ ولا تنفصل.

أقول: ومعلوم أن هذا المذهب يخالف ديننا على خط مستقيم، ثم إن المتأخرين من العلماء أجمعوا أن هذه الكواكب مركبات من عناصر، وأنها كانت بخاراً قديماً، وفي المستقبل ترجع بخاراً الخ. ولا جرم أن هذا يوافق ديننا، أي أن علماء أوروبا قرروا ما يوافق ديننا موافقة تامة وإن كانوا لا يعلمون. ولكن بقيت العناصر وهي فوق الثمانين، فهذه لا تنحل مطلقاً، فإذن هي دائمة وتقوم في دوامها مقام السماوات والأرض في بقائها عند القدماء، فرجع الأمر إلى مثل ما كان عليه القدماء، هنالك ظهر علماء زماننا فقالوا: كلا بل كل هذا الوجود ونفس هذه المادة تنعدم كما تنعدم مركباتها، وآخر رأي هو أن العناصر محكوم عليها بالفناء كالمركبات منها.

إيضاح هذا المقام: النظرية القديمة

قد أبنت لك أن بعض علماء اليونان ومن تبعهم من علماء الإسكندرية أيام دولة الرومان بمصر قد قالوا: إن السماوات لا تنحل. وأزيد عليه أيضاً أنهم قالوا: إن المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن مركبات من عناصر أربعة، وهي: الماء والتراب والنار والهواء، فإذا حكمنا بأن لسماوات وكواكبها لا تنحل ولا تتجزأ ولا تفنى، فإنا نحكم أيضاً على الماء والنار والتراب بأنها لا تنحل ولا تتجزأ إلى عنصر أخرى، فالشمس لا تفنى والقمر لا يفنى والكواكب لا تفنى. واستمر الأمر على ذلك مئات السنين.

نقض هذه النظرية

هنالك جاء متأخرو علماء الإسلام كما تراه في كتاب المواقف للعلامة العضد وهكذا السيد وغيرهما، فزلزلوا بعض القواعد كقولهم: إن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس دائرة حول الأرض. ثم جاء «كوبر نيكوس» و«غاليلي» من علماء أوربا وأوضحوا هذا ودونوه، وهذا وإن لم يكن نقضاً لهذه النظرية هو فتح باب للنظر فيها والتفكير والهدم. فهنالك نظر المتأخرون من الفرنجة مثل العلامة «لافوزيه» فإنه وضع هذه النظرية وهي:

المادة لا تنعدم ولا تتجدد

ومعنى هذا أنك لو أتيت بمادة خشبية وأحرقتها فإن الأجزاء تتفرق، فبعضها يطير في الهواء وبعضها يبقى فحماً في الأرض وهكذا. نحن نأكل الخبز، فالخبز لم يذهب منه شيء، فإنك لو وزنته فوجدته رطلاً؛ فهذا الرطل يقسم أقساماً، فقسم يصير دماً بعد تمام هضمه، وقسم يخرج مع العرق والبول، وقسم يخرج مع الفضلات، فالدم موجود يصير لحماً وعظماً ومخاً الخ، والفضلات والعرق لا تزال في هوائنا وفي أرضنا وفي حقولنا، فترجع في أجسام نباتنا وحيواننا أو في تراب أرضنا.

هذا هو الوجود كله عند « لافوازيه » ، وهناك حللوا هذه المادة فوجدوا أن العناصر الأربعة مركبات من عناصر ألطف منها ، فالماء من الأكسوجين والأودروجين ، والهواء من الأكسوجين والأوزوت ومعه بخار الماء والفحم وهو الكربون ومواد أخرى ، وقد عرفوا من العناصر فوق الثمانين ، ولها جداول عجيبة تبين المناسبات بينها كما ستراه في سورة « العنكبوت » ، فهذه العناصر وإن أبطلت النظرية القديمة لم تحل بها المشكلة ، فإذا قلنا إن الكواكب مركبة من عناصر كما يتركب حيواننا ونباتنا وماؤنا وأرضنا ، وإن هذه الكواكب وهذه الأرض ستنحل وتلعب مركباتها وتتمزق ، وإن ذلك معروف من أضواء تلك الكواكب ، فإنهم حللوها بالمنظار فوجدوا في كل كوكب أضواء مختلفة كالنحاس والحديد والرصاص الخ . أي أنهم وجد هذه الكواكب مركبات من عناصر هي نفس العناصر الأرضية والشمسية ، لأن أشعة تلك الأضواء تشبه أشعة المعدن المختلفة المذكورة ، وبحثوا بحثاً طويلاً في معاملهم . أقول إن هذا أيضاً لم يحل المشكلة ، لأن هذه العناصر التي تنحل إليها الكواكب لا تفنى كما هو رأي « لافوازيه » .

الرأي الحديث الموافق لقوله تعالى:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

رأي العلامة جوستاف لوبون

اطلع العلماء اليوم على مادة اسمها « الراديوم » ، فهذا الراديوم له ضوء غريب عجيب جداً . ذلك أن أشعته لها مزايا لا توجد في غيرها بها تنحل أجزاء العنصر أي ينقص وزنه ، فهذا أدهش العلماء كيف يكون هذا الشعاع سبباً في نقص الوزن ، فأخذوا يعللون ذلك بعلل لم تصب كبد الحقيقة وذهبت أدراج الرياح ، ولكن « جوستاف لوبون » قال ما يأتي : إن جميع العناصر تقبل هذا الانحلال ولكن الراديوم أقواها وأسرعها انحلالاً ، مع علمنا أن جزءاً واحداً من ألف جزء من الجرام في الراديوم الذي هو أسرع المواد انحلالاً يبقى دهراً وهو يشع الملايين وملايين الملايين من تلك الذرات حتى يصبح معدوماً تماماً ، أي أن الراديوم المذكور يصير قوة لا مادة ، ومثله العنبر وإن كان أبطأ انحلالاً من الراديوم ، وهكذا سائر العناصر قابلة لهذا الانحلال لكنها أبطأ وأبطأ ، ثم قال : وهذا الانحلال البطيء يكون بخروج أجزاء ضوئية سرعتها في الثانية الواحدة (٢٠٠,٠٠٠) مائتا ألف كيلومتر . وقرر العلماء الذين وافقوا « لوبون » أنهم لو استطاعوا أن يحللوا جراماً واحداً من الحديد في ثانية واحدة ، أي لو قدروا أن يعدموه كما يعدم الراديوم ويحولوه إلى قوة لا وزن له ؛ لأفادونا قوة من هذا التحول تعادل قوة تجر قطاراً حديدياً حول الكرة الأرضية أربع مرات ، فإن القوة التي يتحول إليها ذلك الجرام تساوي قوة (٦٨٠٠) ألف ألف حصان . ومعنى هذا أن المادة التي نراها والعناصر التي تركب منها كل نبات وحيوان وإنسان تنعدم كلها ، وما هذه العناصر إلا قوى مخزونة متراكمة مجتمعة سميناها مادة ، وما هي إلا حالة من حالات عالم يسمى الأثير ، فالأثير الذي لا وزن له ولا لون ولا يرى ولا يعرف إلا بالعقل والاستنتاج هو الوجود كله ، فإذا رأينا كهرباء وأضواء أو نور أو حرارة ومغناطيساً قلنا : هذه كلها قوى يتحول بعضها إلى بعض ، وهي في المعنى شيء واحد هو الأثير المالئ للفضاء في جميع هذا الفراغ ، فإليه يرجع كل شيء بل هو كل شيء ، وما هذه العناصر الأرضية والسماوية بالنسبة للأثير إلا

كالماء قد صار ثلجاً أو البخار صار ماء، فإذن أنا وأنت وأرضنا وسماؤنا وعناصرنا كلها عبارة عن قوى أشبه بقوى الكهرباء والنور تجمدت وتكاثفت، وهانحن أولاء نراها تنحل في الراديوم مثلاً.

إذن هذا الوجود الذي نعيش فيه والذي نسميه مادة متنوعة إلى عناصر وإلى كواكب وشموس ما هو إلا قوى متجمدة متكاثفة كتكاثف البخار فيعود ماء، فالبخار إذا صار ماء أمكن رجوعه إلى بخار ثانياً هكذا المادة. فإذن لا مادة، وإذن فهمنا قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨].

حظ هذا التفسير

أفلا ترى أن هذا التفسير حظه عظيم، انظر إلى التوفيق، انظر كيف أمكن انطباق الآية في آخر السورة على آخر كشف حديث، وكيف كانت هذه الآية توافق نفس العلم الذي به ارتقت أوروبا وقهرت المسلمين به، اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة، بل انظر فوق ذلك إلى ما ستراه في سورة «العنكبوت»، أنا الساعة أكتب هذا صبح يوم الأربعاء وهو ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٦، وذلك أثناء طبع هذا التفسير بعد أن تم تأليفه، وقد كنت كتبت في سورة «العنكبوت» في العام الماضي ما يناسب هذا المقام، ولم أكن لأعلم ولم يخطر لي أن آخر «الشعراء» هو عين أول «العنكبوت».

وبعبارة أخرى: لم يكن ليخطر لي أن قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص:٨٨] هو عين ما دونته في سورة «العنكبوت» من أن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول السورة هي عبارة عن حروف مفرقة وهذه الحروف تفتح باب العناصر، وأن المركبات السماوية والأرضية ترجع إلى عناصرها كما ترجع الكلمات والخطب والقصائد إلى الحروف الأبجدية، وأن الأمم الإسلامية يجب عليها أن تنظر في التحليل والتركيب، لأن العالم الذي نعيش فيه لا نعقله إلا بتحليله، كما أن القراءة لا تتم إلا بمعرفة حروف الهجاء التي تتركب منها الكلمات، وهناك في السورة جدول العناصر والصلة بينها.

إذن سورة «العنكبوت» أصبحت موضحة لسورة «الشعراء» من بعض الوجوه، واتصل آخر الثانية بأول الأولى.

ظهور هذه الوحدة في النبات والحيوان

الذرة والخروع

إن الذرة كما تقدم في سورة «الفاتحة» يكون فيها أعضاء الذكور في أعلى عودها، والأنثى في وسط العود، والخروع يكون ذكره أسفل والأنثى أعلى، ولكنها عند الإلقاح تنزل الأنثى فتكون أسفل من الذكر، فيقع اللقح عليها، ثم تكون الثمرة فيهما ثم يعدم الذكران والإناث، وهذه الحال حاصلة في كل نبات.

والنحل وإن امتاز ذكره عن أنثاه هكذا حالة الذكر والأنثى متعاونان ثم يذهبان، وكل حيوان وكل إنسان أشبه بعود الذرة وعود الخروع، فإنك ترى شجرة الخروع وتقول: هي واحدة، وترى النباتة من الذرة فتقول: هي واحدة، ومع ذلك ترى في هذه الوحدة ذكراً وترى أنثى فهما ممتازان، فهنا وحدة تنوعت، وهكذا النخل وحدة تنوعت، وهكذا الإنسان والحيوان، فالرجل والمرأة فيهما معنى الوحدة التي رأيتها في الذرة والخروع، وهذه الوحدة تذكرنا بالوحدة العامة في الوجود فهو كله يرجع للأثير

والأثير شيء لا وزن له، فالمظاهر كلها ذاهبة، هذا كله معنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٨٨]. والحمد لله رب العالمين.

إيضاح لهذا المقام بأوسع مما تقدم وذلك تذكرة في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٨٨]، وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧]

إن هاتين الآيتين من واد واحد فقوله: ﴿ هَالِكٌ ﴾[القصص: ٨٨] وقوله: ﴿ فَانٍ ﴾[الرحمن: ٢٦] كلاهما اسم فاعل، وهو حقيقة في الحال، وكثيراً ما كنت أسمع بعض أساتذتي يقولون ذلك، وأن الموجود على الحقيقة هو الله ولا موجود سواه الآن. ولما كانت العقول اليوم في الأمم لا تعرف إلا الحقائق أخذت أبحث في هذا الموضوع فوجدته يرجع إلى مسألتين اثنتين:

المسألة الأولى: هل المادة موجودة وجوداً حقيقياً.

المسألة الثانية: هل هذه العوالم صائرة إلى الزوال؟

أما المسألة الأولى وهي: هل المادة موجودة وجوداً حقيقياً

فاعلم أيها الذكي أن نفس المادة من سماوات وأرضين وما بينهما قد صعب على العلماء إثباته وحاروا في تحقيقه، وبيانه أن القدماء من علماء الفلسفة قالوا إن هذه المادة مفرقة على حواسنا، فهذه الأضواء والحركات والسكنات والألوان والقرب والبعد اختص بها البصر. وهذه المسموعات من صوت الإنسان والحيوان والجماد اختصت بها حاسة الشم، وهذا الثقل وهذه الخفة وهذه الحرارة وهذه البرودة اختصت بها حسة اللمس، وهذه الحلاوة وهذه الملوحة والمرارة وما أشبهها اختصت بها حاسة الذوق.

إننا لما فكرنا في هذا الوجود لم نعرف منه إلا هذه الصفات، وهذه الصفات شيء والمادة شيء آخر، وأما المادة فإننا لم نعرف لها برهاناً ولا برهان على وجودها إلا هذه الأوصاف، فهذه المحسوسات ما هي إلا أعراض، وأخيراً حكموا بأن المادة وجودها ضعيف.

هذا ما يقوله قدماء الفلاسفة، وهذه المحسوسات هي التي عرفوها في «علم المقولات»، وهي كلمات عشر تشمل جميع هذا الوجود، والذي ذكرته لك منها هنا ملخص كلمة منها وهي «الكيف» والكيف عندهم يرجع إلى كيف محسوس وإلى كيف معقول، والذي ذكرته هو الكيفيات المحسوسة التي استنتجوا منها ضعف أدلة وجود المادة. هذا آخر آراء القدماء في المسألة الأولى وهي هل المادة موجودة وجوداً حقيقياً.

آراء المحدثين

أما آراء علماء العصر الحاضر فإنهم وافقوا القدماء ولكن على منهج غير منهجهم، قالوا: إن الذي نعرفه من هذه العوالم أمامنا إنما هو الأثير، والأثير شيء تصورناه ولم نره، وهذا الأثير فيه حركات كثيرة وتلك الحركات تتنوع، فمنها حركات تصير كهرباء، ومنها حركات تصير نوراً، ومنها حركات تصير حرارة. وبعبارة أخرى: إن هذه المذكورات من النور والحرارة والكهرباء ما هي إلا حركات ظهرت بمظاهر مختلفة، أي أنها شيء واحد اختلفت مظاهره بحسب استعداد قوانا نحن الأحياء على الأرض.

فأما ما نراه من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجبل وحجر فما هو إلا نفس هذه الحركات حصل لها ما حصل للحركات التي صارت نوراً وكهرباء وحرارة، غاية الأمر أن الحركات التي صارت نوراً قليلة بالنسبة للحركات التي صارت قمحاً أو قطناً أو ذهباً أو فضة، فإن الحركات التي سميناها نوراً تعد بملايين الملايين فقط، فيقال: إن حركات النور في الثانية الواحدة من حوالي (٤٠٠) مليون مليون إلى حوالي (٧٠٠) مليون مليون. فأما الحركات التي تكون حجراً أو شجراً أو ماء فإنها تعد بأكثر من هذا، فيقال مثلاً إنها ستة آلاف مليون مليون، فبدل أن كنا نقول إن الحركات في النور تعد بمئات الملايين؛ صرنا نقول: إن الحركات التي صارت مادة تعد بآلاف الملايين. إذن الموجودات كلها ترجع إلى حركات، وكلما كانت الحركات أقل كان الموجود ألطف، وكلما كانت الحركات أكثر كان الموجود أكثف. ولعمري إن هذا يخالف ما هو معروف في بادئ الرأي. ألا ترى رعاك الله أن النور سريع الحركات وأن الحجر والشجر معدومة الحركات. فانظر كيف انقلب الوضع وأصبح ما كان يظهر لنا أنه كثير الحركات قليل الحركات، وما كان قليل الحركات قد كثرت حركاته.

فيا عجباً من وجودنا في هذه الأرض، الأوضاع مقلوبة والأحوال معكوسة والعلم يظهر لنا الحقائق على غير ما نعهد. سبحانك اللهم حكمت علينا أن نعيش في عالم مقلوب الوضع معكوس الحال، نرى الشمس جارية حول الأرض، فيقول العلم: كلا، الأرض جارية حول الشمس. ونرى أن المال والولد والدنيا كل ذلك سعادة، فيقول لنا العلم والدين: كلا، فالسعادة غير هذا، ونرى بحسب نظرنا أن الإنسان متى مات فلا وجود له، ويقول العلم والدين: كلا، بل هو حي. إن هذه الحياة مقلوبة الوضع معكوسة الحال ترينا الكبير صغيراً والصغير كبيراً والعظيم حقيراً والحقير عظيماً.

فهاك برهاناً على ما نحن بصدده من أن المادة كلها ترجع لحركات، أذكرك بما تقدم في سورة «النور» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٣٥] فأذكرك بقطرة الماء المذكورة هناك وأنها رجعت إلى جزيئات ضعيفة، وتلك الجزيئات يبلغ عددها نحو عدد نجوم السماء، ثم هي مع هذا كله لا تملأ فراغ هذه القطرة بل تملأ جزءاً من مئات الآلاف من الفراغ المذكور، ثم هذه الجزيئات مع صغر مقدارها بالنسبة للفراغ الذي تشغله القطرة ظهر أنها ترجع إلى كهرباء سالبة وإلى كهرباء موجبة، وبعبارة أخرى: نقطة ضوء تجري حول نقطة أخرى ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة، وباختلاف مقادير هذه السرعة في الجري اختلفت المادة بحسب ما نراه، فقلنا: هذا أكسوجين وهذا أدروجين وهذا ذهب وهذا فضة الخ، والحقيقة أن هذا كله أمر واحد هو نور أو كهرباء لا غير، وباختلاف الحركات ظهرت المواد المختلفة. أما أنا فإني أحمد الله عز وجل، أحمدك يا الله على أنك وفقتني لتلخيص هذا الموضوع وشرحت صدري لتبيانه، فيعرف الأذكياء في أمم الإسلام وغيرهم أن العلم الذي وصل إلى عقول أمم الأرض الآن أظهر أن الوجود إنما هو حركات، والحركات ضوء أو كهرباء أو حرارة أو ذهب أو قمح أو حديد لا أقل ولا أكثر. فالحقيقة شيء والظواهر شيء آخر.

واعلم أيها الذكي أن كثيراً من الناس حينما يقرؤون هذا يهجس في نفوسهم خواطر تزعجهم فيقولون: «إذا كان الوجود ما هو إلا حركات اختلفت مظاهرها؛ فكيف يكون عندنا جنة ونار وحساب وعقاب ودنيا وآخرة؟ إذن هذا كله لا وجود له»، وهذا قول من لا تحصيل عنده. فإننا إذا

عرفنا حقيقة هذه الدنيا على حسب ما وصلت إليه عقولنا فليس معناه أن هذه الموجودات والمظاهر لا عمل لها كلا . فإن فائدة هذه المباحث في مثل هذا المقام أن تظهر لنا الحقائق ، فأما تعطيل قوانا وملكاتنا وأعمالنا فهذا ضرب من الجهل . إن هذه الحقائق تثير عقولنا وتفهمنا أن هذه العقول أمرها عظيم وأنها قادرة أن تحيط علماً بالمادة علويها وسفليها . وبعبارة أخرى أنها أكبر من الشموس والأقمار والكواكب الثابتة والسيارة ، لأنها تحكم عليها وتتصورها وتتخيلها وترجعها كلها إلى أمر واحد . إذن هذه العقول نور أكبر من النور الذي خلقت منه المادة بدليل أن هذه العقول حكمت على جميع العوالم فقالت إنها نور ، والنور يرجع إلى حركات ، والحاكم أفضل من المحكوم عليه ، فنفس هذا المبحث يرينا عظمة نفوسنا وشرفها وأنها تكبر وتعظم أن تخضع لهذه المظاهر بل مقامها الأسنى أن تعيش في ملأ أعلى ومقام أشرف ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥] .

آراء أفلاطون

ولا جرم أن هذه الآراء قد عرفها إجمالاً أفلاطون إذ يقول : « إن هذه المادة لا ثبات لها ، وما لا ثبات له فلا ثقة به ، وما لا ثقة به لا يصح مناطاً للعلم بل العلم مبني على أمور ثابتة » ، وما هي هذه الأمور الثابتة ؟ هي التي سماها هو « المثل الأفلاطونية » التي أوضحتها في غير هذا المكان ، وما هذه المثل الأفلاطونية إلا العوالم العقلية التي تعلو عن المادة ، وكم ورد عليه من اعتراض ، وكم أجيب عنه ، وسترى هذا المبحث في سورة « القتال » إن شاء الله تعالى في « رسالة مرآة الفلسفة » التي ظهر فيها هذا الوجود أوضح مما قاله أفلاطون ، ولا يرد علينا ما ورد عليه من الاعتراض ، ذلك لظهور الحقائق في زماننا ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

سبحانك اللهم وبحمدك ، علمت الأولين وعلمت الآخرين وجعلت العلم كله يرجع إلى أمر واحد ، وألهمت « أفلاطون » قبل الميلاد ما علمته لعلماء العصر الحاضر ، إنك رحيم بعبادك معلم الأولين والآخرين ، ومن عجب أن علماء الهند قديماً يقولون كما رأيته في كتاب « راجا يوغا » المترجم إلى الإنجليزية من الهندية : « إن المادة أصلها عقل بدليل أنها ترجع إليه » . ألا ترى أن الغذاء فينا يرجع إلى قوة فكرية ، فمن المادة العضلات والأعضاء ومنها نفس العقل ، إذن رجعت إلى أصلها ، وهذا رأي عجيب ، وهذا الرأي يقول به « استوارت سميث » فإنه يقول : « إن المادة ما هي إلا عقل تكاثف » ، وهذه العبارة منقولة عنه في نفس ذلك الكتاب . انتهى الكلام على المسألة الأولى وملخصها :

(١) إن القدماء يقولون : « إن الكيفيات المحسوسة البالغة (٣٦) كيفية معرّفة على حواسنا وحواسنا لم تدرك المادة وإنّما أدركت هذه الكيفيات لا غير » . إذن وجود المادة ضعيف

(٢) علماء العصر الحاضر يقولون : « إن العوالم كلها ترجع إلى حركات فلا فرق بين الضوء وبين الحجر كلاهما حركات ، والحركات أضواء ، والأضواء باختلاف حركاتها تصير محسوسة لنا ، فإن كثرت الحركات كانت مواد صلبة ، وإن قلت كانت سائلة ، وإن زادت قلتها كانت ضوءاً أو كهرباء الخ » .

(٣) أفلاطون من علماء اليونان يقول : « إن المادة لا ثبات لها وما لا ثبات له لا يصح أن يكون مناط العلم ، بل لا يصح أن يسمى موجوداً ، فالموجود الحقيقي هو العالم العقلي المسمى المثل الأفلاطونية » .

(٤) يقول القدماء من علماء الهند: «إن المادة أصلها فكر بدليل أنها تعود إلى فكر»، ويقرب منها رأي «استوارت سميث»، ومن قرأ آراء «اينشتين الألماني» لا يجدها تعدو ما كتبناه هنا، فهو يقول هذا القول بعينه، غاية الأمر أنه أوضحها وأطال فيها وأعلن عنها. فهذا العالم الألماني أعلن أيام الحرب الكبرى هذه المسألة وقال: «إن هذا الكون ساكن لا وجود لشيء فيه، وما هي إلا حركات ظهرت لحواسنا مختلفة المظاهر»، وهذا الرأي قد تقدم في هذا التفسير فارجع إليه إن شئت.

وهذا هو نهاية الكلام على المسألة الأولى، وهي هل المادة موجودة وجوداً حقيقياً تفصيلاً وإجمالاً؟. وأحمد الله على التوفيق ونعمة العلم ونعمة الإيضاح، والحمد لله رب العالمين.

المسألة الثانية: هل هذه العوالم صائرة إلى الزوال

اعلم أيها الذكي أن المسألة الأولى رجع الأمر فيها إلى تحقيق هذا الوجود وأنه راجع للحركات لا غير، ولكن هذه الحركات مظاهر، وهذه المظاهر لها قيمتها العظيمة، فحياتنا كلها وأعمالنا ودنيانا وآخرتنا ترجع أكثرها إلى هذه المظاهر، فليس معرفة أصل الوجود بمغن فتيلاً عن نفس هذه الموجودات فما تقع عليه حواسنا له مقام عظيم في العلم، فلا ينبغي لنا أن نفعل ما يفعله كثير من جهلة الصوفية الذين يقولون: «إذا لم يكن في الوجود إلا الله فالعلم يكون والبحث جنوناً»، وهذا يرجع بالإنسانية إلى الكسل والجهل والعجز. ويقول صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل الخ». إذن لهذه المادة التي هي مظهر الحركات والأنوار مقام عظيم وعليها مدار الباحث وهي السبيل الموصل إلى ما وراءها، وحينئذ نقول: هل هذه المادة التي ظهرت أمام حواسنا يوماً ما ستفنى بحسب ما يظهر لحواسنا؟ وهنا ظهر في الدنيا رأيان اثنان:

الرأي الأول: وهو القديم «لا شيء يزيد على المادة ولا شيء ينقص منها» وهذا رأي «لافوازيه» وهو يعتبر اليوم الرأي القديم. ومعنى هذا أنك إذا أحرقت خشبة أمامك ثم جمعت ما بقي من رمادها وما طار في الجو من دخانها وبخارها كان مساوياً في وزنه لوزن الخشبة، وعليه يكون الماء والهواء ونحوهما لا تفنى، فالماء يدخل النبات ويخزن فيه ثم يتحلل هذا النبات والماء الذي كان فيه لابد أن يرجع بخاراً كرة أخرى ولا يفنى، وهكذا الهواء ونحوه. إذن المادة تتحلل وتتركب وكأنما هي حروف الطبع توضع في الصندوق وترتب وتنظم ويطبع بها الكتاب ثم تفرق كرة أخرى، وهكذا فالحروف واحدة معلومة محدودة في المطبعة والكتب المطبوعة بها تعد بالمئات والآلاف، هكذا هذه العوالم بحسب النظر الظاهر والمشاهدة في هذه الحياة.

الرأي الحديث: «لاشيء يزيد على المادة ولكن كل شيء صائر إلى الزوال» لعلك حين تسمع هذا القول تقول: إن المسألة الأولى والمسألة الثانية اللتين ذكرتهما مرجعهما واحد، فإن المسألة الأولى رجع الأمر فيها إلى أن العوالم كلها ترجع إلى الحركات والحركات إلى الأثير، وهذا الرأي القائل إن المادة صائرة إلى الزوال معناه يرجع لهذا، فيرجع الأمر إلى أن هذه المادة تتحات وتتجزأ وتصير في آخر أمرها إلى القوة والقوة ترجع إلى الأثير. فقلت: كلا، ليست المسألتان واحدة.

وإيضاحه بضرب المثل أن أقول: انظر حياك الله العلم وألهمك التوفيق وشرح صدرك للحكمة وأنالك الكمال إلى رجل أصيب بمرض عصبي، وهذا المرض جعله يرى أشباحاً مزعجة وأشخاصاً

يظهرون له فيؤذونه ويسمعونه ما يكرهه، ولا يزالون يوالون الظهور له وهو يستغيث ولا مغيث ويسأل ولا مجيب، وهو في الحقيقة ما ظهر له إلا ما خيلته له نفسه من الصور المخيفة التي ظهرت له كأنها حقيقة؛ فلا تزال تلك الصور تظهر له وقتاً فوقتاً حتى يوارى في ثرى رمسه بسبب ظهور تلك الأشباح المزعجة. والتاريخ القديم والحديث قص علينا قصص هؤلاء العصبيين الذين أوردهم مرضهم موارد الحتف وأقلقتهم تلك الصور وأقضت مضاجعهم وهيأتهم للموت ومفارقة الحياة، لست في هذا التمثيل أتخيله تخيلاً بل هو حقيقة عرفها علماء الطب وعلماء الأخلاق، هذا المريض بذلك المرض العصبي يرى تلك الأشباح، لماذا؟ لأنه مستعد لذلك فاستعداده هيأ له تلك الأشباح والمظاهر، وهذه حقيقة عنده لا تقبل الشك، ولذلك تمنع عنه النوم والأكل والشرب والملذات ثم يرد أحواض المنايا ليخلص من هذا العذاب المهين، فبينما هو كذلك إذ الناس حوله يصفونه بأوصاف الجنون والتخبط، والطبيب يقول: إن أعصابه فيها مرض هيأ له ظهور هذه الصور، فهنا رأيان: رأي الجمهور الذي سلمت قواه العقلية من الخلل فهو يقول لا صور ولا أشباح، ورأي المريض الذي أصيب بهذا الخلل والخبل فهو يقول بوجود صور وأشباح، والجمهور تكون نتيجة معارفه أنه لا يفزع لأشبح ولا يخاف من عفاريت، وهذا العصبي يتأثر فيموت.

إذا عرفت هذا المثل فاعلم أنه منطبق على المسألتين السابقتين. فما مثل الناس في الأرض إلا كمثل هذا العصبي المريض. وما مثل العوالم الروحية التي خلصت من المادة إلا كمثل العقلاء الذين في الأرض حول هذا العصبي، وما مثل الصور والأشباح التي تظهر له إلا كمثل هذه المادة الظاهرة لنا في الأرض الآن. فإذا قال العصبي: هنا صور وأشباح، وقد صدق فعلاً وما كذب؛ وقال الناس حوله: لا صور ولا أشباح، وقد صدقوا وما كذبوا؛ فهكذا نحن الآن نقول: هنا موت وحياة وسماء وأرض وجماد وحيوان ونبات، وقد صدقنا، وهناك عوالم أخرى روحية لا ترى إلا أنواراً وحركات، وقد صدقوا. فنحن صادقون في اعتبار هذه العوالم موجودة، وصادقون في قولنا باعتبار آخر أنها غير موجودة. ومن الجهل أن تخلط أحد المقامين بالآخر.

ثم إن هذا المريض العصبي إذا بقي على حاله مريضاً واتفق أن الصور والأشباح لم تعد تظهر له فهذه حال أخرى نظيرها ما نقوله في المادة نحن، فإننا نقول: إن المادة آيلة للزوال ونحن على حالنا الحاضرة، أي أننا بالعلم عرفنا أن هذه المادة ونحن في حالنا الحاضرة تأخذ في الزوال وترجع إلى القوة، والقوة ترجع إلى عالم الأثير. إذن هنا فرق بين المسألة الأولى والمسألة الثانية، المسألة الأولى فيها أن هذه العوالم لا حقيقة لها بل ترجع إلى الأثير أي في التحقيق العلمي، وهذا كالمثال الأول للمريض بالمرض العصبي، والمسألة الثانية ترجع إلى أن المادة ونحن على حالنا صائرة إلى الزوال كما أن العصبي وهو مريض زالت الأشباح وما عادت تظهر له.

هذا هو الفرق بين المسألتين، فالمسألة الأولى فيها بطلان العوالم في التحقيق العلمي، والمسألة الثانية تفيد أن بطلان المادة يصير عملاً واقعاً تطبيقاً للعلم على العمل، وعليه نقول: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨] و﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[الرحمن: ٢٦] إما في الحال الآن في التحقيق العلمي وإما في الظواهر وفي مقامنا الإنساني في الأرض. بل نحن مأمورون وموفقون إلى العمل في العالم بجد

باعتبار أنه موجود فعلاً وجوداً يناسب حالنا، وإما في المآل بأن يبطل هذا العالم الذي ظهر لنا ويزول من الوجود فعلاً كما أنه زائل الآن في النظر العلمي ولا يجوز للناس أن يخلطوا أحد المقامين بالآخر، فلا يقول جهال المسلمين وبعض الذين يدعون التصوف: «إذا لم يكن في الوجود إلا الله فلم النصب والعمل فلنتوكل ولننم»، وإذا قال بعض المتفلسفين صغار العقول من الذين قرؤوا قشور العلوم وجهلوا الحقائق: «ليس عندنا في الوجود إلا هذه المحسوسات فعلام النصب والتعب في تحصيل الحقائق، ولا حقائق إلا ما نراه فلنعش للذات»، فهؤلاء يقال لهم: أنتم مساكين جهلتم علوم الأمم المحيطة بنا وأداكم كسلكم إلى هذه الفكرة فوقفتم في أول الطريق، فأنتم مغرورون، وهؤلاء يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

ولما اطلع صديقي العالم على هذا المقال قال: لقد أجدت ضمناً ولكن هنا سؤالان: الأول: أنك جعلت النوع الإنساني أشبه بالمريض مرضاً عصبياً يرى الأشباح ولا حقيقة لها إذن هذا الإنسان الآن في حال نقص.

فقلت: إن الإنسان في هذه الأرض روحه من عالم النور ووجوده في أرضنا يعدله عن مقامه السامي الشريف، وهذا هو المرموز له بقصة آدم إذا عصى وأكل من الشجرة، وهذا هو المرموز له بالذنب، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾[غافر: ٥٥]، ألم تر إلى المسلم يقول في كل صلاة في الجلوس بين السجدتين «رب اغفر لي وارحمني الخ». إذن المسلم يطلب المغفرة دائماً أذنب أو لم يذنب، ولا معنى لطلب المغفرة لغير ذنب. إذن هناك ذنب عام لنوع الإنسان وهو تجسده في هذه المادة والذنب هنا ليس بالمعنى المتعارف بل بمعنى آخر كالنقص أو الاحتجاب عن مقام الكمال أو البعد عن عالم الأرواح والصفاء والنور، ولهذا المعنى تفسير كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتح: ١-٢]، ولا ذنب لنبينا صلى الله عليه وسلم متقدماً أو متأخراً من الذنوب المعروفة. كلا، وإنما الذنب هنا بمعنى الوجود في هذه المادة الجسمية التي هي أشبه بسجن يسجن فيه الناس، ولكنهم بالعبادة والعلم والعمل يتخلصون من ذلك السجن، فالذنب هنا يرجع إلى معنى يقرب من هذا، ولا جرم أن هذا المعنى ملازم لكل حي في الأرض. إذن نبينا صلى الله عليه وسلم أشبه بمن دخل السجن لا ليسجن ولكنه دخله ليخلص المسجونين، ولكنه في أثناء بقائه في السجن قد حجز وأبعد عن مقره العالي الشريف فلا مانع أن يسمى هذا ذنباً مجازاً. وهذا هو السر في طلب الاستغفار، وستزيده بياناً في الجوهرة الثانية، هذا هو السؤال الأول.

فقال: أما السؤال الثاني: فإني أول أنك لم تبين لنا إيضاح المسألة الثانية، وهي أن الكون صائر للزوال، ومن الذي قال بهذا الرأي وما برهانه؟ فقلت: إن هذا الرأي رأي الدكتور «جوستاف لوبون» العالم الفيلسوف الفرنسي، فإن الناس يقولون: «إن علم الطبيعة أساس جوهر الفرد»، ولكنه هو يقول: «إن المادة تنحل فعلاً»، وجعل المادة أشبه بالنبات والحيوان والإنسان، فكل نبات وكل حيوان تنحل وترجع إلى المواد الأصلية والعناصر المعلومة، فهكذا المادة تكون على الحال الأثيرية ثم تصير كواكب وأرضين ثم تنحل وترجع إلى عالم الأثير، فهي كحيوان أو كنبات، وقد قرظ علماء أوروبا كتابه الذي شرح فيه هذه الآراء وسماه «نشوء المادة» أحسن تقريظ، ثم قالوا: إنه أعظم كتاب علمي

ظهر بعد كتاب «أصل الأنواع لدارون»، وملخص كلامه أن الرأي القديم القائل: إن الكون مركب من مادة قابلة للوزن، ومن قوة تحرك المادة ولا تقبل الوزن أيضاً، وتكون كهرباء وحرارة ونوراً الخ، ومن أمر لطيف يسمى أثيراً غير قابل للوزن أيضاً تسبح فيه الجواهر الفردة، وهذه العوالم الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر، فهو يقول: إن هذا الرأي القديم خطأ، وإن هذه العوالم الثلاثة لا فواصل بينها، فالمادة تتحول إلى قوة والقوة تتحول إلى أثير، يقول «جوستاف لوبون» لإثبات هذه المسألة: «إن الراديوم وما أشبه يذهب هباء منثوراً ويزول من الوجود بإرسال ذرات صغيرة منه ذات سرعة عظيمة»، ويقول: إن جزءاً من ألف من جرام «الراديوم» الذي هو أسرع المواد انحلالاً يبقى دهراً وهو يشع ملايين الملايين من تلك الذرات إلى أن تتحول مادته إلى قوة أخيراً فعلاً، إن جميع المادة لا فرق بينها وبين الراديوم، غاية الأمر أن الراديوم أسرع انحلالاً، وانحلال الراديوم يكون بإرسال ذرات صغيرة منه بسرعة تقرب من سرعة النور أي ٢٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية، وقد قاسوا تلك القوى التي تضيع في أثناء انحلال المادة فوجدوها أشد القوى في هذا العالم، وقد قالوا: إنهم لو قدروا أن يحولوا جراماً من الحديد بحيث يعدم في ثانية واحدة لتحول هذا الجرام إلى قوة تعادل قوة ٦ آلاف مليون و ٨٠٠ مليون حصان، وهذا المقدار كاف أن يجر قطاراً حديدياً حول الأرض ٤ مرات، ومن هذه القوة الكامنة في المادة النور والكهرباء والحرارة والجاذبية، فهذه يتحول بعضها إلى بعض، لأن أصلها واحد، وما الكهربائية إلا نتيجة انحلال المادة وهكذا ضوء الشمس فهو ناتج من انحلال مستمر في عناصر، وهكذا.

فهذا هو الرأي الجديد لجوستاف لوبون القائل: إن العالم المادي إن مصيره الزوال ككل حيوان وكل إنسان، وهذا هو تفسير الآية.

يقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٨٨] إذن أصبح الرأي الجديد هو المفسر لهذه الآية، فكل شيء هالك إلا وجهه فلا فرق بين النحلة والنملة وبين نفس المادة العامة فكل منها له عمر محدود ثم ينعدم، فإذا رجع الحيوان والنبات إلى المادة الأرضية والهوائية، رجعت المادة جميعها إلى عالم الأثير، وعالم الأثير عالم إلهي لا ندري سره ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

وما عالم الأثير إلا كعالم الخيال الذي نحسه في نفوسنا، فإن الإنسان متى أغمض عينيه وهو مستيقظ أخذ يجول في عوالم لا نهاية لها يشاهدها بحاسة باطنة، ثم إن الصور التي تبرزها في الخارج لا نصنعها إلا بعد أن نتصورها في خيالنا، كما أن المادة الخارجية لا تظهر إلا من الأثير، فعالم الأثير عالم مجهول لا يقربه لنا إلا هذا الخيال الذي نتخيله ولا نراه.

فلتنظر أمة الإسلام بعدنا وليتأملوا هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا؟ ألسنا بهذا نعرف قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[الرعد: ٤٣]، فالعلماء في الأمم بعدنا هم الذين يفهمون أسرار النبوة ويعقلون معنى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨]، ومعنى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾[القصص: ٨٠] الخ.

وهذا وأمثاله هو السبب في أن القرآن يذكر في الأمور العظيمة العلم وأولي العلم، ويقول الله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [آل عمران: ١٨]. إذن دين الإسلام في المستقبل لا يحمله إلا أمم ارتفعت بالعلم ودرست مناهل كل فن، فويل بعدنا للمسلمين الجاهلين، وويل ثم ويل لمن قرأ هذا التفسير ولم يكن نبراساً ونوراً مشرقاً فأعرض وتولى عنهم مع قدرته ولم يكن مصلحاً لعقول المؤمنين. انتهى ما أردته في تفسير هذه الآية عند الطبع يوم الاثنين أول يوليو سنة ١٩٢٩م.

جوهرتان

الأولى: في بعض سر: ﴿ طسٓمٓ ﴾.

الثانية: في الصلة بين السورتين.

الجوهرة الأولى: في سر ﴿ طسٓمٓ ﴾

أي: الطاء والسين والميم في أول سورة القصص

في ليلة الخميس ١٨ يوليو سنة ١٩٢٩ خطر لي وأنا ذاهب إلى المنزل هذه المعاني في سر ﴿ طسٓمٓ ﴾ في أول هذه السورة. لقد جاء في أول السور المتقدمة أن هذه الحروف قد خصت لتذكر المسلمين اليوم بأهم ما ينقصهم من الكمال في هذه الحياة وغيرها، وهذه السورة طبعاً بدلت بما يشير لذلك فيها.

إن هذه السورة مبدوءة بقصص فرعون مختومة بقصص قارون، ولا جرم أن فرعون استضعف طائفة من الناس واستحيا نساءهم لأنه مفسد، ثم إن هذه الطائفة منّ الله عليها وفازت. ثم إن أهم ما في هذه السورة أن الطوائف الضعيفة المستعبدة يوماً ما تنصر على أعدائها ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ومثل ذلك أمر قارون فإنه أعطي المال ففرح وأفسد، ثم ذهب هو وماله، وكان الذين أوتوا العلم أرشد ممن أوتي المال. هذا ملخص ما في السورة، طوائف ذليلة، سياسة، أو مالاً يكون مآلهم الفوز، فالسياسة في أول السورة في قصص فرعون وموسى، والمال في آخرها في قصص قارون. فلما كانت هذه المعاني هي أهم ما يقصد في زماننا لرقي المسلمين كان ما فتح الله به في هذه الليلة مناسباً لذلك، ألم تره أشار بالطاء طائفة وبالسين لذلها واستعبادها، وهذه السين مذكورة في: «يستضعف»، و«يستحيي»، وفي «المفسدين»، فالسين في الكلمتين الأوليين مذكورة مع الإذلال، وفي الأخرة لتوجيه الفكر إلى صفة الظالمين وهو الفساد.

ولما كانت هذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها كثر ذكر الميم في هذه المعاني إذ قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ ﴾ [القصص ٥-٦] الخ، فالميم في ﴿ طسٓمٓ ﴾ تشير إلى جعلهم أئمة، لأن الميم جاءت في الكلمتين، وفي جعلهم الوارثين، وفي تمكنهم في الأرض. إذن ﴿ طسٓمٓ ﴾ في هذه السورة فيها ملخص السورة، ولعل قائلاً يقول: هذه الحروف لم تأت في أول الكلمات غالباً بخلاف كثير من السور السابقة، فأقول: إن من فهم أسرار حروف أوائل السور فيما تقدم يسهل عليه استخراج فحوى هذه السورة من الحروف في أولها، إذن من عرف ما تقدم يعرف الحكمة الإلهية، وإذن يفقه ما ذكرناه هنا سريعاً، لذلك جعل الله هذه الحروف هنا موزعة على آيات كثيرة وليست أكثرها في أول الكلمات.

وظهور هذا السر الآن في هذا التعبير يرمي لغرضين :

الغرض الأول : هو ما تقدم ، وهو أن الطوائف الضعيفة لابد من فوزها وأن الله رؤوف بها ، عاطف للطائفة والسبي لذلها والميم لنصرها ، وهذا ملخص السورة كما تقدم ، فهذا الغرض اليوم يشير إلى رقي المسلمين ، كأنه يقال لهم : أيها المسلمون كل ذليل يعز بعد ذله فاقرؤوا التاريخ ، فإياكم أن تقنطوا من رحمة الله ، فسيرجع لكم مجدكم فلستم أول أمة ذلت بعد عزها .

الغرض الثاني : أن تحترس الأمم الإسلامية وغير الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها من الغرور وبالملك واستضعاف الأمم ، فإذا قويت أمم إسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاد ، وإذا أذلت أمة فإن الله يقتص للمظلوم من الظالم ، وكل هذا تشير له ﴿ طسٓمٓ ﴾ ، فكأن هذه الحروف مبشرة لكثير من الأمم الأذلاء ومنذرة للأمم الأقوياء ، وأنهم لابد أن الله ينصر الضعفاء يوماً ما عليهم ، فيجب الإحسان للأمم الضعيفة والنصح لهم ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية

في الكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت

اللهم ربنا نحمدك على جمال العلوم وبهاء الحكمة . أريتنا يا الله في قصة قارون أنه غره المال والخزائن وقال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص : ٧٨] ، ووبخته على أنه جهل تصرفك في الدول وإهلاكك للأمم ، وشهد الذين أوتوا العلم أن هذا ظل زائل ، وقلت للناس في عضون ذلك : إنك لا تحب الفرحين ، وإنك لم تجعل العاقبة إلا للذين لا يفسدون في الأرض ولا يريدون العلو فيها ، ثم ختمت السورة بأن هذه المواد غير موجودة عند التحقيق ، وإنما هذه النفوس الأرضية قد حكم عليها أن يكون نظرها للموجودات نظراً يحبسها فيها ويجعل عقولها مشغولة بهذه المادة ، وفي الحقيقة لا مادة وإنما تلك أشياء أقرب إلى الخيال منها إلى الحقائق ، فناسب أن تكون سورة « العنكبوت » مبتدأة بمسألة الفتنة وأن هذا النوع الإنساني مبتلى كما ابتلي الأنبياء والعلماء ، وذلك ليجتهد الناس في أعمالهم ويصل كل منهم إلى درجته التي استعد لها .

ثم أخذ بعد ذلك يحرض على الجهاد وأن لقاء الله لا يكون إلا بهذا الجهاد . إن هذا الإنسان كله مكبل بقيوده محبوس في سجنه ، حكم عليه حكماً قاطعاً أن يعيش في ظلمة الطبيعة ويقضي الضرورة الحيوانية ، ويتلبس بالطين ويزاول شهوات البهائم ونزوة السباع وضراوتها ، فلست تراه إلا ساعياً جهده لكسرة يأكلها وشهوة يسدها وغضب يثيره ، فقواه موزعة وآراؤه مشتتة . هذا هو الإنسان أوله وآخره ، وما الدين ولا العلم ولا العمل إلا سعي للخلاص من هذه الطبيعة الطينية .

واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني لا تكشف إلا لمن أدرك ما عليه الناس الآن . إن الناس تراهم في هذه الأرض مجبورين مقهورين على أعمال كلها نصب وتعب ، وما أرضنا إلا جواهر نارية متكاثفة وباطنها مواد محرقة ، وكل نبات وكل حيوان أجسامها قابلة للاحتراق ، ونحن لا حياة لنا إلا بالحرارة التي هي من طبع النار ، وهانحن أولاء ننتقل من سجن إلى سجن ، فإذا سجنا في سجن الجوع أو الشبق وهربنا من هذين السجنين بتعاطي الطعام وباجتماع الذكور بالإناث دخلنا في سجنين آخرين وهما سجن حوز المال وحب الترف وذل المحافظة على ما ملكنا ، ثم الحسد والبخل وما أشبه ذلك ،

وسجن الذرية الذين نسعى ونكد لتربيتهم وتعليمهم وتحزن لمرضهم وجهلهم، فنحن نخرج من سجن إلى سجن ومن عذاب إلى عذاب ونحن نظن أننا سعداء فرحون. ثم إن الأمم كالأفراد فهم متعادون منافقون مخادعون متحاربون، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[البلد: ٤]، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾[العصر: ٢]، وكيف لا يكون في خسر وهو مشغول بما كفيته الدودة وسعدت به حشرة أبي دقيق، حشرة أبي دقيق دودها يأكل ورق القطن وتجده موفراً لها فهي به سعيدة، وما نال الإنسان من سعيه مثل ما نالت تلك الحشرات الساكنات في قصور خضراء من ورق القطن فيها ثريات لامعات بهجات هي أزهار القطن، وهذا الإنسان كله أوله وآخره يسعى ليحصل سعادته في الدنيا فلم ينل، ثم هو يخلو بنفسه ويفكر في أصل العالم ومنشئه وهذه النجوم والشموس ولماذا خلقنا في الأرض وهكذا، فيعجزه البحث فيرجع طرفه خاسئاً وهو حسير.

هذه هي مرتبة الإنسان ولهذا أمر بالجهاد ليخرج من هذه المآزق، وضربت له الأمثال تارة بقصة آدم وآونة بقصة قارون، فإذا وجدنا قارون افتتن بالمال فذلك ليس خاصاً به بل لكل الناس، بل الذي لا مال عنده قد يكون قلبه معلقاً به كقارون، وكم من صعلوك لا يملك شروى نقير أعمته الدنيا وأضلته، وكم من غني زهدها فهماً كما قيل:

علقتها عرضاً وعلقت رجــلاً   غيري وعلق أخرى ذلك الرجل

واعلم أن جميع الذنوب التي وردت في الشرائع السابقة واللاحقة كالزنا والسرقة والقتل ما هي إلا آثار أو نتائج لما كمن في هذه النفوس من الشهوة والغضب، فما مثل تلك الصفات في النفوس إلا كمثل الأقذاء في العيون، وما مثل هذه الذنوب إلا كمثل الذباب يقع عليها، فلو لم تكن في العيون أقذاء لم يقع الذباب عليها، فوقوع الذباب شبه به الذنوب، والقذى في العين شبه أساس تلك الذنوب ومن أزال الأساس فقد أزال ما بني عليها، ولا يزال هذا الأساس إلا بالجد والاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة والرجوع إلى مبدع العالم.

واعلم أيها الذكي أن من عرف ما قلته لك الآن وأدركه حق الإدراك عرف أسراراً في الديانات وحلت له مشاكل كثيرة. مثال ذلك أن المسلم يقول في الجلوس بين السجدتين: «رب اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني وارزقني واهدني وعافني»، فقول المسلم: اغفر لي، في كل ركعة ليس معناها أنه قد أذنب فعلاً، فكم من المسلمين من يقول: اغفر لي، ولا ذنب له، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقولها، وقد أجمع العلماء أنه معصوم من الذنب، فهو صلى الله عليه وسلم وكثير من المسلمين لا ذنوب لهم، فكيف يطلب هؤلاء الطاهرون غفران ذنب لم يقع منهم. إذن طلب الغفران منصب على أساس الذنوب وهي الطبيعة الترابية التي شبهناها بقذى العين الذي هو السبب في وقوع الذباب عليها.

إذن المسلم يطلب غفران الذنب سواء أذنب ذنباً أو لم يذنب، لأن هذه الطبيعة الطينية معرضة للذنوب. فإذا كان المسلم مذنباً طلب غفران هذه الذنوب الفرعية، وإن لم يكن مذنباً طلب إزالة أساس الذنب لا غير، وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتح: ١-٢]، فالغفران كما تقدم هنا منصب على تلك الأساس التي اقتضتها الطبيعة الإنسانية في هذه الأرض.

بيان ما يشير إلى هذا المعنى عند الأمم السابقة

وإذا أنت أيها الذكي رجعت إلى ما تقدم في آخر سورة « المائدة » وقرأت أن الدين المسيحي ما هو إلا صدى صوت ديانات تقدمت في مصر والهند والتبت والعراق عند الآشوريين والبابليين وأهل المكسيك القدماء وهكذا ، ترى بعضه في سورة « مريم » منقولاً عن علماء الألمان الكاشفين لهذا المعنى سنة ١٩٠٣ فيما وجدوه على الألواح في بلاد العراق ، أقول : إذا رجعت إلى ذلك كله وقرأته وفهمته حق فهمه ؛ أيقنت أن الصلب كان أمراً شائعاً في تلك الأمم على سبيل الخرافة ، وقد نقل إلى الدين المسيحي نقلاً لا غير ، وأن هذا الصلب لابن الله البكر ليخلصهم من ذنوبهم بخروجه من هذه المادة وأنهم جميعاً يغمسون أنفسهم في الماء « ماء المعمودية » ، وأيضاً قد شاع في أكثر الديانات وآخرها الإسلام ؛ أن آدم عصى وأنه هبط من الجنة إلى الأرض وهكذا ، فكل ذلك من واد واحد ، نعم تلك الديانات منسوخة عندنا نحن المسلمين والمنسوخ لا حكم له ، ولكن كلامنا الآن في شيوع هذه الآراء في الأمم .

إن العقول الإنسانية لا تقل في فطرها عن فطرة الحيوان ، بل فطرة الإنسان أرقى وأرقى ، ولم نجد في الحيوان غرائز باطلة بل هي كلها غرائز شريفة أبدعها المبدع الحكيم ، فإذا كان هذا في الحيوان فكيف إذن بالإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض وشرفه ، فكيف تعم فيه خرافات الصلب لابن الله البكر ، وكيف تشيع عادة ماء المعمودية؟ أقول : إنّ هذا كله إنّما شاع في هذه الديانات وقبلته الفطر الإنسانية وبقيت فيها دهوراً ودهوراً ، لأن هذا النوع الإنساني كله يحس بأنه موضوع في طبيعة تبعده عن مقامه العالي وشرفه الرفيع فهو عاص ويحتاج إلى التطهير من المعصية ، فماء المعمودية ما هو إلا رمز لطهرة النفس بالعلم والعمل ، والصلب خروج النفس من هذه المادة وارتقاؤها وتنزهها عن شهوات أهل الأرض . كل هذه المعاني محبوءة في عقول أهل الأرض ، فتارة تظهر بهذه الخرافات كالصلب وماء المعمودية ، وتارة تظهر بهيئة حقائق مثل أنها ذنوب ويطلب من الله غفرانها ، ومثل أن أبانا آدم قد عصى وهبط من الجنة . كل ذلك يرجع إلى تلك الأساس التي ذكرتها لك ، ولست أقول لك إن كل دين من تلك الأديان كان حقاً ، بل أقول : إن هذه خرافات ابتدعها الناس في الأمم وقبلتها نفوسهم ، ولكن لماذا قبلت النفوس هذه الخرافات؟ إنّما قبلت هذه الخرافات لأنها تعبر عن فطرها .

ولما أراد الله إنقاذ الإنسان من الخرافات وعلم أنه استعد لإظهار بعض الحقائق ؛ أنزل دين الإسلام وعبر بالمغفرة والذنب . هذا ، ثم إنك إذا سمعت الله يقول في آخر سورة « القصص » : ﴿ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الآية : ٨٤] ، فإن هذا راجع إلى الذنوب الفرعية ، وإذا سمعته يقول . ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [الآية : ٨٣] الخ ، فهذا راجع إلى طهارة تلك الأساس وتهذيبها ، وإذا سمعته يقول . ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص : ٧٩] الخ ، فذلك لفروع تلك الأساس . وإذا سمعت ذكر الجهاد والفتنة في أول « العنكبوت » ، فما هو إلا إتمام لما في آخر « القصص » ، وهكذا ذكر الأعمال الصالحة والسيئات والأثقال كل ذلك تكميل لما في آخر السورة قبلها . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٩م .

تذييل

حكمة ألقاها الله على قلوب بعض عباده من الصوفية ، وهي أن من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل وهي من حكم قصة قارون فإنها تحدد الزهد في الدنيا

هذه القصة كما ذمت المال والدنيا حرضت على عدم نسيانهما بالكلية ، فالقصة أعطتنا طريقاً وسطاً فلا نكون عالة على الناس ولا نكون طماعين جماعين ، ولقد شاع في أيامنا هذه أن كثيراً من الشيوخ ورجال الصوفية وجهلة الوعاظ يحقرون أمر الدنيا للناس ، فيبطل سعي كثير من العامة ويكون نفس أولئك الشيوخ عالة على الأمة يلتمسون منها الهدايا تقرباً إليهم مما هو شائع ومعروف وهذا إثم وضلال ، فالله ما خلق العقل والقدرة والأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ليعطلها ولكنه فصلها تفصيلاً لأعمال تقوم بها فتظهر مواهبها في الحياة الدنيا والآخرة ، ولقد رأيت في كتاب الشيخ الشعراني المسمى « درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص » ما نصه : سألت شيخنا رضي الله عنه عما استند إليه الزاهد في الدنيا من الأسماء والحضرات الإلهية ، فإنه لا بد لكل شيء في العالم من استناده إلى حقيقة إلهية ، ونرى الحق تعالى رجح وجود العالم على عدمه ، فبخلق من تخلق هذا الزاهد؟ فقال رضي الله عنه : الزهد في الدنيا هو هدى الأولين والآخرين المتبعين للأوامر الإلهية ، لأن الله تعالى قد عشق الخلق في الوجود وزينه لهم ، وجعل ذلك حجاباً عليه لا يصل أحد إلى معرفته تعالى إلا بالإعراض عن زينة الكونين ، فمن زهد في الدنيا والآخرة ، فقد تخلص لربه عز وجل ، ومن زهد في الدنيا فقد تخلص للآخرة ، ومن لم يزهد في الدنيا لم يتخلص بشيء وتعس وانتكس ، فالزاهدون قد تخلقوا بأخلاق الله تعالى في كونه الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها ، أعني : نظر محبة ورغبة ، وإلا فهو تعالى ينظر إليها نظر تدبير وإمداد ، ولولا ذلك ما كان لها وجود ، وكذلك الزاهد لا ينظر إلى الدنيا نظر محبة ورغبة ، وإنما هو نظر تدبير لمعايشه التي لا يصح له أن يستغني عنها ، فإنه من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل ، إذ الغنى بالحق حقيقة لا يصح ، فالاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله عز وجل ، فما بقي مقصود القوم بالزهد في الدنيا إلا فراغ القلب وعدم التعمل في تحصيل ما زاد على ضرورات العبد لا غير ، عكس مرادهم بالرغبة فيها . فقلت له : إن بعض الناس يزهد في الدنيا ويقول : إنما أزهد فيها توسعة على إخواني في الرزق فما حكمه؟ فقال رضي الله عنه : هو زهد معلول . فقلت له : كيف؟ فقال : لأن في اعتقاده أن الذي تركه قسمه الحق له ثم أعطاه للخلق وهو باطل . فقلت له : فما الخلاص في مقام الزهد؟ فقال رضي الله عنه : الخلاص أن يكون بما ضمنه الحق تعالى أوثق منه مما في يديه ، ثم يتصرف فيما في يده تصرف حكيم عليم إذ هو نائب الحق من حضرة اسميه المعطي والمانع فيمنع بحق ويعطي بحق ، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] . انتهى . وبهذا تم الكلام على سورة « القصص » ، والحمد لله رب العالمين .

سورة العنكبوت مكية

إلا من أول السورة إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فمدنية

وآياتها ٦٩ نزلت بعد الروم

وهي قسمان :

القسم الأول : في تعليم الصبر والجهاد، وطاعة الوالدين والمجاهدة في سبيل الله وفي برهما ومجاهدة الأصحاب وعدم إطاعتهم إذا أرادوا فتنة المؤمن، ثم قصص الأنبياء، من أول السورة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

القسم الثاني : في محاجة الكفار وأهل الكتاب وإثبات النبوة، من قوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية : ٤١] إلى آخر السورة.

القسم الأول

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ

وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟
عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾
وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ
ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟
إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا
لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ

نَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ تقدم الكلام فيه في سورة «آل عمران» وسيأتي بيان أتم لها في هذه السورة ، فإنك سترى قريباً أن ﴿ الٓمٓ ﴾ هنا تشير إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ١٩] الخ فقيه ﴿ الٓمٓ ﴾ وذلك ليحقق العلماء بالحكمة ، هاهنا أخذ الله عز وجل يصل هذه السورة بما قبلها ، إن أواخر السورة السابقة كان في ذكر قارون وأهل العلم والجهلاء وكيف كانت الزينة القارونية تغر الجاهلين ، وكأن أهل العلم غير مغترين بها ولا جزعين من فواتها ولا فرحين بنوالها ، لعلمهم أن دوامها مستحيل ، وأن هناك ما هو أبهج منظراً وأبقى أثراً ، وهي الحكمة والعلم ونعيم الآخرة ، فكان ملخص ذلك المجاهدة في ترك هوى النفس ، فلا علو على الناس ولا فساد في الأرض . فهذه السورة ابتدأت بتمحيص هذا الموضوع والتدقيق فيه ، فقال الله : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ أي : أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ كلا ، إنهم لا يتركون لقولهم : ﴿ ءَامَنَّا ﴾ بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال والفقر والقحط ومصابرة الكفار ، ولقد فتن الله بعض الناس ببعض لتخلص نفوسهم من أسر المادة وذل الطبيعة ، لأن التهذيب والتأديب إما بالعلم والمعرفة والعبادة وإما بأنواع المصائب ، فكلاهما جعله الله في الأرض لتخليص الناس من أشراك هذه المادة :

(١) فيجاهد المرء شهواته المذكورة في آخر القصص حينما يرى زينة المترفين والأغنياء كزينة قارون وهذا الجهاد إما بالعلم كما قص الله عن أهل العلم إذ قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص : ٨٠] الخ ، وإما بالعبرة والنوازل كالجهلاء لما رأوا هلاك قارون فعرفوا معرفة سطحية وقالوا : ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ [القصص : ٨٢] .

(٢) ويجاهد أبويه ويكون معهما بوجهين فهو بار بهما عاص لأمرهما إذا أمراه بالكفر كما سيأتي .

(٣) ويجاهد الأصحاب إذا أغروه أن يكفر وسهلوا له الأمر كأن يقولوا له : نحن نحمل عنك خطاياك ، وملخص ذلك كله جهاد الشهوات ، وجهاد الأصحاب ، وجهاد الأعداء . وكل ذلك اختبار للناس وتهذيب .

واعلم أن كل ما رواه المفسرون في هذا المقام من أنها نزلت في عمار أو غيره لم يرد له ذكر في الصحيح ، وفوق ذلك رواياتهم مناقضة للحقيقة ، لأنهم ذكروا أن بعضهم أوذي في مكة والمؤمنون في

المدينة، وذلك ينافي كون السورة مكية، وكثير من أحاديث النزول ليست في الصحيح فتفطن، ولم يرد في هذه السورة من الصحاح إلا حديث أم هانئ كما سيأتي رواية الترمذي وحديث ابن عباس رواية رزين وبقية الصحاح لا شيء فيها مما يخص هذه السورة، وسأتبع هذه الطريقة في بقية التفسير إن شاء الله تعالى، فلأذكر بقية تفسير هذا القسم فأقول:

هاهنا يقول الله: أيها الناس لا تظنوا أني خلقتكم سدى، إنّما خلقتكم لأرقيكم لعالم أرقى من عالمكم، ولا يتم ذلك إلا بعلم وعمل، ولما كان العلم والعمل وحدهما لا يقويان على ارتقائكم ساعدتكم بما يتنابكم من النوازل والمصائب الطبيعية والأنفس والآفاق لأن هذا يرقي نفوسكم وإن كنتم لا تشعرون ولم أخل العبادات من ذلك، فلقد أمرتكم بالتخلي عن بعض المال والشهوات وبالجوع في الصيام لأكمل بالعمل التهذيب الذي وضعته بالطبع في أرضكم، كما إنني كلفتكم بالزرع والكسب لإصلاح معاشكم، فأكثر معاشكم بالطبيعة التي نظمتها ولا يكمل إلا بعملكم، هكذا المصائب والنوازل وتغير الأحوال التي لا تفترون عنها كل حين مهذبات لنفوسكم، فجاء الدين فأكملها تهذيباً وتأديباً بصرف النفس عن المال والولد إلى الزكاة والحج والصلاة والجهاد وغيرها فحياتكم كلها حياة شقاء شئتم أم أبيتم، فإن جاهدتم ارتقيتم وإلا كان العذاب واصباً عليكم في الدنيا وبعد الموت، لأن الميت إذا لم يكن له أجنحة من العلم والعمل يطير بها هناك؛ فكيف يعيش في تلك الأجواء النقية الحرة البهية، فلذلك لم أخلكم من الجهاد كما لم أخل من قبلكم من الأمم البائدة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فذلك سنة قديمة قويمة شرعناها لكم كما شرعناها للأمم قبلكم، فلا ينبغي أن يتوقع الناس خلاف ذلك ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي: فلينظرن الله الصادقين والكاذبين وليميزنهما أو ليجازينهما، فالمراد بالعلم أثره، ومن ظن خلاف ذلك فهو سيئ الحكم جاهل ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كالشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: بل أحسب هؤلاء أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس حكماً يحكمونه حكمهم، وكيف يحكمون هذا الحكم وأنا لم أخلق الخلق سدى، أنا ربيتهم في عالم المادة وهذبتهم بأنواع التهذيب والتعذيب والرياضة والعلم عسى أن يلمحوا في هذا العالم نور جلالي وجمالي ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة وأن يشاهده ويرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فليفرح ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ وكيف لا يفرح وكل مصيبة نزلت وكل تكليف جاء به دين فإنّما جعل ليقرب العبد من ذلك المقام ويبعده عن ظلمة المادة، وليس الله بغافل عن المطيع والعاصي ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال الفريقين ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما أكنته قلوبهم من كفر وجهل أو إيمان وعلم فيضع كلاً في مركزه الخاص به، فعلى المرء أن يجاهد حتى يبلغ تلك المرتبة العلية ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنه يريد أن يتخلص من عالم النقص حتى يستعد لمشاهدة العوالم اللطيفة، ثم يصل إلى الله، ولا يكون ذلك إلا بتلطيف النفوس، فليس ذلك الجهاد راجعاً لله بل هو لنفس العبد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فهم في حاجة إلى لقائه بتصفية نفوسهم لا هو، فالجهاد إذن لهم لا له، إذ لا معنى لعمل لا تعود فائدته على العامل نفسه، فكل عبادة أو تكليف يراد بها ارتقاء النفس، فقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥] ليس الله في حاجة إليها، بل تلك تلطف النفس بعض التلطف بذلك

التوجه فتتخلص شيئاً فشيئاً من المادة، وهذا هو قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ كالكفر بالإيمان والمعاصي بالطاعات فترتفع نفوسهم عن العالم المظلم ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم، والحسن في الجزاء أن تكون الحسنة جزاؤها الحسنة، والأحسن أن تكون الحسنة جزاؤها عشر حسنات أو أكثر.

ثم أخذ يشرح بعض الجهاد في الوالدين إذ قال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أي: وقلنا له: أحسن بوالديك حسناً، أو قلنا: افعل بهما حسناً ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: لا علم لك بإلهيته، بل هو منفي، أي: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ في ذلك، وكيف تطيعهما في معصية خالقك وخالقهما ﴿ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فأجازيكم على الخير والشر. روي أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأن أمه حلفت لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك، ثم إن ابنها أوقع في نفسها اليأس من إسلامه فرجعت فأكلت، وأن هذه الحادثة أيضاً كما كانت سبب هذه كانت سبب التي في « لقمان » و« الأحقاف »، وهذه الرواية لم ترد في الصحيحين ولا بقية الكتب الستة. ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي: في جملتهم، فليستعدوا لذلك بالجهاد، فللصلاح درجات وللعلم درجات، وكل يوم القيامة يدخل فيمن هو أهل لهم، وليس الصلاح مجرد دعوى لا دليل عليها بالعمل.

إن الصلاح لا يكون إلا بالجهاد والصبر على الأذى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ ﴾ كما حصل من تعذيب الكفار المؤمنين ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ما يصيبه من أذيتهم في الدنيا ليصدوه عن الإيمان ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الذي قدره على الكافرين ليصرفهم عن الكفر، فهؤلاء يجزعون من عذاب الناس ولا يصبرون عليه، فيطيعون الناس في كفرهم كما يطيع المؤمن ربه خوفه من عذابه، وهل فتنة الناس كعذاب الله؟ كلا، إن عذاب الله أشد وأبقى، فهؤلاء لا ثبات لهم ولا صبر ولا سعادة لأحد إلا بالصبر، وإنما يروغون كما يروغ الثعلب ويتقلبون تقلب الحرباء وذلك التقلب لضعف قلوبهم، ولذلك إذا جاء نصر أو غنيمة قالوا: إنا معكم، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ في الدين فأشركونا فيه، فهؤلاء هم المنافقون ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من الإخلاص والنفاق، ثم أكده فقال: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ يقال: إنها نزلت فيمن أخرجهم المشركون معهم إلى بدر، وهم الذين نزل فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل-٢٨]، ولذلك يقال إن هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هنا مدنية وباقي السورة مكي، وقد علمت أن الأحاديث ليست في الصحاح المعلومة.

هذا، ولما تم الكلام على جهاد الوالدين وما بعده من المنافقين، ذكر جهاد الأصحاب الذين يغرون أصحابهم ليتركوا الدين فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا ﴾ الذي نسلكه في ديننا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فاتركوا الإسلام واتبعوا ديننا القديم وعلينا أن نحمل خطاياكم، وهذا قول صناديد قريش لمن آمن منهم ﴿ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في قولهم: نحمل خطاياكم ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ ﴾ أثقال ما اقترفوه من الإثم ﴿ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾

أي : أثقالاً أخر معها ، فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزر من اتبعه شيء ﴿ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ سؤال تقريع ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها ، وهاهنا ابتدأ سبحانه بذكر قصص الأنبياء ليتعظ المسلم بما يرى من جهاد المجاهدين شرحاً لقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٣] الخ ، فابتدأ بما فتن به نوح ومن معه حتى يصبر الناس كما صبروا ، وكذلك إبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى ، فهؤلاء كلهم صبروا هم وأتباعهم على ما أوذوا فنجوا وهلك أعداؤهم .

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

اللهم إنك خلقتنا في الأرض ونحن فيها أشبه بالغرقى في بحر لجيّ ، أرواحنا قبسة من نورك فأنزلتها إلى الأرض ولبست كل روح جسمها ووقعت في حيص بيص ، فهي أبداً تجاهد لتنجو من الخطر الملازم لها ، وهي هذه الأجسام وشهواتها وأخلاقها وأحوالها ، وليس الجهاد قاصراً على أمر دون أمر ، فالجهاد يشمل كل عمل يرفع هذه النفس عن الدنايا ، ويقويها في سفرها ، وينشلها من غرقها ويخرجها من بحر هذه الحياة اللجي . والجهاد نوعان : جهاد داخلي وجهاد خارجي ، فالجهاد الداخلي لقوتي الشهوة والغضب فيعتدل الإنسان في قوته الجسمية والعقلية . وجهاد خارجي وهو دفاع الأعداء وبعض العبادات ، ومنها : الحج ، فهو من أهم أنواع الجهاد ، بل الحج يذكرنا بسعادة نوع الإنسان ، ويرمز إلى فائدتين منها صحة البدن واجتماع الأمم بسلام . إن الإسلام لو لم يكن فيه سوى الحج لكفى لسعادة الإنسان ، ففيه جهاد النفوس بترك المخيط من الثياب ، كما تقدم قريباً في سورة « القصص » عند الكلام على منافع الشمس في آية ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ [الآية : ٧١] الخ ، والاجتماع بالإخوان من سائر الأقطار ليشهدوا منافع لهم . واعلم أيدك الله أيها الذكي أن مسألة الحج يقصد بها إلى أمر عظيم ، وهو نبذ التعالي والتكبر وترك الترف والنعيم اللذين يسببان هلاك الأمم في هذه الدنيا . ولقد فاتني في سورة « الحج » وفي « البقرة » وغيرهما من السور التي ذكر فيها الحج أن أبين أكثر مما ذكرته هناك ، ولكن الله عز وجل يريد أن يمن على أمم الإسلام بالعلم والحكمة ، فأول ما خطر لي خاطر الحج من حيث الصحة العامة بتعرض الجسم لضوء الشمس كان بسبب محادثة شاب معي أخذ يذكر مناسك الحج ، وأن أوروبا قد أخذت تنبذ القصور والدور وتذهب إلى أعالي الجبال ليعرضوا أجسامهم لحرارة الشمس تبعاً لأوامر الصحة ، هنالك خطر لي هذا الخاطر فكتبت بعض ذلك في سورة « القصص » كما قلت لك آنفاً . ولكن انظر ، إن الإنسان يعيش ويموت وهو لا يزال في حاجة إلى الاطلاع ليعلم ما لم يكن يعلم ، فإني في هذا اليوم صباح ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ اطلعت على هذا الموضوع في « الرحلة الحجازية » لصديقي محمد لبيب بك البتنوني ، فرأيته وفى الموضوع حقه فسألخصه هنا تلبية لنداء الوجدان ، وإتماماً للكلام على الجهاد ، لأن جهاد النفوس الإنسانية في الحياة الدنيا يجب أن يشمل الجهاد الجسمي والجهاد الروحي ، وجهاد الأجسام بصفائها وخلوصها من الأمراض بترك الإكثار من المآكل وباستخلاص أنفعها في الحياة والصحة ، وبترك الإكثار من الملابس التي تضر بالصحة في كل أمة بحسبها ، والجهد الروحي بحب الإخوان بل بحب جميع الأمم ، ولن يكون ذلك إلا بترك الترف

والتنعم والحرص ومد يد المساعدة العامة، فلا مسترف في الأرض مساعد إخوانه، ولا ضعيف الجسم يقوم بأود محتاج. إن الحياة جميعها جهاد. ومما كان يهيج بالي ويزيد بلبالي أمر الملابس، فإني وجدت الأمم قد اختطت لأنفسها خطة ضيق الملابس والتصاقها بالجسم، ولم أجد في هذا الإنسان إلا مقلداً. الناس جميعاً مقلدون وقليل فيهم المفكرون، وهذا القليل لا قوة له على إخضاع هذه الجموع، ولطالما وقفت أمام صورة في المتحف المصري يقال إنها صورة شيخ البلد، فكنت أجد الجسم ليس عليه إلا إزار واحد، فعجبت وصرت أقول: يا ليت شعري، أليست هذه مصر، أليس هذا منها وأنا منها، لماذا اكتفى هذا الرئيس ومرؤوسوه بالإزار ونحن لبسنا ملابس وما هي إلا حمل ثقيل علينا؟.

هذا الموضوع وغيره حرك وجداني فبحثت فلم أجد لي سبيلاً إلا مناسك الحج وفهم بعض أسرارها، فعرفت أن الله فرضها ليقول للناس: هاهو ذا وصف رقي الإنسان ليقرأ الناس علم الصحة فيعرفوا أن صحتهم لا تتم إلا بالتجرد في بعض الأوقات من الثياب وبتعرض أجسامهم للشمس وليكونوا بزي واحد تقريباً حتى يتحابوا، فتكون مدارس الغرب ومدارس الشرق على وتيرة واحدة، هنالك يتعاونون جميعاً وهنالك تقدم لهم الأرض خيراتها وكنوزها. ولم أجد كتاباً شرح هذا الموضوع مثل ما جاء في تلك «الرحلة»، وهذا نص ما جاء فيها تحت العنوان التالي وهاهو ذا:

لباس الإحرام

كان الناس قديماً يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جداً، والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المئزر ثم البرنس، وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف وتربط بحزام وترسل إلى الركبتين في العامة، أو إلى أسفل منهما في الخاصة، حتى إذا ترقت الدولة في عمرانها أطالوا من ذلك البرنس إلى الكعبين ولبسوا من تحته قميصاً لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين وكانوا في مبدأ أمرهم يلونون ثيابهم بلون واحد «أخضر أو أزرق أو أحمر»، ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشون به دائر ملابسهم بالأشرطة المنقوشة. أما الآشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت إبطهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يشد طرفها إما بعقدة أو بمشبك ـ انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى ـ ثم غيروا هذا الزي بأن لبسوا قميصاً صغيراً ومن فوقه شيء يشبه العباءة. والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة. وأهل اليونان كانوا يلبسون رداء طويلاً واسعاً ويمرونه من تحت إبطهم الأيمن بعد أن يلموا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر، ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه، ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقي هذه الشملة ويسمونها «شيون» كما تراه إلى اليوم في عرب البادية المصريين خصوصاً عرب الغرب منهم. ولا شك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو القرطاجيين، ولبث فيهم على بداوته الأولى إلى الآن، وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية، وقد شاهدت شيئاً يماثله تماماً على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الأستانة، بل وفي النقوش الموجودة

في سقف جامع القهرية « القهرية » وهو أول كنيسة بنيت في الأستانة وحولت إلى مسجد بعد الفتح .
أما أنتكخاناتنا المصرية فقد شاهدت فيها ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المئزر وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية .

وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال « كفرين » المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (٨) من الدور الأول نمرة ٧٤ ، وهو باني هرم الجيزة الثاني ، ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التي كانت توجد في القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال « رعنفر » من العائلة الخامسة في القاعه حرف (٥) ثم تمثالي « أمور ، وأمون » وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط ، ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوي لأن يد الزمن قد محت ما عليه ، ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرونزية والنحاسية التي في دواليب المتحف لابسة شبه إحرام كمل ، وقد شاهدت من بينها تمثالاً من الفخار للعذراء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وابنها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الأول ففيها مثال الإحرام بأشكاله التامة ، فترى في وسط القاعة حرف (١) امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردي بهيئة إحرام كامل أعني أنها ملتحفة برداء أبيض يغطي كل جسمها ماعدا رأسها ، ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الأسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن وهو ما يسمونه في الإحرام بالاضطباع وفي رجله نعال لا تغطي ظاهر القدم اللهم إلا عروة يدخل فيها الإبهام ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على ما دون الكعبين ويربطان فيما دون العقب ، وهو ما يسمونه في الحجاز بالنعال الشرقية التي أجمعت المذاهب الأربعة على صحة الإحرام بها ، وهذه النعال تراها أيضاً في قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (٨) ، ومتاحف الفنون الجميلة في جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي يماثل لباس الإحرام بل هو هو بعينه ، والقوم يمثلونه تماماً في تشخيص الروايات التي تمثل الزمن القديم الروماني أو اليوناني وخصوصاً في تمثيل صور الأنبياء والحكماء ، ويقال : إن اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبساً غير مخيط .

أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه « تليت » أو « تيسوث » ليتشبهوا بموسى عليه السلام في بساطة لباسه . ومن هنا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم بل في جميع أدوار الأمم الخالية حتى في إبان الحضارة كانت على هذه البساطة ، وليس هذا بغريب فإن آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك الأزمان .

ولقد كان الناس يستعملون أولاً في خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل ثم توصلوا إلى استعمال الإبر الحديدية ، أما الإبر التي من الصلب فإنها لم تخترع إلا في القرن الرابع عشر للمسيح ، ولم يذع استعمالها في أوروبا إلا في القرن السادس عشر ، وكان أبسط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الآشوريين الذين هم إخوان الكلدانيين الذين خرج منهم إبراهيم لأن كليهما من الجنس

السامي، وعليه فلباس الإحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه إبراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلاً: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[الحج: ٢٧]، وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت إلى الآن. وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة، وإلا فالغرض من الإحرام لبس غير المخيط مطلقاً إشارة إلى أن الإنسان خرج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها إلى بساطة الوجود وبداوته، خرج إلى ربه من أبهة الحياة وترفها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها إلى طبيعة الوجود البشري من حيث البساطة التامة التي كان مظهرها ذاك الزي الذي يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها فيستوي فيه الصعلوك والملوك.

هذا الزي الذي يستقبل الإنسان في مهده ويشيعه إلى لحده حتى كأنه يقول إلى ربه: «اللهم إني قد نزعت عن نفسي ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الأباطيل وموهته الأضاليل وخرجت إليك وقد جردت نفسي لك مما أملك طامعاً في نيل ما لا أملك من نعم إن عشت أعود بها إلى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة، أو أقضي بها إن مت في سبيلك ومحبتك وطاعتك وأنتقل بها إلى دار السعادة الحقيقية فأحشر في زمرة المقبولين والصدّيقين زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسي البسيط «لباس الرهبان» الذي رسم عليه كل من تمثالي «غليوم الثاني» إمبراطور ألمانيا والإمبراطورة قرينته، وأرسل بهما ليوضعا في الملجأ الألماني الذي بني في بيت المقدس، وسافر البرنس «ايتل» لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الإمبراطور في شهر أبريل سنة ١٩١٠.

على أنه لا يعزب عن فطنتك ويبو عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيراً أن الإنسان لابد له من تعريض جسمه إلى الهواء الطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة، يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة أوكسوجين الهواء لجميع مسام جثمانه، وبهذه العملية يحترق ما في الدم من الكربون الذي تشبع به أثناء دورته من الفضلات التي تخلفت في الجسم، فيعود إلى القلب دماً نقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة التي هي قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها.

لذلك ترى الأوروباويين وعلى الخصوص الإنجليز ـ لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم ـ يعمدون كل سنة إلى الجبال أو إلى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم إلا ما يستر عوراتهم؛ ويقيمون على هذه الحال شهراً أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم، وكثيراً ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات، وليس عليهم إلا تلك العدة المستعارة التي يغطون بها السبيلين، ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء، ولا غرابة إذا رجعت بنا المدنية الحديثة إلى كثير مما كان عليه القدماء في بداوتهم الذي يسميه الجهلاء خشونة وتوحشاً. انتهى ما أردته من تلك الرحلة، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أيها الذكي كما قلت لك أن الحياة كلها جهاد، وإنما أطلت الكلام على الحج لأن فيه أصول سعادة الأمم جسماً وروحاً فهو نموذج الجهاد العام، وأي جهاد يفوق توافق الأمم وارتباطها واتحادها، وأول من قام بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي حرك الأمم شرقاً وغرباً وهاهي ذي الموجة التي أرسلها قد سكنت في الشرق ثم تحركت في الغرب ثم رجعت إلى الشرق ثانياً، كل ذلك لم يقصد منه إلا اجتماع جميع الأمم شرقاً وغرباً، ورمز لذلك بالوقوف بعرفة والتجرد من المخيط وغير ذلك من المزايا والأحكام، وصرح بذلك فقال: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. هنالك قال العلماء: إن ذلك يوم يصبح أهل الأرض قسمين. قسم مسلم وقسم مسالم. اهـ.

خطابي للمسلمين

أيتها الأمم الإسلامية، حكمة الجهاد عامة تشمل العبادات والأعمال المدنية كلها والصناعات والسياسات، إن ذلك كله إما فرض عين أو فرض كفاية، فالصلاة والصيام ونحوها فروض عين، والعلوم ونظام المدن والصناعات فروض كفايات وتحتاج إلى جموع كثيرة حتى تكفي الأمة. فالنجارة والحدادة والكهرباء وصناعات السفن والطيارات ونظم المدن كلها فروض كفايات وجب على الأمة أن تتعاون عليها طوعاً أو كرهاً، وليس عمل من هذه الأعمال يكفي فيه الفرد الواحد، فالجموع هي التي تتعاون على كل ذلك.

أيها المسلمون، لقد أودع الله في عقول الأمم وفي أديانها بذور السعادات، فهاهو لم يذر العباد يتخبطون ويغرقون في بحر الحياة اللجي، بل أسعفهم بأصول العلم وغرسها في أفئدتهم وفي عاداتهم وفي دياناتهم. لك الحمد يا الله على نعمك العامة، أنت الذي ألهمت القدماء ألا يبنوا بناء ولا يعملوا عملاً إلا نقشوه على الأحجار وكتبوه في الطوامير وأبقاه الأولون للآخرين، أنت يا رب أبقيت آثار الأولين ليتبعها الآخرون، هذه مصر والعراق والشام وبلاد الهند وأمريكا والصين وأوروبا يظهر كل يوم فيها كنوز مدفونة وأجسام مطمورة ونقوش مهمومة أبقاها الأولون للآخرين، أنت الذي دفنت الفحم الحجري قديماً ثم أبرزته لأهل الأرض الآن ليكون من أكبر أساس السعادة في العالمين، فالأرض ملأتها بالذخائر والنفائس والنقوش، وأودعت فيها وفي الجو كهرباء تصل الناس بعضهم ببعض وهم يتعجبون، ولما كانت الديانات في الأرض من وحيك ونزلت بأمرك وقبل الناس دعوة الرسل بإلهامك كنزت فيها علوماً وخزنت فيها حكماً كما كنزتها في الأرض والهواء والماء والسماء.

ألهمت الأنعام والحشرات وكل حيوان إلهامات كلها نافعات لها، وأنزلت للإنسان ديانات وجعلتها هدى للعالمين في كل زمان بحسبه، وهذا ديننا كنزت فيه علوماً وعلوماً، وهذه العلوم لا يثيرها إلا البحث والتنقيب. والتوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج التي هي أركان الإسلام قد كنزت فيها سعادات الأمم، هذه الصلاة التي هي بعض الجهاد المذكور في هذه الآية قد جعلتها مذكرة بجميع الحكمة والفلسفة، وما الحكمة ولا الفلسفة إلا ما أجنته السماء وأقلته الأرض ونظام هذا العالم، المؤمن صباحاً ومساء يقول: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما الخ» كما قدمناه مراراً، وهل جميع الطبيعيات والرياضيات إلا ما في السماوات والأرض. الله أكبر. لقد أنعم الله علي بنعمة هذا التفسير، وما هو إلا سر الصلاة التي هي ركن من أركان الجهد المذكور في

هذه السورة وسيأتي فيها: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهنا يقول تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفي أواخر السورة يبين أهم أركان الجهاد وهو الصلاة الخ.

رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح

اعلم أيها الذكي أنني من إبان شبابي كنت أرى رؤى كثيرة جداً كلها تدل على ما أعمله الآن وبشرت بأن هناك عملاً نافعاً لا بد منه، ولما بلغت سني نحو ٥٩ سنة رأيت وقت الصباح كأني أقول أنا يا رب قائم بأعمالي ولا تقصير عندي فأين إذن ما بشرت به؟ فسمعت قائلاً يقول: كذبت إنك لا تحضر قلبك في الصلاة، فلما استيقظت أخذت أحضر قلبي في الصلاة بقدر الإمكان فانفتح الباب لهذا التفسير. ومن عجب أن كثيراً من المسائل تحضر لي بعد الصلاة أو في أثنائها، وبسبب هذا الاستحضار عرفت أن الصلاة ملخص العلوم أو مفتاح لأصولها، وهكذا سميت الفاتحة، فعلمت إذن أن المسلمين بتأملهم في الصلاة يصبحون أمة غير هذه الأمة.

الصلاة عبادة ولكن إذا كنا نرى الناس يشربون الماء ويأكلون الفاكهة ومع ذلك يحللونهما ويدرسونهما حتى يتم الانتفاع بهما، فإذا كان الماء والهواء والتراب لا يتم الانتفاع بها إلا بتحليلها فكيف بالصلاة والصيام والزكاة والحج، أفليس انتفاع الجهال بها في العبادة كانتفاعهم بشرب الماء، أوليس الانتفاع بكشف أسرارها وما ترمي إليه كانتفاع الأمم الآن بتحليل الماء والهواء الخ. أليس هذا سر قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍۢ ﴾ [المجادلة: ١١]، فالدرجات لأولي العلم، أما الجهلاء فلاحظ لهم من العبادة إلا كحظ الشارب من الماء. هذا ما أقوله في الصلاة وسيتم الكلام عليها في آية: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الخ.

ولأذكر الحج بعد الصلاة لأنه هو الذي أفضنا فيه الكلام قريباً، وقد ظهر أن الله كنز فيه آثار الأمم وأصبحت الأمم العريقة في المجد ترجع إلى حال البساطة وسهولة الحياة فيسعدون سعادة لم يحلم بها أولئك المترفون الغافلون، إذن الحج الذي هو من أركان الإسلام قد حمل في طياته بذور السعادة والمدنية المستقبلة التي يرجع فيها الإنسان إلى الاجتماع العام والصحة التامة.

فانظروا أيها المسلمون صلاة تحث على الفلسفة وحج يحث على الصحة العامة ونظام الاجتماع العام. وهنا جاء دور الزكاة، الزكاة ذكر فيها الإمام الغزالي أنها مساعدة للفقراء ومذهبة لشح النفس، فإن الإنسان إذا ملك حب المال قلبه أقلقه وأحزنه بعده عنه بموته هو أو بأخذه منه ظلماً أو بالقضاء والقدر، ويقول: إن المقصود من ذلك راحة النفوس. ونقول نحن: فكما أن الصلاة مذكرة بالعلوم والحج وبالاجتماع العام وصحة الأبدان هكذا الزكاة يراد بها أن يكون الناس جميعاً إخوة كما نقلته عن الإمام الغزالي في أواخر سورة «البقرة» فإنه يقول - إن مال الإنسان للأمة كلها عند الخواص، أما الزكاة فإنما تؤخذ من البخلاء. فتبين إذن أن إنفاق المال بالزكاة متمم لنظام الاجتماع الذي فهمناه من الحج، فالحج يعطينا درس الاجتماع العام والصحة، والزكاة تكمل ذلك بالمساعدة. وهاهنا جاء دور الكلام عن الصيام.

الكلام على الصيام معروف في الكتب ولكن نحن الآن في تفسير القرآن، وتفسير القرآن إنّما يكتب لأجل الأمم كلها لأن القرآن كتاب الله والناس عباده، والصوم درس من أهم ما ظهر منه اليوم في الأمم علم الصحة، نعم هو قربى إلى الله ولكن فيه فوائد أخرى، إن علم الصحة اليوم قد تطور وأخذ الناس يهجرون المداواة بالعقاقير ويكتفون بالرياضة البدنية والجوع، يصوم المسلم ويصلي المسلم ويحج المسلم ولكني أقول: إن من أكبر العار أن لا تظهر أسرار هذا الدين إلا على يد الأمم لا على يد المسلمين. يحج الناس ويكتفون من الحج بظواهره ويقف العلماء في الأمم الإسلامية عن دراسة الحقائق الاجتماعية.

الله أكبر. بعد هذا التفسير سيقوم في الإسلام فطاحل العلماء ويدرسون كل شيء في الوجود وبعد ذلك يدرسون أركان الإسلام، ومتى درسوا عرفوا أنها يراد بها اجتماع جميع الأمم شرقاً وغرباً على الصحة والتعاون العام. هذا الصيام درسته الأمم في زماننا وعرفوا بعض سره ففتح لهم باباً واسعاً من علوم الصحة والمداواة. الله أكبر. وهاأنا ذا أسمعك مقالين: أحدهما: مقال عن حال زعيم الهندوس الأكبر مهاتما غاندي. والثاني: ما جاء في مجلة «كل شيء» تحت عنوان «المعالجة بالصوم» فهاك ما قاله معرب كتابه المسمى «كتاب الصحة» ومعربه الأستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي، وهذا نص ما قاله في مقدمة التعريب: إن من سوء حظ الشرق أنه لم يفقد استقلاله السياسي فحسب، بل فقد استقلاله الفكري أيضاً، ولذلك تراه يقلد الغرب في كل شيء حتى إنه أصبح لا يفكر في نفسه، ولا يقيم للأشياء وزناً، ولا يميز بين الحق والباطل، بل لا يزال نظره إلى الغرب فإن رآه يقول لشيء إنه حق قال هذا أيضاً إنه حق وبالعكس.

أنا لا أكره الغرب ولا أنكر فضله في العلم والمدنية، ولا أحرم الاقتباس والاستفادة منه، ولكن الذي أقبحه وأشمئز منه هو الاستعباد الفكري للغرب، لأن هذا الاستعباد إذا تمكن من نفوسنا لن نسترد حريتنا السياسية المغصوبة ولن نجدد أسس قوميتنا المنهدمة. أقول هذا لأني أخشى أن ينبذ فريق من القراء هذا الكتاب قبل أن يطلع عليه، لا لأنه يستحق النبذ بل لأنه جاء من مصدر شرقي بحت فيحسبه سخافة شرقية، فلذلك أرجو من هو على هذه الشاكلة أن يتمهل في الحكم عليه ليقرأه بإمعان فإن لم يعجبه فليرمه إن شاء. وإني تطميناً لهؤلاء أقول إن هذه الآراء ليست خاصة بغاندي وحده بل هناك في أوروبا وأمريكا أيضاً ثورة كبيرة على الطب وأساليبه وأدويته، بل إن تقدم العلوم أخذ يهلهل أركان هذا الطب الذي نسميه «الحديث» ويسمونه هنالك «القديم»

إلى أن قال: «إن هذا الزعيم كذلك يدعو الناس إلى المعيشة الفطرية الساذجة ونبذ البذخ والترف، وإلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والمحبة الشاملة العامة، والتمسك بجميع ما في الأديان من الخير والتقوى وخشية الله والرأفة بالشر. ليت شعري كيف يكون عجب المغترين بالمدنية الغربية إذا رأوا هذا الزعيم الهندي بأعينهم، إنهم ليرونه عارياً حافياً حاسراً قد تجرد من الملابس قائلاً: لا يصح لي أن أتجمل بالملابس، والملايين الكثيرة من بني جلدتي لا يجدون ما يسترون به عوراتهم، ويقوون به أجسادهم من الحرّ والبرد، فتراه الآن متجرداً ليس على جسده لباس، اللهم إلا إزار صغير يستر به عورته. وكذلك شأنه في مأكله، لا يأكل المشتهيات والملذات والأطعمة الشائقة، ليس ذلك لأنه يرى

رأي المتقشفين العقل الذين يحرمون أنفسهم من الطيبات ويحسبون ذلك قربة إلى الله، بل يرى ذلك مضراً بالصحة البدنية والعقلية، فلذلك تراه لا يأكل الملح ولا اللحم ولا العدس ولا الحبوب ماعدا خبز القمح نادراً وقد حصر غذاءه في الفواكه، وهو يكثر من أكل البرتقال والموز ويفضلهما على غيرهما من الفواكه.

إلى أن قال: «وأكبر دليل على قوته أنه صام أربعين يوماً متتابعة لم يذق فيها أي شيء، ومع ذلك لا أغمي عليه ولا أحس بضعف، بل مازال يكتب لجرائده المقالات ويغزل كل يوم من القطن المقدار الذي قرره لنفسه». ومن أعجب ما رأينا أنه بينما كان ثقله قد قل كثيراً في الأسبوع الأول من الصوم حتى خافوا على نفسه أخذ يزداد وزناً بعد ذلك، وقد تحير الأطباء في تعليل ذلك. ثم إنه فوق ذلك قد ملك زمام نفسه فيعيش كما قرر لنفسه أن يعيش، فلا ينام إلا القدر الذي قرر أن ينام، ويقوم بجميع أعماله بنظام بدون أن يطرأ عليه أي خلل، ثم إنه لا يغضب أبداً ولا يستعجل ولا يفزع، بل يبقى دائماً هادئاً مطمئناً كأنه مالك نفسه سخرها فأصبحت له طوع بنانه. ومن عجيب أمره أنه يعيش مع زوجته ولكنه يحسبها كأخته أو أمه كما صرح بذلك في إحدى خطبه فقال: «أنا وزوجتي قد اتفقنا على أن نعيش كالأخ والأخت أو كالابن والأب أو البنت والأم فأنا لها كأب وهي لي كأم». وكلامه هذا لا يرتاب فيه لأن عيشته مفتوحة وليست بسر وهو لا يكذب أبداً مهما اضطرته الأحوال. اهـ. هذا ما أردنه نقله من ذلك الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين.

وأقول: إن هذا الزعيم الهندي قد جمع بين فضيلة الصيام وفضيلة الحج فاستفاد بهما صحة وقوة. هاهو ذا تجرد من أكثر الثياب. وهاهو ذا قد قلل الطعام فنال الصحة والعافية. ولست أقول إن هذا عبادة ولا أنه يثاب عليها، كلا، لأن الصيام لا يصح إلا من مسلم وكذا الحج، وأيضاً الحج إنما يكون بمكة لا بالهند، ولكن ليس المقام في خصوص التدين، بل المقام في أن منافع الصوم ومنافع بعض مناسك الحج في حد ذاتها مقوية لصحة الإنسان كما قررناه. فهذه في الحقيقة دراسة للحج وللصيام من بعض الوجوه. وعلى المسلمين بعدنا أن يتولوا هذه الدراسة ليتموا ما نقص في أمم الإسلام. انتهى الكلام على المقال الأول.

المقال الثاني

ما جاء في مجلة «كل شيء» بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٢٧ تحت العنوان الآتي:

الصوم للمعالجة

كان الناس ولا يزالون للآن يصومون للأغراض الدينية وقد يكون صومهم كلياً أو جزئياً، ففي الهند يعمد الصالحون إلى الكف عن الطعام كلية جملة أيام، ولا يزال بعض الأقباط في مصر يصومون عن الطعام والشراب كلية ثلاثة أيام في ذكرى يونس الذي بلعه الحوت. أما الصوم الجزئي ففي الامتناع عن اللحم كما يفعل بعض المسيحيين إلى الآن.

وجميع الذين يصابون بكثرة الزلال في الدم أو بتصلب الشرايين ينصح لهم الأطباء بالامتناع عن اللحم وخاصة ذلك اللحم الأحمر، والامتناع أيضاً عن تناول زلال البيض ونحو ذلك، بل من الأطباء من ينصح لكل من جاوز سن الأربعين أو الخمسين أن يمتنع كلية عن اللحم والاقتصار على

الأغذية النباتية، وقد فشت عادة الصوم في هذه الأيام حتى إن طبيباً فرنسياً يشير على كل إنسان جاوز الأربعين أن يصوم صياماً كاملاً يوماً في الأسبوع، ويشير أيضاً أن يتعاطى مسهلاً في الصباح حتى تبقى أمعاؤه فارغة لا يشغلها شاغل يوماً كل أسبوع، ومن الأطباء من ينصح بالامتناع عن العشاء للمسنين.

ولكن فائدة الصوم ليست للأمعاء وحدها بل هي أيضاً للجسم كله، وذلك لأن الجسم إذا لم يحمل الدم إلى خلاياه طعاماً جديداً انكفأ على نفسه تأكل منه الخلايا القوية الخلايا الضعيفة، وفي الوقت نفسه يزول الشحم من الجسم فتطهر المسالك وتحمل معها فضلات كانت تعوق الدورة الدموية فإذا انتهى الصيام بعد ثلاثين أو أربعين يوماً لم يبق بالجسم سوى خلايا قوية. وللجسم عقل يهتدي به أيام الصيام فهو يتخلى عما لا فائدة فيه إلى ما فائدته صغيرة، أما الأنسجة التي لا يمكن الجسم العمل بدونها فلا تتلف من الصيام. فإذا شرعنا في الصوم فإننا نفقد أولاً الشحم ثم اللحم، أما الأعصاب ومادة الدماغ فلا تنقص درهماً واحداً بعد صيام ثلاثين أو أربعين يوماً، وذلك لأن مادة الأعصاب ثمينة وعليها ميزان الجسم كله وعقله، وهي إذا فقدت شيئاً لم تستعضه، أما اللحم والشحم فيمكن ستعادتهما بعد فقدهما. والصيام الذي يمارسه الناس للمعالجة الآن هو عن الطعام فقط. أما الماء فإن الصائم يشرب كما يحب ويشتهي لأنه في حاجة إليه حتى يغسل خلايا جسمه وأنسجته ويحمل معه الفضلات ويطهرها منها، وبعض الصائمين الآن يضع قطرات من عصارة الليمون أو الفاكهة أو الخضراوات الطازجة على الماء حتى لا يحرم الجسم من الفيتامين، لأن جسم الإنسان قد يستطيع أن يعيش بلا طعام نحو خمسين أو ستين يوماً ولكنه لا يمكنه أن يبقى هذه المدة بلا فيتامين.

ويمكن كل إنسان أن يمارس الصيام ولكن يجب الحذر من الإفطار، لأن الصائم إذا بقي نحو عشرين يوماً بلا طعام رقت جدران معدته وأمعائه واعتاد جسمه حالة الصوم فإذا فجأ قناته الهضمية بطعام جامد فقد يؤذي نفسه بذلك أذى كبيراً؛ إذ قد يغمى عليه من هذه الصدمة؛ وقد ينخرق جدار الأمعاء أو المعدة، فالإفطار يجب أن يكون رويداً رويداً حيث يتمصص الصائم جرعة بعد جرعة.

ونحن نذكر فيما يلي تجارب المستر «ارفنج» وهو رجل إنجليزي صام خمسين يوماً بغية التخلص من ضعف المعدة وضعف الأعصاب الناشئ عن تراكم الفضلات في الجسم، فقد قال إنه ابتدأ أول يوم من الصيام بأن شرب ستة أكواب من عصارة البرتقال، وفي اليوم الثاني شرب أقل من ذلك من هذه العصارة أيضاً، وفي اليوم الثالث لم يشرب سوى الماء القراح، وبقي على ذلك عدة أسابيع، وكان أحياناً يمزج الماء بقطرات من عصارة الليمون. وبعد الأسبوع الأول من الصيام زالت الشهوة للأكل مكان يتريض بالمشي ميلين أو ثلاثة في اليوم على مهل وفي غير مشقة، وكان لسانه قد اكتسى بفرو أبيض يكاد ينفصل عنه إذا مسح.

ويقول الراسخون بفن الصوم: «إن الصحة لا تعود إلى الجسد حتى يزول الفرو الكاسي للسان»، ولكن الواقع أنه لا يزول تماماً وإنما عند اقتراب نهاية الصوم يتحسن اللسان ويرق هذا الكساء من الفرو، وكان المستر «ارفنج» قد هبط وزنه واستمر الهبوط إلى الأسبوع الرابع حين وقف الجسم فلم يفقد في الأسبوعين سوى رطل أو رطلين فقط. وفي اليوم الثامن والأربعين جلس في الشمس فنام نوماً طويلاً استيقظ منه وهو في غاية الضعف، وقضى اليوم التاسع والأربعين وهو في

الفراش، وفي اليوم الخمسين عاد إليه نشاطه فنهض وزال عن لسانه بعض فروه فقنع بهذه المدة وخاصة عندما رأى أن الآلام التي كان يشكو منها قد زالت كلها.

أما كيفية رجوعه فإنه شرب في اليوم الخمسين نصف كوب من اللبن تمصمصه كما يمص الإنسان الليمونة. وفي اليوم التالي صار يشرب كوباً من اللبن كل ساعتين فيمتصها أيضاً، وبعد ذلك يتناول كوباً من اللبن كل نصف ساعة، واستمر على ذلك أربعة أسابيع تناول في نهايتها «عجة»، وكان قد فقد في صيامه ٤٦ رطلاً استعادها وزاد عليها، ومن غريب ما رأى أنه كان يلبس نظارات لقصر نظره فلما صام عاد إليه نظره كله سليماً. اهـ.

ضرب مثل لحال العابدين
الذين يفكرون بالعبادة بحال قراء القرآن بلا تعقل

اعلم أن مثل العباد الذين يعبدون ولا يفكرون في عبادتهم ولا يعرفون مقصودها كمثل من يقرأ القرآن بلا فهم ولا عقل، فكلاهما له ثواب على مقداريته ولكنهما في مرتبة ضعيفة، هذا في القراءة وهذا في العبادة، فإذا فكر العابد وأدرك معاني الكلمات التي يقرؤها في الصلاة التي يقيمها ومقاصد الزكاة التي يؤتيها ومناسك الحج التي يؤديها وعبادة الصوم التي يتقرب بها، كان هؤلاء كلهم أشبه بمن يفهم معاني القرآن ويعمل به، فإذا ارتقى العابد عن هذه الدرجة أدرك السر المصون والجوهر المكنون كالذي ذكرناه هنا في أمر أركان الإسلام، وإنها بذور لسعادة إنسانية عامة في الطب وفي الاجتماع والتعاون العام، كان ذلك خليفة الله في أرضه وكان أشبه بمن ارتقى عقله في القرآن، وأدرك أن علوم الحكمة كلها وأسرارها موافقة للقرآن، وأن هذه العلوم كلها لا تخالف بينها وبين القرآن الذي أنزله الله بالوحي، وأنه كلما كان الإنسان أضعف منزلة وأقل فهماً وأسخف رأياً تباعدت مسافة الخلف بين دينه وبين العلوم عند عقله، وكلما ارتقت نفسه منزلة وازداد عقله كمالاً تقارب العلم والدين عنده على مقدار ارتقاء علومه وعقله، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الجهاد على ثلاثة أقسام: جهاد بالغريزة. وجهاد بالعقل. وجهاد بالوحي. والأخيران أفضل من الأول. إن الجهاد بالغريزة لا يحوزه عقل ولا فكر ولا روية فهو أضعف رتبة وأقل قيمة، فأما الجهاد بالعقل وبالوحي فهما أرقى منزلة وأكمل شرفاً وأعظم قدراً.

ألا ترى رعاك الله أن هذا الإنسان فطر على ألا يعجب إلا بممنوع وألا يفرح إلا بما تباعدت أقطاره وصعب نواله وعز مطلبه وتمنع وتولى بركنه، كما نرى أن الماس والياقوت والزبرجد وأمثالها من الأحجار الثمينة يحرص عليها الناس كل الحرص لغلاء ثمنها وصعوبة مطلبها ووعورة طرقها وهم يشاهدون أمامهم في منازلهم وحقولهم وسمائهم زهراً جميلاً وكوكباً مشرقاً متلألئاً أجمل من الياقوت والماس والزبرجد وأبهج وأعلى، ولكن الزهر والكواكب مبذولات والماس والياقوت ممنوعان، لذلك رغب الناس في الممنوع وزهدوا في المبذول، ولذلك نجد الكواكب في السماء لا يفرح بها الجهلاء وإنما يفرح بها المفكرون من العلماء، ويحقرون الأحجار الثمينة وأنواع الزينة في هذه الأرض إذا وازنوها بما عرفوا من جمال الكواكب وسيرها في مداراتها ودقة حسابها وبهجة نظامها، فالجاهل وقف عقله عند الزبرجد والياقوت، والعالم ارتقى فحقرهما ولكنه سعى سعياً حثيثاً وجدّ حتى

ارتقى إلى الأفلاك. كلاهما لا سعادة له إلا بالجهاد. فالجاهل جاهد بالمال حتى نال الماس والزبرجد والياقوت وهنالك وقف عقله وحط رحله وأنشد:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

والعالم جاهد الأبطال في ارتقاء عقله وبذل ثمن ذلك النوال بالسهر والنصب والتعب والجد، وأنشد:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال آخر: ومن تكن العلياء أكبر همه ... فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقال غيره: فالمنايا ولا الدنايا وخير ... من ركوب الخنا ركوب المنايا

وقال غيره: لا تحسب المجد تمراً أنت آكله ... لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إذا عرفت هذا فهاك نبذة في الجهاد بالغريزة، ثم أتبعها بنبذة في الجهاد بالعقل، ثم اذكر تأييد الوحي لعمق في الجهاد وذلك في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في الجهاد بالغريزة

إن من قرأ هذا الكتاب أو جملة صالحة منه عرف كثيراً من غرائز الحيوان، فإنه يراه مفرقاً في سور كثيرة، فانظر رعاك الله في سورة «النحل» واعجب من نظامه ونظام الأرضة فإنك تراها مرسومة هناك في جانب رسم ملكة النحل وجنودها المحيطين بها. فهاتان دولتان عظيمتان: دولة الأرضة ودولة النحل، ومثلهما دولة النمل. الله أكبر. جل الله. إنك يا الله رحيم لطيف حكيم عليم، ألهمت الأرضة فجعلت لها دولة لا تضارعها في أرضنا دولة من دول الإنسان ولا الحشرات ولا الطيور، وعدد كل دولة من دول الأرضة لا يعرف منتهاه، فهي أعظم من مملكة النمل والنحل. وإذا كان الناس الآن وجدوا أن أعظم دولة للنمل عرفوها قد بلغت (٥٠٠) خمسمائة مليون نملة ولا نظير لها في الممالك الأرضية إلا الدولة الصناعية المتكلمة التي هي إنكلترا، بل هي لم تصل لهذا العدد مع ملحقاتها التي ليست ملتئمة بها التئام رعايا النمل. أقول: عرف الناس ذلك كما تقدم فإنهم لم يقدروا أن يحصوا مملكة واحدة من ممالك الأرضة كما تقدم شرحه في سورة «النحل»، وسيأتي تمام الكلام على ذلك في سورة «سبأ» عند آية: ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ [الآية: ١٤].

هأنا ذا أيها الذكي ذكرت لك ممالك ثلاثاً أنت عرفتها في هذا التفسير مشروحة، فاقرأها في سورة «النحل» وفي سورة «النمل» وفي سورة «سبأ»، وأقتصر لك عليها في بيان الجهاد بالغريزة فهذه وغيرها من الطيور والحشرات وحيوانات البر والبحر نرى جهادها جهاداً اجتماعياً لا فرعياً، فأيقنا بهذا أن الجهاد كلما كان من جمع كان أقوى وأعظم، وكلما كان فردياً كان أضعف وأقل فائدة، والعبرة في هذا أن الناس كلما كانوا أكثر عدداً في العمل والجهاد كانت الثمرة أضعافاً مضاعفة على مقدار كثرة العدد، على شرط أن تكون الجماعة مهما كثرت على رأي واحد ومشرب واحد وفكرة واحدة ونظام قوي متين. فإذا كان الجهاد بالغريزة الذي أثبتنا أنه أقل مرتبة من الجهاد بالعقل وبالوحي لم يكمل إلا بالاجتماع فليكن ذلك الاجتماع فيما هو أكمل منه أكثر وجوباً وأولى بالعناية. انتهى الكلام على الجهاد بالغريزة.

الفصل الثاني: في الجهاد بالعقل

أيها الذكي، إن العلم سعادة وهناء، وأي سعادة وأي هناء من أن نجد في هذا المقام أن غرائز الحيوان في اجتماعها قد اتصلت بآراء الحكماء والفلاسفة

أيها الذكي، إننا بالبحث في العلم كلما أوغلنا ازددنا بهجة وسعادة، وأي بهجة وأي سعادة أعلى وأدوم من اتفاق الغرائز في الحيوان مع عقول الحكماء في الشرق والغرب. وبعبارة أخرى: إن عقول الناس كلها إنّما تسعى لترجع العلم كله والحياة كلها إلى مبدأ واحد وقاعدة واحدة، فكلما وصلوا لهذا التوحيد في عمل ما أحسوا بالهناء والسعادة، وكلما تباعدت القواعد واختلفت الأصول كانت العقول أقرب إلى الشقاء وأبعد من السعادة لما تجد من التناقض والاختلاف في هذا الوجود.

هذه الحشرات وهذه الطيور وهذه الأنعام ترى أكثرها كونت لها ممالك منتظمة أيما نظام، متقنة أيما إتقان، فهل تحب أن أنبئك نبأ عقول الحكماء والعلماء، انظر كيف ضربوا الأمثال للاجتماع، إنّما ضربوا الأمثال بنفس الحيوانات واجتماعها وائتلافها واتحادها في طلب النافع والفرار من الضار، وإنّما ضربوا هذه الأمثال بالحيوانات لأنهم أيقنوا بعقولهم أنها لوحهم المقروء وكتابهم المفتوح ومدرستهم العامة، فالأمم قديماً قبل نزول الإنجيل والفرقان كانوا يضربون الأمثال بالحيوان للاجتماع، وإن كان ذلك ضرباً من الصور على طريق الخيال، لأنه أقرب إلى الأفهام وأدعى إلى الإقبال. يقصدون بذلك أن الجهاد يكون أتم كلما كان عدد المجاهدين أوفر ونظامهم أتم. فانظر إلى أمثال « كليلة ودمنة » الذي ألفه « بيدبا » الفيلسوف وترجمه عبد الله بن المقفع إلى العربية بعد أن ترجمه « برزديه » الطبيب الفارسي الذي كان أبوه من المقاتلة وأمه من عظماء بيوت الزمازمة من الهندية إلى الفارسية، فإن من الأمثال هناك ما جاء في باب الأسد والثور من تمثيل « بيدبا » الفيلسوف رأس البراهمة للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء، ثم لا يلبثان أن يتقاطعا ويتدابرا بالأسد والثور اللذين تحابا وحصلت بينهما المودة والمحبة. ثم جاء « دمنة » وأخذ يمشي بينهما ويقول للثور: يا ثور إن الأسد يريد أكلك، وقال للأسد: إن الثور يريد مقاتلتك وعلامة ذلك أنك إذا توجهت إليه وجدت حركات غريبة، فلما رأى الأسد الثور خاف الثور واضطرب فظن أنه يريد مقاتلته ففتك بالثور الأسد، ثم ظهرت الحقيقة بعد ذلك وحكم على « دمنة » جزاء كذبه.

ومن تلك الأمثال مثل الحمامة المطوقة، فقد ضربها ذلك الفيلسوف ليعلم الناس أنهم يقدرون على الاتحاد سواء أكانوا من وطن واحد وأمة واحدة أم من أوطان مختلفة وأمم كثيرة. ذلك أن « دبشليم » الملك قال لـ« بيدبا » الفيلسوف: قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك، فحدثني إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض فذكر الحمامة المطوقة وهي سيدة الحمام إذ وقعت هي وهن في الشبكة فخطبتهن خطبة قالت: « لا تخاذلن في المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أحب إليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون جميعاً فنرفع الشبكة »، فلما علت الحمامات في الجو استعانت المطوقة بجرذ كان صاحبها قديماً يسمى « زيرك » فنزلت معهن بالشبكة عنده فقرض الشبكة حتى فرغ منها، فنجت المطوقة وأخواتها. فلما رأى الغراب صنع الجرذ أحب مصاحبته وانضم إليهما السلحفاة والظبي. فكما تعاون الحمام الذي هو

من نوع واحد، تعاون الغراب والظبي والجرذ على نجاة السلحفاة حين جاءها الصياد ليقتنصها. هذه أساليب تلك الأمثال التي ضربها حكيم الهند لجهاد الإنسان المؤيد بالجماعة انتهاجاً لخطة الحيوان بغريزته. وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في الجهاد بالوحي الذي هو أعلى من سابقيه

قد ذكرنا آنفاً أن الهدى بثلاث طرق: طريق الغريزة، وطريق العقل، وطريق الوحي، وكل مرتبة أرقى مما قبلها وأقل مما بعدها، وربما يظن قوم أن غريزة الحيوان كوحي الأنبياء، وربما يستدلون بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾[النحل: ٦٨]، وهذا خطأ، فإن الغريزة فطرية ساذجة وإن كانت صادقة، والوحي أمر علوي يحكم العقل ويصقله ويرقيه، فالوحي جاء لتنظيم العقول، والغريزة لنظام العمل في الحيوان، والعقول الإنسانية أرقى من الأعمال الحيوانية، ومنظم الأعلى أرقى من منظم الأدنى.

ها أنت ذا رأيت غرائز الحيوان فهي بها مجاهدات، وعقول الحكماء وتعليمهم للناس فقد جاء على مقتضى غريزة الحيوان، فهل لك أن أسمعك ما جاء بالوحي فاقرأ ما ستسمعه واعجب من هذا الوجود، حيوان ذو اجتماع بغريزته وإنسان يتعلم الاجتماع بتعليم حكمائه ثم أنبياء تراهم ينظمون اجتماع الإنسان على نسق غرائز الحيوان وحكمة الحكماء في الإنسان بحيث يصقل تلك العقول ويهيئها.

فاسمع ما أقصه عليك من جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عسى أن تنهج نهجه. فانظر كيف كاتب الأمراء والملوك وحملهم على التآلف والتآزر والمودة والإخلاص حتى اتحدوا والتأموا وصاروا أمة واحدة يشار إليها بالبنان. فهاهو ذا جهاد الغريزة وجهاد العقل اللذان بدأهما الله في الحيوان والإنسان أكملهما بما هو أعلى، فأرسل نبينا صلى الله عليه وسلم يذكر العقول بما اختبأ فيها من الكمال الفطري، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[الغاشية: ٢١]، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾[الحجر: ٩]، فما الوحي إلا تذكير للناس بما سترته عاداتهم وتقاليدهم عن فطرهم الشريفة الإلهية المستمدة من سماء الكمال وكمال الجمال.

خير مناهج الجهاد

اعلم أن للجهاد مناهج وطرقاً مذللة عبّدها -بتشديد الباء- أناس مضوا قبلنا، وخير المجاهدين من درس سير العظماء والعلماء والحكماء، فلتقرأ أيها الذكي سير أولي العلم والحكمة. واعلم أن الله ما خلق في الأرض إلا لننمي كل قوانا التي خلقها فينا وفصلها تفصيلاً. أما والله ليسألن كل امرئ عن هذه الأعضاء المفصلة وهذه الحواس المكملة وهذه العقول المحكمة وعما أعطيت من نعم وما أتيح لها من قوى وقدر.

واعلم أنك مسؤول عما أودع فيك من هذه العطايا والنعم، فجاهد أمد الحياة ولتبدأ بجهاد نفسك، فإذا رأيت منها خوراً أو ضعف عزيمة فاستعن بالله وأدم الدعاء وثق به، فإنه يجيب دعاءك لاسيما إذا كان هذا الدعاء عن شدة وولوع بما تدعو إليه، فتكون أشبه بالمضطر، فهنا الإجابة محققة لا شك فيها.

وخير من تقتدي بهم في جهاد نفسك وفي إرشاد غيرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا ألمت بك حاجة فادع كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين»

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء: «اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحيي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير آجل»، ومن دعائه: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»، ومن دعائه: «اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريعاً غدقاً مجللاً عاماً طبقاً سحاً دائماً. اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد ما لا نشكو إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً فأرسل السماء علينا مدراراً».

وإذا أصابك هم أو دين فقل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». فإذا دعوت وداومت فإن الله يجيب دعاءك كما روي في الحديث، وهكذا من الأدعية التي وردت في الصحاح، فإذا قويت نفسك وهذبت ورأيت فيها ميلاً قوياً إلى الإرشاد والنفع العام فاعلم أنه لا يقف أمامها ما يمنعها ولا يصدها أحد في العالمين. وإياك أن يصيبك خور أو ضعف واسمع ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان». واعلم علماً ليس بالظن أن الله لما خلق هذه النفوس الإنسانية جعل قواها موزعة على ما يحتاج إليه النظام، واعلم أنك إذا منحت منحة إفاضة الخير والإرشاد والتعليم فإن تأثيرك على سامعك حاضراً وعلى قارئ كلامك غائباً لن يكون إلا على مقتضى ما تمتلئ به نفسك، فعلى مقدار الأحوال المضمرة في نفسك تكون نتائج كلامك. إننا نرى النار تحرق بجوهرها وكذلك الماء يحيي بنفس جوهره لا بعوارض فيه وهكذا السم، السم في الإهلاك والدواء في الشفاء. كل هذه مؤثرات بأنفسها وطباعها، هكذا شأن التعليم والإرشاد، فإذا رأيت نفسك متجهة وطال الأمد على هذا الاتجاه فاعلم أنك رجل قد أذن لك، وقد اصطفيت لترقية العقول وإصلاحها، فشمر عن ساعد الجد وادرس سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة وعظماء الأمة وحكمائها، واقتف آثاره صلى الله عليه وسلم في وعظه وإرشاده للأفراد والجماعات الذين كانوا معه ولمن بعدوا عنه، فإذا رأيت هذا كله مغروساً في نفسك من غير تكلف ولا تصنع فاعلم أنك منصور مقبول الوعظ والإرشاد فجاهد في الله

بعد أن تقرأ أمثال ما قاله ابن شهاب «بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا خطب: كل ما هو آت قريب، لا بعد لما هو آت، ولا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر الناس، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الله شيئاً ويريد الناس شيئاً، ما شاء الله كان ولو كره الناس، ولا مبعد لما قرّب الله ولا مقرّب لما بعّد الله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله»، وهكذا تقرأ خطبته صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة. قال ابن إسحاق: كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل، أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمنّ، والله ليصعقنّ أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقي بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإنها تجزي الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

قال ابن إسحاق: ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه قد سماه خيرته من الأعمال، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وتقرأ ما ورد عن أحمد بن حنبل أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أما بعد، فإن رجالاً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض، وإنهم قد كذبوا، ولكنها من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده، فينظر من يحدث منهم توبة الخ». وتقرأ خطبة حجة الوداع. لما زالت الشمس يوم عرفة أمر صلى الله عليه وسلم بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس خطبة عظيمة نذكر لك نصها من رواية ابن هشام في سيرته وهاهي ذه.

«الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير. أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها

إلى من ائتمنه عليها، وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أن لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ـ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. أما بعد، أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم. أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل للمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، ألا هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد».

فإذا قرأت هذه الخطب وأمثالها علمت أن لكل مقام مقالاً وانتهزت فرصة الحوادث والوقائع وهنالك يسمع قولك ويهش السامعون له ويبشون. فانظر كيف انتهز صلى الله عليه وسلم فرصة كسوف الشمس وجعلها موضوع وعظ. فهكذا فليكن تعليمك على حسب الوقائع والأحوال، ولتكن أنت نبراس زمانك باجتهادك أنت نفسك، وإذا رأيت ظلماً عمّ وفتناً طمت فتفكر في قوله صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه: «أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء. ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف بني آدم، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرض. ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا. فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء وسريع الغضب سريع الفيء فإنها بها. ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب، وشر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب أو كان سيئ القضاء حسن الطلب فإنها بها. ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة. ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه. ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر. ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

وهيئ نفسك لتذكير الناس بأمثاله . ومتى علمت قبول جهادك فيمن يليك ورأيت النفوس مشرئبة لـ تقول متبعة طريقك في جهادك ، وأن عواطفك قد أشربت قلوب من حولك بتأثير وعظك وهديك ، فهنالك يجب عليك أن تخاطب من بعد عنك ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس كلهم في الأرض أمة واحدة فلننسج نحن على منواله ، ولنوقظ العقول الإسلامية ، لتتجه لإصلاح الأرض مع الأمم أفلا تعجب منه صلى الله عليه وسلم إذ أخذ يدعوا الأمم أمة أمة ، فاقرأ ما كتبه صلى الله عليه وسلم إلى صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي . سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك ـ وكان الحامل لهذا الكتاب سليط بن عمرو العامري فأكرم هوذة وفادته ـ وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كله إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كتابه فقال : لو سألني سابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما في يديه . وقد مات هوذة مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح » .

ثم اقرأ ما كتبه إلى مالك عمان : «بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام ، فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما ، وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص فخرج به حتى وافى عمان ، قال عمرو : فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً ، فقلت : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك ، فقال : أخي المقدم عليّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال : وما تدعو إليه ؟ قلت : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة . قلت : مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ووددت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام ، قال : فمتى تبعته ؟ قلت : قريباً ، فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت : عند النجاشي ، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم ، قال : فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال : والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت : نعم ، قال : انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نستحله في ديننا . ثم قال : ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت : بلى . قال : بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشي يخرج له خرجاً فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال : لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً قال هرقل : رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال : انظر ما تقول يا عمرو . قلت : والله صدقتك ، قال : عد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه .

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً . قلت : إنه إن أسلم ملّكه ـ بتشديد اللام ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيّهم فيردها على فقيرهم . قال : إن هذا الخلق حسن ، وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل قال : يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه . فقلت : نعم . قال : والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا . قال : فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري ، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي فقال : دعوه . فأرسلت فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعوني أجلس فنظرت إليه قال : تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أني رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت : الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال ، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال : دعني يومي هذا وارجع إلي غداً . فرجعت إلى أخيه فقال : يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أني لم أصل إليه فأوصلني إليه ، فقال : إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هنا ، وإن بلغت خيله ألفيت قتالاً ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه ، فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقا النبي صلى الله عليه وسلم وخلّيا ـ بتشديد اللام ـ بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لي عوناً على من خالفني » .

وهكذا تأمل كتبه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء ابن الحضرمي إلى المنذر وكتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فعليه الجزية فأسلم » . وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما بعد يا رسول الله ، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلي في ذلك أمرك » . فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح إنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً

وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ».

وبعد ذلك تنظر مكاتبته صلى الله عليه وسلم إلى ملك الحبشة : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه هذا مع عمرو بن أمية الضمري فقال للنجاشي : يا أصحمة إن عليّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر. فقال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر. ثم كتب النجاشي كتاب جواب النبي صلى الله عليه وسلم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك نبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد : فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً « الفلاقة بين النواة والقشر »، إنه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت إلينا، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وهكذا تفكر في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[يس : ٧٠] أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس ». فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مزق الله ملكه وقد كان ».

ثم نقرأ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[آل عمران : ٦٤] الآية »، وقد بعث به صلى الله عليه وسلم مع حاطب بن أبي بلتعة فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك

رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك. فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه. فقال له حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه. إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به. فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فجعله في حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك، ولم يسلم.

وهكذا تقرأ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم وهذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]

ولما قرأ هرقل الكتاب فكر في الأمر ثم جمع عظماء الروم في قصر له بحمص ـ بكسر الحاء ـ ثم أطل عليهم فقال: «يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت» فسجدوا له ورضوا عنه.

فإذا تتبعت أمثال هذه المكاتبات والخطب ألفيته صلى الله عليه وسلم يخاطب الأمراء في بلاد العرب بأسلوب غير الذي يخاطب به الملوك ويعطي كل ذي حق حقه. ألا تراه يقول لملك الحبشة: «وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم»، ولكنه يقول لملك عمان وأخيه: «وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما». فانظر الفرق بين الكتابين اللذين اختلفا على مقتضى الحالين.

فإذا قرأت هذا وأمثاله هنالك تعرف كيف ترقى الأمم الإسلامية الآن وكيف تتحد مع غيرها في الأعمال النافعة. وانظر تلطف حاطب بن أبي بلتعة مع المقوقس وقوله له: «لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به». وهذا أمر عجيب، ووازن بين هذه المعاملة ومعاملة ملك عمان.

إن هذه الأحاديث والأخبار تعطينا فكرة عامة ، وهي أن نلبس لكل حال لبوسها ونجد في رقي الأمم الإسلامية ونكلم كل امرئ بما يصلح له ولا ننفر أمة منا . إذن دين الإسلام في مستقبل الزمان سيقوم به قوم أرقى وأعلى من رجال تقدمونا بعد العصر الأول الذي هو خير العصور والعصرين بعده ، وسيكون إصلاحاً لجميع الأمم ، والحمد لله رب العالمين .

بيان عام في أمر الجهاد

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة . رأينا جمال صنعك وحكمك البالغة التي نظمت بها الأفلاك في علاها والحيوانات في فلاها والأمم في هداها .

يقف المصلي ذاكراً رحمتك بسم الله الرحمن الرحيم يكررها كل حين ، ويعترف بأنك أنت ربيت جميع العوالم مع رحمتك التامة وحكمتك الشاملة وقيامك بالقسط فيها وعدلك في الحكم ، وهو قد شاهد نظامك في حركات الأفلاك ومداب الأسماك ، فيطلب إذ ذاك هدايتك لصراطك وما صراطك إلا شمول الرحمة وعموم الحكمة والنظام ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود:٥٦] ، فصراط ربي تآلف الطيور في الهواء والأنعام في العراء وعيشها بسعادة وهناء ، وصراط ربي أن يلهم أمثال « بيدبا » كما ذكرناه آنفاً أن يصوغ الحكم ويعلم الناس الاتحاد تشبهاً بالحمامات وبالحمامة المطوقة مع الفأر والسلحفاة والغراب ، وصراط ربي أن يتحد الناس على المنافع العامة . اللهم إنك أنت الذي ألهمت النمل فأحكمت نظامها ، وعلمت النحل فهديتها طرقها ، ورسمت للحكماء رسماً في عقولهم لتسجوا على منوالك في إلهامك الحيوان ، ولعمري ما مكاتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك عمان والحبشة ومصر والروم والفرس إلا على نهج صراط الله في الهداية ، فهناك هداية بالغرائز أولاً وبالعقول ثانياً ، وهنا هداية بالوحي الذي نزل ليصقل العقول ويجمع الشتات ويؤلف بين القلوب ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت العليم الحكيم .

زيادة إيضاح

أنت يا الله جعلت صلاة المصلي شاملة معاني عامة ، إذ يلحظ نظام الكواكب وتجاذبها ونظام الجسم الإنساني في دعاء الركوع والسجود ، فيرى انتظام الوضع بين الكواكب وانتظام الحركات في سيرها وجمال الترتيب والتنسيق والجندرة والاتساق في السمع والبصر والمخ والعصب وما استقلت به القدم ، فلا يسعه إلا أن يطلب أن يكون الناس في اتحادهم على مقتضى ما شاهد في الآفاق وفي جسمه ، وهنالك يرى أن الهداية للصراط المستقيم هي صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، كما أنها هداية لله الذي ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود:٥٦] . وإذن يرى المصلي أن الصراط المستقيم في الفاتحة هو صراط المنعم عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين ، فإن هاتين الطائفتين لم يخلقوا للنظام العام وسعادة الأمم ، فإن أهل الغضب والضلال متشاكسان وهل يجمعهما إلا المهديون إلى الصراط المستقيم؟ وهذا هو الذي حصل أيام النبوة فإنه صلى الله عليه وسلم ما كاد يسمع آية ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤] حتى أرسل رسله إلى الأمصار وخاطب الملوك ، يريد أن يكون النوع الإنساني على وتيرة واحدة من حيث نظام السياسة

ويجعل أولئك الذين على صراط مستقيم مسيطرين على أولئك المغضوب عليهم والضالين. أرسل صلى الله عليه وسلم رسله وقواده وجيوشه وكان ذلك كله بلذة روحية، فكان الصحابة والتابعون لا يريدون إلا وجه الله، وإن من قرأ سير الصحابة والتابعين ودرس محاورات هؤلاء مع الملوك والأمراء كما تقدم في محاورة حاطب بن أبي بلتعة مع من أرسل إليه من الملوك ومحاورة عمرو بن العاص كذلك، واقرأ ما تقدم في سورة «الكهف» محاورات عبادة بن الصامت مع المقوقس وكيف كانوا يفحمونهم في الخطاب ويذعنون للحق.

فالحق والحق أقول لولا هذه اللذة الروحية ما توغل المسلمون في بلاد الله شرقاً وغرباً. إن الله جعلهم رسل نظام عام على شريطة أن يكونوا رحمة للأمم على مقدار ما تتحمله هذه الطبيعة الطينية. يا سبحان الله بقيت هذه الخصلة ٣٠ سنة كما قال صلى الله عليه وسلم: «الخلافة بعدي ثلاثون ثم تكون ملكاً عضوضاً»، فخلف من بعد الخلفاء ملوكاً لم يكونوا كالخلفاء. إن الخلفاء كانوا يعلمون مقصود النبوة فحرموا على أنفسهم مال المسلمين علماً منهم أن الأمة إذا انغمست في الشهوات زال ملكها في الدنيا وعذبت في الآخرة.

ناهيك ما تقدم في آخر سورة «القصص» من حكاية الربيع بن زياد لما وفد على عمر رضي الله عنه فاقرأه، تجد أنه خاف من قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠] ماذا كان يخاف عمر؟ خاف عذاب الهون وخاف عذاب الخزي في الحياة الدنيا إذا استمتع باللذات ولذلك لم يبح لنفسه أن يتخذ مأكل لمجرد اللذة. هذا هو رأي أكابر الصحابة، حرم عمر على ابنته أن تضمخ ثوبها بطيب المسلمين، ونظيره في ذلك أبو بكر وبقية الخلفاء الراشدين، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا النخوة والعزة وتلهوا بالتفنن في اقتناء الجواري والانغماس في اللذات بعد الغزوات، فكانوا لا يبالون بإذلال الأمم ولا بإذلال المسلمين وأخذوا ببعض الدين وتركوا بعضه. ذلك أن الله أباح الأسر ولكنه يقول: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١-١٨]، فالله أول ما ذكر في هذه الآية قال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣]، إذن فك الرقبة أهم ما به نقتحم العقبة، وذكر بعدها الإطعام، ثم ذكر الإيمان مع الصبر والمرحمة. إذن هنا فك الرقبة أولاً والمرحمة آخراً، وهكذا دخل العتق في أكثر أبواب الفقه.

إنه صلى الله عليه وسلم أرسل لمنفعة الأمم، ولما وجد النوع الإنساني قد تأصلت فيه عادة الأسر أبيح له أن يأسر كما تأسر الأمم، فلو أنه حرم أسرهم على المسلمين لانقرضوا، فإنهم في الحرب يأسرهم غيرهم إذا غلبهم، وإذا غلبوا غيرهم لا يأسرونهم، وهذا هو هلاك الأمم الإسلامية وظلمهم لذلك أباح أخذ الأسرى ورغب في العتق، وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة، حتى إن المعتق يرث من أعتق كالقريب، ومعنى هذا كله أن يكون الأعداء أصدقاء. وبعبارة أخرى: تصبح الأمم المغلوبة مندمجة في الأمم الغالبة بطريق الولاء الذي هو كالنسب.

هذه الأحكام لا مندوحة عنها، فالمسلمون يأسرون غيرهم ثم يعتقونهم، وخير من هذا أن يمنوا عليهم فلا أسر ولا فداء. وكل هذا كان موكولاً للملوك والملوك كانوا يستبدون بالأمر، ثم تغاضى المسلمون بعد ذلك عما يسمعون من أخلاق أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم، فاستباح الملوك لأنفسهم كل أنواع الزينة والفسوق وجهلوا تلك الأخلاق الفاضلة، وإذا سمعوا قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ [النمل: ٥٢]، أو سمعوا الآية المتقدمة التي أخافت عمر رضي الله عنه وهي: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف-٢٠] الخ يقولون: هذه وردت في الكفار، فأصبح فهم المتأخرين غير فهم المتقدمين فانغمسوا في اللذات فذهبت نخوتهم ودولهم وعزهم، والله لا يظلم الناس شيئاً.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الذي يقتبس منه الصحابة الحقائق، ثم انكمش المسلمون وتركوا هذه الفضائل واقتصروا على الفقه، وظنوا أن الحرام والحلال كافيان في الإسلام وتركوا آيات كثيرة جداً ظنوها نزلت في الكفار أو في المنافقين، فبهذا صار الإسلام غريباً، وكيف لا يكون غريباً وآيات العبر ونظام الأمم قد تركت وجعلت خاصة بقوم غيرنا. إذن بعض المسلمين صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ ﴾ [الإسراء: ١٦] فالمترفون في الآية هم أنفسهم الذين قال الله فيهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] الخ. سر في بلاد الإسلام شرقاً وغرباً فإنك لا تجد لهذه المباحث العامة رواجاً، اللهم إلا في هذا الزمان فإن النهضة قد سرت بين المسلمين وسيتم أمرها، واعلم أن المسلمين في زماننا لا ملجأ لهم إلا أن يقوم فيهم مجددون مصلحون ينيرون السبيل ويوضحون الطرق، وإني أحمد الله عز وجل أن يكون هذا التفسير قد جعل فيه روح الإصلاح. وهناك كتّاب في بلاد الإسلام معروفون يسيرون على منهج الإصلاح، وهذا زمان النهضة وسيأخذ حظه ويرقي الأمم التي تدين به إن شاء الله.

جهاد بعض المتأخرين من الأمم الإسلامية السابقة
جهاد خذلان وانتكاس

لقد طال الأمد على أممنا الإسلامية فقست القلوب وكثر الفسق والفجور فأين الجهاد؟ والجهاد يراد منه الإصلاح، وكيف تصلح أمم انغمست في الشهوات وقل فيها المصلحون بعد العصور الأولى وكلما تمادى الزمان ازداد العصيان بسبب الترف والجهل العميم. فوازن رعاك الله بين أزمان النبوة إذ أريد جعل أهل الأرض أمة واحدة وبين أيام انحطاط دولة العرب بإسبانيا وطردهم منها في كلام العلامة «سديو» الفرنسي وهذا نصه:

الباب الرابع: في انحطاط دولة العرب بإسبانيا وطردهم منها، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: في وقوع عدة ممالك إسلامية من إسبانيا تحت حكم ملوك النصارى

نعود الآن إلى ما سلف من تاريخ عرب إسبانيا فنقول: «لما أغارت الأهالي على عساكر الموحدين المحافظين بإسبانيا أوقعوا بهم أول نكبة وأخطبها، ولكنهم أماطوا عنهم جوراً يلزمهم أن يستعدوا عقبه لصد النصارى بتجديدهم للحكومة مركزاً عمومياً تبنى عليه المصالح العامة، لكنهم عدلوا عن ذلك وأخذ كل ينظر في مصالحه الخاصة، ولذا انقسمت الحكومة الإسلامية إلى عدة دول

صغيرة مستقلة عن بعضها، لم يكن منها ذات شوكة في الجملة إلا مملكتا «والنسة» و«الحرو» ومملكتا «ابن هود» و«محمد الحمار» وكان ذلك التفرق مساعداً للفرنج على أخذهم عدة ممالك واحدة بعد أخرى».

ثم قال: «وسلك «فريننـد» مسلك السياسة بتوليته محمداً الحمار على جميع بلاده الرحبية الممتدة من حدود الجزيرة إلى المرية بين جبل طارق وهو يسمه بشرط أن يؤدي له جزية كل سنة وجنوداً زمن الحرب، ويذهب إلى المشورة التي تنعقد في «قسطيلة»، ثم حاصر فريننـد ومعه محمد الحمار مدينة إشبيلية التي كانت كرسي سلطنة المراوية والموحدين، فقاومه أهلها زمناً طويلاً لورود مدد إليهم من الوادي الكبير وعبورهم قنطرة من سفن على هذا النهر إلى مدينة تريانة المشتملة على لوازمهم، فجهز «فريننـد» في جون بسقاية ومينيات إقليم جاليسة سفناً صغيرة استولى بها على مصب نهر الوادي الكبير، ثم كسرت تلك القنطرة بشراعها، فكان لأهل إشبيلية مجاعة سلموا بها المدينة إلى فريننـد سنة ١٢٤٨ بشروط توافقهم لبيع أملاكهم ميعادها أطول من ميعاد أهل «والسنة»، وقد تيسر لهم بأخذ مدينة «إشبيلية» سرعة انقياد جميع البلاد التي على ميمنة نهر الوادي الكبير، وجالوا حين استيلاء البرتغال على مدينتي لولة وأيامنتة سنة ١٢٤٩ بسواحل البحر التي بين نهر الوادي الكبير والوادي اليانع جولة منتصر مؤيد فأخذوا مدناً بعضها للمسلمين».

فانظر كيف ترى «فريننـد» مع محمد الحمار يحاربان «إشبيلية» وقد سلمت لفرينند، أي إن الأمير المسلم يساعد الفرنجي على أن يملك بلاداً إسلامية، ذلك لأن الترف والنعيم هما اللذان يقعدان بالأمم عن المعالي، ثم تأمل ما تقدم في المجلد الثالث عشر في سورة «الشعراء» و«النمل» فإنك تجد تاريخ القوم واضحاً، وأنهم غرقوا في بحار الفسوق والفجور، ولله عاقبة الأمور.

ولأختم هذا المقال بما لم أذكره فيما مضى مما أنتجه التخاذل الذي سببه الانغماس في الشهوات وشيوع الغزل والتغني والتفاخر بالخمر، وانحراف الأمة عن العلوم والمعارف ورضاها بالقشور، فتفرقت وذاق بعضها بأس بعض، ذلك عبرة لمعتبر وتبصرة لمذكر.

جاء في تاريخ «زيني دحلان» صفحة ٣٠١ ما نصه: «من الممالك التي في شرقي الأندلس برشنر وسرقسطة والثغر الأعلى ومدينة طليطلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك، والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان بن محمد بن هود الجذامي من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان قبلهم متغلباً عليها بنو منذر بن مطرق التجيبي، فانتزعها منهم بنو هود في السنة المذكورة، فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الأردمليش وحاصرها، وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها ووكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوماً، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها، وكان لها مدينتان، فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع، فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي، ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من أنهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون، فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة، ويئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم

العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الأموال ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن وقار الحلي والكسوة ما يحمل خمسمائة جمل، وقدر القتلى والأسرى مائة ألف نفس. ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها فيقول لها: أعطني ما معك، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيرها، وكان السبب في قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم، وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع في قتلهم، فلما قتل منهم نيفاً على ستة آلاف نادى الملك بتأمين ما بقي، وأمر أن يخرج من بقي بالبلد، فازدحموا على الباب فمات منهم خلق كثير، ونزلوا من الأسوار بالحبال خشية الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء، وقد كان تحيز في المدينة جماعة ولم يخرجوا، وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت ممن أسر وقتل وخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية أن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان، وأرهقوا وأزعجوا، فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج بأمر الملك، وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها، وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برؤوس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة، فقتلوهم إلا القليل ممن بقي أجله، وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأمور والأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن، وبلغ الكفرة منهم ما لا يمكن أن يوصف على الحقيقة. ولما عزم ملكهم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم ألوفاً، حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه من ملوكهم. وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين.

ومما كان في هذه الواقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء «بربشتر» بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه مما نجا كنّ حصلن في سهم قومس منهم كان يعرفه قال: فذهبت إلى منزله واستأذنت عليه فوجدته حالاً مكان رب الدار مستوياً على فراشه رافلاً في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيء من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته، فرحب بي وسألني عن قصدي، فعرفته وجهه وأشرت إلى وفور ما أبذل به في بعض اللواتي كن واقفات على رأسه، وفيها كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك، اعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصتي من سبي وأسرى من أقاربك، فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت، فأعطني بعضاً من هنا فإني أعطيك رغبتك، قال: وما عندك؟ فقلت: العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب. فقال: كأنك تشهيني ما ليس عندي، يا باجة ـ ينادي بعض أولئك

الوصائف ـ ، يريد يا بهجة قفيره بعجمته » قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلي ، فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه ، ثم قال لها : أدني إليّ من تلك التخوت ، فأدنت منه قطعة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر ، حتى حار لذلك ناظري وبهت واسترذلت ما عندي ، ثم قال لي : لقد كثر هنا عندي كل شيء حتى ما ألتذ به ، ثم حلف لي إنه لو لم يكن عنده شيء من ذلك ثم بذل لي أحد مثل لك ما سخت بهذه الجارية التي تطلبها نفسي فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه ، واصطفيتها لنفسي لمزيد جمالها لأجل أن تلد لي ، وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا إذا ملكونا حين كانت دولتهم ، وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه ، وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة ـ وأشار إلى جارية أخرى ـ كانت مغنية لوالدها ، ثم قال لها : يا فلانة خذي عودك ، فأخذت العود وقعدت تسويه وأنا أتأمل دمعها يقطر على خدها ، فتسرع العلج ومسحه بيده ، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج وأظهر الطرب ، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والغنم فطال تعجبي . قال في « نفح الطيب » : فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد : ١١] ، فإن أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع ، وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة ، وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعيم الزائل ، وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم ، وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ثم سرى البثق إليهم جميعاً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . اهـ .

وإنّما سقت هذه الحادثة لترى أيها الذكي كيف كان اتباع الشهوات سبباً في التخاذل ، والتخاذل سبب في انتهاك العدو حرمة البلاد وضياع المال والعرض والشرف والجاه ، وانظر كيف أصبحت الفتاة بهجة مملوكة لعلج في نفس منزل أبيها ، وكيف يأمر تلك الفتاة التي كانت مغنية لأبيها أن تغني له ، أوليس مما يؤسف له أن يجعل الرجل ابنته مغنية له ؟ كل ذلك دليل على ضياع الأمم . نعم هذه المدينة في السنة التي بعدها استرجعها المسلمون كما في نفس التاريخ ، وعملوا بالفرنجة ما فعله الفرنجة بالمسلمين ، ولكن ليس المدار على الانتصار المؤقت في بلدة من البلاد ، بل المدار على استقامة القلوب وارتقاء النفوس فهو النصر الحقيقي .

وإذا أراد الله ذل قبيلـــة رماها بتشتيت الهوى والتواكل

كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الإسلام

لقد ذكرت لك أيها الذكي فيما تقدم كيف تمزقت الوحدة الإسلامية بعد القرون الأولى ، وكيف انغمس المسلمون في الشهوات والمعاصي ، وفسقوا فسوقاً أدوا ثمنه ، وهو الأسر والذل والفتك والضنك ؟ وكيف دخل العدو الدار وفسقوا بالبنات والنساء أمام الأزواج والآباء ، وانظر إلى الفتاة « بهجة » كيف اصطفاها العلج لنفسه بحجة أنها كانت ابنة رجل عظيم ، وقد استخدمها في نفس منزل أبيها على فراشه ، وانظر كيف وكل الأمير الأندلسي يوسف بن سليمان أمر أهل بربشتر إلى أنفسهم ، وقال لهم : دافعوا عن أنفسكم .

إن أعظم سبب في فشل الأمم ومنها الأمة الإسلامية أن الأمر يوكل إلى أناس يظن فيهم الخير، فإذا مات الآباء ونشأ الأبناء على الترف والنعيم بقي الناس مسحورين بالابن كما سحروا بالأب، فيطبع ذلك الابن وابن الابن الشعب بطابعهم، فهو يرتع في ملاهيه وهم يقلدونه. ولما رأت الأمم الحاضرة ذلك استبدلت مجالس النواب والشيوخ بذلك النظام العتيق، فإذا كان الملك فاسقاً جاهلاً لم يضرهم شيئاً فلهم الحل والعقد وعليه التصديق، فليكن كما شاء جاهلاً أو عالماً. هذا هو الذي عليه الأمم الآن، ولكنهم لم يصلوا إلى هذا إلا بعد جهاد وجهاد وصبر طويل وتجارب هداهم إليها الإسلام، وإنما قلت هداهم إليها الإسلام لأنك إذا رجعت إلى تفسير سورة «التوبة» عند آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ ﴾[الآية-٣٤] الخ رأيت هناك أن الانقلاب الأوروبي ما حدث إلا بما قرأه أمثال «فولتير» و«روسو» من كتب المسلمين المنهوبة من الأندلس أو المأخوذة من مصر ـ اقرأ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت ـ تحت عنوان «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية»، فلقد أثبت هناك ذلك بأجمل العبارات. واقرأ قبل ذلك كيف كان ظلم القسيسين والرهبان والباباوات ولعمري لم يكن ذلك إلا للخضوع القبيح الذي يخضعه الإنسان لغيره جهلاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنعام: ١١٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣١-٣٥].

وفي القرآن من أنواع المحاورات بين الرؤساء والمرؤوسين ما لا يدع عذراً لمعتذر، وقد غفل عن هذا المسلمون واستيقظ له الأوروبيون، ولقد تقدم في هذا التفسير أمثلة كثيرة لاستيقاظ الأوروبيين والموازنة بينهم وبين المسلمين، ولأكشف الآن بأمر عجيب نشر في جرائدنا في وقت طبع هذا المقال لإسعاد هذا التفسير والعناية الإلهية به يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩ فقد جاء في جريدة الأهرام ما نصه:

٤ أغسطس

أو يوم إعلان حقوق الإنسان

عندما تشرق شمس هذا النهار ويستقبل الناس يوماً جديداً يتم انقضاء مائة وأربعين سنة كاملة على اليوم الذي أتحدث عنه الآن.

ففي يوم ٤ أغسطس من عام ١٧٨٩ ذكرى قمينة بالخلود في نفوس الشعوب المجيدة التي تعتز بالحرية والأمم الناهضة التي تنشدها، وحقيق بالفرنسيين أن يجلونه تبجيلهم ليوم ١٤ يوليو الذي جعلوه عيدهم القومي، وهو لا يمتاز في الواقع إلا بهدم حصن الباستيل وقتل حراسه القلائل والتمثيل بهم أشنع تمثيل وإخراج بضعة نفر من أقبيته المظلمة لا هم في العير ولا هم في النفير.

أما في يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وإن شئت الدقة ففي مساء ذلك اليوم فقد نال الشعب الفرنسي ما كان يصبو إليه ويجاهد في سبيله، وهو إعلان حقوق الإنسان على أساس المبادئ التي نادى بها «جان جاك روسو»، ومحو الامتيازات التي كانت للأشراف ورجال الدين اللذين طالما أثقلوا كاهل الشعب ودفعوا به في قرار سحيق من الفقر المدقع والضر المفجع وإليك البيان.

في مثل يومنا هذا منذ قرن وأربعين سنة بالتمام كان الناس في باريس في هرج ومرج على أثر الظفر الذي عقد لهم لواؤه بهدم الباستيل في ١٤ يوليو من العام ذاته، والفلاحون في الأقاليم يمعنون هدماً وسلباً في قصور الأشراف التي تمثل الباستيل بينهم، حتى لا يكونوا وراء أهل باريس في ميدان المجد والفخار والبلاد من أقصاها إلى أقصاها في ثورة مروعة انكمش أمامها رجال الإدارة خشية أن يحل بهم ما حل بحاكم الباستيل، وزادت الحالة سوءاً حين امتنع التجار عن عرض ما لديهم من الأقوات خوفاً من النهب والسلب. وإذ أدرك الغوغاء مقدار قوتهم صاروا يثورون لأقل شيء وينقضون على كل من توهموا فيه العداء لهم، فتارة يصلبونهم وطوراً يقطعونهم إرباً، وكانت سفليات النساء في الأسواق في مقدمة أولئك الفتاك وأكثرهم شراً. ووقف مجلس الأمة ـ وكان مؤلفاً من الهيئات الثلاث الأشراف والقساوسة والعامة ـ يراقب الحوادث في حيرة ووجل خوف سوء العقبى وكل ما تبينه أعضاؤه من الموقف أنه لا يرجى لذلك الحال من هدوء إلا إذا جرد الأشراف والكنيسة من امتيازاتهم، على أن ذلك لم يكن محتمل الوقوع، إذ وقف الملك لويس السادس عشر يشد أزر هؤلاء وينصاع إليهم بتأثير زوجه الملكة «ماري أنتوانت»، فظل خطر الموقف مسلطاً فوق الرقاب جميعهم إلى أن كان يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وإذا المعجزة تقع من تلقاء نفسها، ففي مساء ذلك اليوم وقف في مجلس الأمة أحد الأشراف وكان فقيراً واقترح النزول عن امتيازات الأملاك، فما هي إلا لحظة حتى دب دبيب الغيرة في النفوس وتبارى الناس في تنفيذ هذا الرأي، وما انقضت الليلة حتى كان الأشراف قد نزلوا عن كل امتيازاتهم، وكذلك أعلنت حقوق الإنسان في تلك الليلة على أساس المبادئ التي نادى بها «روسو»، ومجملها أن الناس ولدوا أحراراً متساوين في الحقوق، وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية والأملاك الشخصية وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم، وأن لكل أمة الحق في وضع القوانين وتقرير الضرائب، ولها وحدها السلطة العليا في البلاد، وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلا بإرادتها. وحين أعلنت هذه المبادئ أخذ الناس بها وجاءت الجمعية الأهلية بعدئذ فأدخلتها في صلب الدستور، وهكذا تقوضت مظالم العهد القديم وأشرف العالم على عصر جديد ملؤه العدل والحرية والمساواة.

ذلك هو يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الذي يتم بانبلاج شمس هذا الصباح مرور ١٤٠ سنة عليه وإذا كانت حادثات كبار وخطوب جلل أتت بعده في إبان الثورة الفرنسية حتى شهد القرن التاسع عشر أياماً سوداء ملؤها الدم والدمار، فإن ذلك كله لا يحجب عن الناس نعمة ذلك اليوم المجيد انتهى.

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ وقد كان عمره ألفاً وخمسين سنة بعث على رأس أربعين، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش

بعد الطوفان ستين سنة وفي ذكر « الألف » تخييل لطول المدة إلى السامع ، لأن القصد من القصة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته ومجاهدته لما يكابده من الكفرة ، وإياك أن يصدك عن هذه القصة ما تراه من طول الأعمار التي لم نعهدها ولم يظهر في التاريخ المعروف نظيرها ، فإن التاريخ القديم مجهول جهلاً تاماً ، وليس المقصود من مثل هذه أن نبحث في السنين كيف كانت وأمثال ذلك ، فإنك إذا ظننت أن ذلك هو المقصود لم تنتفع بالقصة . إن الإنسان إذا قرأ أن قوماً قاسوا شدائد وطالت المدة عليهم وهو يعلم أن مدته قصيرة اطمأن وصبر وجاهد لينجو ويهلك عدوه كما هلك أعداء نوح ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أي : طوفان الماء ، وهو يطلق على كل ما طاف بكثرة من سيل أو ظلام وما أشبه ذلك ، فلتعتبر بهذا ولا تضع وقتك فتقول كما يقول البعض : « إن السنة عبارة عن دورة الأرض حول الشمس مرة » ، فربما عبر هؤلاء في أيامهم بالسنين عن دورة القمر حول الأرض وهو شهر عندنا ، وإذن يكون عمر نوح كالأعمار المعتادة التي لا تبلغ مائة سنة ، أقول لك . لا تضيع وقتك في هذا فإنا نلجأ إليه عند القطع بعدم حصول ذلك ، والمقام ليس مقام تاريخ ، بل المقام مقام جهاد وصبر وأدب ، ولم ينل أحد السعادة إلا بالاجتهاد والجهاد ومقارعة الخصوم ، فإذا طالت المدة كان ذلك أدعى إلى التأسي والاقتداء ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ أي : أنجينا نوحاً ومن ركب السفينة معه ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ﴾ أي . السفينة أو الحادثة ﴿ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ يتعظون بها ويستدلون بها .

جوهرة: في قصة نوح وسفينته

اقرأ ما تقدم في سورة « هود » وفيه بيان أن الطوفان في القرآن جزئي لا كلي ، وهناك تقرأ المقام مفصلاً على مقتضى الكشف الحديث ، ولكن اطلعت بعد ذلك على تفصيل أوفى في كتب حديثة مختلفة ، فمن ذلك ما جاء في بعض المجلات العلمية بتاريخ يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٤٨ ــ ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٩ ، وهذا ملخصه .

يرى بعض العلماء اليوم أن قارة تسمى « ليموريا » كانت في الأوقيانوس الجنوبي وتتصل بآسيا من جهة وبأفريقيا من جهة أخرى ، وأن قارة أخرى تسمى « اتلنتس » كانت إزاء جبل طارق وكانت تسر أفريقيا وآسيا معاً ، ثم غطاها ماء الأوقيانوس فغرقت . وأن قارة أخرى كانت في الأوقيانوس الباسفيكي على بعد ألفي ميل وأربعمائة ميل غربي سواحل أمريكا الجنوبية وقد أغرقها الماء وذهبت كأمس الدابر .

فهذا طوفان أغرق قارات في أزمان قديمة لا يعيها التاريخ ، وهناك قصص للطوفان بعضها في التوراة وبعضها جاء في مجموعة سجلات « جلجميش » في النصوص البابلية وبعضها عن أهل الصين وبعضها عن أهل الهند ، أما قارة « ليموريا » فهذا ملخص ما جاء عنها في هذا المقال بذلك التاريخ وهذا نصه :

جغرافية العالم القديم
القارات الضائعة وكيف اختفت . الحيوانات الباقية والمنقرضة

تذهب إلى جزيرة « مدغشقر » بعثة علمية لدرس حيوانات هذه الجزيرة وأحافيرها ، ولتعليل بعض الظواهر البيولوجية الغريبة فيها ، ومن جملتها قلة الارتباط النسبي بين الحيوانات التي فيها والتي

يختلف بعضها عن بعض إلى حد مدهش، ومع أن هذه الجزيرة لا تبعد عن سواحل أفريقيا أكثر من ثلاثمائة ميل فإن بينها وبين حيوانات القارة الأفريقية بوناً شاسعاً، من ذلك أنها خلو من ذوات القوائم الأربعة الكبيرة الأجسام ما عدا بقر الماء «فرس البحر»، ولكنها موطن حيوانات كثيرة لم توجد في موضع آخر من العالم، وليس ذلك فقط بل إن أحافير الجزيرة تدل على أنها كانت في الأزمنة الغابرة موطن حيوانات وطيور وزحافات لا وجود لها إلا في الخرافات، ومن ذلك طير «ايبورنيس» ولعله أكبر الطيور التي حلقت في جو الكرة الأرضية، وكان يضع بيضاً هائل الحجم يبلغ طول محوره ثلاث عشرة بوصة وثخانتها عشر بوصات أي بحجم بطيخة كبيرة مستطيلة، وكان هذا الطير أكبر كثيراً من النعامة ويشبه طير «الموا» من طيور نيوزيلندا المنقرضة، ويزعم الكثيرون أن طير «ايبورنيس» المذكور هو طير الرخ الذي ورد ذكره في روايات «ألف ليلة وليلة»، وأن واضعي تلك الروايات نقلوا وصف الرخ عما سمعوه من العرب الذين ساحوا في أفريقيا ووصلوا إلى «مدغشقر» ورأوا طير «ايبورنيس» وفي مدغشقر طائفة من الزحافات الهائلة من فصيلة الضب أو العظاية، وكان فيها قديماً عظايات يبلغ طول كل منها ستين أو سبعين قدماً، وكان ذلك في الزمن الذي كانت فيه الزحافات سيدة جميع المخلوقات على الأرض، ومن الظواهر البيولوجية الغريبة أن مع قرب جزيرة مدغشقر من الساحل الأفريقي فإن حيواناتها تختلف عن حيوانات أفريقيا كل الاختلاف حالة كونها تشبه حيوانات آسيا مع بعد الشقة بينهما، وقد حاول بعضهم تعليل ذلك بقوله: «إنه كان في الحقب الغابرة قارة في الأوقيانوس الجنوبي تتصل بكلتا آسيا وأفريقيا، وقد أطلقوا عليها اسم «ليموريا» أي: بلاد الليمور وفيها نشأ هذا الحيوان، ثم انتقل إلى مدغشقر، وبتمادي الأحقاب غارت «ليموريا» في قاع الأوقيانوس وبقيت فصيلة الليمور في جزيرة «مدغشقر».

قارة اتلنتس
وقارة أخرى كانت في الأوقيانوس الباسفيكي

وعلى ذكر هذه القارة المزعومة نقول: إن كثيرين من الكتاب والمؤرخين يعتقدون أن جغرافية العالم القديم كانت تختلف عن جغرافية هذا الزمن، وأنه كان ثمة قارات وبلاد ضاعت، لأن مياه البحار طغت عليها، من ذلك قارة «اتلنتس»، وقد أشار إليها أفلاطون قديماً، وكان الأقدمون يقولون بوجودها وراء أعمدة هرقل «جبل طارق» ويزعمون أنها أكبر من آسيا وأفريقيا معاً، ولا يزال بعضهم يقول بوجودها قريباً حتى هذا اليوم، بل إن بعض علماء الجغرافيا يزعمون أنه كان في الأوقيانوس الباسفيكي أيضاً قارة غارت بطغيان البحر عليها، وهم يؤيدون زعمهم هذا بعدة براهين من جملتها وجود نقوش على بعض صخور جزيرة «يستر» وهي جزيرة من الأوقيانوس الباسيفيكي على بعد ألفين وأربعمائة ميل غربي سواحل أمريكا الجنوبية، وفي الواقع أن في هذه الجزيرة مئات من النقوش والتماثيل المتقنة الصنع ومعظمها تمثل رؤوساً بشرية لا يفوقها في دقة الصنع أجمل تماثيل اليونان القدماء، وفي تلك الجزيرة الصغيرة أيضاً دلائل كثيرة على حضارة بائدة، وأهالي هذه الجزيرة لا يجاوزون بضع مئات يتناقلون قصة الطوفان أباً عن جد، ومن المحتمل جداً أن تشير هذه القصة إلى طغيان مياه البسفيك على القارة المذكورة.

وإذا أنكرنا قصتي « اتلنتس » والقارة الباسفيكية الضائعة كان لابد لنا من الالتجاء إلى نظريات أخرى لتعليل بعض الظواهر البيولوجية غير المفهومة ، ومن جملة تلك النظريات ما يزعم بعض العلماء من أن القارات المعروفة في الوقت الحاضر هي عائمة على وجه المياه ، وأن قارتي أفريقيا وأمريكا الجنوبية كانتا متصلتين معاً في العصور الغابرة ، وفي الواقع أننا لو أمكننا زحزحة هاتين القارتين ووصلهما معاً لكان الاتصال تاماً ومتيناً من الوجه الطوغرافي ، ولو أمكننا أيضاً زحزحة « مدغشقر » والهند وأستراليا ووصلهما معاً لكان لنا منها قارة « ليموريا » التي سبقت الإشارة إليها ، ولحلت هذه النظرية كثيراً من المشاكل التي يصعب اليوم فهمها .

وأما ما جاء في التوراة فهذا نصه : « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض فحزن إنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه وقال : « امحوا عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان والبهائم والدبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم » . وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب فقال الرب لنوح : نهاية كل بشر أمامي لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم ، اصنع لنفسك فلكاً من خشب مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله ، فهأنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك ، من كل حي تدخل إلى الفلك اثنين لاستبقائها ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض ، فدخل نوح ومن معه الفلك وانفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، فكان الفلك يسير على وجه الماء ، وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك على جبال أراراط »

القصة البابلية والصينية والهندية

هذه هي القصة كما وردت في التوراة ، أما جبل أراراط فهو في الشمال الشرقي من أرمينيا فكان أعلى الجبال المعروفة في العالم اليهودي في ذلك العهد . قصة الطوفان هذه لا يمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفي ، والأرجح أن الطوفان الذي نشير إليه كان طوفاناً محلياً ، وإذا رجعنا إلى علوم الأقدمين نجد أن الطوفان قصصاً كثيرة أقربها إلى نص التوراة القصة البابلية كما وردت في مجموعة سجلات « جلجميش » فقد جاء فيها أن جلجميش ـ وهو من الجبابرة ـ زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت بالطوفان ، فأخبره سلفه بقصة بناء الفلك وهي القصة السومرية بعينها ، ويقال إنها أقدم قصة في هذا الموضوع ، وقد اقتبسها البابليون وعنهم أخذها اليهود لما كانوا في الأسر . ومن أشهر قصص الطوفان أيضاً القصة الصينية والقصة الهندية وكلتاهما تشير إلى طوفان محلي نشأ عن فيضان الأنهر وهطل الأمطار ، ولا شك أن القصة البابلية أيضاً نشأت عن فيضان دجلة والفرات وغمرها البلاد المحيطة بهما ، وفي بلاد « أور » شمالي العراق بعثة إنجليزية تنقب عن الآثار وتبحث عما يثبت قصة الطوفان ، وقد كانت « أور » منذ أربعة آلاف سنة مركز حضارة راقية ، والأرجح أن مدينة « أور » نفسها وهي مسقط رأس الخليل بلغت أوج ثروتها ورخائها سنة ٣٥٠٠ قبل التاريخ المسيحي وكان أهلها ماهرين في صناعة الأدوات المعدنية ولا سيما الذهبية والفضية ، وتقلبت على « أور » أزمنة مختلفة ، فبعد أن بلغت أوج حضارتها ثار الطمع في قلوب حسادها فغزوها ونهبوا معابدها وهاكلها وبعد ذلك التهمتها النيران ثم أعيد

بناؤها ثم أخربها الغزاة مرة أخرى ثم أعيد بناؤها إلى أن طغى عليها نهر الفرات فأغرقها وأهلك أهلها، ومنذ ذلك الحين أصبحت «أور» قفراً يباباً، ومن المحتمل جداً أن الطوفان الذي أهلكها هو الطوفان الوارد في قصة التوراة. ومما يجدر بالذكر أن بعثة الآثار التي تنقب اليوم في أنحاء المدينة قد استطاعت إزاحة التراب عن جانب كبير من خرائبها، فظهر أن بيوتها كانت مبنية على هندسة تكاد تكون حديثة، فقد كانت مبنية من الحجر والآجر «الطوب» ومعظمها ذو طبقتين ولكل منهما حوش أو فناء، كذلك كانت هندسة هذه المدينة في أيام إبراهيم الخليل، وكانت كما سبق القول مسقط رأسه وفيها نشأ وترعرع.

ويظهر أن جميع الأمم التي نشأت في وادي دجلة والفرات كانت تتناقل قصة الطوفان على وجوه شتى، وليس في ذلك ما يدهش إذا تذكرنا أن أولئك الناس كانوا يعيشون مهددين دائماً بخطر طوفان النهرين العظيمين، وقد كانت مخيلتهم تبتكر لهم دائماً قصة بطل نجا من الطوفان بأعجوبة إما لفضيلة فيه أو لسبب آخر، فـ«جلجميش» عند البابليين، و«نوح» عند اليهود، و«مان» عند الهنود و«ابنان» عند غيرهم وهلم جراً. انتهى ملخصاً مع تغيير يسير جداً لتسهيل الفهم.

أقول: اعلم أن ما تأتي به الكتب السماوية ينزل لكل أمة بحسب مزاجها وعقلها، وما جاء في التوراة يقبله اليهود، وما جاء في القرآن مقبول عندنا، أما البحث العام فذلك يعوزه دراسة علوم كثيرة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وعلم طبقات الأرض، وكما أن الإنسان ينظر الطعام ويشمه ويذوقه وقد يسمع حركته كما يفعل الناس إذا أرادوا معرفة الطبيخة أهي ناضجة أم لا، هكذا إذا زاولوا مسألة وجب بحثها من وجوه عدة، فانظر إلى مسألة الطوفان كيف تعددت رواياتها، ثم انظر إلى علم طبقات الأرض اليوم، ألا ترى أنهم وجدوا فحماً في الأقطار القطبية، وقد تقدم في هذا التفسير حتى إن بعض المهندسين يريد أن يصنع هناك محطة للطيارات لأجل إمدادها بالفحم من هناك، وبسبب الفحم يمكن تكوين الكهرباء. إن مسألة القطبين وأن فيهما الفحم هذا أمر مجمع عليه وهل يكون الفحم إلا في أرض حارة. إذن كانت هذه خط استواء ثم تغيرت الحال في أزمان مجهولة فصارت قطباً ولما صارت قطباً دفنت فيها غاباتها وحيواناتها وطمرت وبقيت إلى الآن ومن المسلم به أيضاً أن الأنهار وهي تجري من اليابسة إلى البحار تجرف معها مواد وتقذفها في البحر، وهذه المواد تتراكم جيلاً فجيلاً، ثم يأتي زمن تصير قارة جديدة، إذ يحصل هناك انقلاب عام فيصير البر بحراً والبحر براً بحادث فجائي عظيم، لأن الأرض ملتهبة ناراً في باطنها. وانظر ما جاء في كتاب «إخوان الصفا» تحت عنوان:

الأدوار والأكوار

إذ ذكر أن البر يصير بحراً والبحر يصير براً في أزمان، وعين لها نحو ٣٦ ألف سنة، وأن ذلك تبع تقدم الاعتدالين، ولكن أقول إن هذا ظن دليله ضعيف وإنما المعروف هو ما قدمته لك

إذن هذه الأرض تتقلب كما يتقلب الليل والنهار، وهذه القارات يوماً ما تذهب ويحل محلها قارات أخرى تخلق الآن في قاع البحر، وستظهر بزلزلة عظيمة، فقصة نوح ونحوها ما هي إلا فتح باب لهذه المفاجآت العظيمة التي أعرب عنها الله بقوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

ألا ترى رعاك الله أن البراكين اليوم ـ كما ستقرؤه في أول سورة «سبأ» عند قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [الآية: ٢] ـ تأتي لنا من باطن الأرض بمادة بركانية تكون أصلح للزرع من جميع التربة فوق الأرض، فكم للبراكين والزلازل من منافع، فإذا أتمت قارة عملها خسف بها الأرض هي وأهلها، وأظهر قارة أخرى أحسن منها. فالقارات والمدن والأمم أشبه بالأشخاص لكل أجل محدود لمنافع هو يعلمها ولا يعلمها سواه، وهلاك قارة أو أمة كهلاك فرد وحد لا فرق بين الفرد والأمة والقارة والمدينة. اهـ.

قصة إبراهيم عليه السلام

قال تعالى. ﴿ وَ ﴾ اذكر قصة ﴿ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أي: حين كمل عقله وتم نظره ﴿ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما أنتم عليه ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخير والشر وتميزانهما ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ أي: تصنعون أصناماً بأيديكم تسمونها آلهة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ فكيف تعبدونهم إذن ﴿ فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ فإنه المالك ﴿ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ ﴾ لأنه المنعم عليكم بالرزق، والشكر يستلزم العلم بما يجب الشكر عليه، والذي يشكر عليه كل ما في السماوات والأرض مما خلق الله فيجب النظر فيه ومعرفته كل على مقدار طاقته، وذلك هو قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت: ١٩] الخ، فذلك هو مفتاح الشكر الذي سيذكر بعد إتمام هذا المقام، وهو قوله: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ أي: تكذبوني ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما كان ضررهم على أنفسهم ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الذي يزول معه الشك فأما كونه يصدق ويتبع فليس عليه.

ثم أخذ يشرح مبادئ الشكر الذي هو إخلاص بالقلب لسائر الناس، وثناء باللسان على الله، وصرف كل نعمة فيما خلقت له، وتلك المبادئ هي المعرفة والعلم فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ من مادة ومن غيرها ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ كما بدأه لأن من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الإعادة أو ما ذكر من الأمرين ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لأنه إذا قال للشيء كن فيكون، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد أو يا إبراهيم ﴿ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال وسيأتي شرحه ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، ومن عرف النشأة الأولى عرف أن الأخرى أهون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ والممكنات كلها تتعلق بها قدرته ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ تعذيبه ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ رحمته على مقتضى درجته التي استحقها، ولا معنى للعدل إلا وضع كل شيء في موضعه ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تردون ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربكم عن أن يدرككم ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو التحصن في السماء أو القلاع الذاهبة فيها لأنه خلقكم ليربيكم ويديم عليكم دوائر النحس والسعد والعذاب والنعيم. كل ذلك لتمحيصكم وتربيتكم وتخليصكم من المادة ورجوعكم إلى عالم الأرواح، فتلاقوه إن استحققتم، وتردون إلى العذاب إن نقصت تربيتكم فأين تذهبون إذن ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فلا ولي يمنعكم ولا نصير ينصركم من عذابي ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ دلائله الدالة عليه عقلية ونقلية ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ بالبعث ﴿ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي ﴾ أي: يئسوا منها في الدنيا لأنهم ظنوا أن الله خلق هذه الأرواح فأحياها ثم أماتها بلا فائدة ولا حياة بعد الموت، وهذا عمل من لا رحمة عنده ولا رأفة كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[الأنعام ١٢] فجعل من موجبات الرحمة التي كتبها على نفسه أنه يجمعنا يوم القيامة، ويقول هنا: إن هؤلاء يئسوا من رحمة الله فهذه هي الرحمة حقاً، فأما خلق الناس ثم هدم بنيتهم هدماً تاماً وإعدام أرواحهم لا رجعة لها فهذا لا رحمة فيه، ولذلك تجد أكثر الآيات يقرن فيها ذكر الله بذكر اليوم الآخر، وقوله: ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: بكفرهم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم له ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ أي: قال الرؤساء ذلك ورضي به الأتباع فأسند إلى كلهم فقذفوه في النار ﴿ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ لصارت برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي. في إنجائه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ كحفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسير وإنشاء روض مكانها ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بها ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: اتخذتم أوثاناً سبب مودة بينكم فتكون «مودة بينكم» مفعولاً ثانياً بتقدير مضاف ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ يتناكر الأتباع والمتبوعون ويلعن بعضهم بعضاً شأن اللصوص وقطاع الطرق إذا وقعوا في قبضة القضاء ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ مانعين من العذاب ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى النار لم تحرقه ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ من قومي إذ أمرني بذلك فهاجر من قرية «كوثى» وهي من سواد الكوفة مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حران ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم. ويقال: إنه هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يغلب، وهو الذي يمنعني من أعدائي ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يأمرني إلا بمصلحة لي ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ يقال: إنه لم يبعث نبي بعد إبراهيم إلا من نسله ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ وهو الثناء الحسن، فكل أهل الأديان يحبونه ويصلون عليه والذرية الطيبة والأنبياء من نسله، هذا له في الدنيا ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي في زمرتهم مثل آدم ونوح وإدريس.

قصة لوط عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لم يفعلها أحد قبلكم وفسرها فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ وتتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال حتى انقطعت الطرق وكذلك تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن مكان الحرث ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ وذلك أنهم كانوا يحبقون فيه، وكانوا يستعملون الخذف والسخرية كما في حديث الترمذي، ومعنى الحبق: الضرط، ومعنى الخذف بالمعجمة رمي الحصاة من طرف الإصبع ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

في استقباح ذلك وفي دعوة النبوة ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بالبشارة بالولد والنافلة ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ قرية سدوم ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ بتماديهم في المعاصي وكفرهم بلوط ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ فكيف تهلكونها فيهلك مع الهالكين ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ الباقين في العذاب أو القرية ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم طاقته، كما يقال: ضاقت يده في مقابلة رحب ذرعه بكذا، إذا كان مطيقاً له، لأن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصير الذراع ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ أي: إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك، ونصب «أهل» بإضمار فعل ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ عذاباً منها ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً ﴾ وهي حكايتها المشهورة وآثار الديار الخربة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي: يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار. هذا واعلم أن الكلام على قرى قوم لوط وأين مقرها تقدم في المجلد الثالث عشر عند ذكر القصة في القرآن فارجع إليه إن شئت تجد هناك للكشف الحديث مجالاً واسعاً.

قصة شعيب عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ افعلوا ما ترجون به ثوابه ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة وقيل: صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ أي: في دورهم باركين على الركب ميتين.

قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ عَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ يا أهل مكة إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وهي المعاصي وعبادة غير الله ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ السوي ﴿ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستبصار ولم يعقلوا.

قصة موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَ ﴾ أهلكنا ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ أي: فائتين بل أدركهم أمر الله ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصا الصغار كما كانوا يرمونها بأصابعهم وهم يأتون في ناديهم المنكر ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ يعني ثمود ومدين ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ وهو قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ وهم قوم نوح وفرعون ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ تعرضوا للعذاب باستعداد نفوسهم له على مقتضى النظام الذي نظمناه في سر الخليقة. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾

لقد مضى الكلام على هذه الآية في ضمن الكلام على قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[الآية: ١٦٤] الخ في سورة «البقرة» بطريق الاستطراد فلنفصل الكلام عليها تفصيلاً الآن.

يقول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ١٩] الخ، ثم يقول: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ٢٠] وهذا أمر صريح يوجب علينا معاشر المسلمين التشمير والجد والطلب الحثيث في معرفة كيف بدأ الله الخلق. أمرنا الله بالسير في الأرض والسير قسمان: سير جسمي وسير عقلي، فالأول محتم على الجهلاء والتلاميذ، والثاني محتم على العلماء والحكماء، ولا يكون الثاني عادة إلا بعد الأول، ولا معنى للسير الثاني إلا الدراسة، فأما مجرد النظر الظاهري كنظر العامة ونظر البهائم فهذا ليس بنظر وليس بسير.

واعلم أيها الذكي أني في مبدأ أمري كنت أقول في نفسي: هذا العالم إما منظم وإما مبعثر لا نظام فيه ولا ترتيب، فإن كان الأول فله إله وإن كان الثاني فلا إله له، لأنها عبارة عن اجتماع وافتراق بلا ضابط ولا رابط ولا نظام، ولقد ذكرت هذه القصة في كتابي «التاج المرصع» وقلت ما معناه: «إني توجهت إلى مبدع هذا الوجود وطلبت منه أن يوقفني على نظامه، ولطالما سألته سبحانه في الخلوات ودعوته في الحقول وعلى شطوط الأنهار وبين الأشجار وفي الليالي والأسحار أن يفهمني ذلك حتى يكون اليقين داخل نفسي لا بمؤثر خارجي، وأصبحت بهذه الفكرة مغرماً وعليها معولاً، وكنت إذا نظرت الطيور في وكناتها وهن يغردن طربات ويطرن فرحات ويربين أولادهن صابرات، أقول: إذا كان صانع هذا العالم قد أعد للطير عدته وأبان له محجته أفلا يكون لهذا الإنسان سبيل إلى ما يبتغيه وطريق إلى ما له حاجة فيه، وكان ذلك مبدأ فكري في هذه الدنيا، وكنت إذا عثرت على شاطئ النهر على بعض حشرات ذات خطوط منظمات وذات زوايا مهندسة وأشكال بهجة أقول: يا ليتني أرى هذه الدنيا كلها على هذا النمط فأقر بإله نظمها وحكيم أبدعها، ولكني أرى الجبل والقفر والبر والبحر والشجر والحجر والأرض والسماء لا نظام فيها معقول ولا عمل فيها محسوب.

أليست هذه المرأة تضع حب الذرة في الأرض التي شقها المحراث وزوجها واضع يده على قائمة ذلك المحراث يسوق دابتين فأين النظام؟ بهائم ليست مستقيمات الرؤوس إلى أعلى وإنسان رأسه مشرئب إلى العلا وماء يجري في الحقول وحب يبذر في الطين، أمور غير مضبوطة وأحوال ليس لها قانون ولا نظام مسنون، ثم توجهت وتوجهت ودعوت ودعوت وقلت: لو أن صانع هذا الكون علمني نظامه لأودعت ذلك بطون الكتب وتركته لمن بعدي من الحائرين وخلفته للأذكياء المفكرين كيلا يشكوا كما شككت ولا يهنوا كما وهنت ولا يضلوا كما ضللت، ثم صنفت كتباً مختلفة المقاصد والحمد لله إذ وفقني لهذا التفسير.

إن هذا غاية مطلبي من هذه الحياة ونهاية مأربي من هذه الدنيا، فهل تحب أن أريك جمال الوجود والنظام المشهود لتعرف قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ ﴾[العنكبوت: ٢٠]، فانظر ما سأضعه بين يديك واعجب من حكم عالية وجواهر غالية ووجوه باسمة وعيون ساحرة وشموس ساطعة وأنوار باهرة فهاك مبادئ الوجود وأوائل العالم المشهود.

ولنبدأ بالعوالم العلوية ونتبعه بالعوالم السفلية:

(١) فترى أولاً نظام الكواكب.

(٢) ثم نظام العوالم الأربعة: الإنسان والحيوان والنبات والمعادن.

(٣) ثم نظام العناصر.

(٤) ثم بيان أن الإنسان خاصة دعي إلى معرفتها.

(٥) وبيان ذلك في أدعية الصلاة نفسها، وكيف كان المسلم في صلاته وأدعيته يكرر صباحاً ومساء نفس هذه المبادئ ويتلوها وهو غافل عن معانيها، وهو بتلك التلاوة وتلك الأدعية مأمور أن يبحث في هذا العالم وكيف بدأ الله الخلق.

(٦) ثم تبيان أن الله ما ترك الناس سدى، بل أعطى الجهلاء ظلال هذا النظام وألقاه على ألسنتهم وفي أعمالهم بصورة مصغرة.

ومتى قرأت هذه الصور اتضح لك العالم ورأيته كقلادة الحسناء، أو كمنزل نظمه بانيه وأحكم نظامه، أو كحديقة غناء رتبت أشجارها وانتظمت مزارعها، أو كمدينة أحكمت طرقها وبيوتها، أو كبيوت الشطرنج انتظمت طولاً وعرضاً وفيها أمهر اللاعبين وأذكى الحاسبين.

(١) نظام السماوات

سأتلو عليك من نبأ السماوات ما يناسب المقام ولأوضحه على قدر الإمكان، لتعرف كيف وضعت الكواكب وضعاً محكماً بحيث كان بينها مسافات منتظمات، وكان يكفيني أن أحيلك على ما كتبته لك في سورة «البقرة» وغيرها مثل «الأنعام»، ولكن سأعيد هنا ما فيه الكفاية.

إن في علم الحساب متوالية هندسية عددية. فالأولى مثل قولك (١، ٢، ٤، ٨، ١٦) وهكذا و(٣، ٦، ١٢، ٢٤، ٤٨) الخ، والثانية مثل: (٢، ٤، ٦، ٨، ١٠) الخ، فانظر كيف وضع الله الكواكب وجعل نظامها بالنسبة للشمس على الطريقة الأولى، بحيث إذا فرضنا بعد الزهرة (٣) يكون بعد الأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مهشم بقيت آثاره تجري كما كان يجري، وقد كشفه العلماء (٢٤) والمشتري (٤٨) وزحل (٩٦) وأورانوس (١٩٢) ونبتون (٣٨٤).

هذا هو القانون الذي استخرجه العلماء في العصر الحاضر لأبعاد الكواكب السيارة عن الشمس، بحيث يكون بعد كل كوكب ضعف بعد الكوكب الذي قبله، فكأن هذه الكواكب مصابيح وضعها صاحب البيت على أوضاع لا خلل فيها ناطقة بلسان الحال ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩]. أليس من السار اللذيذ أني حييت في هذه الدنيا حتى كتبت هذا، اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة

أيها الذكي أنا لا أريد في هذا المقام كثرة العلم لأن المقام يقتضي الأمثلة السهلة المقبولة فكفى ما ذكرته في الفلك، وأما تحقيق تلك الأعداد فارجع إليه في نفس هذا التفسير في سورة «البقرة» و«الأنعام» فإن ما ذكرته إجمال وهنالك تفصيل ومساحة بآلاف الآلاف من الأميال.

(٢) نظام الإنسان والحيوان والنبات والمعادن

هاأنت ذا رأيت نظام الكواكب من حيث وضعها، فهل نظام هذه المواليد على الأرض كنظام الكوكب في الأبعاد؟ كلا. وإنما نظامها بحال مخالفة لتلك. إن هذه المواليد سلسلة واحدة متصل أعلاها بأدناها: (١) التراب. (٢) الجص. الزاج. الشب. أدنى المعادن. (٣) الذهب. الياقوت والجواهر النفيسة كلها أعلى المعادن. (٤) خضراء الدمن والكمأة وهي أدنى النباتات. (٥) النخل والكشوثى وهما من أعلى النبات. (٦) أنبوبة تنبت على الصخور في سواحل البحار فيها دودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة الحلزونية هذا أدنى الحيوان. (٧) القرد. الحصان. الفيل. هذه متصلة بعالم الإنسان. (٨) أدنى الإنسان سكان أطراف المعمورة لا معرفة لهم ولا علم. (٩) أعلاه الأنبياء فالحكماء. (١٠) الملائكة. (١١) الله فوق الجميع.

هذه هي السلسلة التي شرحها القدماء ولقد شرحتها مراراً في هذا التفسير بطرق شتى، فترى الجص والشب والزاج معادن أقرب إلى التراب ليست شريفة كالذهب ولا الياقوت، ولا تزال المعادن في ارتقاء حتى تصل إلى الفضة التي هي أرقى من النحاس ثم الذهب، فهذا الأعلى من المعادن يليه أدنى النبات وهو اللاصق بالأرض، ينبت صباحاً ويذبل ضحى، يراه الناس كل يوم في الغدوات أيام الربيع ثم ينتهي ضحى، وهكذا كل يوم، ويرتقي النبات إلى أن يصل إلى النخل والكشوثى، أما النخل فقد امتاز الذكر فيه عن الأنثى كأنه حيوان، وأما الكشوثى فهو نبات يعيش على غيره من النباتات ويمتص منه فكأنه حيوان، فالنخل قارب الحيوان في انفصال الذكر عن الأنثى، والكشوثى في استقلاله وعيشه عيشة حيوانية على النبات لا على التراب والماء والعناصر الأرضية، ثم يلي ذلك دودة الحلزون التي تكون على شاطئ النهر والبحر إذ لها حاسة اللمس وليس لها حاسة غيرها، فهي قريبة من النبات. إنه يحس بالضوء فيميل إليه بإحساس ضعيف جداً ويرفع غصنه إلى أعلى ويمد فروعه في الأرض نحو المواضع الندية ويتجافى عن المواضع اليابسة، فإذن بين النبات وبين أدنى الحيوان مناسبة، والحيوان يرتقي من الأدنى إلى الأعلى وهو الإنسان، وهو درجات من أدنى إلى أعلى وأعلاه الأنبياء ومن نالوا حكمة وعلماً، وبعد هؤلاء عالم الملائكة، وفوق ذلك الله فهو منزه عن هذه المادة والمخلوقات. فهنا إذن نسبة كاملة والعالم سلسلة منتظمة.

(٣) النظر في المعادن

إن المعادن كثيرة منها الإسفيذاج والأسرب والإسفنديري والتكار والجص والتوتياء والدر والذهب والرصاص والرماد والزاج والزنجار والزئبق والزرنيخ والزبرجد والزعفر والزمرد والشب والعقيق والعنبر والفضة والفيروزج والقير والكبريت والكحل وملح الطعام والمرجان والمغناطيس والموميا والنورة والنوشادر والنحاس والنفط والياقوت. قال العلماء: إن من المعدن الألماس وهو لا يحتك بجسم من الأحجار المعدنية إلا هشمه إلا جنساً من الأسرب فإنه يؤثر فيه ويكسره ويفتته مع

رخاوته ولينه ونتن رائحته». وما مثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهين في هذا الجوهر الشريف إلا كمثل البقة تسلطت على الفيل القوي فآذته، فالألماس قام في المعادن مقام الحديد في الخشب، والياقوت مسلط على أكثر المعادن. ثم إن الماس يتكون في معدن الياقوت، وتخرجه الرياح والسيول من معدنه وهو ضربان: أبيض كالبلور ويسمى البلوري، وأبيض يخالط بياضه صفرة، ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه، وإذا وضع على الحديد ودق بالمطرقة لم ينكسر وغاص في وجه السندان والمطرقة والياقوت لا تعمل فيه المبارد لشدة صلابته إلا الألماس والسباذج بالحك في الماء. والمغناطيس يجذب الحديد، فانظر كيف كان الياقوت يعمل في أكثر المعادن وهو مسلط عليها، والألماس مسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن، والأسرب الذي هو جنس من الرصاص ولكنه غير ناضج مسلط على الألماس المسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن. ثم إن هذه المعادن تجمع من أقطار المسكونة في أماكن مختلفة ومع ذلك نراها متحدة الوجهة بحيث تتحد على المنافع العامة، ولها نظام: فمنها الجاذب ومنها المجذوب، ومنها الحاكم على الجميع ومنها ما هو تحته. وهذا الحاكم وهو الألماس له مؤدب من رعيته وهو الأسرب وكأنه قاض يحكم على الملك، وإذا رأينا العلماء والحكام في الناس على مقدار الحاجة هكذا نرى المعادن لا يحكم فيها بالقطع إلا قليل على قدر الحاجة، ونرى ما كان منها نافعاً في أكثر الأحوال يكثر كالجص والنوشادر، وما كان متوسط النفع يكون متوسط الوجود كالنحاس والرصاص، وما كان للزينة أو للتعامل كان وجوده أقل كالذهب، وما كان لمجرد الزينة والجمال ندر وجوده كالألماس والياقوت. فهذا نظام يشبه نظام الكواكب فيما تقدم، فتلك نظمت أوضاعها، وكالمواليد الثلاثة فإنها متسق نظامها متقارب وضعها، وهذه أيضاً رتبت على مقدار الحاجة إليها وهي وإن دخلت فيما قبلها أردت أن أفصل الكلام فيها تفصيلاً توطئة لما سيأتي في القسم الرابع، وهي:

(٤) العناصر عند علماء العصر الحاضر

إني أحمد الله إذ وصلت إلى هذا المقام، فأريد أن أطلعك على نظام بديع في العناصر التي عرفها علماء العصر الحاضر وهو فوق السبعين عداً. قد كان القدماء يقولون: إن العناصر (٤)، وهي: الماء والتراب والنار والهواء، ولكن علماء العصر حللوا هذه فأصبحت فوق السبعين وسأوضح بعضها، وليس المقام مقام علم العناصر ولا مقام تحليلها، وإنما المقام مقام تحليل وحساب.

إن هذا الأمر أعجب ما رأيت في العلم، ولكني لا أقدر أن أشرحه كما يجب. إن معرفة الدقة في الحساب والنظام بين العناصر والنسب بينها لا يعرفها إلا أكابر العلماء في هذا الفن، وهم لم يعرفوها إلا بعد ما عرفوا الخواص الطبيعية والكيميائية، وبعد تلك الخواص يعرفون النسبة والجمال فكيف يمكن أن نفهم ذلك ونحن في تفسير القرآن ونخرج عن جمال موضوعنا إلى مجاهل مقفرة وطرق يضل فيها السارون

أقول: إن الله يضرب الأمثال للناس، فلأقدم لك ضرب مثل يشرح صدرك وتعرف به هذا المقام الجميل: تصور رجلاً مثرياً عنده نحو ثمانين رجلاً يزرعون في حقوله فأقبل عليه علماء بلاده ضيوفاً فأحب أن يريهم عجيبة، فقال: إن هؤلاء الرجال إذا أنا أوقفتهم صفوفاً في أماكن معينة من هذه الأرض بحيث يتكون منهم صفوف طولية وصفوف عرضية؛ فإن كل رجل أرتبه مع ما بعده بحسب

الوزن ، فكل رجل يزيد عما قبله وقيتين في الصف الأول ، وهكذا الصف الثاني والثالث إلى الصف الرابع عشر ، وذلك من اليمين إلى الشمال بحيث يكون آخر واحد أكثر من أول واحد بعدد الرجال مرتين من الوقيات ، وهنا يكون العجب العجاب تجد كل واحد من كل صف أفقي أعني من اليمين إلى اليسار أكثر مما قبله وقيتين وأقل مما بعده وقيتين كما قدمنا إجمالاً ، وأيضاً يكون هو نفسه بالنسبة لمن هو فوقه أقل (١٦) وقية ، وبالنسبة لمن تحته أكبر (١٦) وقية في الخط الرأسي ، ومع هذا كله تجد كل صف أفقي قد اتحدت أفراده في ثمانية أشياء كالعرض والطول وطول الشعر بحسب الطبيعة ومقدار ما يأكلون بالوزن ومقدار ما يشربون كذلك ، والمرض يكون في وقت واحد والفرح والحزن كذلك لا يختلفون البتة والنوم في وقت واحد . هذا من جهة الصف الأفقي ، أما من جهة الصف الرأسي فإن الرجل مع من خلفه ومن أمامه يتفقون في الصفات الباطنة ، فيعرف الصف الواحد علوماً متفقة ، فمتى عرف واحد منهم علم النحو والصرف والفقه والتفسير والشعر والعروض والأدب وعلم الموسيقى تجد الصف كله يعرف تلك العلوم . إذن لكل واحد خصال يشترك فيها مع الصف الأفقي وخصال يشترك فيها مع الصف الرأسي ، وإذا مات واحد من هؤلاء فإن صفاته معلومة ، لأن صفاته الجسمية بالنسبة للخط الأفقي ؛ وصفاته العقلية بالنسبة للخط الرأسي ؛ مفهومة معلومة ، فيمكننا أن نعرف صفاته ، ونوقن بأننا نجد في قريتنا أطفالاً يولدون بهذه الصفات ، فلو مات ثلاثة من صفوف مختلفة فإننا نوقن أنه سيولد أطفال يحلون محل الذين ماتوا بشرط أن كل طفل يخلق متصفاً بتلك الصفات المعروفة عندنا ويحل محل من مات بصفاته التي لا خلل فيها . ولقد مات عشرون رجلاً وصفاتهم معروفة ، وهانحن أولاء نرتقب المولودين حديثاً ونضع كل مولود في مرتبته ومتى كبر رأيناه بهذه الصفات في الأماكن الخالية . هذا هو المثل الذي أردت ضربه ليقرب لنا موضوع النظام في العناصر ، فصاحب الضيعة جعل رقعة من أرضها وقسمها مربعات وجعل المربعات صفوفاً منتظمات ، وأوقف كل رجل في مكان مرتبين بترتيب الوزن من اليمين إلى اليسار ، وهذا الترتيب بعده تظهر خواص عجيبة ، حتى إن كل رجل يشارك صفة الأفقي في صفات نحو ثمانية ، وهكذا هو مع من أمامه ومن خلفه تكون له صفات أخرى خلقية ، وكلما مات واحد يولد آخر ويكون له نفس تلك الصفات ، وإذا مات منهم عدد جاء بدله ، ويمكنهم أن يصفوا كل من يخلق قبل وجوده . فإذا رأينا وجوداً على هذا النمط كان في غاية النظام . وإذا تصورنا أن هنا موجودات على هذه النسبة كما ستراه الآن في العناصر فإن العقل يدهش لذلك أشد الدهش ، وتصبح هذه العناصر في أوزانها وأوصافها أشبه بالجدول الآتي :

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

المخمس

فإذا صعب عليك التمثيل بالرجال في الضيعة فيما قدمناه فانظر هذا الجدول فهو يقرب لك المقام . فكل صف من صفوفه الرأسية وصفوفه الأفقية وهكذا القطران عدد (٦٥) ، فاجمع أي صف تجده على هذا النمط ، وهذه الأعداد من (١) إلى (٢٥) وضعت على هذا النظام فكان هذا الاتحاد في الجمع .

إذا عرفت هذا فقس عليه نظام العناصر الآتي ولكن هذا تقريبي ، إذ نظام العناصر الآتي يكون نسبة كل عنصر إلى صفه الأفقي غير نسبته إلى صفه الرأسي كما رأيت ، وأيضاً الصفات هناك كثيرة

ولكنها هنا في الجدول ليست متعددة، ولقد أطلت ليسهل عليك ما سأذكره. انظر الجدول الآتي

الصفوف أو الخطوط الرأسية

الصفوف أو الخطوط الأفقية

الإيدروجين ١,٧										
هليوم ٣,٩٩	ليثوم ٦,٩٤	جليتوم ٩,١	بورون ١١	كربون ١٢	أزوت ١٤	أكسوجين ١٦	فلور ١٩			
نيون ٢١	صوديوم ٢٣	مغنيسيوم ٢٤,٣٢	ألومنيوم ٢٧,١	سليكون ٢٨,٣	فوسفور ٣١	كبريت ٣٢,٠٧	كلور ٣٥,٤٦			
أرجون ٣٦,٨٨	بوتاسيوم ٣٩,١	كالسيوم ٤٠,٠٩	اسكانديوم ٤٤,١	تيتان ٤٨,١	فاناديوم ٥١,٠٦	كروم ٥٢	مانجنيز ٥٤,٥٣	حديد ٥٥,٨٥	كوبلت ٥٨,٩٧	نيكل ٥٨,٦٨
	النحاس ٦٣,٥٧	خارصين ٦٥,٣٧	جاليوم ٦٩,٩	جرامانيوم ٧٢,٥	زرنيخ ٧٤,٩٦	سيلنوم ٧٩,٢	بروم ٧,٩٢			
كريبتون ٨٢,٩	روبيديوم ٨٥,٢٥	استرانتيوم ٨٧,١٣	ايتريوم ٨٩	زركنيوم ٩٠,٦	نيوبيوم ٩٣,٥	موكدين ٩٦		رتينوم ١٠١,٧	روديوم ١٠٢,٥	بلاديوم ١٠٦,٧
	فضة ١٠٧,٨٨	كدميوم ١١٢,٤	انديوم ١١٤,٨	قصدير ١١٩	انتيمون ١٢٠,٢	تللوريوم ١٢٧,٥	يود ١٢٦,٩٢			
زينون ١٣٠,٢	سيزيوم ١٣٢,٨١	باريوم ١٣٧,٢٧	انتال ١٣٨,٩	سيريوم ١٤٠,٣	... ١٤٤	...	سماريوم ١٥٠,٣			
				اربيوم ١٦٦						
			اتيربيوم ١٧٢		تانتال ١٨١	تونجستن ١٨٤		أوسيميوم ١٩٠,٩	ابريديوم ١٩٣,١	بلاتين ١٩٥,٢
	ذهب ١٩٧,٢	زئبق ٢٠٠,٦	ثاليوم ٢٠٤	رصاص ٢٠٧	بزموت ٢٠٨					
		أوديوم ٢٢٦,٤		ثوريوم ٢٣٢,٤		أورانيوم ٢٣٨,٥				

هاهنا آن أن أشرح لك جدول العناصر السابق. أشرحه لك لتعجب من عجائب هذه الدنيا البديعة الجميلة. ألست ترى أن الإيدروجين وحده يقاس عليه كما رأيته فوق الجدول، وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريباً، وهكذا الليثيوم وجليتيوم وبورون وكربون وآزوت وأكسوجين، فهذه مع الإيدروجين ثمانية كان وزن آخرها وهو الأكسوجين (١٦)، فكان لكل واحد اثنان في الجملة وإن اختلف بعض أفراده، ونجد أن وزن ذرة الكبريت (٣٢) وكسر وهي تمام الثمانية الثانية، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان، ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف، فإننا نجد أن الليثيوم في الصف الرأسي (٦,٩٤) والصوديوم تحته (٢٣) والفرق بينهما (١٦)، ثم إن البوتاسيوم تحته (١,٣٩) فالفرق بينهما (١٦) فكان لكل واحد اثنان في الجملة وإن اختلف بعض أفرادها ونجد أن وزن ذرة الكبريت (٣٢) وكسر وهي تمام الثمانية الثانية، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف، فإننا نجد أن الليثيوم في الصف الرأسي (٦,٩٤) والصوديوم تحته (٢٣) والفرق بينهما (١٦)، ثم إن البوتاسيوم تحته (١,٣٩) فالفرق بينهما (١٦).

ألست أيها الذكي تتعجب من هذا النظام البديع، كيف رتبت العناصر اثنين اثنين عند وزنها بمعنى أن الإيدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد (٢، ٢، ٢) إلى آخرها، ثم وجد بينها تناسب في الخطوط الرأسية، إذن هي تفاوتت باثنين أفقياً وتفاوتت رأسياً بمضاعف اثنين وهو (١٦) وهو العدد المسمى بروح الزوج، الذي هو عدد الشطرنج المعروف، وكأن هذه رقعة شطرنج والله وضع العناصر فيها ورتبها ليرينا كيف بدأ الخلق بنظام، وهل كان يدور بخلدك قبل هذا أن هذا العالم الذي خلقنا فيه قد جعلت أصوله التي يحلل إليها الإنسان والحيوان والنبات بينها تناسب في أوزانها كتناسب مسألة الشطرنج، إذ أن الملك الهندي لما اخترع الفيلسوف الشطرنج طلب منه أن يتمنى شيئاً ليكون كالمكافأة فقال: أعطني قمحاً بحيث لو جعل في البيت الأول من الأربعة والستين بيتاً حبة يكون في الثاني (٢) والثالث (٤) وفي الرابع (٨) إلى آخره، فلما حسبوه لم يكفه القمح الذي في الدنيا مئات السنين، وقد كتبتها في كتابي «نظام العالم والأمم» وتقدم في سورة «مريم». هذا نظام العناصر حسابياً.

نظام العناصر الطبيعي والكيميائي

إنك ترى أن كل صف رأسي تشترك أفراده في الخواص الطبيعية:

(١) كاللون. (٢) والطعم. (٣) والرائحة. (٤) والذوبان. (٥) والانصهار. (٦) والغليان. (٧) والحرارة النوعية. (٨) والكثافة.

فأما الصفوف الأفقية كالهليوم مع الليثيوم فإنها تشترك في الصفات الكيميائية مثل:

(١) الاحتراق وكونه فلزاً أو غير فلز. (٢) وهل يتفاعل مع الأودروجين. (٣) والوزن الذري. (٤) والوزن المكافئ بالنسبة للأودروجين، ومعنى ذلك أن يقال: هذا العنصر إذا حل محل الأودروجين في التفاعل مع الأكسوجين مثلاً فكم درهماً تقوم مقام الإيدروجين فتطرد الإيدروجين وتحل محله. (٦) ثم مع أي عنصر يركب. (٧) وخواص المركبات وتركيبها. (٨) وتأثيره في الأحماض، مثال ذلك

الألومنيوم ، تأمل تجد أن له نسبة عددية إلى ما قبله وما بعده ، ونسبة هندسية إلى ما فوقه وما تحته ، فهاهنا اجتمعت النسبة العددية والنسبة الهندسية ، وهذا هو عين الموسيقى والنغمات و الشعر ، فهذا العالم كله موسيقى وشعر ونظم ، وتجده يشترك في خواصه الطبيعية المذكورة مع ما فوقه وهو البورون ، وما تحته وهو الكليديوم ، وخواصه الكيميائية يشترك فيها مع ما قبله في الخط الأفقي وهو المغنيسيوم وما بعده فيه وهو السليكون ، فإذن تكون الصفات (١٨) صفة منها اثنتان عدديتان و(١٦) طبيعية وكيميائية .

معجزات العلم في هذا الجدول،وعجائب القرآن

وفهم قوله تعالى:﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد:٨]

وقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران:١٩٩]،وهو كله معنى قوله:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[العنكبوت:٢٠]

إذن يسهل عليك أيها الذكي أن تفهم كيف أخبر « منديليف الروسي » سنة ١٨٦٩ مخترع هذا الجدول بما سيحدث ، وهو أن الطبيعة تحتوي على معدن جاليوم وجرمانيوم ومعدن آخر ، وعيّن في هذا الجدول محلها الذي رأيته ، وذكر الخواص الطبيعية والكيميائية ونسبها الحسابية التي هي من الصفات الكيميائية أيضاً .

ثم جاء العلماء بعده فكشفوا هذه المعادن الثلاثة على وزان ما قرر هو ، فتأمل وتعجب ، وعليه سيكشف الناس كل عنصر وضع في مربعه شرطة سوداء أو نقط في هذا الجدول ، وقد عينوا مواضعها وخواصها كما فعل « منديليف » سنة ١٨٦٩ . فهاهنا أحد وعشرون عنصراً قد عينها الناس متربصين كشفها في الزمن المستقبل ، والعناصر التي كشفت إلى الآن (٨٦) والباقي المنتظر (٣٤) تقريباً فتكون العناصر كلها (١٢٠) .

ولعمري أي فرق إذن بين نظام الكواكب ونظام العناصر؟ فهاهنا « منديليف الروسي » أخبر بعناصر قبل وجودها وأبان أوصافها فكانت كما ذكرنا ، وكذلك في علم الفلك فإنهم كشفوا أيضاً أن بعد كل كوكب سيار مضاعف لبعد ما قبله عن الشمس ، وبهذه الطريقة قالوا : إن بين المريخ والمشتري فراغاً كان يجب أن يكون فيه سيار في المسافة (٢٤) لئلا تختل النسبة المحفوظة ، فانظر الجدول في سورة « البقرة » وقد ذكرناه في هذا المقال إجمالاً قريباً ، وقد كشف العلماء كواكب كثيرة في نفس ذلك المكان الذي عينه العلماء وهي عبارة عن قطع صغيرة من ذلك الكوكب الذي كان في ذلك البعد ، ثم جاء أجله وقامت قيامته فصار هشيماً ، وهاهي الكواكب الصغيرة التي انشقت منه تدور حول الشمس ولكن لا يعرفها إلا علماء الرصد ، ومن أجزائه سيريس .

الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها

لقد عرفت كيف كانت العناصر منظمة تنظيماً بديعاً بهيجاً ، وهذا النظم فيها أبدع وأبهج من نظام الجدول المخمس الذي رأيته آنفاً ، وإني أحمد الله عز وجل إذ كنت أيام التعلم أبحث في هذا العالم عن نظامه ، وقد اطلعت على أوفاق كذلك الوفق المخمس ، فكنت أقول : يا ليت شعري إن الله

كان يقدر أن يجعل العالم منظماً كنظام هذا الجدول، إذن يكون هذا العالم بديعاً ويستدل الإنسان به على ربه. أما الآن فإني أقول: إن هذا الترتيب أعجب وأبدع من ذلك الجدول الذي يعجب منه المبتدئون، ما كان ليخطر ببالي أن يكون هذا العالم على هذا النظام، وما كان يخيل لي أنه حق كما رأيت الآن، يا عجباً كل العجب كواكب منظمة أبعادها، حيوانات ونباتات ومعادن مسلسلة صفاتها منظمة مثالية، عناصر مرصعة مرصوفة محسوبة منظومة، هذا هو الشعر هذا هو النظم، هذه هي القصائد، هذه هي الأغاني. لا، بل هذه هي السعادة والنعمة وبهجة جنان الخلد.

إن أهل الجنة إذا لم يتعلموا يودون لو يعرفون هذا معرفة أجلّ من معرفتنا، جلّ الله، ما أبدع هذه الجواهر وأقرها للنواظر وأسرها للخواطر وأشرحها لصدور الأكابر.

نظام النفوس الإنسانية والملائكة

إن هذه الجواهر عجائب أخرى. ألا ترى إلى الذهب والحديد والرصاص وأمثالها كيف نظمت كما قدمناه في وجودها، بحيث تكثر النافعة للعموم وتقل غيرها كما شرحناه في الكلام على المعادن. ألم يقل الذهب لأن فائدته يجب أن يكون هو على مقتضاها. ألم يكن الروديوم الذي قد كشف حديثاً قد قل وجوده جداً جداً، بحيث أن الذي كشف منه لا يصل إلاّ إلى دراهم معدودة، ألم تر أن هذه القلة تناسبه حتماً، لماذا؟ لأنه هو الحاكم على المعادن. انظر كيف كان الألماس فيما قدمنا يحكم على المعادن ويسلط عليها ويكسرها، أما هو فلا يحكم عليه إلا الأسرب كما علمت، فأما هنا فإن الروديوم تسلط أشعته على بعض المعادن فيحيلها إلى البعض الآخر، حتى أصبح الناس يرون أن العناصر من أصل واحد بسبب هذا التأثير. ألست ترى أن هذه الأشعة قد أثرت في العلم تأثيراً كبيراً. ألست ترى أن قلة هذا المعدن لا بد منها، ولو كثر لأحدث تغييراً في عالمنا الأرضي. ألست ترى أن الذهب كالحكماء، والنحاس والحديد والأكسوجين والأودروجين وغيرها كبقية الناس. أولست ترى أن هذا المقام هو الذي شرحه أفلاطون في جمهوريته، إذ جعل الناس قسماً كالذهب، وقسماً كالفضة، وقسماً كبقية المعادن، وهم الحكام والجيوش وبقية الأمة. أوَلست ترى معي أن الأنبياء أشبه بالروديوم. أوَلست ترى أن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام». أوَلست ترى معي أن هذا النظام في العناصر يخيل للإنسان أن هناك نظاماً أدق منه في عالم الأرواح الإنسانية، وأنها ربما كان بينها نظام كهذا النظام أو أدق، بحيث لو بحث الناس في عقولهم المختلفة لوجدوا هناك نظماً تتفق وتختلف بنظام، بحيث تقوم تلك القوى الكامنة بحاجة البشر، أوَلست ترى أن الناس يجهلون نظام عقولهم، وأنهم لا يزالون أشقياء حتى يعرفوا نظام عقولهم. أوَلست ترى أن نظام عقولهم يكون أدق من حيث نسبه من نظام الذرات، لأن الأرواح أرقى من المادة، والأرقى تكون فيه النسب أدق. أوَلست ترى أن الناس سيبحثون عن هذه الغرائز في طباعهم؟ ولكني لا أدري هل ينالونها في المستقبل على هذه الأرض، أم ذلك مؤجل ليعرفوه بعد موتهم في العوالم التي سيمرون بها في عوالم البرزخ، وهناك يدرسون أنفسهم دراسة أدق من دراسة هذا الجدول. ألست ترى أن هذا يناسب قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات: ١٦٤]، وإذا كان هذا المقام المعلوم بالنسبة للذرات عجيباً؛ فما بالك بالمقام المعلوم للملائكة؟ أوَليس هذا كله يناسب نظام

الشمس والكواكب في شروقها وغروبها لأن لها جداول لا خلل فيها . يا الله عجبت من صنعك وإبداعك ، وفهمنا على قدر طاقتنا قولك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠] ، هذا هو بدء الخلق وهو عجيب جدّ عجيب .

اللطيفة الخامسة

في أن حاجة الناس دفعتهم إلى هذه العلوم

أيها الذكي هاأنت ذا اطلعت على نظام هذه العوالم وعلى بدء الخلق ، ورأيت كيف حض عليه القرآن . أفلا تنظر معي كيف اتفق الشرع والحاجة . وبعبارة أخرى : انظر كيف أمر الله بأن تعرف كيف بدأ الخلق ، ولم يكتف بذلك بل أحوج الإنسان وحكم عليه أن يبحث في ذلك كله لأجل أموره المعاشية . انظر كيف ترى العالم الروسي يبحث عن نسبة العناصر وهو لم يبحث عنها إلا وهو مجد في طلب علوم الدنيا لأجل الحياة الحاضرة ، والله يقول لنا أيضاً انظروا ، إيه ، ما أجهل الإنسان ، ما أجهل أمة الإسلام ، أبعد هذا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم تنامون ، أمركم ربكم ودعت الحاجة إلى معرفة حقائق الدنيا وأنتم نائمون ، ألستم أنتم الذين وعدتم وأمرتم أن تكونوا خير أمة أخرجت للناس وأن تكونوا رحمة للعالمين وتخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، أأنتم ورثة السلف الصالح . كلا . كلا . والله أنتم ورثتهم ولكن في تحمل الشريعة ، وستصيرون ورثتهم في هداية الأمم بعد ظهور هذه الحقائق في هذا التفسير وغيره ، وستقودون نوع الإنسان بعد الآن . أفاتكم أن هذه الحقائق والدقائق والنظم البديعة استخرجها الناس لأجل حياتهم الدنيا؟ ولم يفعل الله ذلك معهم إلا لأن طباع أهل الأرض لا تتحرك إلا بمحرك قاسر قاهر وهو الأمور الحيوية ، ليدافعوا عن أنفسهم الأعداء ، ويجلبوا لأنفسهم الغذاء ، ولعمري لم يجعل الله هذا فيهم إلا ليكمل نفوسهم بقدر الإمكان ، فإن علاج الصناعات وممارسة الزراعات والتجارات ونظم السياسات وما أشبه ذلك وكذلك أعمال الحرب كلها مما تدعو لرقي العقول والاطلاع على العجائب ، وأهل الأرض لولا ما ابتلاهم الله به من ذلك ما اطلعوا ، فهم مقهورون مأمورون بالاطلاع ، والمسلمون قد دعاهم دينهم للاطلاع فناموا لأنهم لم يعلموا أنهم مأمورون بالتدقيق لهذا الحد ، فعليهم من الآن أن يجدّوا ويقرؤوا العلوم التي عرفها الناس ثم يسيطروا على سائر العلوم .

ذكر البارود والعناصر التي ركب منها عند الأمم

قلت : إن الله حكم على الأمم بالحرب وغيره لتعرف دقائق العلوم . وقلنا : إن المسلمين جهلوها فعوقبوا بأن الفرنجة دخلوا بلادهم وأذلوهم بالأسلحة والغازات الخانقة . وأقول الآن : إن النوع الإنساني الذي خلقه الله على هذه الأرض ركب تركيباً متناسباً ، وليس يتحرك للمعارف غالباً إلا بمؤثرات بليغة . والمؤثرات كما قلنا قسمان : دينية ودنيوية ، والدنيوية إما جلب رزق كالزراعة والتجارة والصناعة ومنها الطب ، ولا جرم أن العناصر وتحليلها ومعرفة ذراتها ومعيارها لا بد منها للأدوية الطبية وللزراعة والتجارة وهذا أمر معلوم ، فهذا جعل لجلب المنفعة ماعدا العقاقير الطبية فإنها لدفع مضرة المرض . وإما لدفع ضرر وذلك أن علم صناعة الحرب تقدم تقدماً عظيماً ، ومعرفة العناصر ومقاديرها أمر واجب لذلك .

انظر إلى صنع البارود فهو مخلوط من ملح البارود والكبريت والفحم.

فمن الأول (٧٥) ومن الثاني (٥٠ , ١٢) ومن الثالث (٥٠ , ١٢) وهذا عند الفرنسيين.

و(٧٤) و(١٠) و(١٦) على هذا الترتيب عند الألمانيين.

و(٧٦) و(١٠) و(١٤) عند الإنجليز على الترتيب.

ومن أراد تلوين الصواريخ بالبياض فليأت بنحو (١٦) من ملح البارود و(٤) من الكبريت و(٣) من البارود الناعم.

نيران زرقاء: كلورات بوتاسيوم (٢٦) كبريت (١) أوكوسي كلورور النحاس (١٤). وهناك مقادير للنار الحمراء وللبنفسجية.

وللنيران الخضراء كلورات بوتاسيوم (٢٨) أزوتات باريوم (٣٥) أوكوسي كلورور النحاس (١) صمغ لك (١٠) كلورور الرصاص.

للون الصفرة (٥) كلورات بوتاسيوم (١) صمغ لك (٢) أوكسالات صوديوم.

هذه نبذة من التركيب وفوائده وكيف كان وزن العناصر أصبح ضرورياً لنوع الإنسان حتى في دفاعه عن نفسه، وكيف استطاع أن يركب من الكبريت والفحم وملح البارود أنواعاً، ثم كيف قدر على التلوين بالخضرة والصفرة والحمرة وغيرها، ذلك كله بوزن وحساب كما صنع الله عز وجل في نباته وحيوانه، إذ استخرج من أجزاء معلومة ما لا يتناهى من أشكال بديعة وصور عجيبة وبدائع وغرائب.

إن الإنسان خليفة الله في الأرض، فتراه يسير على سنن حكمته وإن لم يعلم. سلط الله الناس بعضهم على بعض بالقتال والحرب، فاضطروا لمعرفة المادة وتحليلها وحسابها، كما اضطروا لذلك في أمور معاشهم، فهم مضطرون للعلم وللتحليل وللتركيب في الحالين: حال جلب المنفعة، وحال دفع المضرة. فهذه العلوم تقوي أجسامهم وترقي نفوسهم، ويسيرون في الأرض، ويركبون السفن الحربية، ويحاربون في الجو، ويمزقون الأجسام، فتنشط الأمم وتقوى الهمم وتدفن الرمم ويبقى الأحياء مجدين.

إن الله بالحرب والضرب يزيح أرواحاً من هذه الأرض، فتخرج منها إلى عالم البرزخ، والأرواح الباقية تستفيد عبرة واختباراً.

أيها الذكي لا تظن أني أبيح الحرب، كلا، وإنما كلامي في الحكم الكونية التي فهمتها من عمل الله في الأرض، إنه سلط بعضهم على بعض، لأن هذه الأرض ليست محل إقامة، بل هي دار صناعة وتعليم وتنشيط. جهلت هذه الأرواح الأرضية التي تمر بأرضنا علوماً ومعارف، فأنزلها في الأرض وسلط عليها هذه الخلائق وأرسل لها أنبياء وحكماء، ثم قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فتطاحنوا وتضاربوا وتقاتلوا.

كل ذلك ليستيقظوا للنتيجة، وهي أن تعرف نفوسهم نظام هذا العالم وتصل إلى الجمال، فإذا وصلوا إلى الجمال وعرفوا الحقائق يدخلون في دار أخرى تكون العلوم فيها بالشوق لا بالحرب والضرب والفقر، ومبادئ العلوم هناك ما نراه هنا من الجمال، ولعلك تقول: أي جمال هنا؟.

الجمال في هذا العالم

اعلم أن نهاية هذا العالم الجمال ولا يمكن إدراكه إلا بالحكمة، والناس يفهمون الجمال العادي في الوجوه، وجمال الوجوه في أربعة أشياء: الخدين والعينين والأنف والفم، هذه الأربعة متى كانت منتظمة سائرة على النسب الصادق فإنها تكون جميلة، ومتى تنافرت قبحت وظهرت مكروهة الطلعة. وليس في الأرض إنسان إلا وهو يدرك هذا الجمال إجمالاً، ولكنه لا يدرك سببه، والسبب هو النسب التي قررها العلماء لأعضاء الإنسان، وليس هذا مقام بيانها، ومرجع الجمال في الزهر والنبات والحيوان هو النسب العددية والهندسية، وليس في الأرض ولا في السماء جمال إلا بهذه النسب، وترى الناس يطربون للشعر وللموسيقى، وليس ذلك إلا للنسبة العددية والموسيقية، والشعر والموسيقى من واد واحد، فإن السبب والوتد والفاصلة المشروحة في ذينك العلمين ترجع كلها إلى حركة وسكون في علم الموسيقى، وحرف ساكن وحرف متحرك في علم الشعر، فالشعر والموسيقى يرجعان إلى هذين، فترى الأبحر الستة عشر التي جعل لها الخليل دوائر حسابية منظمة لم تخرج عن النسبة الحسابية والهندسية، وهكذا جميع الأغاني وضروب الموسيقى على هذا النمط، كما ترى في الماخوري من علم الموسيقى مثل بحر البسيط من علم الشعر وكلاهما (٤٨) ما بين ساكن ومتحرك ففي كل منهما (١٢) سبباً و(٨) أوتاد، ومعلوم أن السبب متحرك وساكن والوتد متحركان وساكن فتكون الأسباب (٢٤) حرفاً، والأوتاد (٢٤). وهناك تظهر النسب الهندسية والنسب العددية كما هو واضح في ذينك العلمين، إذن ظهر لك أن الناس لا يفرحون بالجمال المحسوس إلا للحساب والنسبة وإن كانوا لا يعلمون ذلك، وكلما كان التناسب أتم كان السرور أعظم، هكذا في الجمال العقلي الذي لا معنى له إلا تلك النسبة، ومن وازن ما ذكرناه في الجمال الظاهري وفي الشعر بما أنبأه هناك في الجدول الذي اخترعه العالم الروسي يرى فرقاً عظيماً، يرى التناسب هناك أبدع، إذ يرى الخواص الطبيعية والخواص الكيماوية مضافة إلى الأوزان الذرية. فالشعر والموسيقى والجمال الظاهري لم يدخل فيها شيء سوى الحساب، أما في أوزان الذرات فهناك (١٦) صفة تزيد على النسبة المذكورة ولذلك ترى لذة العلماء والحكماء أضعاف أضعاف لذة الجهلاء، لأن الجاهل لا يعرف إلا ما أحس به، والعالم ترقى وأدرك ما لا يفهمه الجاهلون، ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١].

أقول: وكأن هذا الجمال الذي يظهر في هذه الذرات وأمثالها هو مبدأ لنظام أجمل تدركه النفوس إذا خرجت من هذا العالم، والشوق هنا يؤهلها للرقي هناك، لذلك تجد النفوس الإنسانية مجدة على الأرض في طلب العلم للجلب وللدفع، والدليل على ذلك ما تراه في تعريف حكماء الشرق للتربية قديماً وحديثاً:

(١) قال ابن المقفع: «ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا».

(٢) قال أفلاطون: «الغرض من التربية هو إمداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجمال، ومن رأيه أن يربى قليل من أبنائه الخاصة لأجل نظام الحكومة»

(٣) وقال ملتون: «التربية الصحيحة الكاملة هي ما تؤهل المرء للقيام بأي عمل خاصاً كان أو عاماً بمهارة وإخلاص تام أثناء السلم والحرب». وهذا التعريف يقرب مما قررناه.

(٤) وقال جيمس مل: «التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملاً من عوامل السعادة لنفسه أولاً ولسائر مخلوقات الله ثانياً».

(٥) وقال جون استوارت مل: «التربية تشمل كل ما يفعله المرء أو يفعله غيره له لغرض تقريبه من درجة الكمال».

(٦) وقال هربرت سبنسر: «مهمة التربية هي إعدادنا لحياة كاملة».

(٧) وقال بعض علماء بروسيا: «التربية إنماء جميع القوى الإنسانية إنماء تتعادل فيه جميع القوى، ولكن ميول البشر واستعدادهم مختلفات قد يكون من الحكمة الاهتمام ببعض القوى في إنسان أكثر منه في آخر». ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم، فقال بطريقة مبنية على طبيعة العقل: «فكل قوى العقل يجب أن تفحص ثم تقوى وتنمى على حسب طبيعتها».

(٨) القرآن، ألست ترى أن هذه التعاريف كلها جاءت في هذه الآية، وهل ترى أني الآن أنقلها لغير فائدة التفسير، إني نقلتها لأنها في نفس الآية فقوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[العنكبوت: ٢٠] والسير حركة وهي ترجع لقوة الجسمية، وقوله: ﴿ فَانظُرُوا ﴾[العنكبوت: ٢٠] راجع للقوة العقلية، فكأن الله بهذه الآية يأمرنا بنظام الجسم ونظام العقل، وبهذا دخلت التعاريف السابقة كلها في الآية والآية شملتها، فالحركة للتجارة وللحج وللقتال ولطلب العلم وللسياحة كلها سير في الأرض، وكل حركة للتمرين وللأعمال الهامة تقرب من السير لأنها حركة على وجه العموم، وكل صناعة فمبدؤها بالعلم ونهايتها بالعمل، فهي مشتركة بين الجسم والعقل، فصناعة البارود مثلاً مبدؤها التعقل في المعامل والمدارس ونهايتها السير في الأرض وإطلاق النار، فأولها تعقل وآخرها عمل وجميع القوى العقلية تنمو بالنظر. إن الآية قرنت بين التمرين الجسمي والتمرين العقلي، فهي تعطي الجسم حظه والعقل حظه، وهذه كانت صفة نبينا صلى الله عليه وسلم، فإنه كان في أثناء الجهاد يوحى إليه ويعظ الناس ويعلمهم. فحركة العقل وحركة الجسم متقارنتان. ومتى تذكرت ما جاء في سورة «التوبة» من أن كثيراً من آياتها أوحي بها في سفره إلى غزوة تبوك عرفت تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا ﴾[العنكبوت: ٢٠] الخ، وكذلك غزوة أحد وغزوة بدر، فكان الجسم والعقل مشتركين في تنمية العقول. إن الإسلام لم يقف عند هذا الحد في تربية النفوس، بل إن أدعية الصلاة مؤيدة لذلك.

اللطيفة السادسة

مقاصد الصلاة في الإسلام والعلوم والحكم وارتقاء العقول بها

ذكرت لك أن ديننا يأمر بالعلوم، وأن الفطر الإنسانية والحاجة الدافعة اضطرت الناس إلى العلوم، وأذكر هنا أن الصلاة تبعث على العلوم، فكما أن القرآن كله حث على النظر في هذه الدنيا تجد المؤمن في أقطار الأرض يقرأ كلمات تحثه على العلوم وأكثر الناس لا يعلمون.

انظر إلى الفاتحة فهي مبدوءة بالحمد ثم الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم وتقدم هذا. وانظر إلى الأدعية في الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والتشهد وأنواع المحامد والثناء. إن المحامد

عند الرفع من الركوع تحث على معرفة العوالم العلوية والسفلية عامة، والمحامد في الركوع والسجود تحث على علوم الطبيعة بأجمعها، انظر إلى هذه العجائب في العبادات. انظر إلى دين جاء لأمم أرقى من الأمم الحاضرة. يا الله إنك أمرت المسلم أن يقول عند رفع رأسه من الركوع: «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد». وهل للحمد اللفظي معنى إلا بالعلم بالمحمود عليه، وما المحمود عليه إلا هذه العوالم التي ذكرناها ودخلت في قوله تعالى هنا: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[العنكبوت: ٢٠] أيّ معنى للحمد بدون علم.

إن المسلم يصلي ولا يعلم أن الصلاة تدعو للعلوم، إن المسلم إذا صلى وقلبه غافل لا صلاة له، وإذا صلى وقلبه حاضر وعرف المعنى، فإما أن يقف عند الألفاظ وهو متجه لله فيشتاق إليه، ثم يموت فيرجع إليه وهو عابد في درجة خاصة، ولكنه لا يرتقي إلى درجات رفيعة. فأما إذا فهم المقصود من الصلاة فإنه يتغلغل في العلوم، إذ يعلم أن الصلاة تحث على الجد في معاني هذه الكلمات، ومعانيها هي جميع العلوم. يرفع المسلم رأسه قائلاً: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض الخ»، فكأنه يشير إلى علم الفلك وما نحا نحوه وبقية العلوم إجمالاً، أما في الركوع فإنه أولاً ينزه الله أن يكون كالمخلوق فيقول: «سبحان ربي العظيم»، فكأنه قبل أن يخاطبه ينزهه أن يكون كمن يخاطبهم ثم يقول: «اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت»، وهذا إقرار بالإيمان وهي أول مرتبة، ولكن الوقوف عندها جهالة وكسل، ثم يقول: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين»، وهذه عبارة عن علم التشريح وأن المسلم عليه أن يعرف شيئاً من التشريح حتى يدرك السمع والبصر والمخ الخ، وقد تقدم بعض ذلك في هذا التفسير.

وكذا السمع والبصر في سورة «آل عمران»، والمؤمنون يقولون في السجود بعد التسبيح: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين»، ففي السجود ذكر الإيمان والتسليم كما في الركوع، ولكن المصلي يتوغل هنا فيقول: سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، فالتعبير بالخلق والتصوير وشق السمع والبصر يقتضي زيادة العلم بالتصوير وبعجائب طبقات العين وعجائب الأذن وغرائب المخ، وذلك يدعو إلى علم التشريح، ويقرب منه معرفة أنواع الحيوان والنبات والعناصر التي خلقت هذه منها ولست أقول: إن المصلي إذا لم يدرس تكون صلاته باطلة، ولا أخالف ما نص عليه الفقهاء ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، ولكن المقام مقام مزايا الإسلام في التربية، فانظر كيف دعانا إلى معرفة العوالم العلوية عند رفع رؤوسنا إلى أعلى، ودعانا لمعرفة أجسامنا ويقاس عليها ما هو نظيرها في التغذي والتركيب وهو الحيوان والنبات، وهكذا العناصر المركبة هي منها.

ولما كان العبد وهو ساجد أقرب إلى ربه كما في الحديث وكما في الآية، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾[العلق: ١٩]، رأينا الدعاء في السجود يوضح تشريح الجسم ويشير إلى الجد في مسائل الجسم الإنساني. وإذا ضممنا ذلك إلى ذكر الحمد على جميع النعم في الصلاة، ومبادئ النعم كلها ما ذكرناه في تفسير هذه الآية، وكذلك قول المسلم في قنوت الصبح، فإنه يدعو بطلب الهداية ويحمد الله ويشكره في آخر الدعاء.

ولا معنى للحمد ولا للشكر إلا هذه العلوم، وكذلك التشهد فإن المسلم يقول: «التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله» وهذا في معنى الحمد، ويختم ذلك بقوله: «إنك حميد مجيد»، والحمد لا معنى له كما قلنا إلا بمعرفة العلوم المتقدمة وإلا كان حمداً ناقصاً. أقول: إذا ضممنا ذلك كله إلى ما ذكرناه ظهر أن الصلاة في جميع أحوالها عبارة عن درس لهذه العلوم وحث عليها، ومجرد أدعية الصلاة كاملة كافية لشوق المسلم إلى هذه العلوم وإن لم يسمع من القرآن حرفاً، وسيأتي في هذه الأمة من يعرف الناس مقاصد الصلاة، ويعرف الناس مقاصد القرآن، ويعرف الناس حكمة الله في خلق الناس على الأرض، ويعرف الناس أن الله لم يدع وسيلة لتنمية العقول إلا وضعها في هذا العالم الأرضي، وأن المسلمين لما جهلوا جماله ونظامه ولم يعرفوا ما في القرآن، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم شكا من طائفة فقال: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ولم يعرفوا ما ترمي إليه الصلاة؛ أرسل سبحانه الفرنجة ليكون هذا آخر سهم يرمي به المسلمين حتى يرجعوا إلى رشدهم ويتعلموا، وعسى أن يقوم فيهم من يفهمهم أن الإسلام أرقى مما أنتم عليه، وأن هذه هي العلوم التي يرضاها الله، فهي خير من ضياع الوقت في فروع فقهية، ينقضي الدهر ولا يسأل عنها أحد.

اللهم إني نصحت وأفرغت جهدي في النصح، وإني أسألك أن تلهم هذه الأمة الرشد وتسعد بالها وتلهم الأذكياء منها أن يرفعوا من شأنها ويسعوا لإصلاحها ويهدوها الصراط المستقيم.

سيعلم الدعاة والمصلحون في الإسلام أن ما ذكرناه في هذا المقام ترمز إليه الصلاة على الترتيب الذي سطرناه. فالثناء في الرفع والاعتدال وفي الفاتحة والدعاء بالهداية فيها وفي القنوت وفي الجلوس بين السجدتين موجه لعموم العلوم، فإذن يبتدئ المتعلم بقراءة العلوم كما في المدارس الابتدائية والثانوية في الأمم الراقية، ثم يأخذ في علوم التخصيص حتى يتقن فناً خاصاً كما قررناه مراراً. فالثناء في حال الرفع والاعتدال وما معه غير ما يذكر في الركوع وفي السجود من ذكر نوع خاص كالسمع والبصر والمخ والعصب فهذا خاص، والمذكور في الاعتدال عام. فالصلاة نسخة من صفحات العلوم أوحى الله بها إلى نبيه ليقرأها الناس صباحاً ومساء، وقد اهتدى بهذه الصحيفة البيضاء قوم وسيهتدي به أكثر المسلمين في مستقبل الزمان.

اللطيفة السابعة

اعلم أن الله عز وجل كما حث المسلمين في صلاتهم وفي دينهم وفي جميع أحوالهم على العلوم؛ ثم سلط علينا الفرنجة لما سبق في علمه أننا جامدون؛ حث الأمم الأخرى التي سبقتنا على ذلك فيما كانوا يتعبدون به لأنه رحيم عامّ الجود. ولأذكر لك ما يصنعه علماء المصريين للتقرب إلى الكواكب التي كانت معظمة عندهم كما ذكره أستاذنا العلامة علي باشا مبارك في كتابه «خواص الأعداد»، قال ما ملخصه:

«كان المصريون يعتنون بالأوفاق وأخذ عنهم فيثاغورس وجماعته، وسميت بالأوفاق لأنهم نسبوها إلى الكواكب السبعة، فإنهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة في صور مختلفة، وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن الموافق للكوكب الذي يريدونه، وكانوا يجعلون جدول الوفق

المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع، ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكوكب المطلوب، وموسوم عليه أيضاً فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة إشارات منطقة فلك البروج، وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه. وكيفية انتساب تلك الجداول إلى الكواكب هو أنهم كانوا يجعلون زحل المربع المنقسم إلى تسع خانات عددها (٣) ومجموع أعداد صفه (١٥)، وإلى المشتري المربع المكون من (١٦) خانة جذرها (٤) ومجموع أعداد صفه (٣٤)، وإلى المريخ المربع المركب من (٢٥) خانة وضلعه (٥) ومجموع أرقام صفه (٦٥)، وقد تقدم قريباً، وإلى الشمس المربع المكون من (٣٦) خانة وضلعه (٦) ومجموع أعداد صفه (١١١)، وإلى الزهرة المربع المشتمل على (٤٩) خانة وضلعه (٧) ومجموع أعداد صفه (١٧٥)، وإلى عطارد المربع المشتمل على (٦٤) خانة وضلعه (٨) ومجموع أعداد صفه (٢٦٠)، وإلى القمر المربع المشتمل (٨١) خانة وضلعه (٩) ومجموع أعداده (٣٦٩). وكانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على (٤) خانات وضلعه (٢)، والله الواحد الأحد المربع المكون من خانة واحدة وضلعه (١)، بحيث إنه لو ضرب بنفسه لا يتغير أبداً. وقد تقدم الوفق المخمس ولأرك شكلاً واحداً آخر وهو المسبع، ثم أذكر الحكمة في وجود هذا في العالم الإنساني.

٤	٣٥	١٠	٤١	١٦	٤٧	٢٢
٢٩	١١	٤٢	١٧	٤٨	٢٣	٥
١٢	٣٦	١٨	٤٩	٢٤	٦	٣٠
٣٧	١٩	٤٣	٢٥	٧	٣١	١٣
٢٠	٤٤	٢٦	١	٣٢	١٤	٣٨
٤٥	٢٧	٢	٣٣	٨	٣٩	٢١
٢٨	٣	٣٤	٩	٤٠	١٥	٤٦

المسبع

ولأكتف بهذا المسبع وبالمخمس الذي ذكرته سابقاً وأشرح موضوع هذه الأوفاق.

إن هذه الأوفاق كانوا يحتون بها ويدعون أدعية للكواكب وكان ذلك على مقتضى ما عندهم من العلم، ولا جرم أن دين قدماء المصريين كان دخله التحريف فصاروا يتقربون بهذه الأوفاق. والسر في التقرب بها أن أعدادها منتظمة تحير فكر الذي يتلو العزيمة، إذ يجد أعداداً منتظمة تحير العقل وتدهش اللب وتدخل في عقل الناظر للأعداد نوعاً من الحيرة وحب الإتقان، فأصل وضعها كان لإرشاد الشعب إلى حب الجمال وهو النظام، وذلك يدعوه للبحث في السماوات والأرض على ذلك النظام في عالم السماوات والأرض، وربما كان ذلك من رجال الدين، ثم تمادى الناس فيه فجعلوه لطلب قضاء الحاجات من الأصنام التي كانوا يزعمون أنها ملائمة للكواكب التي تحفظها الملائكة، لأن دين القدماء هكذا: «الله خلق العالم. الملك موكل بالكوكب. الصنم سبيل للكوكب. الأوفاق تقرب العابد من الكوكب الذي هو يمثل الملك المقرب من الله»، فهذه سلسلة طويلة أملاها عليهم رجال الدين تحصل عند طول الأمد بعد نزول الأديان، فيحصل الانقطاع إلى الأمور المادية ويترك الأصل الذي قصده الأولون، فعكف الناس على الاستعانة والاستعانة بهذه الأوفاق ونسوا ما لأجله وضعت الأوفاق عند الكهنة ورجال الدين، وإن كانوا هم أيضاً غير موفقين بتطاول الزمن عليهم، فتطاول الزمن على رجال الدين، وعلى العامة جعل تلك الأوفاق أدعية للرزق والجاه والشهوات، كما أن كثيراً من جهلة الأمة الإسلامية وبعض الخواص يجعلون القرآن في أكثر الأوقات لطلب أمور الدنيا لغرض الدنيا، وهذا انتكاس على الرأس. والمقصد الأول من ديننا ارتقاء النفوس بالعمل والعلم، فاتجه كثير من الناس إلى جعل الدين مفتاحاً لباب الشهوات.

وأصل الأوفاق عند قدماء المصريين تذكير النفوس بالعلم والحكمة وجمال الله، فجعلها المتأخرون منهم باب مرتزق وتبعهم على ذلك جهلة المسلمين إلى الآن، فانظر كيف جعل الله في القدماء قبلنا من وجهوا الهمم إلى معرفة حسن النظام في العالم بطريق الدين ثم نسيه أهله، فذهبت دولتهم فأصبحوا خاسرين، ذلك أن الله عز وجل لم ينس عباده ولم يترك أحداً من خلقه، بل هو عليهم مهيمن يذكرهم كل حين، ولا ينال العز إلا من سبقت له الحسنى. ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن « فيثاغورس » كان مغرماً بعلم العدد ويقول: إن العالم مركب من العدد، وهذا لشدة ولوعه بالله تعالى، لأن هذه الأوفاق التي نقلها عن المصريين قد قرأها وعرف أسراراً وراءها لا نعلمها نحن، ففني في الخالق واشرأبت نفسه إلى ذلك الجمال الأسنى، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢] .

ويقرب من ذلك جدول العناصر المتقدم، بل هو مدهش ومدهش لأنه يعرف جمال الله في صنعه بأبدع حجة وأقطع برهان. واعلم أن قدماء المصريين لما جهلوا المقصود من دينهم نسخهم الله، وهكذا المسلمون لما نسوا مقصود القرآن سلط الله علينا الفرنجة، وسيجعل الله بعد عسر يسراً ويرتقي الإسلام، ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٨]. انتهى الكلام على القسم الأول من السورة.

القسم الثاني

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦٠) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٦٨) ﴾

التفسير اللفظي

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنام يتكلون عليها في نصرهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله؛ مثل العنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهى البيوت إذ استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت؛ كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ هذا توكيد للمثل، أي: إن الله يعلم أن الأصنام التي يدعونها ليست شيئاً، فـ«ما» نافية و«من» زائدة و«شيء» المجرور بـ«من» الزائدة مفعول «تدعون» ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا شريك له ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فكيف يعبد الناس ما ليس شيئاً ويذرون عبادة العزيز الحكيم، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ «الأمثال» بدل ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها خبر ﴿لِلنَّاسِ﴾ وإن ضحك من هذا المثل سفهاء قريش وقالوا: محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ ورد: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»، ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ محقاً غير قاصد به باطلاً فإن

المقصود بالذات من خلقهما إفاضة الخير وإيجاد كل ممكن تعلق به العلم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم يستدلون بالآثار على مؤثرها ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعبداً وحفظاً وفهماً لمعانيه واستكشافاً لغوامض ما فيه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وذلك لأنه حال الاشتغال بها تشغل المصلي عن الاشتغال بغيرها، وأيضاً تورث النفس خشية من الله. «روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوصف له فقال: إن صلاته ستنهاه، فلم يلبث أن تاب»، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي. ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته، أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسميت ذكراً لأنها مشتملة على ذكره تعالى وهو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في العناد كأن يتبنوا الولد أو يقولوا يد الله مغلولة أو ينبذوا العهد، وإذا استعمل السيف في بعض الأحوال فذلك أنه كالكي آخر الدواء، فالمدار في نشر الدين أصالة على إقامة الحجة لا سيما في هذا الزمان، ثم أبان طرفاً من تلك المجادلة فقال: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون له خاصة، وفيه تعريض بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم».

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كعبد الله بن سلام وأحزابه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ومن العرب وأهل مكة ومن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها ﴿إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: المتوغلون في الكفر كاليهود عرفوه صلى الله عليه وسلم وكفروا به، وكفرهم هو عين الجحود إذ الجحود بعد المعرفة ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فإن ظهور كتاب جامع لهذه المزايا يستحيل أن يأتي به أمي فإذن هي معجزة ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحي إليك لارتاب أهل مكة واليهود، فقال الأولون: إنه يقرأ من كتب الأولين، وقال الآخرون: إن صفته في التوراة أنه لا يقرأ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: القرآن ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم المكابرون ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثل العصا وناقة صالح ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء لست مالكها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فهو معجزة دائمة على مدى الزمان وليست كالعصا لأنها لا تدوم، وقد جاء في سورة «طه» أن أمثال هذه الآيات الحسية تلتبس، ولذلك كفر بنو إسرائيل لما رأوا عجل السامري، وقد تقدم إيضاح هذا هناك. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتاب الذي هو حجة دائمة ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾

وتذكرة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دون المتعنتين، ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ يشهد لي أني رسول الله ويشهد عليكم بالتكذيب، وشهادة الله إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فلا تخفى عليه حالي وحالكم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ وهو ما يعبد من دون الله ﴿ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ منكم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المغبونون في صفقتهم لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ كالنضر بن الحارث لما قال: «فأمطر علينا حجارة من السماء»، ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ وهو ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم ﴿ لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم ﴾ العذاب ﴿ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ أعيدت الجملة تأكيداً ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ستحيط بهم وتجمعهم جميعاً ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ يصيبهم ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: جزاءه ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أي: إذا لم تسهل لكم العبادة في بلد ولم يتمشّ فيه أمر دينكم فلتهاجروا عنه إلى بلد تكونون فيه أصح ديناً وأكثر عبادة. وعن سهل: «إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين». ويقال أيضاً: «إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها». ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ يريد بذلك تهوين الهجرة من بلد المعاصي، ويقول: إذا كانت النفوس تجد مرارة الموت وكربه فكيف يهمها المهاجرة من الوطن ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾ لننزلنهم ﴿ مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ علالي ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي: أجرهم ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين والمحن والمشاق ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فلا يتوكلون إلا على الله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره لتصبح ولا معيشة عندها ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ فأنتم مع قوتكم وهي مع ضعفها سواء في أن الله يرزقكم جميعاً فهو المسبب لها فلا تخافوا على رزقكم من الهجرة إذ قال بعضكم كيف نقدم على بلد ليس لنا فيه مرتزق ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لقولكم ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحالكم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أي: ولئن سألت أهل مكة ذلك ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لأن العوالم منتهية إليه ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ أي: لمن يشاء، أي: يوسع ويضيق لواحد في وقتين مختلفين ويوسع لزيد ويضيق لعمرو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم. وروي: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك». ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ أي: هم مقرون بذلك ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على عصمتك من مثل هذه الضلالات وعلى تصديقك وإظهار حجتك ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فيتناقضون فإنهم يقولون إنه خالق كل شيء ثم يشركون به سواه ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ الإشارة للتحقير ﴿ إِلَّا لَهْوٌ ﴾ اشتغال بما لا يعني وتمتع باللذات وفرح ﴿ وَلَعِبٌ ﴾ عبث باطل لا يبقى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ أي: الحياة، أي: ليس

فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة، وأصل حيوان حييان من حيي على وزن غليان فقلبت الياء الثانية واواً ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين ما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي. ثم قال: إن هؤلاء دائبون على ما وصفوا به من الشرك ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فهم والحالة هذه لا فرق بينهم وبين المؤمنين في صورة الإخلاص لله، لعلمهم أنه لا يدفع الشدائد سواه ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا المعاودة إلى الشرك والمؤمنون ثابتون على إيمانهم ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: يشركون حتى يكفروا بما آتيناهم من النعمة ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ أي: سيتمتعون بهذه العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم وهذا تهديد، ويصح أن تكون «اللام» للأمر في «ليكفروا» و«ليتمتعوا»﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ أي: أهل مكة ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾ أي جعلنا بلدهم ممنوعاً معصوماً يأمن داخله ﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يستلبون قتلاً وسبياً ﴿ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: أبالشيطان والأصنام يؤمنون ﴿ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ المذكورة الواضحة ﴿ يَكْفُرُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ بأن زعم أن له شريكاً ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ يعني الرسول أو الكتاب، وفي التعبير بـ«لما» إيذان بسفاهتهم إذ سارعوا إلى التكذيب بلا تروٍّ لمجرد السماع ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: أما لهذا الكفر المكذب مأوى في جهنم. ولما كان أول هذه السورة مسوقاً للجهاد العام كجهاد النفس والجهاد مع الوالدين والجهاد مع الأعداء ومع الأصحاب؛ ختم السورة كما بدأها وبشر المجاهدين بالهداية فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ أي: في حقنا سواء أكان جهاد الأعداء الظاهرة أم الباطنة فيشمل سائر المعاصي حتى جهاد الكبر والحسد والحرص وكل مرض قلبي ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ لأنا خلقت السماوات والأرض بالحق ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بالنصرة والإعانة. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة.

لطائف هذا القسم

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾

لأذكر لك ما كتبته في كتابي «جمال العالم» من عجائب العنكبوت تحت العنوان الآتي ونصه:

العنكبوت

خلق العنكبوت ذا ثمانية أرجل وعلمه الله بالإلهام من الصغر في إبان حياته، حتى إنه ينسج بحيث تساوى كبارها وصغارها والأمهات وأولادها في الغزل والنسج، فلا عنكبوت إلا وقد أوتي هذه الصنعة بلا تعلم ولا تعليم ولا مدرسة كأمهاتها، ولا تخريج ولا درس ولا تنقيب كما فطرت صغار البط على العوم في الماء عقب كسر بيضها، وهكذا جميع الطيور والحشرات.

ولما كان هذا التعليم غريزياً إلهياً لم يدخله الغلط ولا السهو بخلاف النوع الإنساني، ولذلك احتجت إلى قول نبينا صلى الله عليه وسلم: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»، فلا يقع من العنكبوت في نسيجه ولا غزله غلط بل تراه يحكمها بإتقان مع التأني والتثبت، فترى خيوطاً متينة وشبكاتها محكمة الوضع هندسية الشكل، وقد قال علماء العصر الحاضر: «لو اجتمع كل نساج وغزال في الدنيا

وقوبلت صناعتهم بصناعة العنكبوت لفاق الثاني الأولين والآخرين وغلب الحيوان الأعجم هذا الإنسان »، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣-٤] .

العنكبوت البنّاء

كل عنكبوت في الدنيا غزّال ونسّاج، وبعض الأنواع بنّاء يبني منازل يشاهدها الناس في أماكن كثيرة في حجم « الكستبان » يقفلها من الداخل بقفل - لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه - حتى يأمن من دخول عدو مهاجم أو سارق .

فتأمل كيف أعطي قوة وحكمة عجز عنهما الإنسان في البناء، كما أوتي النحل في بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أو البرد، كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرة إلى أكبر كوكب، وما ألذ النظر في هذه العوالم والعلوم، وما أجل الحكمة وأبهجها ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]، ألا فليبتهج بهذا العالمون وليفرح الحكماء المدققون .

عنكبوت البساتين

وهناك نوع يسكن البساتين وما شابهها، تراه مضطراً إلى الانتقال من شجرة إلى شجرة ومن غصن إلى غصن، فماذا يصنع يا ترى؟ ألهمه الله أن يبني قنطرة بين الشجرتين أو ممشى بين الغصنين كما يصنع نوع من القرود في أمريكا قنطرة كما تقدم، ولكن طريقة العنكبوت في قنطرته أعجب، فتلك بالأجسام، وهذه بخيط واحد يخرج من فمه مخلوقاً من لعابه، إذا لامس الهواء جمد، فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه، ولا يزال الطرف الآخر يغدو ويجيء حتى يمسك بورقة أو غصن فتمر عليه العنكبوت، وبهذه الطريقة نجا عنكبوت من الموت في حكاية وإليك بيانها :

حكي أنه وضع حيوان العنكبوت على عود في ماء قريب من شاطئ جزيرة، فنزل من أعلى العود إلى أسفله فوجد الماء محيطاً به، فرجع إلى أعلى ثم أخذ يفكر في حيلة اهتدى بها إلى أن غزل خيطاً وأثبت أحد طرفيه في رأس العود، ولا زال الطرف يغدو ويروح حتى أمسك بغصن من الشاطئ الآخر، فسار عليه حتى نجا سالماً. وهذا النوع البستاني ينسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة يقتنص بها الذباب وغيره، فيتخذ بها مركزاً يقيم فيه ويمد خيوطه إلى جميع الجوانب، فتشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان، وتلك الخيوط أقطارها، والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة « البسكليت »، فإذا أحكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطاً أخرى فأدارتها على هذه وربطتها ربطاً وثيقاً محكماً عليها مع التناسب في الوضع والإحكام والهندسة، بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية، ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٞ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] وهذه الشبكة قلدها الإنسان في صيد السمك للقوت، وفي صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة بالذهب مرصعة بالحلي، اهتدى لها الإنسان المتمدين بعد الآلاف من الدهور والعصور والسنين،

تفتخر به الفتيات الإفرنجيات في إتقان الصنعة وحسنها، فانظر كيف كانت نهاية الإنسان بداية الحيوان.
لعله يهولك غرائب العنكبوت إذا عاينت أثرها، وأنها تنسج ما تنسج بمؤخر أرجلها فلا تحتاج إلى النظر بعينها، فإذا قطعت خيطها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق الشمس في اليوم الثاني رأيت شبكتها نسجت كما كانت مع صبره وتؤدته وتثبته، وأنه يأتي بقطع صغيرة من الحجارة والخشب يضعها على نسجه ليثبته حافظاً له من التكسر وإطاعة الرياح الهابة والأعاصير والزعازع، وأنه يبحث عن صمغ وغراء من أماكنها في أشجارها ويلطخ بها خيطانه وشبكته ليكسبها لزوجة، فلا تتمزق إذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير، وإذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة ولم يؤثر على الشبكة حركته، فتأمل كيف صلحت بالغراء لأمرين: إمساك الذباب والتمدد باللزوجة لئلا تتقطع، ومتى أمسكت الذبابة بالشبكة التي صنعت لهذه الغاية أسرع العنكبوت في الحال إليها فعضها وجرى السم فيها فماتت فأكلها، ومنه نوع يقرب من اليمام في الحجم يصطاد الطيور كما يصطاد الصغير من الذباب والحشرات، وقد تمر النحل بشبكته فيرجو أكلها ويخاف لسعها، فيصبر عليها حتى تتعب، ثم يأخذ في أن يديرها بخيط يلفه عليها ويدور سريعاً سريعاً حتى لا يبقى بها حراك، ثم يقتلها بسمه ويأكلها.
فهذه عجائب العنكبوت غفل عنها أكثر الناس وهم لا يشعرون. انتهى ما جاء في كتابي «جمال العالم» ولأذكر لك ما جاء في كتابي «القرآن والعلوم العصرية».

العنكبوت أيضاً

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذي إذا تعرض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير، فيغزلها خيطاً دقيقاً وينسج تلك الخيوط نسيجاً محكماً متقناً حتى قال علماء الحشرات: «إن هندستها التي رسمتها في نسيجها ونظامها البديع الذي توخته في عملها أدق ما صنعه المهندسون وأبرع ما نظمه البارعون، حتى إنها لم تخطئ يوماً في نظمها ولم تغلط يوماً في نسجها، وإن أبرع المهندسين وأعظم الحنكين الذين درسوا في المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون في تقديرهم ويشذون في عملهم ويحيدون عن سواء السبيل». وهذه الحشرات لا تخطئ في نظمها ولا تضل في هندستها ولا تخيب في إحكامها، ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلم العنكبوت خالق المهندسين، فتلميذ الله لن يخطئ، وتلميذ المخلوق قد يضل مع الضالين، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين، بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التي أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]. ولقد ذكر الله العنكبوت فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١]، فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاماً، ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾[المؤمنون: ١٧]

لطيفة

إن العلماء بحثوا في تجزئة المادة حتى وصلوا إلى ما يدهش العقول ويحير الأفكار، فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطاً رقيقة جداً، فإنها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة

خيوط أدق منه، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط، وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفاً من (٤) في (١٠٠٠) يساوي (٤٠٠٠) من عجب أن بعض علماء الألمان قال: إنه إذا ضم أربعة بلايين خيط (٤٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠) إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته، ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوي غلظه $\frac{1}{16000,000,000,000}$ واحداً من ستة عشر تريليوناً، ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة محصوصة في جسم العنكبوت، وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط، أليس ذلك من العجب.

أوليس من أعجب الحكم أن العنكبوت في هذا تمثل نظام العالم الجميل، يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائي أنه خرج بلا حكمة، فإذا انضمت الخيوط إلى بعضها كونت خيطاً، والخيوط الأربعة أنتجت خيطاً أكبر، وباجتماع الخيوط أنشأت بيتاً، وكان مسكناً ومحل صيد العنكبوت، ومع ذلك تسمع القرآن يقول: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١] وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾.

فانظر كيف ذكر العلم المقرون بـ « لو » بعد مسألة العنكبوت، أفليس هذا الوهن قد ظهر في التحليل والتجزئة؟ فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف في الدقة وتناهت في التجزئة، فذكر الوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولاً مطرداً، بحيث لا يمتنع عنها وهو متماسك، ذلك هو السر في قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١]، فليس يدرك الناس تلك التجزئة التي أشار إليها الوهن مجرد إشارة إلا بعلم الطبيعة، ولا يدري المسلمون ما السر في تسمية سورة باسم « العنكبوت » إلا بالتفرغ لدراسة الحشرات، وإذن يعرفون لماذا سميت سورة في القرآن باسم « العنكبوت » وأخرى باسم « النمل » وأخرى باسم « النحل » وهي حشرات، وسورة باسم « البقرة » وسورة باسم « الأنعام » وهذه من ذوات الأربع. والذي أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين في الأعصر المتأخرة إنما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة، حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التي سيوقظها أمثال هذا التفسير، ويخرج جيل إسلامي لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور وهم خلفاء الله والنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين.

وما مثل العنكبوت في ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل، إذ نظم بيوتاً مسدسات ذات أضلاع متساوية متقنة. ومن العجيب أن الأشكال المسدسة كل ضلع يساوي القطر المار ما بين ضلعين من أضلاعها كما قرره علماء الهندسة. ولقد أبنا الحكمة في اختيار المسدس دون باقي الأشكال، ولم يكن دائرة فيما كتبناه في كتبنا السابقة، وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحاً أتم وبياناً أكمل في كتابنا « جمال العالم » وكما « نظام العالم والأمم » وغيرها، وهذا الكتاب إنما جعلناه تذكرة عامة للأمة الإسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم، وليعلموا أن الله عز وجل ما وصف هذه الحشرات ولا ذكر هذه الآيات ولا أخذ يصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا إليها وليحثنا عليها، فانظر مسألة النحل التي تقدم الكلام عليها، فإنها فضلاً عما فيها من بدائع الصنعة الإلهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق وإتقانه ونظامه وعجيب صنعه، فإن

لها أثراً عظيماً في الزراعة. إن تربية النحل في البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذي يربو إذا كانت الخلايا في وسط الأزهار، ويقل بل يموت النحل إذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع.

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا منافعها سمى الله عز وجل سوراً من القرآن باسمها فسمى «النمل» و«النحل» و«العنكبوت».

أفليس ذلك نبراساً يهتدي به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويبنون مجدهم ويدرسون كل ما دب وكل ما طار وكل حيوان ونبات؟﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[آل عمران: ١٣] كما قررناه. انتهى ما جاء في كتابي «القرآن والعلوم العصرية» والحمد لله رب العالمين.

هذا ما أردته عند تأليف هذا التفسير، ثم إني وجدت بعد ذلك أثناء تقديمه للطبع في الكتب الفرنجية عجائب وبدائع في العنكبوت والذباب ونحوه، فآثرت ذكرها هنا تبصرة وذكرى للمسلمين.

ما من امرئ إلا رأى نسج العنكبوت. إن العنكبوت ليست من الحشرات وإن كان ظاهرها يوهم أنها منها. إن نوع العنكبوت ونوع الحشرات يتفقان في أن كلًّا منهما له آلتان في مقدمه يستعملهما كما نستعمل نحن أصابعنا، وهو بهما يتفاهم كما يتفاهم الأصم والأبكم من الناس بحاسة البصر، ولكن العنكبوت لها ثمانية أرجل، والحشرات جميعها لها ستة أرجل. إن الحشرات والعنكبوت كلاهما تضع بيضاً، وإنما الفرق بينهما أن الحشرات يتحول بيضها إلى دودة، والدودة تنقلب إلى «فيلجة» أي: شرنقة، والشرنقة تنقلب حشرة تامة، كما في مسألة دودة القز ففيها هذه الصفات، والنحل والنمل وأشباهها، وقد تقدم في سورة «النمل»، ومن الحشرات ما تعتني بنسلها كالنمل والنحل، ومنها ما لا تعرفه كحشرة أبي دقيق إذ تموت ولا ترى أولادها، وهكذا الجراد، ولكن هذا النوع يعتني بوضع البيض في مكان صالح بنسله. أما العنكبوت فمثله كمثل الدجاج فإن بيضتها متى فقست خرج ولدها صورة طبق الأم، كما في السمك والضفادع.

كيف تعيش العنكبوت

إن العناكب تعيش على الحشرات، إنها نافعة جداً ومفيدة للفلاح ولصاحب البستان، لأنها تقتل الآلاف من الحشرات اللاتي تفتك بالزرع في الأرض.

نسج العنكبوت

إن العنكبوت تغزل خيوطاً دقيقة حريرية آتية من مقر الغزل في جسمها الذي فيه مسام دقيقة جداً، وهذه المسام الدقيقة تخرج منها خيوط تجتمع وتكون خيطاً، والخيوط تجعلها العنكبوت سيجاً، إن هذه الخيوط لزجة، وأي ذبابة وصلت إليها تلتصق بها.

أنواع المصنوعات العنكبوتية

إن العنكبوت لا تقتصر على جعل خيوطها أشبه بالخيمة، كلا، بل إنها تجعلها قنطرة تمر عليها من مكان إلى مكان، وتارة تجعلها عشاً تضع فيه بيضها ومسكناً نظيفاً لها يسر الساكنين. إن من العنكبوت نوعاً تغزل الخيوط الحريرية المذكورة وتجعلها أشبه بسحاب وتطير عليه في الهواء.

ويرى الناس مئات من هذا النوع طائرات في الهواء على هذه الطريقة في يوم ثائر الهواء. وهناك نوع من العناكب يجري على سطح الماء، وكيف ذلك؟ إنه يؤلف بعض الأوراق الجافة مع خيوط حريرية من جسمه ويجعلها قارباً يعوم فيه على وجه الماء ويسبح به وهو قرير العين، وهذا القارب جعله للصيد فمهما لاحت له ذبابة أسرع مقاربه إليها وأخذها إلى فيه فأكلها.

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صاحبي العالم الذي حادثني في سورة «النمل» فاطلع على ما كتبه هنا فقال: لقد قرأت كتبك كلها فسلني كما تشاء في «نظام العالم والأمم» وفي «النظام والإسلام» وفي «جواهر العلوم»، وفي «ميزان الجواهر»، وفي «جمال العالم». قرأتها وفهمتها وقرأت هذا التفسير إلى هذه السورة، فاسمح لي أن أسأل هنا ما عنّ لي في قولك، فخير لك أن أحاورك من أن أدع هذا لقرائك والمطلعين على هذا التفسير. فقلت: ذلك يسرني. فقال: أوضح الفرق بين الحشرات والعنكبوت، ولماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا حتى جعلتني أسألك المزيد؟ وهل هذا يوافق مساق الآية؟ ومساق الآية لا يقتضي هذا الشرح. فقلت: أما الفرق بين العنكبوت والحشرات فقد ذكرت بعضه الآن، وهو تعداد الأرجل وطريقته نحو الذرية، وأزيد عليه أن جسم العنكبوت مركب من قسمين، وأجسام الحشرات مركبة من ثلاثة أجزاء، كما تقدم في سورة «النمل»، وأيضاً لغالب الحشرات أجنحة والعنكبوت لا أجنحة لها، ثم إن القسم الأعلى من العنكبوت فيه العيون والفكان وهذان من الرأس، وفيه الأرجل الثمانية وهي في الصدر، أما القسم الأسفل ففيه البطن والمؤخر. وأما أقسام جسم الحشرات فاقرأها في سورة «النمل» كما قلت لك. فقال: النمل من الحشرات وهل لها أجنحة؟ فقلت: تخلق لها أجنحة ولكن عندما تكبر وتزاول الأعمال تكسرها لتتفرغ للأعمال.

قال: فما تقول في عدد العيون. فقلت: عيون العنكبوت تختلف من زوج واحد إلى ستة أزواج موضوعة مثنى في مقدم الرأس ويتحركان من اليمين إلى اليسار وبها يفترس الذباب، أما الحشرات فإنها لها أعين تقدم شرحها في سورة «النمل» وأن بعضها قد بلغت العين الواحدة فيه (٢٧) ألف عين، أي أن العين الواحدة مكونة من عيون مستقلة تبلغ هذا المقدار، ولو تلفت واحدة منها لم تتلف البقية كما شرحه علماء النمسا وألمانيا في هذا القرن، فاقرأه هناك وانظر كيف ذكرت لك هناك أن أصدقائي أهل العلم في مدارسنا المصرية عارضوني في ذلك، وفيهم من كانوا في أوروبا، بل بعض الأطباء أنكره في أول الأمر، ولما ألفت الرسالة التي تقدمت في سورة «النمل» أقروا وصدقوا، والسبب في ذلك أن أمتنا المصرية قد كانت تعرف هذه العلوم قبل هذه الأيام في القرن التاسع عشر، ثم لما دخل الفرنجة بلادنا حذفوا تلك العلوم الطبيعية من بلادنا، فصار المتعلمون يكرهونها وكثير ممن ذهبوا إلى أوروبا لا يقرؤونها، أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فإن هذه العلوم أخذت ترجع تدريجاً، وصار الأطفال اليوم يقرؤون ما كان يجهله آباؤهم منذ خمس سنين، وهذا يدلك على أن العلوم الطبيعية مرقية للأمم، ولولا ذلك ما حذفها الفرنج قبل استقلالنا الظاهري بمصر، هذا، ثم إن النملة كما قدمت العين الواحدة من عينيها مركبة من مائتي عين، والذبابة عينها الواحدة مركبة من أربعة آلاف عين، فقال صاحبي: أربعة آلاف. قلت: نعم. قال: أنكر ذلك. قلت له: هذا يدرس في جميع مدارس العالم، وهل تريد أن تفعل معي ما فعله المدرسون منذ سنين كما أخبرتك؟ قال: لا، قلت:

فدعني أتم لك الحديث، فقال: يا عجباً كل العجب، أتكون الذبابة أكثر عيوناً ويصطادها العنكبوت مع أن عيونه محدودة؟ فقلت له: لا تعجب وكيف تعجب من آية الله في الأرض، فقال: وأي آية؟ قلت: إن كثرة الآلات والقوى لا تمنع من الهلاك، ألا ترى إلى قيصر الروس وغيره من ملوك الأرض فإنهم مع كثرة جيوشهم وعدد آلاتهم قد سلط الله عليهم من طردوهم من ملكهم بل قتلوا بعضهم، وهو قيصر الروس الذي أثار الحرب الكبرى في زماننا واتحد مع إنكلترا وفرنسا، قدم للحرب بعد أن دبر المكائد فماذا جرى؟ كانت هذه الحرب شؤماً عليه ويتبعه نحو (١١٠) مليون من الناس، ومن هؤلاء (٢٠) مليون يعملون في حقوله، فهذا كان من ضحايا الحرب فعزل ثم قتل. إذن كثرة العدد والآلات لا تدل على البقاء، فهذا الذباب كثرت عيونه التي تعد بالآلاف ولكن نوع العنكبوت الذي لا تزيد عيونه على ستة أزواج قام فافترس الذباب على كثرة عيونه.

إن الله حكيم في صنعه، ألا ترى أن هذا الذباب ـ وإن كان ينظف جونا بابتلاعه الرطوبات التي فيها أنواع الحيوانات الذرية الصغيرة الفاتكة بنا القاتلة بأنواع الحميات والوباء ـ يرجع هو نفسه مهلكاً لنا فينقل الأمراض ويأتي بالوباء، فهو نفسه لما تغذى بالمواد الضارة ليصلح جونا أصبح هو ضرراً لنا، فخلق الله العنكبوت لتصطاده وتصطاد غيره من الحشرات الفاتكات بنا وبزرعنا، فالذباب بإحداث العدوى، وغير الذباب بأكل الزرع، فجعل الله هذه العناكب مساعدة لنا، فمن جهل بعض المسلمين لا يعلمون أن هذا مساعدهم ونافع لزرعهم وحافظ لهم ولقوتهم

يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الله منّ عليه بالعنكبوت، يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الطيور من القنابر والعصافير والغربان وأبي قردان والبوم تساعده في أكل الدود والحشرات الفاتكات بزرعه، وقد أوضحت أكثر هذا في هذا التفسير فراجع بعضه في سورة «المائدة».

إنه ليحزنني والله أن تكون أمتنا أجهل الأمم بهذه العلوم التي تمتعت بها أوروبا ونحن عنها غافلون، أذكر أنني وأنا مدرس بدار العلوم كنت أرقب نسج العنكبوت في حديقة المدرسة وأنظر له كل يوم، فلحظ ذلك وكيل المدرسة وهو من المتعلمين فقال: ما هذا الذي تحافظ عليه؟ قلت: إن هذا النسج فيه عجائب، فهو نسج محكم يدل على حكمة بالغة أبدعها صانع هذا العالم، فتبسم ضاحكاً وقال: لا قيمة له، وهذا لأن المعلمين لا يشوقون التلاميذ إلى الجمال، وهذه أكبر مصيبة في الإسلام، وقد ابتدأت تزول، وهذا التفسير من دلائل النهضة ومن أوائلها. فقال صاحبي: كم عدد الحشرات على وجه الأرض؟. فقلت: إن الحشرات التي من بعضها غذاء العنكبوت قد بلغت في تعداد أنواعها أكثر مما بلغته سائر الحيوانات، وإذا كانت الخنافس وحدها تبلغ (٨٠,٠٠٠) نوع فما بالك بغيرها من الحشرات، وأنواع الحشرات المعروفة (٢٠٠,٠٠٠)، ويتوقعون أنها تبلغ ألف ألف. فقال: هذا مدهش إني قرأت في كلام أسلافنا أن في البحر (٤٠٠٠) أمة، وفي البر كذلك. فقلت له: الأمر فوق ما قالوا، والله يقول: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨]، ويقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس ابتدأ ظهورها الآن، وهذا التفسير من المنبهات لها، وأن المسلمين بعدنا لا ينصبون ولا يتعبون في تحصيل العلم وسيقوم فيهم هداة ومصلحون ينشرون هذه العلوم بين الناس، فلا يكون فيهم من يقاسي ما قاسيت مما ذكرته في

كتابي «التاج المرصع»، فإني ذكرت هناك أنني كنت أقرأ في كلام الإمام الغزالي أن عجائب الله تعالى في نسيج العنكبوت وأعمال النحل لا تتناهى. فأما عجائب النحل فقد كانت واضحة لي، وأما العنكبوت فكنت أود أن أرى شكلاً منظماً في الكتب، لأرى حسن النسق والنظام فيه فلم أوفق لذلك حتى قرأت الكتب الإنجليزية فوجدت الرسم فيها، فعجبت كل العجب من أمة نائمة لا تعرف نعمة الله ولا تسير على خطوات علمائها، فلا جمال الله أدركوا ولا آراء علمائهم اتبعوا.

هل يجوز رسم الحيوان في التفسير

فقال لي صاحبي: هاهنا قامت عليك الحجة، فقلت. وأي حجة؟ فقال: أذكرك بأنك في سورة «النمل» وددت أن ترسم أشكال الحيوان الذي يحتاج للإيضاح، فلم لا ترسم لنا العنكبوت حتى نطلع على الوصف الذي وصفته؟ ولِمَ لمْ ترسم النملة التي وصفتها هناك ولم ترسمها؟ ألم تقل إن رسم ذلك ليس مباحاً فقط بل هو واجب لأن التعليم واجب. وبعبارة أخرى: إن هذا التأليف واجب عليك وجوباً عينياً، ويجب قراءة هذا على من احتاج إليه وهو قادر إما شكراً لله وإما لزيادة التوحيد، وقد يجب وجوباً كفائياً كما أوضحته أنت في سورة «المائدة» عند مسألة الغراب وفي غيرها. فقلت له: سأرسم شكل نسج العنكبوت. فقال: لا يكفي لا بد من رسم نفس العنكبوت ونفس النملة وإلا عد ذلك منك خوفاً من صغار العلماء. فقلت: لا أقدر أن أرسم ذلك إلا بعد شرح المقام في السنة حتى يوقن كل مطلع على التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم يجيز ذلك. فقال: يا عجباً، إن التصوير الشمسي لم يرد تحريمه في كتاب ولا في سنة، وما ورد في التصوير من تحريم أو تحليل راجع لفعل الإنسان إما مجسماً وإما غير مجسم بالرسم المعروف. قلت: هذا حق. قال: وإذا كان حقاً فلماذا تريد أن تطيل المقام أو تراوغ فلا ترسم هذه الأشكال، وإني أذكرك بأنك في كتاب «جمال العالم» قلت ما معناه: إن العنكبوت لها ستة أرجل كسائر الحشرات، مع أن العنكبوت غير الحشرات ولها ثمانية أرجل فإذا رسمت الصورة لم يحصل هذا اللبس. فقلت: فلنورد الأحاديث حتى لا يقع لبس في هذا المقام وتنقطع المعاذير، وهاك بيانها:

(١) روى قتادة قال: كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما وهما يسألونه ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم حتى سئل فقال: سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يقول: «من صوّر صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ». اهـ.

(٢) روى الأعمش عن مسلم قال: كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير فرأى في صفته ـ بتشديد الفاء ـ تماثيل، قال: سمعت عبد الله قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون».

(٣) روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم». هذه الأحاديث ونحوها وردت في فعل التصوير بمعنى إيجاد الصورة. أما ما كانت رقماً في ثوب أو ورق فهاك ما ورد فيها:

(١) روى زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة»، قال بسر فمرض زيد بن خالد فعدناه فإذا نحن في بيته بستر فيه

تصاوير، فقلت لعبد الله الخولاني: ألم يحدثنا في التصاوير؟ فقال: إنه قال: «إلا رقماً في ثوب، ألا سمعته؟ قال: لا، قال: بلى فذكره». اهـ.

(٢) روى الترمذي بسنده عن عتبة أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده فوجد عنده سهل ابن حنيف، قال: فدعا أبو طلحة إنساناً ينزع نمطاً تحته فقال له سهل: لم تنزعه؟ قال: لأن فيه تصاوير وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما قد علمت، قال سهل أولم يقل «إلا ما كان رقماً في ثوب»؟ فقال: بلى ولكنه أطيب لنفسي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

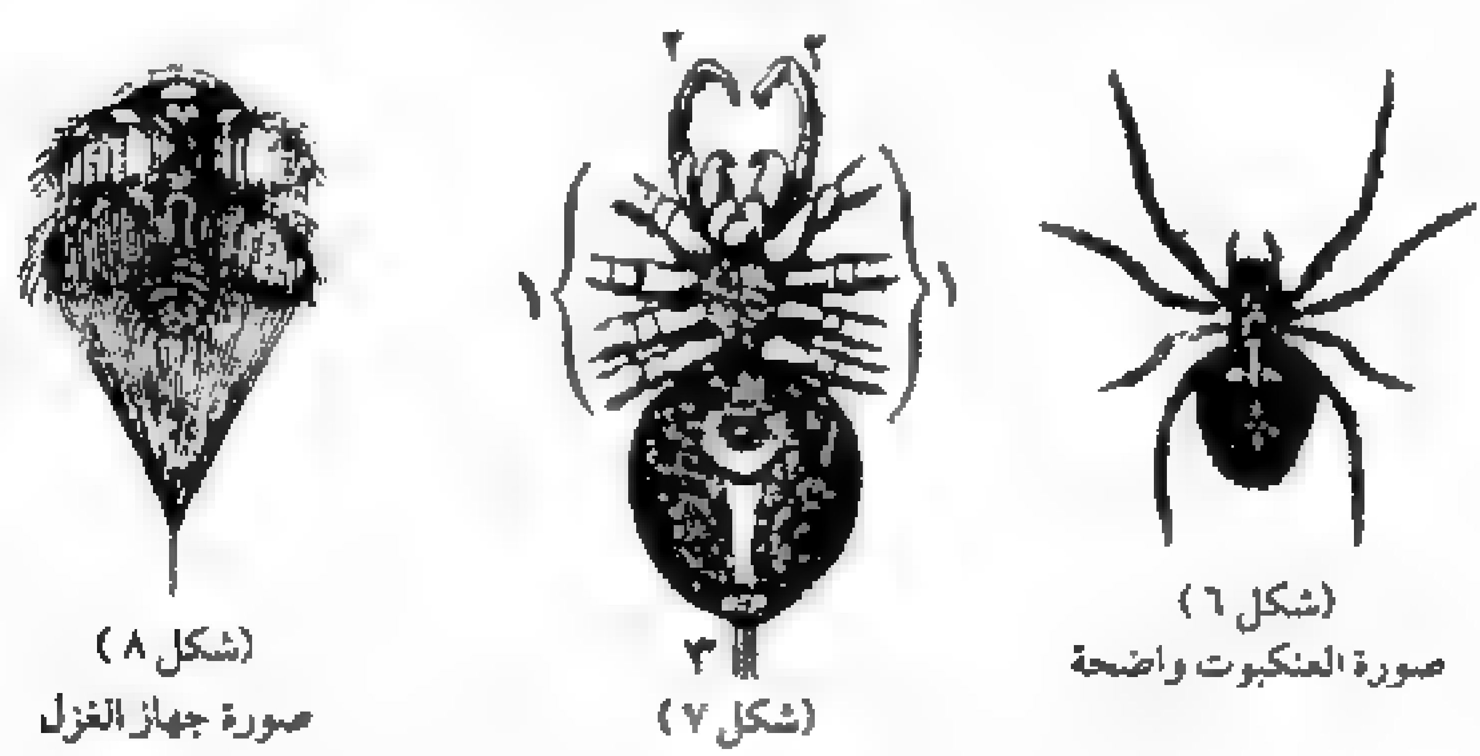
(٣) روى أنس رضي الله عنه قال: «كان قرام لعائشة رضي الله عنها سترت به جانب بيتها، فقال صلى الله عليه وسلم: أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي». اهـ.

هذه الأحاديث تدل على إباحة الرقم، فأما الفوتوغراف فشيء آخر، وإنما هو صور جاءت من ضوء الشمس، وضوء الشمس ما هو إلا تصوير الله، ومن ذا يقدر أن يحرم تصوير الله. وقال الخطابي: «إن المصور الذي يصور شكل الحيوان فإني أرجو ألا يدخل في هذا الوعيد لأنه ليس إلا رقماً».

فتبين بهذا أن رسم الصور بيد الإنسان ليس محرماً بنفس نص الحديث الحسن الصحيح وكلامنا أيضاً ليس فيه، بل إن الصور الشمسية كلها من تصوير الله، فإذا رأيت صوراً في هذا التفسير فإنها كصور الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا حسن جداً وواضح لجميع المسلمين، وإنما سقط المسلمون في مثل هذا للجهل الذي غشي على العقول، فبدل أن يسيروا في رقي الأمة رجعوا القهقرى وفتحوا باب الكفر والنوم والجهل وأقفلوا أبواب جمال الله تعالى ومعرفة عجائبه التي لا نهاية لها، جهلوا علوم الكائنات، ولما أردتم إيضاحها حفتم من الجهلاء فأوردتم الأحاديث خيفة أن يقفلوا أبواب العلم في وجوه القارئين.

تذكرة: ثم إن هذا الموضوع قد كتبته أثناء التأليف، ولكن أثناء الطبع كتبت ما هو أجمل من هذا في سورة «يونس» فاقرأه. (انظر الأشكال الآتية).

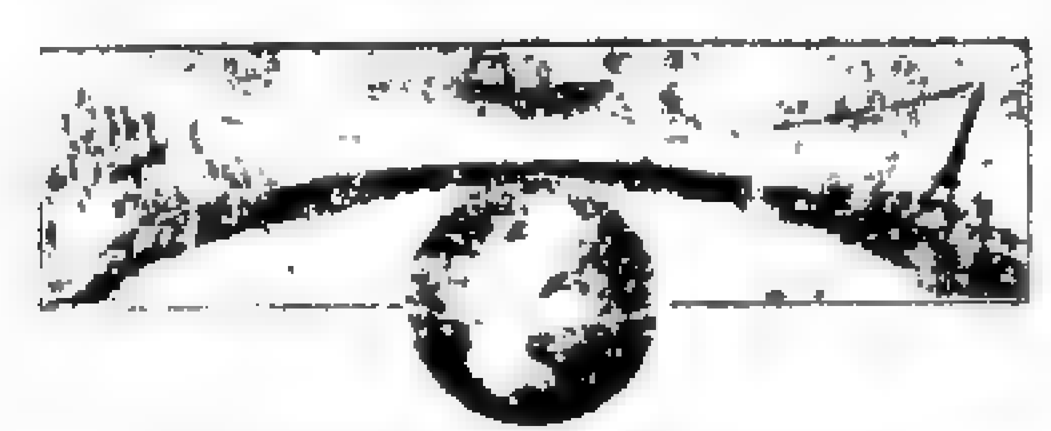


(شكل ٦)
صورة العنكبوت واضحة

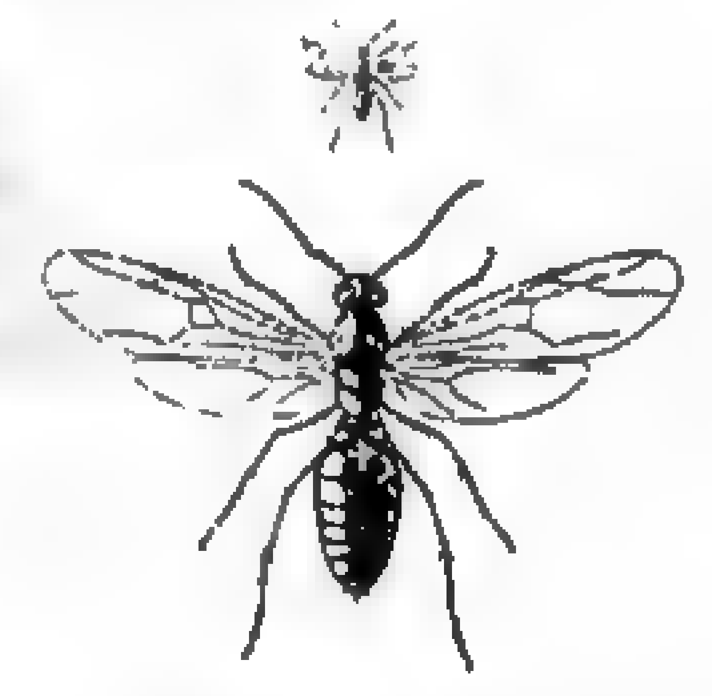
(شكل ٧)
صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسيج

(شكل ٨)
صورة جهاز الغزل

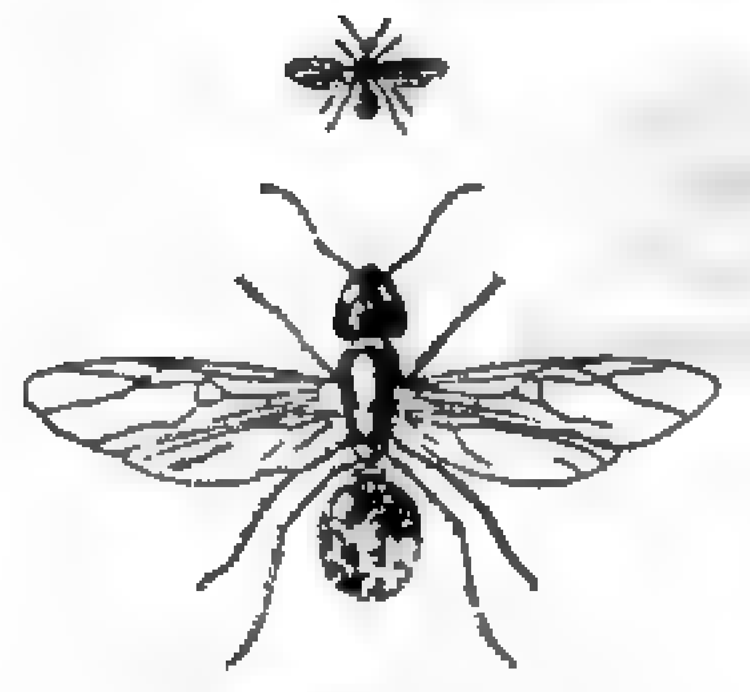
يعرز العنكبوت مادة سائلة تجف بمجرد ظهورها في الهواء، وتكون على شكل خيوط رفيعة ويستعملها العنكبوت كحبالة لاقتناص فريسته من الذباب أو غيره من الحشرات الصغيرة، ولينزل بواسطتها من المحال المرتفعة كي لا يسقط فيتأثر بالسقوط، ومادة هذه الخيوط خفيفة للغاية من حيث الوزن، حتى إن ما يبلغ وزنه أوقية واحدة من هذه الخيوط يمكن أن يصل بين نيويورك في أمريكا وباريس في أوروبا، أي: بين عمارة ولورث في الأولى وبرج إيفل في الثانية، وإذا أخذ من خيوط العنكبوت ما يزن رطلاً أمكن أن تطوق به الكرة الأرضية مرتين.



(شكل ٩ ـ صورة نسيج العنكبوت مع بيان حسن لها)



(شكل ١٠) صورة ذكر النمل الحقيقي
صورته مكبرة جداً لموازنتها بصورة العنكبوت



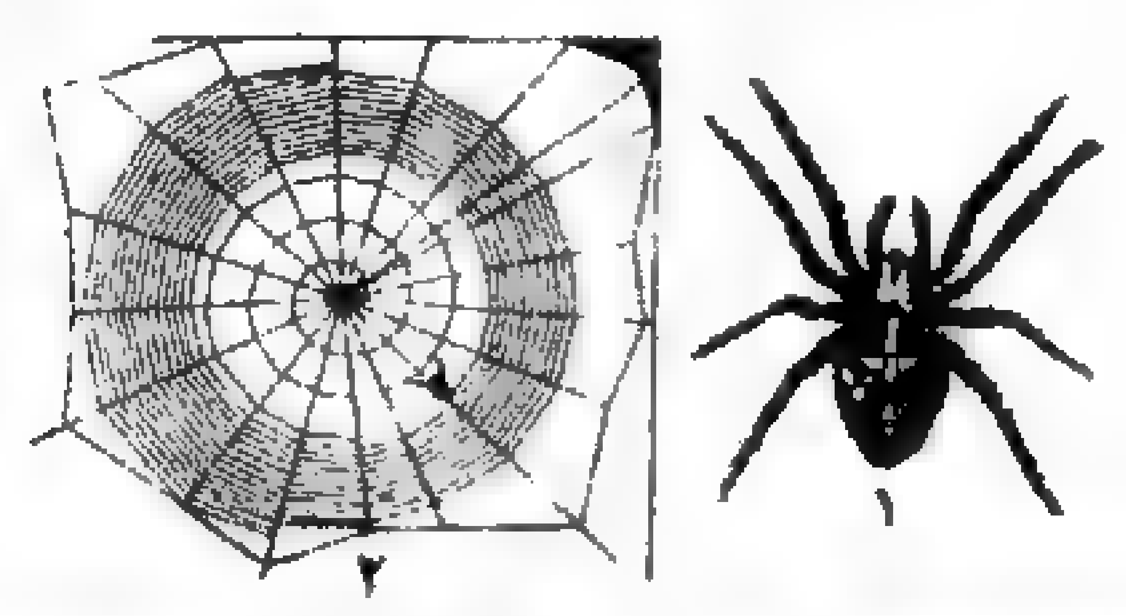
(شكل ١١) صورة أنثى النمل مكبرة
صورة الأنثى على حقيقتها



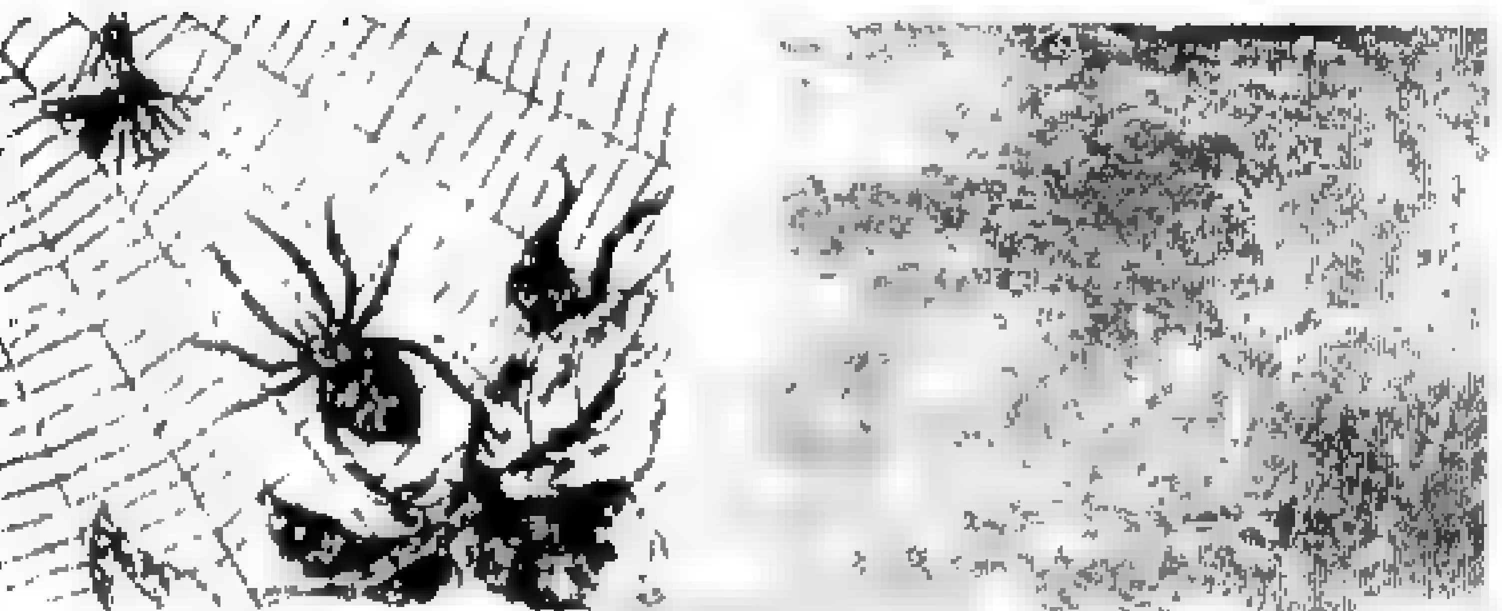
(شكل ١٢)
صورة بقر النمل المسمى افيز

(شكل ١٣)
صورة مخلب العنكبوت

(شكل ١٤)
صورة اجتماع الخيط

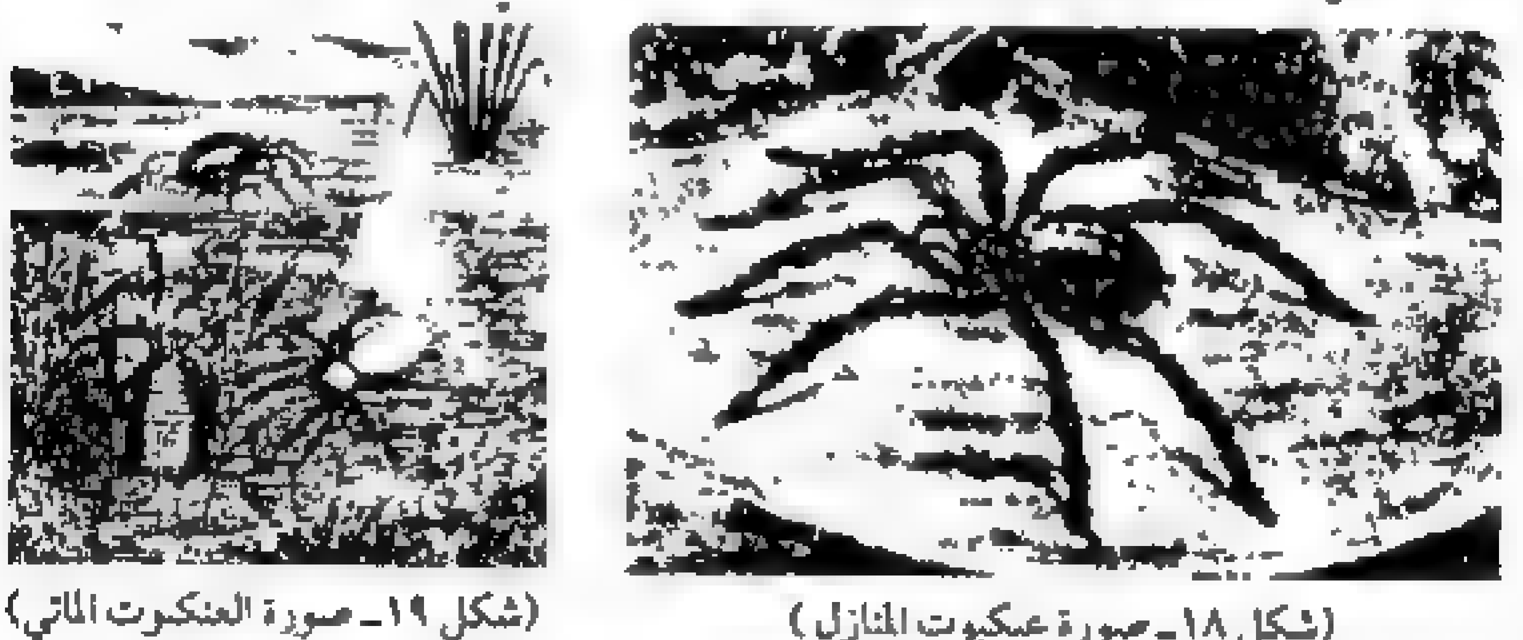


(شكل ١٥ـ صورة عنكبوت الحديقة وبيتها)



(شكل ١٦ـ صورة أكبر بيت للعنكبوت)

(شكل ١٧ـ صورة عنكبوت الحديقة صائدة)



(شكل ١٨ـ صورة عنكبوت المنازل)

(شكل ١٩ـ صورة العنكبوت المائي)

فلما اطلع صاحبي على هذه الأشكال سر غاية السرور وانشرح صدره، وقال: لقد قمت بما وجب عليك وهذا أصلح ما وقع في كتبك من الخطأ، فإنك ذكرت عن المتقدمين أن ريق العنكبوت إذا لامس الهواء صار خيطاً، فظهر الآن أن الكشف الحديث أبان أن هناك غدة ظهرت في الشكل أخرجت لنا هذا النسيج الذي صار تارة طيارة كطيارات الناس في هذا العصر وتارة سفينة في بحر لجي وتارة تكون عشاً ومنزلاً وشبكة صيد.

فهذه الكرة المرسومة المتقدمة مبع عجيب جداً للسفن العنكبوتية ومنازلها ومهد أولادها وشبكات صيدها وسفنها وطياراتها وقناطرها التي تعبر عليها، وإذا كانت هذه حال العنكبوت التي بيتها أضعف البيوت فكيف استحالت حال المسلمين اليوم من القوة إلى الضعف فجهلوا كل شيء ونسوا نعمة ربهم في صغيرات الأمور وكبارها.

لطيفة

لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال: لقد مر على الأمم الإسلامية قرون وقرون ولم يظفروا في تعاليمهم بأمثال هذه الصور، ولكن هذا الزمان هو الذي ظهرت فيه العلوم وتقدمت الفنون فساعدت على ظهور هذا التفسير بهيئة جديدة، ولكن ليس معنى هذه الصور أنها تصدنا عن المباحث العامة. فقلت: سل ما بدا لك. فقال: إن الله ضرب العنكبوت مثلاً لما يعبد الكافرون من الأصنام، وقرر أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت وقد رأينا من الإتقان فيه والإبداع ما لا حد له؟ فهذا عجب، كيف اجتمع نهاية الإبداع مع نهاية الوهن؟ إن الوهن لا يجامع الإتقان. فقلت: إذا كان بيت العنكبوت أوهن البيوت مع أنه عجيب الصنع بديع الإتقان فإن هذا هو المعروف في العالم، فأنت ترى فيما تقدم في آخر سورة «النمل» في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣] أن مقدار الماء الذي يملأ ملعقة الشاي يحتوي على مقدار من الهيدروجين، وهذا المقدار فيه كهرباء لو استخرجها العلماء في المستقبل لأصبح عندنا منه مائة ألف كيلو من الكهربائية قوتها تساوي (١٣٣) ألف حصان، وما هذا كله إلا من الهيدروجين الذي في ملعقة الشاي، ما هو الهيدروجين في تلك الملعقة؟ إن هو إلا جزء من (٩) من الماء وذلك أن الماء مركب من الأكسوجين والأودروجين. والأودروجين في الوزن لا يساوي أكثر من واحد من (٩) من الأكسوجين. إذن تسع ملعقة الشاي هو الذي يعطينا (١٣٣) ألف حصان، فهذا الماء في الملعقة شيء لا يؤبه له فضلاً عن جزء من تسعة من هذا المقدار. إذن الله أتقن القليل وأدهشنا من إتقانه، وإذا كان هذا عمله بالقليل فما بالك بالكثير؟ وهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة: ٧] فالقلة لا تمنع الإتقان، لأن القدرة والعلم لا حد لهما، وهذا على حد قول الشاعر:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

فما قاله الشاعر في ممدوحه يقال هنا: إن جميع البيوت في العالم سواء أكانت إنسانية كبيوتنا أم كانت للحيوان والطير أمتن وأقوى من بيت العنكبوت.

ألا ترى منازل الناس وأجحار الضب والغزال والذئاب وأضرابها ثم إلى أعشاش الطيور التي تبنيها في الأشجار، فهذه كلها أقوى من بيت العنكبوت. فهكذا الأصنام وإن كانت ماثلة أمام الناس يرونها بأعينهم لا قوة ولا عمل لها، ونسبة الأصنام من حيث عبادتها إلى خالق العالم كنسبة بيت العنكبوت إلى بيوت الإنسان ونحوه، فبيت العنكبوت إذا نسبناه إلى بيوتنا وبيوت حيواناتنا كان أوهن البيوت، هكذا عبادة الأصنام يتوهم الناس أنها تنفعهم وما هي بنافعة، وإنما يتخيل عبادها بوهمهم نفعها لهم، فهذا التخيل الذي لا يرى أشبه ببيت العنكبوت من حيث ضعفه لا من حيث حسن إتقانه، فهذا مقام وذاك آخر، بل إذا تمادينا بالفهم ونظرنا بعين الحقيقة رأينا هذه الدنيا كلها أشبه

بالأصنام المعبودة حقيقة عند كثير من الناس إنّما هو الهوى . وبعبارة أخرى : الناس يحبون الدنيا كالمال والولد حباً جماً ، وهذا الحب هو العبادة الحقيقية ، وإذا كانت الدنيا لا ثبات لها بل هي زائلة ، بل ظهر كما تقدم في سورة « النور » عند قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] : أن قطرة الماء فيها جواهر صغيرة تكاد تصل في العدّ نجوم السماء التي عرفت في الكشف الحديث ، ومع هذا كله ترى هذا العدّ لا يملأ من فراغ تلك القطرة إلا جزءاً واحداً من مئات آلاف آلاف ، وبناء عليه أصبح هذا العالم عند العلماء عالماً أجوف ، والمادة فيه تكاد تكون متوهمة . إذن هذا العالم عالم الوهم ، فليس الحكم على المادة بأنها كبيت العنكبوت خاصاً بالأصنام ، بل هذا الحكم يعم المادة كلها والحياة فيها ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الأنعام : ٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .

وأهم ما تقدم أن بيت العنكبوت من حيث إتقانه له حكم غيره من حيث ضعفه ، فضرب المثل به جاء من حيث ضعفه لا من حيث إتقانه ، وهذا الضعف له نظير في المادة كلها وفي الأصنام ، فالمادة أشبه بالوهم والخيال كما وضح في قطرة الماء في سورة « النور » ، ولا جرم أن هذا الإيضاح ليس يعقله جميع الناس بل يعوزه علم وحكمة ، لهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

فالجاهل يظن ضرب المثل بالعنكبوت أمر سهل لأنه مفهوم ، والعالم يدرسه دراسة تامة ويفهم ما كتبناه ، فقال : لقد أجبت بما شفى صدري ، ولكني أريد أن أسألك سؤالاً آخر : هل قلد الناس نسيج العنكبوت لجماله وإبداعه وإتقانه وهندسته ؟ .

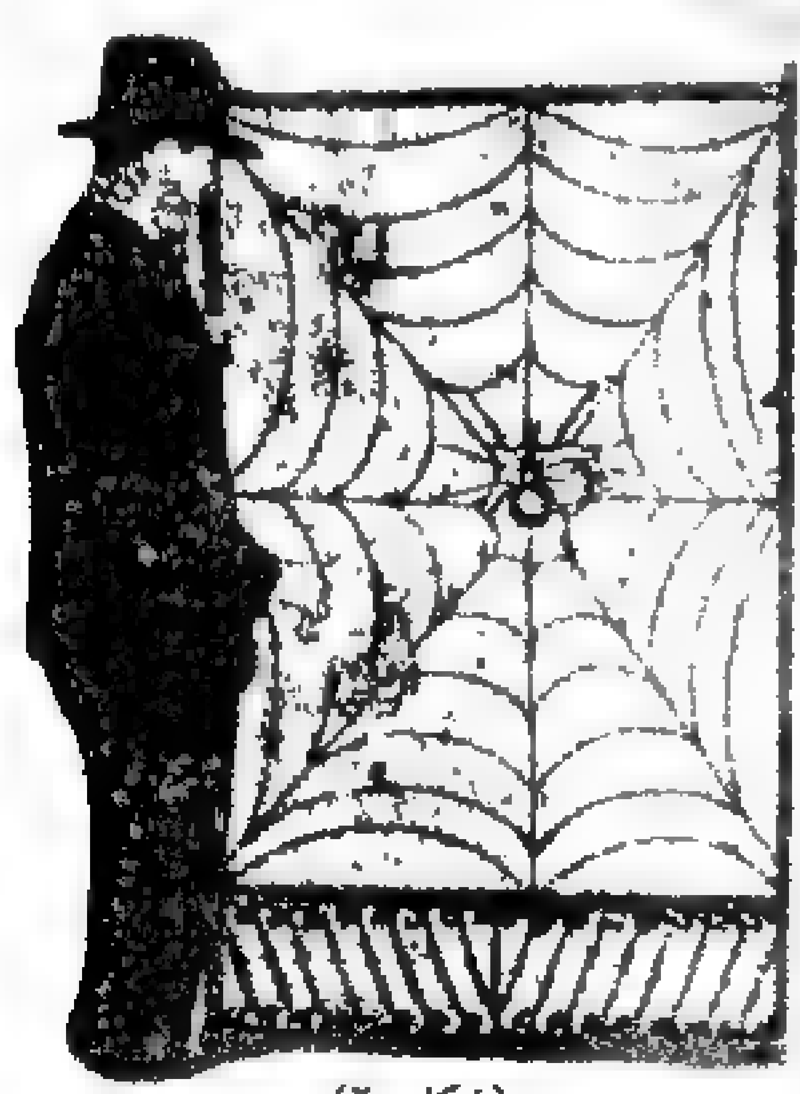
فقلت : نعم فقد جاء في مجلة « كل شيء » ما نصه :

محاكاة الطبيعة

كل منا يعرف نسيج العنكبوت ويعجب به ، كما أننا نضرب المثل به في الضعف والوهن ولكن أحد الصناع الإنجليز رأى أن يقلده فصنع باباً من الحديد بهيئة نسيج العنكبوت وعرضه حديثاً في لندن فنال إعجاب كل من رآه .

لطيفة

لقد تقدم في سورة « الفرقان » عند قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الآية : ٢] أن العنكبوت تأكل الذباب وبهذا يخلو الجو للإنسان والحيوان . إذن العنكبوت نافع للزراعة لأنه آكل الحشرات ذباباً وغيره ، فاقرأ هذا الموضوع هناك .



(شكل ٢٠)
باب من حديد مصنوع بهيئة نسيج العنكبوت

وإني أزيد المقام حكمة بما رأيته اليوم من أن العقارب التي شاركت العنكبوت في أرجلها الثمانية وفي الهيئة ؛ شاركتها أيضاً في قتل الحشرات فانظر (شكل ٢١) .

(شكل ٢١)
صورة عقرب تأكل العث والسوس

هذه عقرب صغيرة تعيش بين الأوراق والكتب والأخشاب في البيوت القديمة وتقتات بالعث والسوس وسائر الحشرات التي تأكل الثياب والأقمشة والأوراق ، لها ثمانية أرجل مثل سائر العقارب ولها كلابتان إذا قبضت بهما على الحشرة أزهقتها ، وهي تبيض نحو (٢٠) بيضة تحملها في طية من طيات بطنها حتى يفقس البيض ويخرج الصغار . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

وإلى هنا انتهى القول في السؤال الأول وما ترتب عليه من الشروح في الحشرات والعنكبوت فقد اكتفيت .

أما جوابي لك أيها الأخ على السؤال الثاني وهو : لماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا وهل هذا يوافق مساق الآية؟ فإني أقول لك : ما الذي دعاك إلى هذا السؤال . فقال : غيرتي عليك لأني رأيت أن هذه العلوم أنت مغرم بها ومساق الآية لا يعطي ذلك ، إنّما مساقها لذم عبادة الأصنام وأن عقولهم وقفت عند أمر ضعيف كضعف نسج العنكبوت ، وما مثلك في هذا إلا كما جاء في «الإتقان في علوم القرآن» للعلامة السيوطي أن العلامة الرازي غلب عليه أقوال الفلاسفة فأكثر منها ، وقال أبو حيان في «البحر» : جمع الرازي كل شيء إلا التفسير ، وهكذا أبو حيان نفسه وقع فيما وقع فيه الرازي ، فقد غلب عليه قواعد النحو ومسائله ، فأكثر من ذلك كالواحدي في البسيط والزجاج ، ثم إن الثعلبي غلبت عليه الأخبار . والفقيه يكاد يجعل القرآن كله للفقه كالقرطبي ، فإني أخاف أن تفسيرك يكون بحسب ما غلب عليك واشتهر عنك في كتبك . فقلت له : أما من ذكرت من الشيوخ فهم أساتذتنا ولولاهم ما علمت شيئاً . وأما قولك : إن تفسيري خارج عن مساق الآية ، فهذا هو الذي أجيبك عنه وستعلم أن هذا زمان ظهور الحقائق القرآنية .

فاعلم أيدك الله أن مساق الآية كما ذكرت أنت إنّما هو تشبيه هؤلاء الكفار من حيث إنهم اتخذوا غير الله إلهاً ، بالعنكبوت اتخذت بيتاً ، ولا جرم أن بيت العنكبوت بالنسبة لبيوتنا كمعدوم لا وجود له ، وما مثل العنكبوت بالنسبة للمنازل في القرى والمدن أو للأهرام بمصر الذي يقارع الأجيال وهو باق على كر الدهور ، لا كنسبة العدم للوجود ، وإذا كان نور الشمس لما وازناه في سورة «الأنعام» بنور أضعف الكواكب بلغ مئات ألوف ألوف الألوف ، فهكذا هنا نسبة الهرم إلى بيت العنكبوت أبعد وأبعد جداً . إذن عقول هؤلاء الكافرين بعبادتهم الأصنام أصبحت نسبتها إلى من يعرف الله ويدرك مصنوعاته كنسبة بيوت العنكبوت إلى أهرام الجيزة بمصر . إن عقول الكفار لما وقفت عند المحسوسات وانحصرت فيها وعبدت الأجسام وانحصرت وانحبست في صور محدودة وهياكل معدودة ؛ كانت

نسبتها إلى عقول الأنبياء والحكماء والأولياء كنسبة بيوت العنكبوت إلى أقوى الأبنية، أو كنسبة أضعف كوكب إلى ضوء الشمس الذي شبه به الرسول صلى الله عليه وسلم، فقيل في القرآن: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: ٤٦]، فإذن تكون المسألة راجعة إلى قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات: ٩٥-٩٦]، فأول الآية يمثل انحصار العقول وغفلتها بالوقوف على ما نحته الناس وآخرها يمثل انطلاق العقول إلى باحات الجمال وإشراقها بإدراك سر هذا الوجود بقدر الطاقة البشرية.

إذن أصبح هذا التمثيل داعياً إلى انطلاق العقول وعدم حبسها في أشياء خصة، بل يراد بذلك درس هذه الموجودات لمعرفة مبدعها وارتقاء العقول في هذه الدنيا ونظام المدن. فإذن هذا المثل حوى أمرين: ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[النمل: ٨٨]، وصنع المخلوق الضعيف، فصنع الله هو الذي يجب البحث فيه، ووقوف العقل عند حد محصوص هو الذي يذم. فالنفوس التي وقفت عند عبادة الأصنام نفوس ضعيفة فآراؤها أشبه ببيت العنكبوت بالنسبة لأقوى الأبنية فهي لا محالة واهية ذاهبة. والدليل على ذلك أن كفار مكة لما جاء الإسلام خضعوا له طوعاً لقليلهم وكرهاً لأكثرهم، فهم اتخذوا ما يشبه بيت العنكبوت فلم يحفظهم، بل غلبهم المسلمون في الحرب، وهكذا يوم القيامة يعذبون، وهكذا ترى المسلمين في الأعصر المتأخرة ناموا وعكفوا وجهلوا كل شيء في الدين فغلبهم الفرنجة في السياسة وفي الحروب.

والحاصل أن كل من وقفت عقولهم وجمدوا فإنهم لا محالة مقهورون، فالمدار على العلم في كل موطن في الدين والدنيا، فإذا رأينا العلوم في هذا الزمان قد جملت الناس وألبستهم وأطعمتهم فمن ترك ذلك فهو كالعنكبوت اتخذ بيتاً، وإذا رأينا المسلم يقرأ في علم التوحيد كلمات جدلية ويقتصر على الفقه ويترك مواهبه وعقله وتفكيره ونعمة ربه في سماواته وأرضه وحيوانه وحشراته وعنكبوته وهوائه ومائه وهو يرى الأمم تحيط به تعلم هذا كله ثم هو لا يفكر، قلنا: إن مثله كمثل العنكبوت وهو آثم، لأنه ترك ما يجب عليه إما وجوباً عينياً أو وجوباً كفائياً.

إن هذا المثل عجيب جداً، وكيف لا يكون عجيباً وهو قد ذكر بيت العنكبوت والعنكبوت، فبيت العنكبوت شبه به الأصنام المعبودة، والعنكبوت نفسها من صنع الله، وصنع الله يطلب النظر فيه شكراً لله وتوحيداً له، ومن أعجب وأبدع ما صنع الله خلق العنكبوت، فانظر فهاأنت ذا رأيت عجائبها رأيت مراكبها وطياراتها ومساكنها وقناطرها، فكيف كان هذا الحيوان الضعيف قد أتم الله خلقه وأكمل صنعه وجعله آية للعالمين، وكيف كان أعجوبة الدهر ومثال الجمال والكمال، وكيف اخترق الآفاق في الهواء بصناعاته وأبدع منسوجاً، خيوطه خارجات من جسمه بلا إرشاد مرشدين ولا تعليم معلمين، فساح في الهواء وجرى على الماء وبنى القناطر وربى الذرية، وطارد الجيوش الجرارة من الحشرات فاقتنصها وأراح منها زرعنا اللهم اشهد.

إني أسجل على المسلمين جهلهم بهذه المصنوعات التي صنعتها والعجائب التي أبدعتها والطرق التي لنا أهديتها، اللهم إنك أنت الجميل الذي أبدعت الجمال وأظهرته في هذه الحشرة التي أتقنت الصنعة وأحكمتها، والمسلمون لا يعلمون.

اللهم إني أذكر بهذا التفسير كل من اطلع عليه أن يبين للمسلمين حكمة ربهم وصنعه، ويفهمهم أنه لا معنى لشكر الله ولا لحب الله ولا للاهتداء بآيات الله إلا بهذه العلوم ومعرفتها. انظر كيف كان المثل مضروباً لسخافة عقول الكافرين المحصورة، فجاء فيه الأمران: بيت العنكبوت ونفس العنكبوت، ولما كان النظر في أمر العنكبوت نفسها لا يخطر بالبال؛ يقول الإنسان: إنه خارج عن الموضوع؛ أفاد ذلك فقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣] بكسر اللام، فهو يقول: إن العلماء هم الذين يفهمون هذه الأمثال، ومعنى هذا أن العلماء بهذه العلوم ـ كالحشرات مع ما ينضم إليها ـ هم الذين يعقلون هذا المثل، وإلا فلماذا يأتي بهذه الجملة بعد مسألة العنكبوت، ولماذا يختص هذا المكان بأن هذا لا يعقله إلا العالمون، بكسر اللام.

اللهم إن المثل من حيث إنه يراد به أن الأصنام كبيت العنكبوت واضح للصبيان والعجائز، لا يحتاج إلى علماء ولا حكماء، ثم زاده إيضاحاً فقال: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، وأتبعه بذكر أنه آية للمؤمنين، ثم تلاه بأمره بتلاوة القرآن وبالصلاة لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والفحشاء والمنكر يمنعان القلب من معرفة جمال هذه المصنوعات الإلهية، وأعقبه بقوله: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[العنكبوت: ٤٥]، ومعلوم أن التفكر في الصنعة أشرف الذكر وهو الذي رمز له بالعنكبوت ونسجه.

هنا تبين الأمر وظهر، فكأنه يقول: هذه الأصنام المعبودة تشبه بيت العنكبوت لا ثبات لها، والذي ينفع الناس هو النظر في السماوات والأرض، ويمثل ذلك كله نفس الحشرة، فالحشرة العنكبوتية في المثل من أبدع ما خلق الله في السماوات والأرض، ودقة نسجها وعجائب صيدها وقنصها وإتقان الغدد التي في جسمها حتى تخرج خيوطاً، وغير ذلك، دال على جمال الصانع وحكمته، فالمثل فيه ضعف الصنعة وإتقانها، ضعفها من حيث مقارنتها ببيوت الناس، وإتقانها وقوتها من حيث نظام الله العام، ولا جرم أن هذا لا يعقله إلا العلماء، والجهلاء يكتفون بظواهر القول.

الله أكبر، الله أكبر، جلّ العلم الذي أرانا أن هذه الحشرة خلقت لتأكل الحشرات الضارة بزرعنا وهي تكون نموذجاً لما يفعله الله في الأمم، إن الأمم التي تقل فائدتها في الوجود وإن كثر سلاحها وضخمت أجسامها لابد من سقوطها، كدولة الرومان وكدولة الأندلس الإسلامية التي غاب عنها عقلها وعلمها وعشقت الشعر وحده، وكان الرومان قد شرهوا وقتلهم الترف والبطنة فأخذتهم الأمم وإن كانت عندهم الأسلحة وافرة، وها نحن أولاء نرى الأمة العربية كيف فتحت مصر بآلاف تعد على الأصابع مع قلة العَدد والعُدد، وقد كان في مصر مائة ألف من الجند الروماني فضلاً عن جنود القبط في مصر مع وفرة العدد. إن الله جعل الأمم التي يقل نفعها أشبه بالذباب، فهي مهما كثرت جيوشها وعددها مقهورة مصروعة مخذولة بأمم أقل منها سلاحاً، كما ترى في العنكبوت الذي قلّت عيونه وفي الذباب الذي تعد عيونه بالآلاف.

فلما سمع صاحبي بهذا قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أما أنا الآن فإني أعتقد أن هذا من أسرار القرآن التي كانت محجوبة لهذا الزمان، ويظهر لي أن هناك ما لا يتناهى وقد حجب عنا القوم بعدنا، لقد ذكرني هذا ما في «كتاب الإتقان» للسيوطي الذي حدثتك عنه آنفاً، فإنه جاء فيه ما

يأتي في النوع الرابع والستين: «إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لأن هذه الشريعة باقية فخصت بالمعجزة العقلية ليراها ذوو البصائر، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» أخرجه البخاري. قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه». انتهى من كتاب الإتقان.

قال صاحبي بعد أن قص ما تقدم: فأنا أرى أن ما تذكره أنت في التفسير من الذي لم يظهر إلا في العصر الحاضر، وكيف لا ونحن نرى أن مثل العنكبوت ما كان ليحتمل هذا كله ويدخل في أبواب العلوم والزراعة والسياسة، وفوق ذلك يستبين في هذا التفسير أن المثل مقصود به ذلك بدليل أنه قال: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، بكسر اللام، وهذا بلا شك يفيدنا أن ما ذكرته أنت من العلم في تفسير الآية كله مقصود القرآن، فقلت: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اهـ.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

قد مر الكلام عليها في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾[الآية: ٢٣٨]، ولكن أذكر هنا جوهرة وهي:

جوهرة: في قوله تعالى:

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾

وفي حكم خطرت لي في الصلاة صباحاً يوم السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٩

إن الصلاة في ديننا الإسلامي موافقة أتم موافقة لهذه الدنيا، فإنا نرى ليلاً ونهاراً وشروقاً وغروباً، فإذا كان النهار سعى الناس لمعاشهم وترددوا في مهامهم، وإذا كان الليل استراحت أجسامهم وسكنت حركاتهم، فهكذا في الصلاة يقول المصلي: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٥-٦] الخ، إذن المصلي يعبد ويستعين بربه في كل شيء فهذا أشبه به أثناء النهار، وهكذا يقول: «ربي اغفر لي وارحمني» الخ، وذلك بين السجدتين، فهو في هاتين الحالتين عامل كعامل الناس نهاراً، ولكنك تسمعه يقول في الرفع والاعتدال: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، ويقول في الركوع: «خشع لك سمعي وبصري» الخ، وفي السجود: «سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين». فهو في هاتين الحالين ما بين واصف للنظام الجميل في جسمه وساكن خاشع لا يطلب له ولا عمل، ففي الأحوال الثلاثة للمصلي قد سكن لعمل ربه في سماواته وأرضه وفي أعضاء جسمه، إذن هو مستغرق في ذلك الجمال، فهو يلاحظ الفاعل في فعله، فإن رفع رأسه من الركوع تذكر النعم العامة في السماوات والأرض فنطق بالحمد عليها وقال: «لك الحمد ملء

السماوات وملء الأرض » الخ ، وليس ينطق بهذا إلا بعد أن بهره جمالها فلم يبق بعد ذلك إلا أن يغيب عن شهود نفسه ويشهد صانع هذه العوالم فيقول : « لا مانع لما أعطيت » الخ ، لأني لما رأيت أن جسمي ما هو إلا ذرة من السماوات والأرض ونعمك قد شملتهما سكنت إليك لأنك تربيني في الدنيا تربية ألهمت المرأة نظيرها في تربية ولدها ، والأستاذ كذلك في تعليم تلميذه ، فبينما المرأة تعلم ولدها الجلوس تارة والقيام تارة أخرى إذا هي تلقمه ثديها تارة وتنيمه في المهد أخرى ، وهكذا الأستاذ بينما هو يعطي التلميذ دروسه ويلقنها له من تلقاء نفسه إذا به يقول له : فكر فيما لقنتك واكتب عليه موضوعاً إنشائياً .

إن نظام الله واحد ، نهار وليل ، وحركات الطفل بتعليم أمه ثم أنامته وأراحته ، وعمل التلميذ بنفسه في التعلم ثم إلقاء المعلم له الدرس وإراحته عقب الدرس ، هكذا في الصلاة تسليم لله في الرفع والاعتدال ودهش من نظام السماوات والأرض ، وهكذا تعجب من نظام الجسم في الركوع والسجود و ستغراق في ذلك الجمال ، ثم الاجتهاد في العبادة وطلب الهداية وطلب المغفرة والرحمة في حالي القيام ، وفي الجلوس بين السجدتين .

وملخص هذا كله أن هذه التربية في الصلاة موافقة كل الموافقة لنظام هذا العالم ولنظام التعليم في مدارس العالم قاطبة ، فتربية الإنسان في صلاته كالتربية المدرسية ، فليجعل المسلمون الدروس منتظمة وقتاً للجد ووقتاً للراحة كما تفعل الأمم وكما يفعل المصلي ، إذ يستغرق تارة في جمال الله وتارة يفكر بنفسه ويطلب منه الإعانة ، فإذا وجدنا رجلاً ترك العمل وقال : إني مستغرق في حب الله ، وجب تأديبه لأن هذا ينافي التربية ، وإذا وجدنا آخر لا يفكر في نظام هذه الدنيا وجمال خالقها ، بل أصبح مكباً على عمله ، قلنا له : قد أخطأت ، إن هنا ليلاً وإن هنا نهاراً وأنت جعلت حياتك كلها نهاراً وقد خالفت نظام الصلاة الذي يجعلك تارة مستغرق في نظام السماوات والأرض ونظام جسمك ، وآونة تستفيق فتطلب المعونة والهداية وتارة والمغفرة تارة أخرى ، وهذه نفسها حال رسول صلى الله عليه وسلم ونظام القرآن ، فكان صلى الله عليه وسلم يعمل جميع الأعمال ويكل نتائج العمل لله ، هكذا فليفكر المسلمون وليجدّوا في أعمالهم على شريطة أن لا يذروا عملاً ولا نظاماً ولا كمالاً إلا أتقنوه ثم يطمئنون لما تجري به المقادير ، وهذا هو التوكل بعينه ، عمل تام واطمئنان قلب لكل ما تأتي به المقادير . انتهى والحمد لله رب العالمين .

إيضاح الكلام على الصلاة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر

اعلم أن العلم الذي ينزله الله على القلوب كالماء الذي ينزل من السماء على الأرض ، فكما أن الماء لا تظهر أنواع تصرفاته ولا فنون أعاجيبه إلا باختلاطه بأجسام النبات والحيوان ونحوهما ، فهكذا الوحي الحق الذي ينزل على الأنبياء ، لا تظهر فنون أعاجيبه ولا صنوف الحكمة إلا بأن تتناوله عقول العقلاء وتفكر في معانيه . إذن تظهر أعاجيبه وتبتهج بها القلوب . ومسألة الصلاة في الآية وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر يعوزها البحث والتنقيب في آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والأوروبيين وحكماء الهند وحكماء الإسلام . فإذا درسنا ما قاله هؤلاء في هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها في فهم هذه الآية . ومتى تم ذلك لنا أدركنا سر نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، لأن القرآن

آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وعليه تكون آراء الفلاسفة في جميع الأمم أشبه بتفسير للقرآن لأنه آيات بينت في صدورهم. وعليه يجب على المسلمين أن يفوقوا الأمم في الفلسفة حتى يظهر سر هذا الدين الذي لا تظهر ثمراته حق ظهورها إلا بدراسة علوم الأمم المعبر عنها بالآيات البينات في صدور الذين أوتوا العلم، وإذاً فلنبدأ بدراسة حكماء اليونان فنقول: اقرأ ما تقدم في سورة «الشعراء» عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الآية: ٨٠]، إذ ذكرت هناك عن طيماوس الحكيم أمراض البدن وأمراض النفس، وأن الثانية تابعة للأولى، وأن أمراض النفس ثلاثة أقسام: فمنها ما يتبع إفراط اللذة، وما يتبع إفراط الألم، وما يتبع إفراط الأخلاط كالمرارة والبلغم، لأنها تعطل سريان النفس في البدن، فيكون ذلك سبباً للتهور والجبن وجمود القريحة والنسيان وهكذا

وملخص كلامه أن الشر غير اختياري وله علتان: فساد المزاج وسوء التأديب، ولا سبيل للخروج من هذه المآزق إلا بحفظ النفس والبدن معاً، وذلك برياضتهما معاً، ورياضة البدن بالحركات البدنية، ورياضة النفس بالموسيقى. هذا ملخصه فاقرأه هناك.

وإذا أشرت إلى آراء علماء اليونان فلأتبعه بآراء علماء أوروبا وهو ما تقدم في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهذا نص ما ذكره العلامة «بنتام» الإنجليزي في أصول الشرائع: «إن هناك علاقة بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية، وهذا الارتباط لاحظه كثير من المؤلفين، فإن النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز في أفعاله والتمسك في الوقار في أطواره.

والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جداً، حتى إن شرائع المسلمين حثت عليها حثاً كلياً وجعلتها من الواجبات الأولية»، وقد ذكر في نفس كتابه أن هذا من محاسن الدين الإسلامي وقد رتب على هذا أمرين: وجوب نظافة المسجونين، ووجوب وضعهم في عمل من الأعمال؛ لأن المذنبين عنده هم القذرون أجساماً الذين لا عمل لهم، فمتى نظفوا وعملوا قلت جرائمهم. انتهى ما نقلته عن «بنتام» الإنجليزي.

وأما ما قاله علماء الهند فذلك أني قرأت في كتاب «راجا يوقا» المترجم من الهندية إلى الإنجليزية سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ أن الإنسان يجب عليه أن تكون له رياضة خيالية، بحيث يتذكر في كثير من الأوقات الصور الجميلة التي لا تثير شهوة، يريد بذلك الأزهار والكواكب وجمال الإبداع والنظام، وأن ذلك يقوي النفس ويرقيها. وأما ما قاله علماء الإسلام فهو ما ذكره العلامة ابن سينا في أواخر كتاب الإشارات، أن الذي يرقي بالنفس إلى معاليها الصوت اللطيف والعشق العفيف والعبادة مع الفكر، ومعنى العشق العفيف عشق الصفات والكمال والأخلاق لا عشق الصور. هذا ما أردت نقله لأشرحه فأقول:

تبين من هذه الأقوال أن هذه النفس مع الجسم لا يتركان سدى، ذلك أنهما نتجا من عوالم كلها متحركة؛ فالملائكة محركات للعوالم العلوية لا تفتر لحظة، والسماوات المرسلات أنوارها لا تنام والعالم كله حركة ونظام، فهاهنا نفس وهاهنا جسم يطلبان كمالهما، فأولاً لا بد من النظافة كما قال «بنتام»، وهذه النظافة قد أصبحت ركناً في تربية الأمم وتعليم المسجونين لتدفع عنهم الكسل وسوء

الخلق، وبها تقل الجرائم والذنوب، وهذا السر ظهر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة: ٢٢٢]، لأن بين التوبة والطهارة علاقة متينة كما تقدم. ثم إن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم، وهذه الأفعال حركات، وهذه الأقوال دالة على معان. فهنا رياضتان لطيفتان: رياضة جسمية ورياضة عقلية. وإذا وضعت قول ابن سينا مع قول طيماوس الحكيم نتج لنا أن رياضة النفس لا تقتصر على الموسيقى كما قاله طيماوس، بل تشمل الفكر الذي تحويه العادة كما قال ابن سينا، وتشمل الصور البهجة السماوية كما قاله علماء الهند. وعليه تكون الصلاة مبدأ لأمرين: رياضة البدن ورياضة النفس، فكل منهما لا بد له من حركات والصلاة اشتملت على مبادئهما، فإذا أتم المسلم الصلاة فليتمم رياضة الجسم بكسب المعاش، أو فليمش نحو ساعتين كل يوم كما يقول الأطباء في زماننا. فإذا كان الطبيب يأمرنا بالمشي الذي لا تعقل فيه؛ فهاهي ذه الصلاة اجتمع فيها حركة الفكر وحركة الجسم وهذا أفضل. ألا ترى إلى ما يقوله علماء الطب ــ وقد تقدم في هذا التفسير ــ أن التمارين الجسمية والألعاب الرياضية التي شاعت في الأمم الآن أدنى مراتب الرياضة البدنية لأنها لا فكر معها. فأما العمل في البساتين والحقول فإنه أعظم الرياضات، ويليه المشي، وأسفل الجميع تلك الألعاب.

إذن ظهر أن الصلاة أعطتنا درسين: درس رياضة الجسم ودرس رياضة النفس، ومتى انتظم هذان الأمران أصبح الإنسان قليل الذنوب قليل الشرور، فإن الشرور لا تنجم إلا من قذر الأجسام، والطهارة في الصلاة تمنع ذلك، ومن عدم الرياضة البدنية والرياضة النفسية كما قاله طيماوس، وهاتان الرياضتان اشتملت عليهما الصلاة بحركات الجسم وحركات النفس، إذ يقف المصلي فيفكر في السماوات والأرض حين يقرأ: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض» الخ، فهاهنا تحضر في نفسه تلك العوالم الجميلة فتقوّي روحه وتشرح صدره، وهكذا يفكر في العوالم العلوية والسفلية عند آية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، ويتعجب من الرحمة الواسعة عند قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة: ٣]، وهذه الرحمة لا حد لها في كل حشرة وطير وأنعام. وهكذا يفكر في خلق جسمه وأعضائه وسمعه وبصره عند الذكر في الركوع والسجود إذ يقول: «خشع لك سمعي وبصري» الخ، ويقول: «وسجد وجهي» الخ، فإذا أتم المسلم صلاته اتجه إلى الأعمال في حياته الدنيوية فتكون على منوال ما في الصلاة، وتنصرف نفسه للعمل الجسمي والعمل العقلي، وهنالك تنصرف عن الشر إلى الخير.

بهجة هذا المقال

اعلم أن أفلاطون في جمهوريته يقول: «إن حكام الجمهورية لا يكونون عادلين إلا إذا انفتحت عيون بصائرهم، ولا يتم ذلك إلا بعشق العلوم والمعارف، لأن النفوس مغرمة بالشهوات البدنية أولاً، وباللذات كالمطاعم والملابس والمشارب، وبالشهوات الغضبية كالفتك بالأعداء، فهاتان القوتان هما المسيطرتان على نفوس الناس، فإذا لم يفتح للحكام باب اللذة العقلية بعشق العلوم فإنهم لا محالة ينصرفون إلى اللذتين السابقتين، فيشاركون المحكومين لهم في أعراضهم وأموالهم، ولا خروج للحكام من ذلك الظلم إلا بتلك الخلة الشريفة». هذا ملخص كلامه في جمهوريته.

وأنا أقول : « إن ملخص الصلاة مفتاح لجميع العلوم » ، فاقرأه فيما كتبناه في سورة « آل عمران » فإن المسلم في الرفع والاعتدال يذكر السماوات فيقول : « ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما » الخ ، وعند الركوع والسجود يفكر في أمر جسمه وتشريحه . فإذا كان المسلم في كل يوم يتذكر هذه العوالم فليس لهذا معنى إلا حب البحث فيها ، وهذا هو الذي يخرج نفسه من حبس الشهوتين إلى حب العلم ، وهو صفة القوة العاقلة كما يقوله أفلاطون .

الله أكبر . ظهر سر هذه الآية الآن . فالنظافة تمنع الذنوب ، وأذكار الصلاة تفتح أبواب العلم المانعة من الشهوة والغضب وهكذا ، فظهر إذن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، أي : بنظافتها وحركاتها الجسمية وحركاتها العقلية .

تطبيق على ما تقدم

سبب إسلام الأستاذ عبد الله كويلم الإنجليزي

لقد كان لإسلامه تاريخ وضعه هو في كتاب ، وقد ذكر لي بعض الأصحاب ملخص ذلك الكتاب . قال : « لقد اعتراني مرض فعرضت نفسي على الأطباء ، فقالوا لي : لا بد من أنك تسافر إلى أقطار حارة كبلاد الجزائر ، فتوجه إليها وخالط أهلها فوجدهم يتوضؤون ويصلون فسألهم : ما هذا؟ فقالوا : هذا أمر واجب شرعاً ، فترك العامة وأخذ يسأل العلماء عما يفعل المسلمون ، فعلموه قواعد الدين الإسلامي ، فدهش وقال : يا عجباً ، إن هذا الوضوء خمس مرات في اليوم إنما هو نصف اغتسال لأنه غسل أطراف الجسم ، ولم يبق من الإنسان بلا غسل إلا الجذع ، هنالك أخذ يدرس هذا الدين وقال : إن هذه النظافة هي الصحة بعينها وسلامة الجسم عينه ، والأطباء يجعلون هذا أول علامة على قوة الأجسام وسلامة العقول ، وما كاد يرجع إلى بلاده حتى أخبر زوجته وأفهمها حقيقة الإسلام ، وبين لها فوائد الاغتسال والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج ، وقال : إن هذا صالح لرقي الإنسانية جمعاء ، فأسلمت معه ، ثم قال لها : لنعرض هذا الرأي على فلان وفلانة ، من أصحابهما فعرضه عليهما فقبلا ، وهكذا اجتمع له من أصحابه طائفة وأعلنوا إسلامهم ، فلما سمع بهم الجيران سطا عليهم الغوغاء وصاروا يقذفونهم بالحجارة ويعيرونهم بأنهم مسلمون ، ولما كان هو من رجال القانون المشهورين رفع دعوى على الملكة فيكتوريا ، يقول فيها : أنت ملكة إنكلترا ، فهل ملكك خاص بالنصارى أم هو شمل لأهل جميع الأديان؟ فما كادت الدعوى ترفع في المحكمة ويصل الخبر إلى الحكومة حتى بادرت الشرطة فحافظوا عليه وعلى أصحابه ومنعوا الغوغاء عنهم » .

ثم قال : « وبعد ذلك سمع بنا أمم الإسلام وأخذوا يرموننا بالنفاق والرياء وأننا إنما أسلمنا لنغش المسلمين بإسلامنا فندخلهم تحت حكم دولتنا ، قال فقلنا لهم . أيها المسلمون ، نحن لم ندخلكم تحت حكمنا بنفاقنا بل حكمناكم بجيوشنا ومدافعنا » .

هذا ما عرفته من ملخص سيرة الأستاذ « عبد الله كويلم » الذي يعتبره الناس شيخ الإسلام في بلاد الإنجليز ، وقد كان إسلامه قبل إسلام صديقنا « اللورد هيدلي » الذي كان سبب إسلامه أنه قرأ الإسلام والديانات فرآه خيرها ، فأسلم ونشر إسلامه في أوربا ودعاها إلى الإسلام . وقد نقلت من كتابه قطعة في سورة « مريم » قد ذكر فيها أن الألمان كشفوا سنة ١٩٠٣ كتابة في بلاد العراق ملخصها

أن الكشف الحديث أثبت أن الصلب وابن الله البكر وأمثال ذلك ما هي إلا خرافات سرت للأمم المسيحية من ديانات كانت في العراق وهكذا، فاقرأه هناك، والحمد لله رب العالمين. انتهى صباح يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩.

الصلاة اليوم في بلاد الإسلام

لأقص اليوم أيها الذكي عليك قصص ما علمته من الصلاة في بلاد الإسلام، وسأجعل ذلك فصولاً وهاك بيانها:

(١) فأولاً أذكر ما دار من الحديث بيني وبين التلاميذ بالمدرسة الخديوية.

(٢) أذكر ما كتبه كاتب إنجليزي أيام النهضة المصرية، ومطالبة البلاد المصرية بالدستور أيام الخديوي السابق عباس حلمي باشا.

(٣) وحكاية معلم ولي عهد البلاد المصرية أيام كانت تحت حكم الخديويين.

(٤) وما قصه علي أستاذي الشيخ حسن الطويل.

(٥) حديث عن أهل سيلان.

(٦) وما ذكره «هنري الفرنسي».

(٧) وصدق العلم في الجامع الأزهر ومخالفة العادات في بلادنا لهذا الدين.

(٨) وطريقة الوهابية في بلاد نجد والحجاز.

الفصل الأول: في ما ذكر ما دار من الحديث عن الصلاة بيني وبين تلاميذ المدرسة الخديوية وأنا مدرس لهم

ذلك أني يوماً ما سمعت أن وزير المعارف جمع المدرسين وأخذ يكلمهم في أمور عامة علمية، فتصادف أن أحد المدرسين قام ليصلي المغرب إذ حان وقت صلاة المغرب، فقال: ما هذا؟ أتريد أيها الأستاذ أن تظهر أنك أنت المتدين ونحن لا دين لنا، ما هذا؟ ولماذا لا تؤخرها. وقال في مجلس آخر: «إن الصالحين في الإسلام يسهرون الليل ليصلوا وهو مخالف للصحة»، فلما سمعت هذا القول خطر لي أن أحادث التلاميذ في هذا الموضوع فقلت: «أيها الأبناء إننا اليوم أرقى ممن قبلنا فالحمد لله الذي رفع عنا الإصر وأزال عنا الضر، فأصبحنا بفضل المدنية الحاضرة أعلى كعباً في المدنية وأعز ناصراً وأكثر عدداً ومالاً وولداً، كيف لا ونحن نحافظ على صحتنا وننام طول الليل كما يقتضيه علم الصحة، أما تلك الطائفة القديمة من أمم الإسلام فإنهم كانوا لا يحافظون على صحتهم، ويسهرون طول الليل تعبداً، ويأكلون ما خشن من الطعام، ولا يسعدون سعادتنا التي نلناها على يد الأوروبيين المتمدينين، أولئك الذين فتحوا لنا المطاعم والمشارب وأنواع اللذات، فأكلنا وشربنا وتمتعنا بكل لذة وأصبح النابغون وغير النابغين في بلادنا يكرعون الخمر نهاراً جهاراً وهم في فرح وسرور، لا ينهى أحدٌ أحداً، ولا يخجل الشارب ولا الزاني ولا غيرهما، كل ذلك للحرية الواسعة النطاق بفضل هذه المدنية المباركة»

كل هذا وهم سكوت كأنما على رؤوسهم الطير، ثم قلت: ولكن عندي مسألة واحدة وهي كيف نكون نحن على هذا المقام من العظمة والأبهة ونرى أننا عبيد لكل الأمم، فإن جميع أوروبا لها امتيازات عندنا، ومن قتل منا لا دية له، لأن محاكمهم هي التي تحكم ولا راد لحكمها، لضعفنا وقوة

تلك الأمم، أما هؤلاء فقد حكموا أكثر تلك الأمم وهابها الجميع. أما أنا الآن فإني متحير في المسألة. أما الرقي فنحن والحمد لله راقون، وأما الذل فهو نصيبنا والعز نصيبهم. فهنا يا أبنائي حار فكري. نحن لا نتقيد بقيد من شرع ولا دين ثم نذل، وهم لا يتمتعون مثلنا ولكنهم أعزاء فما قولكم؟ فقام شاب فيهم يسمى «بهنساوي» فقال: إنك قد فتحت هذا الباب وقد أثرت في نفوسنا تأثيراً عظيماً، ولكن هل تظن أن مجلساً واحداً كهذا يغير أخلاقاً وعادات ورثناها عن الآباء والأمهات والمدرسين ونظار المدارس؟.

نحن تعلمنا في الابتدائي ولا صلاة هناك، ثم تعلمنا في التجهيزي الآن وها نحن أولاء معك ولا صلاة أيضاً، وكيف نصلي والصلاة عندنا عار. إن التلميذ الذي يصلي يسخر منه إخوانه، ألا وإن النساء في المنازل يفعلن ما نفعل تماماً. فالمرأة المصلية يعدونها أقلهن كمالاً وشرفاً لانتسابها للدين. هنالك نظر إليه التلاميذ جميعاً وردوا عليه وقالوا: اسكت، لقد كذبت في قولك. فقال لهم: وهل تظنون أن الأستاذ لا يعلم ذلك؟ ألم يرى هو المصلى هنا وقت الظهر لا يصلي فيها عدد الأصابع من التلاميذ والمدرسة فيها مئات ومئات، فقلت: دعوه فقد نطق بالواقع وما قاله هو الذي أعرفه في بلادي».

هذا ما جرى بيني وبين التلاميذ في المدرسة الخديوية في حصة يسمونها «المحادثة أو الإنشاء الشفهي» الذي يذكر الأستاذ موضوعاً يجعله حديثاً بينه وبينهم. وبهذا تعرف أيها الذكي حال بلادنا المصرية في هذا الزمان. وقد كان هذا قبل كتابة هذه الأسطر نحو (١٤) سنة.

أما الآن فقد تحولت الحال قليلاً حتى إن الشبان جعلوا لهم نادياً سموه «جمعية الشبان المسلمين»، وانتشرت هذه الفكرة من مصر إلى بلاد الإسلام، وأنا والحمد لله صليت معهم، وقد أصبح رقيبها بمصر من أحد تلاميذي بالمدرسة الخديوية. ومن عجب أنه موقن بالإسلام ومحب للصلاح، ويصلي بالليل والناس نيام، وله حكم عجيبة واسمه «يحيى الدردير»، وقد مكث في ألمانيا (١٢) سنة يكرع من موارد العلم، ورجع مغرماً بالإسلام غراماً لا حد له. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني

فيما كتبه كاتب إنجليزي أيام مطالبة بلادنا المصرية بالدستور

ذلك أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها في أول القرن العشرين تحركت لطلب الحرية الداخلية، وأخذت الجرائد في إنكلترا تنقل عن جرائدنا ما يقوله المصريون، فكتب كاتب إنجليزي يقول: «لا يصح للإنجليز أن يخرجوا من مصر إلا إذا أصبح الخاصة والسياسيون وأهل الرأي في البلاد في الأخلاق والعواطف كالفلاحين، إني جئت هذه البلاد فرأيت طبقة الفلاحين والجهلاء والخدم عندهم عطف على الأرحام والمساكين وذوي الحاجة ويوقنون بالعقيدة ويخافون ربهم، أما هذه الطبقة المتعلمة بمصر فإنها تذر الدين وتتركه، والتلاميذ دائماً يقلدون أساتذتهم، والأساتذة قسمان: قسم من شيوخ دار العلوم، وقسم من متعلمي المدارس الأخرى، أما الشيوخ فإنهم حين يلقون الدرس الديني لا يلتفت إليهم التلاميذ، لأنهم يرون ناظر المدرسة لا يبالي بهذه الأمور والعبادات ويضرب بها عرض الحائط وهو لها من الكارهين، فكيف تسلم البلاد لأقوام لا خلق لهم ولا كمال».

أقول: وهذا مغالطة، فإن هذا التحول عن الفضائل إنّما جاء لمجاراتهم واتباع نصائحهم، وكيف يصلي الوزير أو الأمير أمام حاكم إذا رآه كذلك حقره وأضمر له السوء طول حياته. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث

في ذكر ما قصه عليّ والد أحد المعلمين لوليّ عهد الخديوي عباس

قال: إن ولدي قد اختاره الخديوي مربياً لولي العهد، وقد قص علي حديثاً فقال: «كنت يوماً جالساً مع فيلسوف بوذي عند ناظر مدرسة فرنسي، فقدم لنا ذلك الفرنسي القهوة فلم أشرب، فسألني ناظر المدرسة قائلاً: لماذا؟ فقلت: لأني صائم. فقال: وهل أنتم لا تزالون خاضعين لهذه الأوهام. أي صيام وأي صلاة؟ دعوا هذه الأوهام ليرتقي الشرق والشرقيون، وما أضر أهل الشرق إلا الأديان، ومثلك راق مهذب فعليك أن تنصح أهل بلادك بنبذ هذه الترهات، وانظروا إلى أوروبا تركت الدين فملكت رقاب العالمين، فلما أراد القيام قال له الفيلسوف البوذي: قابلني يا سيدي أفندي يوم الأحد عند كنيسة كذا. فلما قابله يوم الأحد دخل الكنيسة فرأى قوماً يصلون، وبقيا هناك نحو ساعة، فلما خرجا معاً قال له الفيلسوف البوذي: قد لاحظت هنا شيئاً، فقال: من أي وجه؟ قال: ألم تر ناظر المدرسة يصلي مع المصلين؟ فقال: إي وربي إنه لحق، فقال: أليس هو القائل دعوا هذه الخرافات؟ فقال السيد أفندي له: نعم، فقال: أتدري لم قال لك ذلك؟ قال: من فمك أحلى، فقال: إن هؤلاء القوم يريدون أن يذموا ت أديان الشرق لنتركها، ومتى تركناها انحلت قوانا وذهبت رابطتنا وحينئذ يحتلون بلادنا، فهؤلاء القوم عقدوا الخناصر على هذا فهم له أبداً ساعون. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع

فيما قصه علي أستاذي الشيخ حسن الطويل في هذا المقام

وقبل أن أذكر حديثه رحمه الله تعالى أقدم مقدمة فأقول: إن البلاد المصرية قد حكمها المرحوم محمد علي باشا، ولم يكن في البلاد أكثر من ثلاث ملايين، وهؤلاء كانوا يصلون ويصومون، وكانت المدارس كلها أستاذ أو تلميذ قائمين بشعائر الدين في بلادنا وفي أوروبا، وأمكنه بهذا العدد القليل أن يملك بلاد الحجاز ونجد وأكثر بلاد العرب وهكذا بلاد السودان، وزحف بجيوشه على بلاد الترك لولا توسط أوروبا، فلما مات المرحوم محمد علي باشا وإبراهيم ابنه، ملك البلاد بعده بعض عقبه، فغيروا الأوضاع وترك بعضهم الصلاة واتبعوا الشهوات فانحلت العصبية، وكان هذا تمهيداً لاحتلال الإنجليز هذه البلاد. فانظر لما حدثني أستاذي الشيخ حسن الطويل.

قال رحمه الله تعالى: «لقد كانوا أدخلوني في زمرة الجند وارتقيت إلى جاويش، وقد كان أستاذي بالأزهر علمني دعاء أدعو به لتفريج الكرب، قال: فلما كنت بالجيش في الإسكندرية أخذت أقرأ هذا الدعاء وأدعو الله أن يخرجني من زمرة هذا الجيش، قال: وكانت هناك أوامر من الخديوي أن كل من صلى أو أظهر العبادة يعاقب، فلما علموا بأني أدعو الله بهذا الدعاء أنزلوني درجة وعاقبوني بأن أحمل سلاحي وعتادي وأرجع من الإسكندرية إلى مصر ثم رفتوني، قال رحمه الله: وقد جهل هؤلاء أن هذا الرفت هو مطلوب الدعاء الذي كنت أدعو به».

أقول هذه حال الجيش وحال المصريين بعد أيام المرحوم محمد علي باشا ، فكان ذلك توطئة لما نحن فيه الآن ، وقد كانت هذه الفكرة آتية لهم من أهل فرنسا إذ قالوا لهم : إن الديانات تؤخر الأمم ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[هود : ٨] . انتهى الفصل الرابع .

الفصل الخامس : في حديث محمد بك عرابي

نجل المرحوم أحمد عرابي باشا ، عن أهل سيلان

لما رجع المرحوم أحمد عرابي باشا إلى مصر بعد النفي وقد هرع إليه الناس يسلمون عليه قابلت ابنه ، ودار الحديث بيننا على أهل سيلان فقال : « إن صلاة الجماعة أمر حتم على كل مسلم والرئيس الديني هناك يتفقد كل مسلم في صلاة الجماعة ، فإذا تأخر شاب عن الصلاة أحضره أكابر البلد وأنذروه أول مرة ، فإن عاد عادوا إلى الإنذار ، فإذا كانت الثالثة حكموا عليه بالإعدام . قلت : وهل ينفذ؟ قال : نعم . قلت : وماذا يفعل الإنجليز؟ قال : لو دخل عند الملكة فكتوريا واحتمى بها لأخرجوه وقتلوه ولا يردون أمر الشرع » . فعجبت وكنت أظن أن بلادنا إذا تركت الصلاة فما هو إلا مجاراة للأوروبيين ، وإذا تمثلت بقول من قال :

دواؤك فيك وما تشعر ودأؤك منك وما تبصر

الفصل السادس : فيما قرأته في كتاب

خواطر وسوانح في الإسلام

للعلامة « هنري الفرنسي » الذي ترجمه المرحوم الأستاذ فتحي باشا زغلول

قال : كنت ضابطاً على جنود من أهل الجزائر ، وكنا يوماً مسافرين لأعمال الدولة ، قال : فبينما الجند راكبون وهم يغنون غناء عربياً ويشيرون نحوي بالمحبة والإجلال في أثناء النغمات ، إذ أنا بالعصر قد حضرت صلاته ، فترجلوا عن خيولهم ونزلوا واستقبلوا القبلة ، وقالوا بلسان واحد : « الله أكبر » ، فسمعت كأن الخيل والجبال والأودية والأنهار والرمال كلها تقول : « الله أكبر » ، واعتراني الخجل أن أسمع قوماً كهؤلاء يعظمون الله ، ويقولون في أنفسهم : إنني كافر بالله ، فكدت أنطق وأقول لهم : يا قوم أنا أيضاً أعبد الله . قال : وهنالك تغيرت حالي وأخذت أبحث في دين الإسلام ، وتوجهت إلى المساجد فوجدت عليها نوراً وبهجة وجمالاً وبسطة تشرح الصدر ، فأخذت أدرس هذا الدين فراعني جماله وبهجته ، ولولا ضيق المقام لنقلت منه فصولاً تليق بالمقام ، ولكن عسى أن أذكره في مقام آخر . انتهى الفصل السادس .

الفصل السابع والثامن : في صدق العلم في الجامع الأزهر

ومخالفة العادات لحقائق الدين في زماننا

وفي طريقة الوهابية ببلاد الحجاز ، وبعض بلاد الإسلام

اعلم أن ما سمعته الآن عن بلاد « سيلان » له نظير في بلاد « بلوخستان » ، فلقد قرأت في بعض الجرائد عن سائح ألماني قال : « لم أجد سعادة أوفى ، ولا عزاً أبهى ، ولا كمالاً أرفع ، ولا راحة أعظم مما رأيته في بلاد « بلوخستان » ، قال : فهؤلاء يعبدون الله على مذهب الإمام الشافعي ، فإذا كانت صلاة الصبح حضر الرجال والنساء والصبيان الصلاة ، وأخذ الأستاذ يلقي النصائح الدينية ، ثم

إذا طلعت الشمس رجعوا وهم مستبشرون». قال: «والمرأة هناك مكبة على عملها قائمة بالواجب عليها، بيتها نظيف وعرضها نظيف وزوجها عفيف، ولم نسمع بالزنا في بلادهم سنين وسنين بخلافنا نحن، فقد يجد الرجل من أن ابنه يشبه جاره ولا يقدر أن ينبس ببنت شفة

وأقول: ثم إن الوهابيين بنجد والحجاز اليوم يقيمون الصلاة بأوقاتها وهم بالدين موقنون، واعلم أن هذه كلها تدرس في الجامع الأزهر الشريف، ولكن الطالب الذي يقرأ هذا في درسه يخرج فيجد عادات بلاده تخالفها في زماننا فلا يقدر على تغيير الأحوال فيصبح على طبع أهل بلاده». هذا ما أردت ذكره في هذا المقام تبصرة وذكرى لأولي الألباب، والحمد لله رب العالمين. انتهى يوم الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٩.

الأحاديث النبوية في فضائل الصلاة

جاء في كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي ما نصه:

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»، وقال صلى الله عليه وسلم: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا شيء، قال صلى الله عليه وسلم: فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»، وقال صلى الله عليه وسلم: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما»، وقال صلى الله عليه وسلم: «من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته»، وقال صلى الله عليه وسلم: «الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين» وسئل صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة لمواقيتها. وقال صلى الله عليه وسلم: «من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان». وقال صلى الله عليه وسلم: «مفتاح الجنة الصلاة»، وقال صلى الله عليه وسلم: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر» أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده، كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها. وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك صلاة متعمداً فقد برئ من ذمة محمد عليه الصلاة والسلام». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وإنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى له بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً، قالوا: لم يا أبا هريرة؟ قال: من أجل كثرة الخطا»، ويروى: «إن أول ما ينظر به من عمل العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر

عمله، وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله». وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب». وقال بعض العلماء: مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة. وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفئوها.

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم: «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى». وقال يزيد الرقاشي: كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد، وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض وأشار إلى الخشوع». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده». وقال صلى الله عليه وسلم: «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار». وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه». وقال صلى الله عليه وسلم: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته». وقال ابن مسعود وسلمان رضي الله عنهما: «الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف فقد علم ما قال الله في المطففين».

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة». وروى أبو هريرة: «أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناساً في بعض الصلوات، فقال: لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم». وفي رواية أخرى: «ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب، ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مرماتين لشهدها، يعني: صلاة العشاء».

وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعاً: «من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة». وقال صلى الله عليه وسلم. «من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نحره عبادة». وقال سعيد بن المسيب: ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة: أخاً إن تعوجت قومني، وقوتاً من الرزق عفواً بغير تبعة. وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتب لي فضلها. وروي أن أبا عبيدة بن الجراح أمّ قوماً مرة، فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بي آنفاً حتى أريت أن لي فضلاً على غيري لا أؤم أبداً. وقال الحسن: لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء. وقال النخعي: مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه. وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو اسحاق

البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به خير». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لئن تملأ أذن ابن آدم رصاصاً مذاباً خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب». وروي أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لفضل هذه الصلاة أحب إلي من ولاية العراق. وقال صلى الله عليه وسلم: «من صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين: براءة من النفاق وبراءة من النار». ويقال: «إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدري، فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار، فيقولون بعد السؤال: كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس، فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد». وروي أن السلف الصالح كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة».

وروي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: أعني بكثرة السجود». وقيل: «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً»، وهو معنى قوله عز وجل: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[العلق: ١٩]. وقال عز وجل: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[الفتح ٢٩]، فقيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود، وقيل: هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح، وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار». ويروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة، وكانوا يسمونه السجاد. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب. وكان يوسف بن أسباط يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض، فما بقي أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك. وقال سعيد ابن جبير: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود. وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجداً. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك».

هذا نص ما جاء في «الإحياء»، ومعلوم أن في الإحياء أحاديث ضعيفة، ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف في فضائل الأعمال. اهـ.

الفاتحة وعلوم الحكمة

سانحة يوم السبت ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩ ضحى

لم يكن ليخيل إلي يوماً أن تصبح الفاتحة بالنسبة للقرآن ولعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة، ولكن هذا الخاطر فاجأني اليوم مفاجأة بهجوم عقلي أوجب علي أن أشرحه فأقول:

إني لأعلم أن النادر من قراء هذا التفسير يعرفون المقولات، لأن المقولات إنّما جاءت من الفلسفة القديمة، والفلسفة القديمة مهجورة، بل الذين درسوها من المسلمين ينظرون للمقولات المذكورة نظرهم إلى مستصعب الأمور، فهي غامضة المعنى، ولكني قد شرحتها في كتابي المسمى «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة، وهذا الكتاب تحت الطبع الآن، وليس هذا المقام مقام الإطناب فيها، ولكني سأريها لك الآن بطريق سهل، ثم أقفي بعدها بمقاصد الفاتحة، وهنالك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها، فهي فاتحة القرآن والعلوم، وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة بإجماع حكماء الشرق والغرب، وهي الآن تدرس في جميع أنحاء أوروبا للخواص هناك بلغاتهم المختلفة. المقولات هي كلمات عشر يرجع إليها كل علم من علوم الرياضة والطبيعة وسائر العلوم، وهي الجوهر والكم والكيف والإضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال.

(١) فالجوهر يشمل كل ما تراه من المادة كالإنسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا.

(٢) والكم يشمل علوم المقادير من الحساب والهندسة والجبر والفلك وعلوم المساحة وهكذا، كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها، فعلم المدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر.

(٣) والكيف يرجع إلى كل ما نحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات والملموسات، وهكذا كل ما نحس به في نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا.

(٤) والإضافة كل شيئين يلازم أحدهما الآخر كالأبوة والبنوة وهكذا.

(٥) و(٦) والمكان والزمان شملان علوم الجغرافيا وحساب السنين والأشهر والدهور.

(٧) والوضع مثل هيئة الإنسان في جلوسه ونومه وهيئة الهواء والضوء والماء والأرض وانتساب كل واحد منها إلى الآخر بهيئة خاصة.

(٨) والملك مثل كل ما يملكه الإنسان.

(٩) و(١٠) والفعل يشمل كل مؤثر في غيره كإحراق النار وتبريد الثلج والماء وهكذا. والانفعال كاحتراق الحطب وبرودة الماء وهكذا.

هذه هي المقولات التي شرحت معناها شرحاً وجيزاً، وقد علمت أنهم أجمعوا أنه لا علم من العلوم إلا وهو مندمج فيها، ويقولون: إنها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الغصون والأزهار والأثمار.

كلمات عشر عبر بها الحكماء عن جميع العلوم، حتى إن الصناعات كلها ترجع إلى مقولة الفعل، والأمراض والفرح والحزن ترجع إلى مقولة الانفعال وهكذا، فهذه المقولات العشر نظيرها سورة الفاتحة، وأنت خبير أن معاني الفاتحة قد تقدمت عند تفسيرها، وهناك قد دخلت كل علوم الأمم مثل أن ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يشمل العالم العلوي والسفلي ولفظ ﴿ رَبِّ ﴾ من ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يشمل كل علوم التربية في العالم وهكذا. فارجع إلى تفسيرها هناك، فإنك تجد الفاتحة أشمل لجميع العلوم من فن المقولات، وعليه أصبح المسلم يتلو صباحاً ومساء كلمات هي مفاتيح العلوم.

المسلم في قراءته الفاتحة تعبداً وهو غافل عن علومها أو بعضها خير ممن يقرأ المقولات العشر، ويقول في كل وقت من الأوقات: «جوهر. كم. كيف، الخ»، وهو لا يعقل معناها، ولو أن رجلاً أخذ يتلو هذه الكلمات العشر صباحاً ومساء على مسمع من الناس لعدوه قليل العقل لأنها غير معقولة ولا مفهومة إلا للنادر من الناس. أما الفاتحة فمعناها الظاهر يكفي العابد في عبادته، بل توجهه لله بها وإن كان لا يدري معناها كاف في العبادة، والحكماء حين يتلون الفاتحة يحضر لهم إجمال العلوم كما تحضر العلوم كلها في المقولات العشر. إذن وضع الفاتحة أرقى في جمع العلوم من وضع الفلاسفة. والفلاسفة يصمونها في كلمات لا يعقلها إلا الخواص، والفاتحة تفيد العامة عبدة والخاصة تذكرة للعلوم كلها. والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

تقدم في سورة «النحل» عند قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، أن الناس ثلاثة أصناف: صنف هم العامة وهؤلاء لا ينجع فيهم إلا الوعظ، وذلك بما يرغب ويرقق القلوب ويفرحها، بضرب الأمثال، وذكر الحوادث والمشوقات والمخيفات من الجنان والنيران، وما في معناها. وصنف هم العقلاء وأرباب الفكر وهؤلاء لا تكفيهم المواعظ، بل لا مندوحة من إعطائهم البراهين القولية والأقوال الحكمية حتى يستقر إيمانهم ويثبت يقينهم.

وصنف هم قوم لا هم مع العامة ولا مع العقلاء والحكماء، وهم أهل الجدل كأهل الكتاب، فإنهم قوم مقلدون لا مفكرون، لأن كل من نشأ على دين يعسر عليه الإقلاع عنه فهؤلاء لا تنفعهم المواعظ ولا تقام لهم الحجج، وإنما يكون القول معهم باستنباط الأدلة من كتابهم لأنهم عليه يعولون وبه يثقون، فيقال لهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً ورد ذكره في كتابكم فجاء فيه كذا وكذا، فهذا هو الجدل فهو حجة لا هي يقينية ولا هي وعظية، بل هي إقناعية تستند لما يعتقده الخصم غالباً.

واعلم أن القائمين بأمر الأمم أربعة أقسام: أنبياء ووعاظ وحكماء وأمراء، وبيانه أن الوعاظ هم الذين لا حكم ولا سلطان لهم إلا على قلوب الجهال والعامة كخطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين المتأدبين في الأمم، فهؤلاء جميعاً لا يؤثرون إلا على قلوب العامة لأنهم يقومون بتذكيرهم بآيات الله بحسب ظواهر الكتاب والسنة والأخبار بدون كثير بحث ولا تدقيق والعامة لهم مصغون وعلى قولهم معولون.

الأمراء

ويعكس هؤلاء الوعاظ الأمراء، فإنا رأينا الواعظ قد خلب قلب العامي وخضع لقوله واتعظ وليس لهذا الواعظ من قوة جسمية تخيفه بل قوته روحية، فإننا نرى الملوك والأمراء ورجال الإدارات في الحكومات من قاض وحاكم وجندي فكل هؤلاء لا سلطان لهم إلا على أجسام الناس وظواهرهم لا على عقولهم وأحلامهم.

ألا ترى رعاك الله أن فرنسا تحكم في تونس والجزائر ومراكش وإيطاليا في طرابلس والإنجليز لهم بعض السلطان في مصر، ومع هذا ترى هذه الأمم لا تتبع هؤلاء الفاتحين إلا من خوف العقاب، أما القلوب فإنها مع هؤلاء الوعاظ. إذن ها جسم يحكمه الأمراء وعقل يحكمه الوعاظ.

الحكماء

فأما قسم الحكماء فهؤلاء قوم خصهم الله عز وجل بنور البصائر وازدياد الفهم وقوة الإدراك وسرعة الخطر، فهم لا يصلحون لتعليم العامة والجهلاء ولا سطوة لهم على الناس فيحكمون أجسامهم، بل سلطانهم يختص بالعلماء والوعاظ، فكما خضع العامة للوعاظ بعقولهم وللأمراء بأجسامهم وظواهرهم؛ هكذا يخضع العلماء والوعاظ للحكماء، وهم أولئك الذين امتازوا بسمو المدارك، فهؤلاء يقودون بواطن العلماء ويذكرونهم بما نقصهم من العلم، وهذه الطائفة إن لم يخلقهم الله في أمة فذلك عنوان على ضياعها وهلاكها.

ولقد قام في أمتنا الإسلامية من هؤلاء كثير، وأذكر منهم العلامة الغزالي بالشرق، وابن رشد في بلاد الأندلس، فآذاهما المسلمون، وأحرق قوم كتب الإمام الغزالي، وبصق آخرون على وجه ابن رشد وكفروه. فهذان وأمثالهما إنما خلقا لإرشاد العلماء، فلما آذتهما الأمة وقامت في وجههما أذلها الله وعوقبت قروناً وقروناً، ودخل التتار من الشرق فخربوا الدولة العباسية، وذهب مجد العرب؛ ودخل أهل أسبانيا الأندلس فأذلوا الأمم العربية وأهلكوهم، وفر منهم من فر، ومن بقي تنصروا، وهم في نظر القوم مرتدون مذنبون، ذلك مثل المسلمين السابقين.

الأنبياء

أما الأنبياء فهم يعظون العامة كالوعاظ والخاصة كالحكماء، ويحكمون على أجسامهم بالحبس والقتل وغيرهما كالملوك والأمراء. ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يعظ كالوعاظ وأمر أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة، وهذا شأن الحكماء، وأمر أن يحكم بين الناس بالعدل، وهذا شأن الأمراء والملوك. كتب ليلة الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٩ قبيل الفجر.

جوهرة

في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

وفي قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذي أنزلت القرآن، وأنت الذي خلقت أمم الشرق والغرب، وأنت الذي جعلت هذا القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، ووعدت بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به، اللهم إنك أنت أنرت بصائر الأمم الحاضرة المعاصرة لنا، وأبرزت في أوروبا أناساً

برعوا في العلم وحذقوا ودرسوا الديانات، وهم الذين أوتوا الكتاب الذين ذكرتهم، وبعد ذلك أيقنوا بأن القرآن حق وصدق كما وعدت في كتابك، اللهم إن هذا وحده برهان، اللهم إنك قد تكفلت بحفظ هذا العالم ونظامه، وتكفلت بحفظ القرآن، وتكفلت بإظهار علماء من أمم أهل الكتاب يؤمنون به، اللهم إن ظهور ذلك في زماننا أتم لكثرة العلم وانتشار الحكمة، إذن يجب علينا نحن الذين خلقنا في هذا الزمان أن نذكر المسلمين في أمثال هذا التفسير بما دبجه بعض أولئك العلماء من أوروبا مصداقاً للقرآن، فمنهم صديقنا «اللورد هيدلي» الإنجليزي الذي ذكرته سابقاً في هذا التفسير مراراً، ومنهم «الكونت هنري ديكاستري»، ومنهم العلامة «توماس كارليل». فلأقتصر على قول نبذ من أقوالهم، فهؤلاء منهم مؤمنون، ومنهم علماء أيقنوا بالقرآن لأنه آيات بينات في صدورهم. ولكن ذلك في ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في الكلام على صديقنا «اللورد هيدلي» الإنجليزي رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية في كتابه المسمى «إيقاظ الغرب للإسلام» الذي لقب بحضرة «سيف الرحمن رحمة الله فاروق»، وقد ترجمه إسماعيل أفندي حلمي البارودي العضو بالجمعية البريطانية الإسلامية وهذا نصه:

مقدمة: لكي أقدم الصحائف المقبلة إلى القراء لا أجد خيراً من إعادة نشري هنا لمقالة صغيرة من قلمي ظهرت في إحدى جرائد «لوندرا» الأسبوعية في نوفمبر سنة ١٩١٣ وهذا نصها:

ظهرت في جرائد عديدة قطع تشرح معتقدي الديني، وإنه ليبهجني أن أرى أن كل ما وجه إلي من الانتقاد لغاية الآن لم يكن إلا بلطف متناه، إنه لا ينتظر أن تخرج خطوة معلومة عن خط سير مألوف دون أن تستلفت النظر. ورد لي في أحد الأيام خطاب من أحد المسيحيين المتدينين يخبرني فيه بأن الدين الإسلامي إنما هو دين لذة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له زوجات عديدات، وأن ذلك قاعدة في الإسلام، فما أغرب هذه الفكرة عن الإسلام إلا أنها فكرة راسخة في عقول تسعة وتسعين في المائة من البريطانيين الذين لم يعنوا ببحث الحقائق الواضحة لديانة ما ينوف عن مائة مليون من رعاياهم، ولو درسوا تلك الديانة لتبين لهم أن نبي بلاد العرب صلى الله عليه وسلم كان مشهوراً في كبح النفس عن الهوى وردها عن الشهوات، وكان مخلصاً لزوجته الوحيدة «السيدة خديجة» التي هي أكبر منه بخمس عشرة سنة، والتي كانت أول من آمن برسالته السماوية، وبعد وفاتها تزوج بالسيدة «عائشة»، وقد تزوج أيضاً ببعض أيامى متبعيه الذين استشهدوا في إعلاء كلمة الله، وذلك لا بدافع الشهوة بل لكي يعولهن ويمنحهن مساكن وينزلهن منزلة ما كن ليحصلن عليها لولاه. يقول مؤلف هذا التفسير وسيتضح لك هذا المقام في سورة «الأحزاب».

نحن معشر البريطانيين نعجب بأننا نحب العدل والإنصاف، ولكن ماذا أعظم جوراً وحيفاً من الحكم الذي يصدره كثير منا على الدين الإسلامي، دون أن يجتهد أو يحاول أن يعرف ولو مجملاً بسيطاً من عقائده، حتى إنهم لا يفقهون معنى كلمة الإسلام.

إنه من المحتمل أن يظن بعض من أصدقائي أنني قد غلبت على أمري أو تسيطر عني المسلمون إلا أن ذلك ليس بحقيقي، لأن اعتقاداتي الحالية ما هي إلا نتيجة بحث سنوات عديدة، وإن كانت

مناقشاتي الحقيقية مع متعلمي المسلمين في موضوع الديانة لم تبتدئ إلا منذ زمن قريب، وإنني لمحتاج إلى القول بأنه قد غمرني الفرح عندما وجدت أن كل نظرياتي واستنتاجاتي كانت مطابقة مطابقة تامة للإسلام. إن أخي خواجا كمال الدين لم يحاول بتاتاً أن يتسلط على فؤادي ولو قليلاً، فإنه كان دائماً مثال الأمانة والصدق، إذ قد شرح لي في ترجمة القرآن الكريم الذي ما استطعت أن أفهم معناه من الترجمة المشوهة المنتشرة بين المسيحيين، فأنار من هذه الوجهة المحجة الواضحة التي تسير فيها « جمعية التبشير الإسلامية »، فإنها ما احتالت ولا خدعت أحداً قط، فالهداية كما جاء في القرآن الشريف يجب أن تكون في محض الرغبة والاختيار ومن تلقاء النفس، لذا لم يرتكب خواجا كمال الدين أي صفة من صفات الاحتيال والخديعة، وقد أراد عيسى نفس تلك الصفة عندما قال لحوارييه: «وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذي تحت أرجلكم شهادة عليكم ».

وقد علمت أمثلة كثيرة من « البروتستانت » المتعصبين الذين ظنوا أن من واجباتهم أن يغشوا بيوت الرومان الكاثوليك، فيحتالوا على من يقطنها لنقله إلى دينهم، ومثل هذا العمل المثير الذي لا يليق بكرامة جدير هو طبعاً عمل كريه جداً أدى إلى إثارة العواطف وإيجاد النزاع الذي جر عليهم الازدراء والاحتقار، وإنني لأتألم جد الألم عندما يعرض لفكري أن أولئك المبشرين المسيحيين حاولوا ذلك مع المسلمين أيضاً، وإن كان لا يوجد هناك باعث يدعوهم إلى هداية هؤلاء الذين هم أصح منهم مسيحية وأفضل منهم أنفسهم في مسيحيتهم، وقد عجزت تماماً عن أن أعرف لم فعلوا ذلك، إنني لم أقل أصح منهم مسيحية جزافاً، بل بعد إعمال العقل والروية، لأن المحبة والألفة والتسامح في الدين الإسلامي أقرب جداً لما أتى به المسيح مما عليه رجال المسيحية في الكنائس المتنوعة، خذ مثلاً العقيدة « الأثناسيانية » التي تختص بالثالوث بحالة مشوشة لا يقبلها العقل، ثم أنه من الواضح جلياً أن هذه العقيدة المهمة عندهم للغاية والتي تعتبر إحدى العقائد الرئيسية للكنيسة تمثل المذهب الكاثوليكي، وإننا إذا لم نعتقدها نهلك هلاكاً أبدياً، وهكذا نؤمر بوجوب اعتقاد الثالوث إن أردنا الخلاص، أو بطريقة أخرى تقول: إن الله رحيم وقادر على كل شيء، وفي الوقت نفسه نتهمه بالظلم والقساوة اللذين لا نستطيع ولا نرضى أن ننسبهما إلى أفظع سفاكي الدماء من الظلمة الآدميين، كأن الله الذي هو إمام الجميع وفوق الجميع يتغلب عليه اعتقاد مخلوق ضعيف فان في الثالوث.

هنا مثل آخر يدل على عدم وجود الحسنى لديهم، وصلني خطاب لمناسبة اتجاهي نحو الإسلام أخبرني فيه كاتبه بأنني إذا لم أعتقد ألوهية المسيح لا يمكنني الخلاص إن مسألة ألوهية المسيح ما ظهرت لي قط أنها مهمة، هل أرسل المسيح رسلاً من البشر برسالات إلهية؟ لو كان عندي الآن أي شك في تلك النقطة الأخيرة لآلمني ذلك جداً، إلا أنني أشكر الله سبحانه وتعالى لعدم وجود هذا الشك، وأتمشم أن يكون اعتقادي في المسيح وتعاليمه ثابتاً جداً كاعتقاد أي مسلم أو مسيحي حقيقي آخر، لأنني سبق لي أن قلت مراراً: إن الديانة الإسلامية والديانة المسيحية كما علمت بالمسيح نفسه هما أختان، ولم يفصلهما عن بعضهما إلا المذاهب والاصطلاحات المسيحية فقط التي يمكن الاستغناء عنها بكل سهولة وارتياح.

يميل الناس في هذه الأيام الحاضرة إلى الكفر والإلحاد عندما يطلب منهم أن يعتقدوا هذه المذاهب والعقائد التي لا تعهم، وهناك بلا شك رغبة واشتهاء إلى ديانة تقبلها العقول والميول، فمن سمع بمسلم ارتد إلى الكفر والإلحاد؟ ربما كانت هناك حالات من هذه إلا أني أشك جداً فيها. إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمين قلباً، ولكن يمنعهم خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ من التعبير تأمراً على منعهم من إظهار معتقداتهم. إنني خطوت هذه الخطوة، ولو أنني أعلم علم اليقين أن كثيراً من إخواني وأقاربي ينظرون إلي الآن كروح ضالة ويصلون من أجلي، إلا أني لست في الحقيقة في اعتقاداتي اليوم إلا كما كنت منذ عشرين سنة تماماً ولكن صراحتي في القول هي التي حرمتني حسن ظنهم بي.

الآن وقد شرحت بعضاً من الأسباب التي جعلتني أتبع الدين الإسلامي، وقلت: إنني أعتبر نفسي الآن أني أصبحت بإسلامي مسيحياً، أفضل مسيحية مما كنت عليه من قبل، فآمل أن يتبع الآخرون مثالي ويعتقدون أحقية الإسلام الذي أقر به بكل شهامة وفخر أنه أصح الأديان، وأنه ستحصل السعادة لأي امرئ ينظر إلى هذه الخطوة كخطوة متقدمة، لا كخطوة مضادة للمسيحية الحقة بأي وجه.

سلم الإسلام

ينظر في هذا العصر للديانة كأنها شيء مزعج، والناس إما ملحدون وإما متبعون اتباعاً أعمى لصفوف عقائد من الأفكار التي لا تقبلها عقولهم وتقاومها، إلا أنهم يعترفون بها ظاهراً لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وأنه يؤدي المطلوب. أكد لي رجل من أحسن الرجال الذين عرفتهم ـ زوج فاضل ووالد ـ أنه ملحد ولا ينظر لشيء غير فناء الخليقة، ومع ذلك كان سعيداً جداً، ولم أجد بوسعي شيئاً أستطيع أن أعمله معه ويكون له أقل تأثير في تغيير معتقده الفظيع. وسمعت برجل آخر أخذ الديانة بروح فرحة جداً وكان غنياً للغاية، ناقشه صديق له يوماً من الأيام في أسلوب حياته المحلول وسأله ألم يفكر قط في الحالة المستقبلة وفيما ستكون عليه نفسه في الحياة الثانية، فأجاب: كلا لم أتعب نفسي وراء هاتيك الأشياء؟ إنني أدفع لطبيبي كذا في السنة ليعتني بصحتي الطبيعية، وأعطي الكاهن نحو ستمائة جنيه في السنة ليعتني باحتياجاتي الروحية، فلم إذن أصدع رأسي، وهذا الرجل كان مسروراً أيضاً بطريقته، وتوفق لأن يدفع مبلغاً معيناً سنوياً لينجو من التفكير ومن كل ما يشغل رأسه أو يتعبه. إذا كان يمكننا فقط أن نجد فكراً قوياً خالياً من العقائد لكي ينتحب لنا الدين الحق الذي يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جداً نحو الاتجاه إلى الصواب. إننا إذا ذهبنا إلى القسس والرهبان أو غيرهم ممن يقدمون أقوالاً توافق مشاربهم لا نجد لديهم أي مساعدة، لأن العقائد أو المذاهب المتعددة تناقض بعضها على خط مستقيم. خذ مثلاً الكنيسة المسيحية فقط تجد بها أن الإرشادات السماوية التي تدهش وتحير العقول تختلف عن كنيسة إنكلترا وكنيسة روما، وهما مختلفتان أيضاً، حتى إننا نخرج من ذلك بلا فائدة أصلاً.

إذن فكل ما نرغبه هو مساعدة بعض المتفرجين خارجاً عن هؤلاء وهؤلاء ومن غير المتعصبين الذين عندهم فرص وقدرة على التأمل والتفكير الذين ليس لهم أي صالح أو ربح من وراء إبداء

رأيهم بصراحة وشرف . كل ما نريده في الواقع هو دين يعرف ويؤيد قوانين المملكة ، لأنه في هذه الأيام أصبحت القوانين مما يجلب السخرية والضحك ، وهناك في الخارج شعور ويل من كل أشكال المظالم والجرائم تقريباً . ضعوا هناك عدلاً تاماً في الديانة ، لأن سلسلة المملكة الفقرية لانت من وضعها في هذا التظاهر بالشفقة والحنو الذي لا هو إنساني بأي حال ولا هو خليق بأن يرقي أخلاق الأمة . ما الرحمة إلا سفك دماء عندما تكون سبباً في العفو عن القتلة ، يطبق ذلك على هذا الميل لارتكاب الآثام ، وإننا وإن كنا نشعر بحزن عميق من أجل الجرم الذي جعلته تربيته والبيئة الحقيرة التي نشأ فيها بسبب له التعب والشغب ، إلا أنه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه من العودة . إنه لمن أفظع الأعمال أن ندير له الخد الآخر ، نعم إن ذلك لمريع جداً لأنه يشجع الشريرين على السير في تيار جرائمهم ، بينما يتألم باقي أعضاء المجتمع من سوء استعمالنا للرحمة ، إذا لم أك مخطئاً ، فالعدل الذي الممزوج بالماء المغشوش الذي يوزع في هذه الأيام في هذه المملكة مسؤول عن نصف الشرور التي نشكو منها بمرارة زائدة ، وإنه لخير لنا أن نرجع إلى قانون « الثارات » القديم عن أن نسير فيما نفعله الآن .

لا يمكننا بتاتاً أن ننظر للمسيح كمشترع أو واضع قانون ، فإنه لم يسن للعالم إلا سنناً ونواميس وديعة طريفة حالة أن إبليس الذي يتمشى اليوم لا يمكن قمعه بأجوبة ناعمة وبإدارة الخد الآخر له فيجب إذن أن نتخذ أشد الإجراءات مع كل رسل الشر .

كان موسى مشترعاً وواضع قانون ، وكان محمد مشترعاً وواضع قانون ، ونحن الآن في احتياج شديد إلى بعض من العدل المطلق الثابت للنبي المقدس محمد ، إنه أي : القانون والتشريع الإسلامي شديد ، إلا أنه خال جميعه من توحش انتقام العهد القديم .

تعاقب الحكومات الحزبية التي عملت لازدياد القوة لا لصالح الأمة أوقعنا في هذا المأزق الذي لا يمكننا فيه أن نعتني ونحفظ نظام نمائنا ، حقاً إنها لحالة مفجعة لنسل سادة البحار ووطني أعظم إمبراطورية رؤيت في العالم . قوانينا حسنة إن هي نفذت وعمل بها . الخضوع إلى الرذيلة يقود إلى أكبر منها . لا نريد الرجوع إلى طرق التعذيب من أي صنف أو الفظاعة ، ولا نريد أن نريق نقطة واحدة من الدماء لنكره الناس على قبول آرائنا في الدين أو السياسة ، بل نرغب أن نرى القوانين مطاعة والعدل مكيلاً للجميع .

إنني لأعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التي أتت في القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جداً حكم الشعب ، ولا يكون ذلك غريباً مادام أكثر من نصف رعايا جلالته في ملكه الشاسع هم من المسلمين . مر العصر الذي كان يمكن أن يجتهد فيه لإقامة أي دين بقوة الأسلحة . إنني لمتأكد من أن المسلمين أولئك القوم المتشبعون بالإخلاص والوفاء ما حاولوا قط أن يقيموا الدين الإسلامي بالطرق العنيفة . الفتنة والتمرد يحرمهما القرآن ، ولا إكراه في الدين في إحدى مبادئ الدين الإسلامي .

لفت الأذهان وإصغاء الآذان هو كل ما يرغبه المسلمون ، وإنني لمتأكد من أنه إذا فهم رجال إنكلترا تماماً المعنى الحقيقي للإسلام : العقل والتمييز والالتجاء إلى النهي والشعور ، لسعوا في أن يخففوا سوء فهمهم المخجل السائد في الوقت الحاضر .

ينظر الأوروبيون دائماً إلى الإسلام كأنه وحشية وهمجية، فلو علموا كل ما فعله محمد صلى الله عليه وسلم لإزالة التوحش والهمجية التي لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالاً. إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعاً في تحريف الديانة الإسلامية، وإن هذا لأعظم الكذب الذي يخزيهم، وإن كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدي للحقيقة وبين الحالة التي يسير عليها المبشر المسلم في عمله. كثيراً ما أزعجت الهيئات الحاكمة في هذه المملكة لقبول طلبات الهيئات الدينية، فكنيسة إنكلترا وكنيسة الرومان الكاثوليك وحزب المعارضين وكثير غيرهم معتبرون جداً لأنهم ذوو نفوذ عظيم، ولا زال الكل يقولون: هل من مزيد. ولكن ليست هناك ـ بأقصى ما يمكن للإنسان أن ينظر ـ أي فضيلة دينية من الفضائل المحمدية تطلب أي سلطة دينية، إذ عظمة الإسلام أرفع من أن تسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة، وكل متبع اتباعاً حقيقياً للنبي العظيم يتطاع إلى جزاء أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدنيوية كرقي ضوء الشمس عن ضوء الموسمور. ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو أرباحاً، لأن الله نفسه هو رأس هاتيك الفضائل الروحية.

أنبأ التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائماً بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية، ويمكننا هنا أن نشير إلى بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة بدون جور أو حيف كي نبين فظاعة الأحوال المريعة التي كان يجب أن تكون أفضل ما تطمح إليه النفس، وكيف اختلطت باعتبارات لمكاسب دنيوية محضة سافلة.

إننا لا نذهب بعيداً إذا قلنا بأن القسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يعتبرون أن الديانة هي محض نظام أيام آحاد محترمة وحسنة لأنها تقدم لهم فرصاً استثنائية لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم والتكلم عن جيرانهم، وهذا الدين العجيب ينوي أخذهم إلى بعض من الجنة، ويتوقف مركزهم في هذه الجنة على المبلغ المدفوع على نظام دخول الناس دور التمثيل تماماً، يجلسون بأجرة معينة في الألواج والطابق الأول وبأجرة أخرى في الصالات والكراسي الخ.

معظم ديانة الغرب ما هي في الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم موسى أو المسيح، ففي تلك الأوقات المظلمة المكفهرة بين القرن الثالث والقرن الخامس؛ وبعد ذلك عندما كانت أوروبا ميداناً شاسعاً للمصارعات، يتبارى فيه الرجال المتوحشون ومن طبعوا على حب القتال مع بعضهم، ونشروا الرعب والدمار في كل الجوانب، وكان الحكام العظام للممالك كبارونات ولوردات إنكلترا رجالاً مشهورين بالمهارة في استعمال السيف وبلطة الحرب وإحكام الدفاع عن أملاكهم وعقارهم وبيوتهم أكثر من شهرتهم في التعليم والتهذيب، وكانوا لأجل أن يحفظوا إدارة ونظام شؤونهم الداخلية يستخدمون الكتبة والأكليروس الذين كانوا بتعليمهم العالي قادرين أن يجعلوا لهم نوعاً من الوكالة على هذه الممتلكات وأن يحفظوا سجلات الحوادث الجارية الخ.

أصبح هؤلاء الأكليروس بعد مضي مدة من اللوازم الضرورية التي لا يمكن لهذه الممتلكات الشاسعة أن تستغني عنها، وأصبح لهم سلطة عظيمة وسلطان قوي، وسنحت لهم في ذلك الوقت

فرص زادت سلطانهم باستعمالهم أسرار المجهول لدى البارونات أو اللوردات كمرتكز عتلة وضعوا عليه عتلات طويلة، وتلك العتلات هي الرعب من جهنم والخوف من العقاب المستقبل، نقل تلك المرعبات بينهم بمهارة فائقة أحدث في عقول السذج شعوراً لا يمكن إزالته من الهلع الذي كان مع ذلك يلطف ويخفف بالتأكيدات من أنه باعتناق شكل معين من الدين وابتلاع بعض عقائد وضعت بمكر زائد ينال الخلاص، ولكنه اخترع بوجه ما أن الطمأنينة التامة بخصوص النجاة والمركز العالي في الآخرة لا ينال إلا بالعطايا الفاخرة جداً للكنيسة، وهذه العطايا أخذت شكل منح واسعة من الأراضي والقصور والأبرشيات وهبات عظيمة، ومن هنا نرى أن ولادة وابتداء الكهنوتية والقسوسية وطلب السلطة الدنيوية المقصودة قد عرف من ذلك الوقت، فمجيء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريباً كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار كالتفكير والتوسط الكهنوتي والتوسل إلى القديسين، وكل هذه الطرق الملبكة المحتوي عليها التقرب من المولى جل وعلا.

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية، ومهما كانت ظرافة ورقة تلك المبادئ الصفوحة التي أتى بها نبي الناصرة «عيسى عليه السلام»، يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التي احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التي تقف في طريق السالك إلى الله.

هناك آيت في القرآن لا تترك شكاً في معناها، وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السيادة الكهنوتية ويتخذون مخلوقات بشرية لإرشادهم، ﴿ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

ديانة المسيح ليست تماماً ديانة «سانت بولس» الذي أضاف إليها وغيرها تغييراً فاحشاً، وقد ترجمت هيئات مختلفة هاتيك التعاليم وغيرت فيها من وقت لآخر، وليس هناك في الحقيقة تناسق في تلك المسيحية المزعومة، ولكننا نجد في الإسلام ما يكفي رعات المخلوقات من الاتصال بالخالق مباشرة الله الموجود أبداً القادر على كل شيء والحافظ لجميع المخلوقات، ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه إمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ورؤية أبيهم القهار المتصل دواماً بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين، مفتاح السماء موجود دائماً في مكانه ويمكن إدارته بأدل وأقل المخلوقات دون أي مساعدة من نبي أو كاهن أو ملك، إنه كالهواء الذي نستنشقه مجاناً لكل خلق الله، أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسس أو بعض فوائد دنيوية أخرى، ليس غرضي الرئيسي أن أهاجم أي فرع معين من فروع الديانة المسيحية لأبين جلال وسلاسة الديانة الإسلامية التي هي خافية في نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جلياً في كثير من الديانات الأخرى.

إن الدين مسؤول عن كثير من الآلام والفظائع وسفك الدماء، وتلك حقاً لحقيقة مبكية، أيمكن إذن أن يوجد دين يمكن العالم الإنساني من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقي الذي هو فوق الجميع وإمام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك.

فكر لحظة وذلك التفكير لازم لكمال البشر في الحقيقة، إنه إذا أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنكليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه أصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك، لأن الناس سيقادون بدين حقيقي، ولن تبقى هناك جمعيات كنائسية ولا منشقون كي يوفق بينهم، ولا ضرائب ثقيلة تدفع للمرور في الطريق الموصل إلى الفردوس. إن الديانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمد سهلة جداً، إلا أن الخلط الذي أتاها من الآخرين الذين سعوا في أن يحسنوا الوحي الإلهي جعلها معقدة يرتبك وييئس منه من يستعمل عقله في السعي وراء الحقيقة بجد ونشاط. استفز صنف من أصناف هذا الدين الحروب الصليبية التي ضحى فيها أسلافنا عشرات الآلاف من الأرواح البشرية، فلم ذلك؟ معركة معيبة نشبت من أجل ضريح يعتقد أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة، هل كان يستحق ذلك أي اهتمام؟ وصنف آخر من أصناف هذا الدين علمنا أن نعذب كل من يخالفنا ولو على أقل نقطة من نقط هذا الدين وأن نحرقهم أحياء، هل يستحق ذلك أي اهتمام؟

وهناك صنف آخر من أصناف هذا الدين وهو شائع ومعلوم للجميع، ذلك بأن هؤلاء المتعصبين الشديدي التعصب «القسس» يحكمون على تابعيهم بالهلاك الأبدي إذا لم يبتلعوا آراء مذهبية معينة فهل يستحق ذلك أي اهتمام؟ أتريدون أن تتصفوا بضد الإحسان الذي هو أبغض شيء عند الله رب الرحمة، والذي يلعنه كل من المسيح ومحمد إلى حد ليس له نهاية. قال الجنرال غوردون: «لم أر طبقة الفرنسيين بين المسلمين الذين لا يتخلون كل ما يتخيلونه أو يمر ببالهم كما يفعل فرنسيونا من الحكم على زيد أو عمرو بأن نصيبه النار، إنك لا ترى منهم أبداً عدم الأنس والبشر اللذين تراهما من فرنسيينا».

إن «غوردون» عاش طويلاً في الشرق ولم يفلت جلال الشريعة الإسلامية من ملاحظته الدقيقة، ولا شك في أنه عندما كتب ما تقدم كان يشعر حقيقة بأن هناك إحساناً مسيحياً حقيقياً عند المسلمين أكثر مما هو عند المسيحيين أنفسهم في بلادهم، وكتب «غوردون» أيضاً بنفس هذه الروح ما يلي: «ليست هناك سلوى في العالم أو راحة تعادل تلك التي يملكها من لا يعرف غير الله مدة بقائه ولا يؤمن بالأقوال، بل يؤمن بالحقائق، وأن كل الأشياء دبرت لتحدث، ولابد من حدوثها ووقوعها، ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد قد ماتوا وتخلصوا من هذه الحياة المتعبة».

وإجابة على ما تقدم يمكن أن يقال بأن الأفكار الشرقية لا تتحد مع الآراء الغربية، ولا يمكن أن يقال إن بينهم أي امتزاج، وأن محاولة حكم الشعوب الشرقية للشعوب الغربية حينما اعترف بديانة شرقية وتسيطرت هذه الديانة على عقول الرجال وأفعالهم لم تكن لائقة وكانت خارجة عن المقصود، والمؤلف يريد أن يشير إلى أنه مضى ألفا سنة تقريباً، وكل مملكة في أوروبا محكومة بديانة الشرق أي اليهودية والنصرانية.

روح الإسلام تحلق فوق أشياء أرقى وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية في الشرق والغرب، وإذا كانت المسيحية الشرقية التي علمت بنبي الناصرة العظيم قد سارت سيراً حثيثاً في

إضاءة طريق العالم الإنساني، فلماذا لا يستمر الدين الإسلامي الأوسع والأسهل، كما أتى به النبي العربي الكريم في أعماله الحسنة، مادام ليس هناك سبب جوهري يمنع ذلك.

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لكل باحث في حياة محمد، كما أن دراسة دقيقة للقرآن تظهر أنه حقاً ليس في الإسلام شيء يتعارض مع الديانات السابقة، وإرشادات وشرائع محمد كما جاءت في الكتاب تقوي وتعزز تعاليم الإنجيل تعزيزاً تاماً وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر. إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لا تعرف عنه شيئاً، كما أنه من الظلم أن تفعل ما يفعله تسعة وتسعون في المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمدي دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة إسلام، فقاعدة ترك الأمور تأخذ مجراها في شعار هؤلاء الذين لا يريدون أن تنار عقولهم لأن إنارة عقولهم معناها عندهم تعب وإزعاج، فيفضلون أن يظلوا يتخبطون في ديجور العمى والظلام عن أن يمدوا أيديهم ليفتحوا الباب الموصل إلى النور. ما حصلت عليه فيه الكفاية لي لا أريد أن أنظر لشيء آخر. ذلك ما يقولونه رافضين أن يبذلوا أي مسعى ليتقدموا حتى ولو في معرفة الله ورسالاته للجنس البشري.

من عدة سنين خلت كان أحد أفكاري الرئيسية هو: كيف يمكن الإسلام أن يتعرب «يصبح غريباً» حتى يمارس بالأمم الأوروبية؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الإسلام الحقيقي؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو: كيف أننا لم نشك في جنسية المسيح الذي نعتقد أنه كان أسيوياً محضاً؟ كانت أمه العذراء مريم أسيوية، وكان موسى وكل الأنبياء الموحى إليهم شرقيين، وكان النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم شرقياً مثل الآخرين، وأنزلت عليه الشريعة من الله، فالقرآن هو من كلام الله عز وجل كما كان الإنجيل وباقي الكتب المنزلة الأخرى، وهو القرآن يثبت ويحق الكتب المقدسة الأخرى والوحي السابق. القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية التعاليم الماضية، وفوق ذلك فهو يحرم كل أنواع العبادة الوثنية، وروح الوحي هي أن لا يقرن اسم الله القوي العليم الرحيم بأي اسم آخر.

روح الشكر هي خلاصة الدين الإسلامي والابتهال أصل في طلب القيادة والإرشاد من الله. إنه وإن كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلاً فيّ من صغري وأيام حداثتي، إلا أنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التي قرع فيها الدين الإسلامي لبي حقاً، وتملك رشدي صدقاً، وأقنعني تناوله وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل، ونجوت من العقائد الغريبة المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة، واستنشقت تلك النجاة كما أستنشق هواء البحر الخالص النقي، وبتحققي من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار.

عندما قررت نهائياً أنه لا يمكن الحصول على أي راحة من التعليمات الكهنوتية أتتني الفكرة بأنه من المؤكد أن الله يلاحظ ويدير كل إرادة وكل حركة وعمل، إنه يفعل ذلك حقاً إلا أن التعليمات المجموعة من صحائف القرآن مكنتني من أن أفقه معنى تلك الفكرة المريحة راحة عجيبة بطريقة كانت تستحيا عنيّ سابقاً. إذا كانت كل حركة في الحياة لا تحركها إلا القوة الإلهية تكون هناك راحة حقيقية

لا لهؤلاء المتألمين والمعاقين عن السير في هذه الحياة فقط، بل ولهؤلاء الذين ذهبت أنفسهم حسرات على أعمالهم العديدة الشيطانية والجنونية. كل هؤلاء الذين أتوا أعمالاً سيئة يجب أن يأملوا في أن الله بحكمته غير المحدودة وجلاله سيجعلهم مثلاً للآخرين كي يريهم ما يجب أن يقلعوا عنه. إنه لفكر مخيف إلا أن المؤمن الحقيقي يواجه كل محنة وخزي وانحطاط في الدرجة في سبيل المولى عز وجل.

روح الإسلام تشير إلى خلاص البائسين والتعساء والشريرين إن تبنا وأطعنا وتركنا الشرور والآثام وسعينا في مساعدة المخلوقات بكل ما في وسعنا، حتى بين الآلام العظيمة يجب علينا أن نكون مسرورين بأن جعلنا الله واسطة للإرشادات السماوية.

دمر التعصب الديني الأعمى الكنائس المسيحية في تنافسها، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقال عن الإسلام الذي هو كتلة متحدة، فما أحسن ذلك إذا كنا نحن معشر الغربيين نهجر في هذا الوقت تلك الأصناف الدينية الملبكة وتتخذ الدين الإسلامي.

منذ سنين مضت وجد عندي حكام إحدى الأمم المتنورة جداً في الشرق الأقصى شك كبير فيما إذا كانت طريقة الدين التي يتبعونها صحيحة أم لا، لذا عينوا رجالاً عقلاء مخصوصين ليدرسوا كل الديانات الرئيسية في العالم ويضعوا تقريراً عنها، فكر الرجال الحكماء وتشاوروا وفعلوا كل ما يلزم، ثم وضعوا النتيجة بأن ديانتهم هي حسنة كباقي الديانات الأخرى. لذا ليس لديهم أي ميل لينصحوا بتغييرها.

إني لأعتقد اعتقاداً راسخاً أنه إذا اتبع هذا الرأي وكلف أحسن الأذهان وأنبه العقول الأوروبية بالبحث عن دين مبني على الاعتبارات الدنيوية والعقلية ولا يخرج عن الوحي السماوي الذي أتى به الأنبياء ما وجدوا بإجماع الآراء غير الإسلام ديناً، فهو لك وعظمته مما لا يختلف فيه اثنان.

أليست هذه من أعظم النعم أن تسنح لك الفرص بأن تعتنق ديناً يتفق والحجا، ويرضي الفؤاد والضمير ورغبات المرء الداخلية، كما أنه خال في نفس الوقت من القسوسية والكهنوتية وباقي التلبيكات الأخرى. لا زال يعيش على ظهر هذه البسيطة في كلا الشرق والغرب هؤلاء الذين اتضح لهم الوحي المؤسس لحقيقة الدين الإسلامي وتعاليمه بأوضح وأجلى معانيه، وربما كان الوقت الذي يريد الله أن يتضح الوحي فيه وينجلي لكل عباده الموجودين في هذا العالم ليس ببعيد، إلا أن ذلك يختص بهداية المولى سبحانه وتعالى لأنه لا يوجد من يعرف الميعاد. الكنائس المسيحية الكثيرة تناقض إحداها الأخرى مناقضة عظيمة، ومعلمو لاهوتها «كهنتها» وضعوا عقدة التعاليم المسيحية التي لا تحل، ووضعوا تلك العقائد التي تدهش العقول دهشة عظيمة، حتى إن العقول السليمة الصافية والقلوب المبصرة تتوق إلى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد.

مذاهب الكنيسة المسيحية سواء كانت رومية كاثوليكية أو بروتستانتية طردتني منذ طفولتي؛ وإنني لا أعرف إذا ما كانت عدم ثقتي وأنا غلام صغير بهذه العقيدة كما وضعت بسانت أثانسياس أقل قوة من ازدرائي واحتقاري اليوم لهذا الرجل الذي يضع القوانين من أعلى منصة الخطابة، ويحكم على الملايين من الرجال بالهلاك الأبدي لأنهم لا يوافقونه، وقد ظهر لي دوماً أنه من المهم جداً أن السادة الأشراف المتعلمين إذا أرادوا أن يدخلوا الكنيسة يجب عليهم أن يشتركوا بسرور وابتهاج في

التسع والثلاثين مقالة المخيفة، وهم يعلمون في قلوبهم أنهم لا يستطيعون أن يصدقوا نصف ما يضعون أسماءهم تحته.

فكرت وصليت أربعين سنة كي أصل إلى حل صحيح، والرأي السائد عندي هو أن كل تراكيب هذا الدين المزعوم هي من عمل الإنسان لا من عمل الله، ويجب علي أن أعترف أيضاً أن زياراتي للشرق ملأتني احتراماً عظيماً للدين المحمدي السلس الذي يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لا في أيام الآحاد فقط.

الإسلام دين السهولة العظيمة، إنه يرضي أشرف رغبات النفس، ولا يناقض بأي حال من الأحوال تعاليم موسى أو المسيح عليه السلام». اهـ الكلام على الفصل الأول.

الفصل الثاني: فيما ذكره العلامة الكونت هنري دي كاستري

مقدمة: كنت ذات يوم أجوب جوف الصحاري في ولاية «حوران» بين زرقوم وسجير، وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات، لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها، وتجعل بعضها إذا مسه التالي يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه إلى الوراء ويضرب بأرجله في الهواء، وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد إلى خطاها مطمئنة، يسير أمام الكل حادٍ على فرس عظيمة بيضاء، لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد، وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مديح في كاتب هذه السطور، فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته إلى إرضائه باستعمال ما حفظ الشرق من أسرار الانحطاط النفسي في مثل تلك المعاملات، وكنت أصغي إلى أشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل، وقد وعيت البعض منها، وكلها أراجيز محبوكة الأطراف غير تامة المعنى بذاتها، فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم، يصعب علينا معشر الغربيين إدراك مراميها، وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر، والفصل فصل الشتاء، ويومنا يوم جميل، تنشط الأبدان حرارته، ويبلغ ضوؤه حد البهاء، وروائحه تنعش السالكين، وتجعل المتنشق شاعراً بتمام الحياة، يخالجني مع ذلك إحساس آخر هو شغفي بتلك الممدوحة التي كان اسمها يروح ويغدو في أقوال أولئك الشجعان، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلاً بصوت خشن: سيدي الآن وقت العصر، هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة، وصلاة الجماعة مفضلة عند الله في اعتقاد المسلمين كما هي كذلك عند المسيحيين، أما أنا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتنفرج بحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع: «الله أكبر. الله أكبر»، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذاً لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يعبر عنه سببه الحياء والانفعال، أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً وأعز نفساً، ولو أني أطعت نفسي لصحت فيهم: أنا أيضاً أعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد. فما أجمل منظر أولئك القوم في نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسانها على الأرض وهي هادئة كأنها خاشعة للصلاة، تلك هي الخيل التي كان يحبها النبي صلى الله عليه وسلم حباً ذهب به إلى أنه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره عملاً بوصية جبريل عليه

السلام. وكنت أرى نفسي وحيداً في عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكري الضيق، الذي يبرم به الجسم الإنساني بغير احتشام، تلوح علي سمات عدم الإيمان في مكان هو مسقط رأس الديانات، كأنني من الحجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقاً وإيماناً، وبينما أنا كذلك إذ جال بخاطري ما ورد في التوراة من أن الله يسكن خيمة سام ويكثر من أولاد يافث، وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم، الله الذي دخل خيمة إبراهيم، وأنا ابن يافث الذي يمتد ذكره بالحرب والفتوح، ولما انتهى بنا الطريق ورجعت إلى مكان راحتي جعلت أكتب ما علق بذهني من الأفكار، فأحسست بأني منجذب بحلاوة الإسلام كأنها أول مرة شاهدت في الصحراء، قوماً يعبدون خالق الأكوان، وذكرت خيام النصارى حيث لا متعبد فيها غير النساء، وأخذني الغضب من كفر أبناء الغرب وقلة إيمانهم.

كنت في سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات، ويأخذ الأشياء من ظواهرها، ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب، ويعتقد المرء في الأمور بغير قيد، وهو سن لو أنصف أهله لما كتبوا وألفوا، وكنت أرى أن جمال الدين أصدق شاهد على أنه دين الحق، وصرت أكتب في الإسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد.

ولو أني اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الأمور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموماً ورماني المستشرقون بالخفة والطيش، كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الأوروباويين، ذلك أن المشتغلين بالإسلام في هذه الأيام فريقان: المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء، ومستعربو الجزائر من الإفرنج أيضاً، ومما لا شبهة فيه أن القسم الأول قد أفاد العلم أكثر من القسم الثاني، فإن أعمالهم أنتجت كثيراً من العناصر والمواد التي يسهل بها اليوم وضع تاريخ للإسلام، لأن ذلك التاريخ لا يزال مع ما تقدم في عالم الغيب، ويعدهم بأني مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم وسلامة النظر في الموجودات، وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور أفكارهم، ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياناتهم معرفة لا تحصل لأحد في غير تلك البلاد، وبهذا يرون أن لهم الحق في أن يكتبوا عن الإسلام كالمستشرقين، نعم إنهم لم يقفوا على جميع ما ألفه المسلمون في الحكمة وعلم الكلام ولكني لا أرى ذلك نقصاً كبيراً، إذ معرفة حقيقة الإسلام في هذا العصر لا تحتاج إلى سعة اطلاع ديني، على أن مطالعة جميع الكتب التي وضعت في مبدأ ظهور هذا الدين إنما تجب على المؤرخ أكثر من غيره، لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثاني عشر، حيث أصبح الدين الإسلامي قوياً متيناً لا تؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المتفلسفين، كما أودت بأصول الديانات الأخرى، فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمناً إيماناً لا احتياج لتحكيم العقل في تحصيله، بل هو إيمان وجداني بسيط قوي في النفس متمكن من القلوب، وذلك لا يشاهد في الأمم المسيحية إلا عند الفحامين.

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التي تخولني حق الكتابة عن الإسلام قبل أن أنشر كتابي هذا، أنا عاشرت العرب أزماناً طوالاً، واشتغلت كثيراً بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين، ومذهبي

مذهب مستعربي الجزائر، ولذلك أسأل المستشرقين ذوي الاعتبار عفواً ولينا، وأطلب منهم قبل كل شيء أن لا يجمعوا بيني وبين أولئك الذين يميلون إلى العرب فيكتبون عن الإسلام ما تلقفوه أثناء سياحة قصيرة، فجاء قولهم قولاً شعرياً، حتى إن الموسيو « لوازون » لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات، فكان ممن يرى كل شيء في الشرق جميلاً، وجاء رأيه في الإسلام رأي قوال لا رأي باحث حكيم، وعليه فلست أقصد بكتابي هذا أن أمجد الإسلام، ولكني لما رأيت أنه صار من المسائل الكبرى التي اشتغلت بها أذهان الباحثين في العصر الحاضر، وأسست من أجله مجلة علمية في باريس، دل المسلمون بها نجاحاً أدى إلى أن المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على إقامة مسجد يعبدون الله فيه، انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه إلى بعض أغلاط علقت بالأفكار عندنا، من حيث النبي العربي ودينه الإسلامي، وهو عمل شاق وموقف حرج، إذ من المعلوم كما قيل أنه لا يرسخ في الاعتقاد أكثر من خطأ الاعتقاد، كذلك أرى أنه لا يكفي لأمة مسيحية متمدينة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها، بل يجب عليها أن تسعى لمعرفة ذلك الدين كما ينبغي، فنحن نضحك إشفاقاً من سمع الأقاصيص التي تقرؤها عن بعض المسلمين للمسيحيين، ونقول: أولئك قوم جهلة متعصبون لأنهم في بغضهم لنا مخطئون، إلا أن المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون، وأشد الأوهام رسوخاً عندنا بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي، ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته، وتقرير حقيقته الأدبية، علني أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مورخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي.

صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

محمد والأغاني المعروفة بأغاني الإشارات

محمد والتاريخ ، أصل الاعتقاد ، الوحي بالقرآن

ليس محمد مبتدعاً ، هل كان على الدوام صديقاً ، وفاته

كنت كلما بحثت في الديانات مع صاحب لي من طلبة العلم في « تلمسان » وأراد الهرب من الجدال يجيبني: « هم يقولون إن الله ولداً وإن محمداً لمن الساحرين »، إجابة مملوءة بالاحتقار، كما يجيب المعتقد اعتقاداً وثيقاً يريد أن يشفق عليه، وذلك مع مبالغته في احترامي وحسن الصلات بيننا، وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة كسحر محمد، وأن المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين، قوم لا ينبغي الجدال معهم.

ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحرب الصليبية، وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان، ولا يزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام، فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين، وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على الترتيب درجاتهم: « ماهوم » ويقال: ماهوم وبافوميد وماهوميد، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ثم « أبلين » ثم « ترجافان »، وذهبوا إلى أن

محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية، ومن المستغربات قولهم: إن محمداً الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب، كما كان يعتقد «الكرلوفنجيون»، وأن المسلمين لما غلبهم الإفرنج وصدوهم إلى أسوار «سرقسطة» عادوا إلى أصنامهم فحطموها، كما طنطن به أحد منشدي ذلك العصر حيث قال: «وكان أبلين إلههم في مغارة هناك فترامَوا عليه وأوسعوه سباً وشتماً وصلبوه من يديه في أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضرباً بالعصي حتى هشموه. وأما «ماهوم» فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشي عليه وتلك إهانة لم تصب إلهاً قبله». ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها، ولذلك أمر الإمبراطور «كارلوس» بإبادتها لما دخل «سرقسطة»، كما جاء في قول ذلك الشاعر، وقد أمر الإمبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها «ماهوميد» وجميع الأوثان والأصنام.

وكذلك يقول «ريشار» في أناشيده وهي جميلة: «لا شيء من الخراف فيها إلا أنها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم»، ثم يجعل يحرض الأشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن يكبوا أصنام المسلمين: «قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترجافن وصبوهم على النار وقدموهم إلى ربكم»، وذهبوا إلى أن صورة «ماهوم» كانت تصنع من نفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان. ومن قرأ وصفه في أناشيد «رولان» كاد يحلف أن ذلك الشاعر إنما يصف عن خبر وعيان يقول: وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها، عظيمة الشكل، لطيفة الصنع، تلوح على وجهها سمات الشهامة، كان «ماهوم» من ذهب وفضة يأخذ بريقها الأبصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجمل المصنوعات، حاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الأحجار المضيئة، يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير، ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسلمون في إحدى غزواتهم بعث قائدهم إلى مكة يطلب ربه، قال الراوون. فجاء الإله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوي قاصف، وبعضهم يغني بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة، والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم، وأقبلوا به مرحين حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره، فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع.

ثم أخذ «ريشار» بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف، وأن لا شيء في باطنه إلا ويرى من الخارج، فقال: «وقد وضعوا في جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار يغط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون»، وقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الإسلامي، كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي، فروى «بودوان» في نشيده على الكونتيسة «بونتيو» لما أرادت أن تعتنق الإسلام أمام صلاح الدين أنها قالت: «أريد أن أعبد محمداً فائتوني به، فلما صار بين يديها خرت ساجدة إليه»، ويأخذ القارئ من نشيد آخر يظهر وضع تتمة لأناشيد «بودوان» وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم، وهما «بارتوان» و«جوبين»، إلا أن الثلاثة الأولين هم الرؤساء، ولما رد أحد قواد المسيحيين جيش المسلمين الذي

خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين فقال: «وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويكوجون بينهم ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم يا ترفاجان يا ماهوم، ومع ذلك يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى لا يرى فيه القارئ رمزاً إلى محمد بالصنم وهو للقسيس «إسكندروديون» ألفه سنة ١٢٥٨ ميلادية، أخذاً عن مسلم تنصر من ذوي الاعتبار، وعد الناس تلك القصة تاريخاً صحيحاً عن ذلك النبي، وقد جاء فيها: «إنه من المعلوم أن محمداً كان عالماً بطرق المكر والخيانة والخداع»، ثم شبهه بأحد الأمراء المحوط بأتباعه ينشر دينه على أبسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة.

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل لأن تاريخ إسكندر المذكور لم يزلها ولأنها تركت أثراً في الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام وتشبثت به أفكارهم في النبي وكتابه.

ولو سأل سائل: هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون؟ لأجبناه جواب أهل «نورمدة» لا ونعم، إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم فاحتاجوا في ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم وأميالهم. وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى إلى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين الباحثين في علم التوحيد الذين يظهر على كتبهم في ذلك الزمن أنهم ميالون إلى الاعتدال، وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية، مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين، وكان المصلحون ـ هم البروتستانت أيام دعوتهم لإصلاح الدين المسيحي ـ أشد تعصباً ضده من غيرهم. فقد اعتنى «بيلياندر» بتشبيه محمد بالشيطان، وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه، ولسنا نقيم برهاناً على ما نقول غير توجيه نظر القارئ إلى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب «ريلان» الذي ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان: «ما هو السبب في أن الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية إلا شيئاً يسيراً»؟ حيث يقول: «لو أراد الباحثون أن يصموا مذهباً أو طريقة بوصمة الخزي والعار نسبوها إلى محمد، فقالوا: مذهب محمدي أو طريقة محمدية، وهكذا».

وألف القس «دون مارتينو الفرنسو فيفالدو» كتاباً سماه «سراج الكنيسة المقدسة الذهبي» جاء فيه: إن كتاب محمد لا تلزم قراءته، بل يجب أن يسخر به وأن يرمى في النار أنى وجد، ولا يليق أن يحفظه الناس لأنه عمل بهيمي، وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنه يرى من العبث أن يجهد الإنسان نفسه ويزيد إيلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة منشؤها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه.

وأما المسلمون فمن أسمائهم في تلك الكتب: النَّكَدَة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والمفقوتون الذين يملؤون المنزل بالنساء في الليل ويطلقوهن بالنهار، ولو أردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين وهو «بروشار» وسماه «مرشد السياحة» وقدمه إلى الأمير «فيليب روقالو» سنة ١٣٢٣، وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوى إلى حرب صليبية فقال: «من ذا الذي لا يذرف عبرات الدمع عندما يعلم أن الرجال هم القابضون اليوم

على تلك البقاع التي هي ميراثنا، أولئك قوم لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون إليه ولا عهد ولا حنان، أولئك قوم أخساء أدنياء وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل، أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون في نسائهم، الفاسقون بالأطفال، الظالمون لعجم الحيوانات، المخالفون لطبائع البشر، القتالون للفضائل، المميتون للأخلاق، الغارقون في القبائح والخطايا، وأولئك هم أولياء الشيطان، وأنصار الدنايا، ذوو حقد وبغض، ذوو أفكار سافلة، وأعمال سخيفة، وعيشة دنيئة، وأقوال بذيئة، وعشرة سوء معدية، لا تنصرف إرادتهم ولا تتجه هممهم إلا إلى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع وآذونا في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا، أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة».

ولم يزل هذا الروح سائداً عن المسيحيين حتى إن المستشرق «بريدو» الإنكليزي ألف سنة ١٧٣٣ كتاباً في سيرة النبي عنوانه «حياة ذي البدع محمد»، وترجمه بعضهم إلى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال: «إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم بذكر حياة هذا الرجل الشرير محمد». أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم كما يقولون، وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا، وأراد «داماسين» أن يخالفهم في التأليف لكونه تربى في دمشق الشام وكان مقرباً عند الخلفاء، وجعل يرد مذهب الإسلام من غير تعصب، لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة «اريوس»، ومع ذلك فلم تؤثر عبارته في رأي الغربيين، بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه، وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائماً في تأييدها وتمكينها من الأذهان، وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزؤون بالدين الإسلامي، وأغنت الباباوات عن حربه حرباً صحيحاً، فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أخرى، لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما أحزاب النفس الواحدة في جسدين، وأحزاب النفس في جسم واحد. ولم يبدأ في البحث عن الإسلام بغير تعصب ولا تشنيع إلا في زمننا هذا، ففي القرن التاسع عشر أخذ الباحثون ينظرون إلى المسألة نظر الناقد البصير، وكان من وراء ذلك أن افترق الناس في القرآن إلى معجب به وطاعن فيه، ومع ذلك لا تزال نرى في لسان هذا القسم الأخير ما تشم منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية.

فقال المسيو «دروختي» في سياحته في بلاد العرب التي نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبي: «إنه عربي خائن دنيء»، وقد نسي أن هذه الألفاظ التي يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى. وأول ما دار البحث فيه مسألة صدق النبي في رسالته، وقد قلنا: إن ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب، ومعلوم أن لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتاباً منزلاً، ولسنا نحتاج في إثبات صدق النبي إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته، أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره.

وبيان ذلك أن إسماعيل لما حنقت عليه « سارة » وطرد من عائلة أبيه توجه إلى بلاد العرب ونقل إليها ديانة أبيه إبراهيم، إلا أنه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل يشبه الخيال، إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب إبراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكاً، كما حصل ذلك لبني إسرائيل، ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً، وتحل محله عبادة الآلهة التي كانت معروفة في أمم أخرى، حتى تنوسي دين إسماعيل تماماً، ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق في تلك البقاع حتى إن « تيث » قس البصرة اعترف في القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة في بحيث جزيرة العرب، إلى أن قال:

ثبت إذن مما تقدم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه، خلافاً لما ذهب إليه « إسكندريون » حيث يقول: « إنه كان يعرف في دين اليسوع قراءة وكتابة ». نعم إن البحث عن معرفة المصادر التي عساه أن يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيداً لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة، إلا أنه بحث ثانوي إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضاً من الكتب المقدسة الأخرى لبقي الأمر مشكلاً، كما كان عليه في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني، وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحاً وجسداً، ولقد نعلم أنه مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلام نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكناً من قلبه، وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه صلى الله عليه وسلم، ولكي ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف في جبل حراء، وأرخى العنان لفكره يجول في بحار التأملات عابداً متهجداً، ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالي هاتيك البقاع التي تملأ النفس انشراحاً، حتى جاء عنها في لسان العامة أن الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الأرض إعجاباً بجمال الليل فيها وشوقاً إلى جماله وجلاله.

ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل وقوة الإدراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات: « الله أحد. الله أحد »، كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده، وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها، لبعدنا عن فكرة التوحيد، ولم يزل عقله مشتغلاً حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة جاءت في القرآن ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامي الذي دل عليه، ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الإسلام « لا إله إلا الله ».

ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره، وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام، ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم. ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي

صلى الله عليه وسلم من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف وحدانه منذ خلقته، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته

وأما مسألة الوحي بالقرآن فهي أكثر إشكالاً وأكبر تعقيداً، لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلاً مرضياً، والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت أعين نجاشي الحبشة لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة «آل عمران»، وما جاء في ولادة يحيى، وصاح القسس: إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى. قال ناقل هذه الرواية «كوزان دي بيرسوفال»: فلما كان اليوم الثاني طلب النجاشي جعفراً وأشار إليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح، ففعل، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل في أمه مريم، ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر: إن الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى وبين ما تقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب، وقد قوي ذلك القضيب، فمنع الحبشة من الإسلام وجعلها مسيحية إلى الآن. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا، غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب.

ولقد أصاب «جان جاك روسو» حيث يقول: «من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً صلى الله عليه وسلم يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المقنع المشبع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب والتفت إلى أنه كلما بدأت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجداً على الأرض، وناداه: يا أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار».

قال «بولا تقيلير»: «إني لأعترف بأنه من الصعب أن يظن الإنسان ولا يتحير في أمره أن قوة الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير، خصوصاً أنها تصدر عالية بغير ضعف أبداً، وتتجدد رفيعة معجزة إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء». وقد أشار المؤلف في كتابه إلى الآية الآتية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

إذن ليس محمد من المتدعين ولا من المتنحلين كتابهم، وليس هو بنبي سلاب كما يقول المسيو «سايوس»، نعم قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمداً كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية، فالبحث مباح فيما إذا كان مذهبه صحيحاً أو موضوعاً اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي، ولكن لا نسلم إنكار هذه الحقيقة، وحينئذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصاً إذ لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول: «إن دين الأنبياء كان كله واحداً، فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد، وقد نزلت ثلاث كتب سماوية وهي: التوراة والإنجيل والقرآن، والقرآن بالنسبة للإنجيل كالإنجيل بالنسبة للتوراة، وأن محمداً بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى، ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي يتزل للناس وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً».

إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه الاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى قال: إنه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه، ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله، وكان يسمع صوتاً من السماء يقول له: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ١٦٣-١٦٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: ٢٥] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٣-٤٤]، على أن بعض المتشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير، إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبدوه، فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أنواع الدعاء.

إذن لا يمكن أن تنكر على محمد صلى الله عليه وسلم في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني، وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ مبلغاً لا محل للزيادة فيه، ولم يكن فيه عيب، بل إن ما نسبوه إليه من هذا القبيل لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة، فما كان يميل إلى الزخرف، ولم يكن شحيحاً، بل كان كما قال أبو الفداء: يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة، وكان قنوعاً خرج من هذا الباب ـ كما رواه أبو هريرة ـ ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.

هذا هو النبي الذي قال عنه المتشدون من النصارى: «إنه كان منهمكاً يأتي المغنيات في الحانات» تجرد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً، وقد حاز الرفعة والمعالي وبلغ من السلطان منتهاه. ومهما اجتهدنا في إدراك كل معنى من معانيه فإنا به جاهلون، فلقد وعد ملوك بني إسرائيل أن يرسل المسيح من أصلابهم، ورأينا أن عيسى ولد على غير ما عهدوا.

على أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول عن نفسه إنه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران، وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع وما به من هول رسالته، عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر. هذا ما كان من صدقه وأمانته في السنين الأولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالأمين.

وأما حاله في بقية مدته بعد أن صار رئيساً سياسياً فالاستدلال عليه أدق وأدعى إلى طول البحث والتنقيب. قال رينارد دوزي: «يكاد أن يكون من المستحيل الجزم بأن محمداً كان في أواخر حياته يعتقد بصدق رسالته. أما في الدور الأول فاعتقاده وصدقه لاشك فيهما، والأدلة كثيرة من الجانبين، ووضع المسألة على هذه الكيفية هو الذي فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأي وحجة تتبع أمياله وما يشتهي، إلا أن الناقد المنصف لا يصح له أن يرجح قولاً على آخر بدون ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنين، ولكن الناس كما وصفهم المسيو «مونتور» محتاجون إلى الإيقان والاعتقاد، وهم في احتياجهم هذا يميلون إلى من يلقي عليهم المسائل كلها كأنها حقيقة ثابتة، ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشيء أو نفيه مطلقاً بغير تثبت ولا دليل، ولست ممن يدعي الترفع عن هذا التقريع، غير أنني أقول: إنه بفرض صحة المذهبين، وأن صدق النبي في آخر حياته وعدمه سيان في الوضوح والدليل، فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة أو القرب منها، ألا وهو علم النفس وحركاتها، وهذا العلم وإن لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علقت بالأفكار، لكنه مع ذلك يوصلنا إلى الإيقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر للباحثين أن يجزموا بشيء من أمرهم، كأن يؤكدوا أنهم صادقون أو أنهم جروا في أعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون، كما يفعل السياسيون، وما من كاتب ولا باحث يستطيع أن يجزم بأن الإمبراطور «كونستان» الذي رفعه القس مكاناً علياً في المعابد واختصوه بالمواهب الإلهية كان صادقاً بعد انتصاره في قنطرة «ميلميوس»، ولكن محمداً قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة، ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد، كما فعل الملك الروماني، وإيمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام، لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ، ولو أنه جال بفكره ساعة من زمانه شك في صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلاً لهذه الغمة ومؤيداً له في صحة صبوته وصدق رسالته».

وفي الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل أن يحكموا بالدع وهم مخطئون، ولقد عانى محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً مع بني قومه إذ كانوا منكرين، ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين، نحن لا نصدق بما يقولون، بل نرى أن قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين، ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم فذلك لأنه يعز وجود من يحب الحق، ولا تلجئه الحوادث إلى الإعجام طلباً لتقريره في دهن قوم جامدين، إن الذين ينكرون صدق محمد في آخر حياته لا يستطيعون أن ينكروا عليه أنه بقي إلى آخر لحظة منها نبياً رسولاً شديد التمسك بمذهبه وأنه فارق الدنيا موقناً بأداء رسالته، فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت أيامه الأخيرة، وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغير، مما يبرهن على صدق حديثهم وأمانتهم في نقلهم، ولولا زيغ المتشددين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا: «إن محمداً قد مات تنهشه الخنازير

إذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير» ، تلك جريمة لا تغتفر ، ومما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح في تاريخ الحروب الصليبية الأولى لمؤلفه «جيبير دي نوجان» وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون إلى التخريف ، غير أنه أتى بهذه الأكذوبة وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ ، فلنسدل ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبي في كتب المؤرخين الصادقين.

لما قربت المنية خارت قواه وخرج إلى الحج بمكة في شهر مارس سنة ٦٣٢ ميلادية وهي حجة الوداع ، وخطب في الناس على منبر المسجد المقدس ، فقال : رب إني أديت رسالتي وبلغت أمتي اليوم قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ثم رجع إلى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضا من زوجاته ، ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فإنه لم يرغب طول حياته في المال ، بل كان كلما جمع إليه شيئاً منه أنفقه في الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مقداراً يسيراً لتحفظه فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته ، وغاب في سنة ، ولما أفاق سألها عما إذا كانت أنفذت أمره أم لا ، فأجابته : كلا . فأمر بالنقود وأشار إلى العائلات المعوزات فوزع عليهم ، وقال : الآن استراح قلبي كنت أخشى أن ألاقي ربي وأنا أملك هذا المال.

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس ، وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ ، وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب وتصعد منبر الخطابة الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال : «أيها الذين تسمعون قولي ، إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فليتقم من سمعتي ، وإن كنت سلبت أحداً ماله فإليه مالي فليقتص منه وهو في حل من غضبي فإن الغل بعيد عن قلبي» ، ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له ، فأداها على الفور قائلاً : «لخزي الدنيا أهون من خزي الآخرة» ، ثم دعا لمن حارب معه في «أحد» وسأل الله لهم الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك أنه لما كان في واقعة خيبر قدمت إليه يهودية اسمها «زينب» شاة مشوية أضافت إليها سماً ، فأخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم قطعة واحدة بين شفتيه ، وأحس بأنها مسمومة فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول : «ما زالت تعاودني أكلة خيبر» ، وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول : «هلا افتدينا روحك بأرواحنا» ، ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً ، وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين ، وقيل له : قد جاء وقت الظهر ، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس ، فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبرت عائشة رضي الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : كانت رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسندة إلى صدري ويقربه قدر ماء ، وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول : «رب أعني على تحمل

سكرات الموت، ادن مني يا جبريل، رب اغفر لي واجمع بيني وبين أصدقائي في السماء»، ثم ثقلت رأسه ومال ثانية إلى صدري.

أما مخلفاته فبيت بناه بيده وبضع نياق آلت إلى بيت المال، لأنه عليه الصلاة والسلام قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث». وإلى هنا نقصر القول عن ذات النبي فما أردنا أن نطيل فيها إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين، إذ الدين يدعو إلى الدين، وكان من الواجب دقة البحث عن اعتقاده صلى الله عليه وسلم قبل أن نتتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر في الوجود.

الإسلام في زمن الفتح ومدة حكم العرب

قال القديس «بولس»: يطلب اليهود معجزات ليصدقوا، واليونان أدلة ليؤمنوا، وأما العرب فإنهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة، إذ النبي كان يقول لجلسائه على الدوام إنه آدمي مثلهم وإنه مرسل إليهم وإنه مجرد عن كل سلطان في المعجزات، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[الكهف: ١١٠]، ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالأمة التي بعث فيها، إلا أنا رأينا الإسلام في واقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الأنصار إلا ثلاثمائة وأربعة عشر نفراً فلم يمض عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال «الألب» وتوسط البلاد الفرنساوية، وقد أسلمت الشام والعجم ومصر وبلاد المغرب من مراكش إلى الجزائر إلى تونس إلى طرابلس، نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب في العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامة في مبدأ ظهورها، ولكن الإسلام لم يلبث أن تغلب على أكبر العثرات، فمهد الصعاب حتى صار لا يعرف حاجزاً ولا مانعاً.

وما أشبه الدين في انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة مؤثرين: مؤثر داخلي يسمى المقاوم ومؤثر خارجي وهو المحرك، والأول خفي لا يظهر أثره وإن كان هو الذي يلتقط جميع الحرارة الواصلة إلى الجسم، فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر، فإذا انحلت جاء المؤثر الخارجي فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذي يسمى تبخراً، وقد احتاج الإسلام في الانتشار إلى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التي وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد، إلا أنه كان قوياً للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم وإعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جداً أن يعتنقوا ديناً يرى آباءهم غير مطهرين، ومن الموانع التي قوت العرب في استعصائهم على الإسلام ما اشتمل عليه من مبدأ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود، فالقول بالمساواة بين الناس طراً أمامه كان ثقيلاً على آذان العرب مخالفاً لتقاليدهم الأولية حتى يدينوا إليه بغير عناء، ولذلك فإن الإسلام سنة ٦٣٢ ميلادية أيام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب، إلا أنه كان بين المسلمين الأولين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الأب «بروغلي» حيث قال: «إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين ذوي دراية وذكاء، منهم: أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء فأحسنا سياستها وكانا ذوي ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا أرفع قدراً وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما».

ومن الغريب أن الدين الإسلامي لم يلق في طريقه من المقاومات إلا ما قابله بها العرب الوثنيون، فإنهم كما قدمنا كانوا مدفوعين إلى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحريتهم واستقلالهم، فكان جميع تلك القبائل المنثورة، وهم رحل في الوديان غيورون على إطلاقهم في الفلوات، لا يعرفون من الحكم إلا سوق الماشية إلى المرعى، ومحاربة بعضهم في كل آن، وتكوين أمة واحدة منهم أكبر عقبة قامت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمناً طويلاً، إلا أنها لم تدم إلا وقتاً وعادت بعد ذلك إلى التفرق والانقسام، غير أن القبائل بعد تفرق وحدتها لا تزال متمسكة بدينها الجديد، وصار الاسم العربي له المقام الأول بين الأسماء في جميع أطراف المسكونة، وصار كل ينتسب إلى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصاً عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع، وهذا هو السبب في إطلاق اسم العرب في التاريخ على أمور كثيرة، فقالوا: عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية، مع أنه لا جامعة بينهم وبين بلاد العرب سوى الإسلام. انتهى الكلام على الفصل الثاني.

الفصل الثالث: فيما ذكره العلامة توماس كارليل

لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، وإذا كان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق.

فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة. وبعد، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح في حياة الأبدان.

ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم، وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره، عجباً والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب، فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت، وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد، نعم، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائة مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن، وإني لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبق قوانين الطبيعة، وإلا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً، وزور وباطل، وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً ومحنة، والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه

الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأي مصاب وأيكم؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها : هذه الأوراق كاذبة .

أما الرجل الكبير خاصة فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندي أنه ما من رجل كبير « ميرابو » أو « نابليون » أو « بارنز » أو « كرمويل » كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعني أنه رجل صادق النية جادّ مخلص قبل كل شيء ، بل أقول : إن الإخلاص - الإخلاص الحر العميق الكبير - هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه . كلا . فإن هذا حقير جداً وأيم الله ، هذا إخلاص سطحي وقح وهو في الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه . كلا ولا يشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذي يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحداً؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه : أهي مخلصة؟ أو بعبارة أخرى أقول : إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقاً كالموت وحقاً كالحياة ، وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخطوا في غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لاشك فيها ولا ريب هاهي . هاهي .

فاعرفوا هداكم الله أن هذه هي أول صفات العظيم وهذا حده الجوهري وتعريفه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافي الجوهر كريم العنصر ، فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، ثم قال بعد ذلك بكلام هذا نصه بالحرف الواحد كالذي قبله : نحن نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء ، وكيف وأن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يغشى لنورها ، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبياً أو فارساً أو ملكاً ألا تراها ضرباً من الوحي ، والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء . وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرّع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر ، وما الرسالة التي أدّاها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول ، كلا ، ما محمد بالكاذب ولا الملفق ، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هي شهاب قد أضاء

العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١]، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء ، وكان الأعرابي صامتاً لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضاً قفراً يباباً خرساء تخالها بحراً من الرمل يصطلي جمرة النار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القمر ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشيّ فيخصر

ولا أحسب أناساً شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر ، وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوماً أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص ، وكان العربي أغلب وقته صامتاً فإذا قال أفصح ، ويزعم أن العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة أنهم شاركوا اليهود في مرارة الجد وخالفوهم في حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفي ألمعية القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد عليه الصلاة والسلام منافسات في الشعر يجرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة ، فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضاً والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطبائع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أي لذة ، فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الإسرائيليين واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والحامد بحذافيرها ، ألا وهي التدين ، فإنهم مذ كانوا ما برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب ، وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتبرها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال الشعري كما اصطلح الناس على تسميته . وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه ، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي مسدد . وأي تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين . وقد اتفق النقاد أن سفر أيوب أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس وقد كتب في بلاد العرب .

ورأيي في هذا الكتاب فضلاً عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر براع ودونت يد كاتب . ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها عمومية تخالف التعصب والتحيز .

وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم أن ولد النبي محمد عليه الصلاة والسلام عام(٥٨٠) ميلادية، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش، وقد مات أبوه عقب مولده. ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل، فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه، فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه، وكان يقول: ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه ـ وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل على أحسن نظام عربي.

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين، رحلة إلى مشارف الشام، إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره، أعني الديانة المسيحية، وإني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس «بحيرا» الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته، ولاشك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها، ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون، فأقامت في ثنايا ضميره، ولو غير مفهومة، ريثما ينضجها له كرّ الغداة ومرّ العشيّ، ويحلها له يد الزمن يوماً ما، فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة.

ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية. وعجيب وأيم الله أمية محمد. نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك، ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر، ولم يغترف من مناهل غيره، ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ـ أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات العصور ـ من كان بين محمد وبينه أدنى صلة، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره.

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً، وقد سماه رفقاؤه «الأمين» رجل الصدق والوفاء. الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته

واستار دقيته، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا. وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً رجلاً شديد الجد مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس بل ربما مازح وداعب.

وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله، هؤلاء لا يستطيعون أن يتبسموا. وكان محمد جميل الوجه وضيء الطلعة حسن القامة زاهي اللون له عينان سوداوان تتلألآن، وإني لأحب في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتفخ ويسود في حال غضبه «كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت»، وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم ولكنه كان أبين في محمد وأظهر. نعم لقد كان هذا النبي حاد الطبع ناري المزاج ولكنه كان عادلاً صادق النية، كان ذكي اللب شهم الفؤاد لوذعياً كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم ممتلئاً ناراً ونوراً، رجلاً عظيماً بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح، فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء.

إلى أن قال: «ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا. وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحجى وإربة ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه، وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتحف بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره، ولم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه: «هاأنا ذا»، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية، وكل كلام ماعدا ذلك هباء، وكل قول جفاء، ومازال منذ الأعوام الطوال منذ أيام رحيله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار، ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه والذي يسميه الناس كوناً؟ وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا أفعل؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات؟ كلا. ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة؟ لم يجبه لا هذا ولا ذاك، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل، وإلا ما أودع الله فيه من سره، وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه، فقد أحس ذلك الرجل القفري أن هذه هي كبرى المسائل وأهم الأمور وكل شيء عديم الأهمية في جانبها، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية أو في روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسدة لم يجده، وقد قلت إن أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن.

فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة ، وكان يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ، ما هي إلا رمز له وإشارة إليه ، وإلا فهي باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع ». وما لهذا الرجل والأصنام؟ وأنى تؤثر في مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير. أي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة؟ إنه في واد وهم في واد. هم يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فإما إن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين. أجب لا بد من أن توجد الجواب. أيزعم الكاذبون إنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره. حمق وأيم الله وسخافة وهوس. أيّ فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة ، وأين تصير الممالك والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجدة للمرء ومظفرة. كلا. إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقاً ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع.

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ، ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامتة متفتحاً صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية. أجل حبذا تلك عادة نعمت. فلما كان في الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه في غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى ، إذا هو قد خرج إلى « خديجة » ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته ، فقال لها إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وإنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشاباً حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما سواه باطل ، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدي والرونق السرمدي. الله أكبر ولله الحمد ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه باسم ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو ، ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جايتي » : « إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم ». وقديماً قيل : « إن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الإذعان للضرورة ، فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ، ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرهاً ، بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هي خير ما يقع للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن لله في ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزاناً لذلك العالم وأحواله ، بل عليه أن يعتقد أن للكون قانوناً عادلاً وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى ».

إلى أن قال: «وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جموداً وسخرية، حتى إنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع، ولكنه المتطر في مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته، ثم قام بينهم خطيباً فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون، وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة، فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بناصره، وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب عليّ وكان غلاماً في السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح في أحدّ لهجة إنه ذاك النصير والظهير. ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو عليّ، ولكن رؤية رجل كهل أميّ بعينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه، كانت مما يدعو إلى العجب المضحك، فانفض القوم ضاحكين، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية في الجد والخطر».

أما عليّ فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه، فإنه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة، وكان أشجع من ليث، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى، وقد قتل في الكوفة غيلة، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله، وقال قبل موته حينما أومر في قاتله: «إن أعش فالأمر إليّ وإن مت فالأمر لكم، فإن آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وأن تعفوا أقرب للتقوى».

إلى أن قال: «فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعاً وكانوا أربعين رجلاً كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه، وألفى المقام بمكة مستحيلاً، هاجر إلى «يثرب» حيث التف به الأنصار، والبلدة تسمى الآن «المدينة» أي مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وهي من مكة على (٢٠٠) ميل، تقوم وسط صخور وقفار. ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ في المشرق، والسنة الأولى من الهجرة توافق (٦٢٢) ميلادية وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويتخذون أمامه مسلكاً وعراً وسبيلاً قفراً وخطة نكراء موحشة، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات، وهكذا شأن كل إنسان في هذه الأحوال، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة، عزم ابن الصحراء أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربي ولسان حاله يقول: «وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أي فتيان هيجاء نحن»، وحقاً رأى، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتواً وطغياناً، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند والوشيج المقوم وإلى كل مسرودة حصداء

وسابحة جرداء، وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق وكانت النتيجة ما تعلمون».

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشد ما أخطؤوا وجاروا، فهم يقولون: «ما كان الدين لينتشر لولا السيف»، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فرد ضد العالم أجمع، فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضع، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعل «شارلمان» بقبائل السكسون، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطتها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها، فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط وما كان أعمق جذراً في الحق وأذهب أعراقاً في الطبيعة، فلذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده.

إلى أن قال: نحن سمينا الإسلام ضرباً من النصرانية، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لأيقنا أنه كان خيراً من تلك النصرانية التي كانت إذ ذاك في الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان. تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفراً ميتاً، على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً، وبفضله فقط آمن الناس بها، وحقاً إنها كانت ضرباً كاذباً من النصرانية كالدعيّ بين الأصلاء، ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية، وليست مجرد قضايا قفرة ميتة، ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم، نظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه، فقال في نفسه: «الوثنية باطل وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لا تضر ولا تنفع وهي منكر وفظيع وكفر لو تعلمون، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون».

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان، روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة وهي في الحقيقة شيء واحد؛ وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر «الكون»، جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه لا محاولاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها، ولم أعرف قط تعريفاً للواجب أحسن من هذا، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا، فإن الفلاح في ذلك، إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح، وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة، وماذا أفاد ذلك

وماذا أثمر. أما إنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها، وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى. ولقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة. وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق، فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب.

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة. هذا، وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة، لذلك لا عجب إذا قلت إن الأوروبي يجد قراءة القرآن أكبر عناء، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة. أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه، فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة، وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة، ويقال: إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة. إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب، والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه. وقد زعم «براديه» وأمثاله أن طائفة من الأحاديث والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال، وإني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً، وقل ما نطق به في جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية.

هذا، وقد كان تدفع الوقائع وتدفع الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم، ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير، فقد كان في هذه السنين الثلاث والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن. حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثوراتها، كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط، وقد أتخيل روح محمد الحادة البارية وهي تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوامات الفكر، حتى إذا أسفرت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه، كذا يزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال.

كلا، ثم كلا، ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ، لقد كانت حياته في نظره حقاً وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة، والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته إلى العربي المتوحش، وهي أول فضائل الكتاب أياً كان وآخرها، وهي منشأ فضائل غيرها، بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى. ومن العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجري فيه من بدايته إلى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات. نظرات نبي وحكيم، أجل، لقد كان محمد في شؤون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه، أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأني أرى لها في الإنجيل شبهاً، ولكني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني وهو ما أجده في القرآن، وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء.

وكان محمد صلى الله عليه وسلم إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال: «حسبكم بالكون معجزة، انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته، هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلاً، تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائة ويهطل ليحيي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلاً وأعناباً، أليس ذلك آية: ﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾[النحل: ٥]، تحول الكلأ لبناً وهي فخر لكم، والسفن ـ وكثيراً ما يذكر السفن ـ كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتختفر في سواء اليمّ لها حاد من الريح، وبينا تسير إذا هي قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح، معجزات والله كل هذه، وأي معجزات بعدها تريدون ألستم أنتم معجزات؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبداً، ثم لكم جمال وقوة وعقل، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين، ثم وهبكم الرحمة، لقد أدهشتني جداً هذه الجملة فإن الله ربما خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم؟».

هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة، وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلاً راجحاً عظيماً وعيناً بصيرة وفؤاداً صادقاً ورجلاً عبقرياً قوياً، لو شاء لكان شاعراً فحلاً أو فارساً بطلاً أو ملكاً جليلاً أو أي صنف من أصناف البطل. نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أيّ معجزة، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة، وهو أن هذا الكون الصلب المادي إنما هو في الحقيقة لا شيء، إنما هو آية على وجود الله، منظورة ملموسة. وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير. وكان يقول: «هذه الجبال الشامخات ستحل وتذوب مثل السحاب وتفنى»، وكان يقول: «الجبال أوتاد الأرض وإنها ستفنى كذلك يوم القيامة، وإن الأرض في ذلك اليوم العظيم تصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباءً منثوراً فتنعدم، وكان لا يزال واضحاً لعينيه سلطان الله على كل شيء، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة»، وهذا ما يسميه علماء العصر «القوى والمادة»، ولا يرونه شيئاً مقدساً بل لا يرونه شيئاً واحداً، وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات

من سر الله ، وما أفحش ذلك النسيان عاراً وأكبر هذه الغفلة إثماً ، وإذا نسينا ذلك فأي الأمور يستحق الذكر ؟ . إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية ذابلة . نعم ، وما أحسب العلوم لولا ذلك إلا خشباً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التي لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك . ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولاً إلى العبادة ، أعني أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

إلى أن قال : « وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونخطئ إذا حسباه رجلاً شهوياً لا همّ له إلا قضاء مآربه في الملاذ . كلا . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليذكرون ونعم ما يذكرون أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل ، دئباً في نشر دين الله غير طامع إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ، وعر المقادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ، وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال ، وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه ولا تحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله . كلا . بل زادته فضلاً . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : « العين تدمع ، والقلب يوجع ، ولا نقول ما يسخط الرب » . ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » قال محمد : « لقد جاهد زيد في الله حق جهاده وقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه » ، ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها وجدت الرجل الكهل الذي دبّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً فقالت : ماذا أرى ؟ قال : صديقاً يبكي صديقه

مثل هذه الأقوال والأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية الرحيم . أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الأول . وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدعي ما ليس فيه ، ولم يك متكبراً ، ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران .

وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية إذ كان يراها من وحي وجدانه وأوامر شعوره، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين. وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد. وطالما كان يذكر يوم تبوك، إذ أبى رجاله المسير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر، فقال لهم: الحصيد إنه لا يلبث إلا يوماً فماذا تتزودون للآخرة والحر؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حراً. وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية، إذ يقول للكفار: ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة.

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء، ولم يك منه إزاءهما إلا الإخلاص الشديد والجد المرّ. فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق وعيشة المرء في مظاهر كاذبة. وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب، بل إنه هو نفسه أكذوبة. وأرى خصلة المروءة والشرف ـ شعاع الله ـ متضائلاً في مثل ذلك الرجل مضطرباً بين عوامل الحياة والموت، فهل هو رجل كذب؟ لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم في بعض الأزمان والأمكنة. لا تؤذيك بادرته، لين المس رفيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سماً نقيعاً وموتاً ذريعاً.

وفي الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي. فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس في الإسلام سواء، والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة، بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين. جميل والله كل هذا وما هو إلا صوت الإنسانية. صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والصحراء.

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول: «إن العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب، فإن القرآن قد أقلّ جداً من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح، وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة، ولا عذاباً بدنياً وألماً جثمانياً حتى أسندوه إلى النار، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانياً إذ قال: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[الزمر: ٧٣]، فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى أماني المرء، وأعظم الملاذ قاطبة، والشيء الذي عبثاً يتلمسه الإنسان في الحياة الدنيا. وقال أيضاً: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[الحجر: ٤٧]، وأي رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات، وأي شيء أهنأ من التآلف والتصافي، وأي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الملاذ إلى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها. وهذا هو منتهى العقل والحزم فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات.

ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان، وأن لا يجعل من لذاته سلاسل وأغلالاً تعييه وتعتاص عليه إذا همّ أن يصدعها بل حلياً وزخارف متى شاء، فلا أهون عليه من حلها ولا أسهل من نزعها، وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصوداً من محمد معيناً أو كان وحي الغريزة وإلهامها فطرياً فهو والله نعم الأمر. ويمكننا القول على كل حال أن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثل ما صادفت في القرآن، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها، وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التي يقول عنها: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ [الحج ٢٠]، ماذا ترون كل هذه إلا ظلاً تمثل في خيال ذلك النبي الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق، أعني الواجب وجسامة أمره، لقد كان هذا النبي يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنساني مهما حقر خطارة كبرى، فما كان من سيئ فله من السوء نتيجة أبدية، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية، وإن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين، وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية. كل ذلك كان يلتهب في روح ذلك الرجل القفري كأنما قد نقش ثمت بأحرف من النار. وكل ذلك قد حاول في أشد إخلاص وأجدّ جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره في صورة تلكم النار والجنة، وأي ثوب لبسته هذه الحقيقة، وأي قالب صبت فيه؟ فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أي أسلوب وأي صورة. وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه. ولقد مضى عليه ماتئان وألف عام، وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم، وما ذلك فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم.

ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد. وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة: من السائر؟ فيجيبه السائر: لا إله إلا الله. وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار في أرواح تلك الملايين الكثيفة، وأن الفقهاء ذوي الغيرة في الله والفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ونعم ما يفعلون، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضاً هامدة، وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة؟ فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقاً، وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب. وما هو إلا قرن بعد هذا الحدث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديداً ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة، وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة، وما زال للأمة رقي في درج الفضل وتعريج إلى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومناهجها الإيمان، ألستم ترون في حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما

وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التي كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير، فإذا هي بارود سريع الانفجار وما هي برمل ميت، وإذا هي قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهي. ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثالث. والحمد لله رب العالمين.

من هو توماس كارليل

من كتاب السيد عبد الرحمن البرقوقي مترجم هذا الفصل

ولد «توماس كريل» في قرية «اكلفكان» بإقليم «انانداال» بجنوبي «اسكوتلانده» لأربع خلون من شهر تشرين سنة ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة «نابليون» لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة «روبرت بارنز» شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر، ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلاً إنكليزياً، وكان أبوه بناء وبيديه بني البيت الذي ولد فيه ابنه، دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوة نفسه، وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود، ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكأن قلبه بئر السلسل الزلال حوله من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه أن تجاور.

** خلائق أصفار من المجد خيب **

جوهرتان

الجوهرة الأولى: في إيضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات التي نحن بصددها.

الجوهرة الثانية: في ثناء المؤلف على الله وحمده له على نعمة العلم.

الجوهرة الأولى

إن الآيات التي نحن بصددها هي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾[الآية: ٤٧] إلى قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾[الآية: ٥٢].

فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[الآية: ٤٧] قد ظهرت آثارها في هؤلاء المؤمنين من المسيحيين وهم «اللورد هيدلي» و«الكونت هنري دي كاستري» و«توماس كارليل».

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[الآية: ٤٨]، فهذا قد ظهر ظهوراً واضحاً في كلام العلامة «الكونت هنري» إذ قال: «إن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً»، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه. ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره «جادسين دي تاسي» في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤م إلى أن قال: «ثبت إذن مما تقدم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتاباً مقدساً» الخ. وانظر إلى ما قاله «توماس كارليل» قال: ثم لا ننسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً، إلى آخر ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآيات: ٤٩-٥٢] الخ، فإن هذا ظاهر في كلام المؤمنين من علماء النصارى.

ألا ترى إلى ما ذكره «توماس كارليل» فيما تقدم قال: «وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة، انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته، وهذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلاً تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء وهو مسخر في السماء، كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائه ليحيي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلاً وأعناباً، أليس ذلك آية؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبناً وهب فخر لكم، والسفن ـ وكثيراً ما يذكر السفن ـ كالجبال المغيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليم لها حاد من الريح، وبينا تسير إذا هي قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح، معجزات والله كل هذه، وأي معجزات بعدها تريدون؟ ألستم أنتم معجزات؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبداً، ثم لكم جمال وقوة وعقل، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين. ثم وهبكم الرحمة. لقد أدهشتني جداً هذه الجملة فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا يكون أمرهم؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة». اهـ.

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٥٠]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٥١] الخ.

يا معشر المسلمين

أليس هذا هو الذي قلته لكم في هذا التفسير. هذا التفسير ميزته الخاصة أنه يوجه هممكم إلى معرفة هذه الدنيا ومخلوقات الله تعالى، فانظر فأجد هذا العالم الفرنجي يقول إن معجزة محمد هو هذا الكون والنظر فيه، إن هذا العالم لم يقيد عقله كما قيدت عقول آبائنا المتأخرين في الإسلام الذين تركوا الكون ظهرياً وراءهم واكتفوا بعلم الفقه. أليس هذا هو الذي أناديكم به في هذا التفسير. امتاز هؤلاء العلماء بأنهم ينظرون للقرآن نظراً مجرداً، فحكموا بأن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هو الكون، أما نحن في القرون المتأخرة فقد أغمضنا أعيننا ولم ننظر للكون واكتفينا بكلمات جدلية في علم التوحيد، والحمد لله آن لنا أن نرجع إلى القرآن كما قلت.

وقد بينت في هذا التفسير أن في القرآن (٧٥٠) آية في وصف الكون وهذا كله هو المعجزة الحقيقية، لا الاكتفاء بما جاء في كتاب «الشفاء» للقاضي عياض وغيره، فنظر المسلمين في الكون الذي هو يجب العناية به.

يا سبحان الله. هل نبينا صلى الله عليه وسلم يحتاج في أداء رسالته إلى جميع تلك الخوارق وإن كان حصل بعضها بل معجزاته باقية هي القرآن والكون.

ومن أعجب العجب أنك ترى صديقنا « اللورد هيدلي » يشكو مر الشكوى من القسيسين ويقول: هم يأكلون أموال الناس بالباطل ويقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾[التوبة: ٣١]. فهذا هو العجب أن نرى حقيقة أن دين الإسلام قد جاء لإصلاح الأمم جميعها بشهادة هؤلاء الأفاضل الذين عرفوا حقائق لم تكن لتخطر بالبال. هذه هي المعجزات التي لا تفنى بل تتجدد بتجدد الزمان. اهـ.

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة وأشهد أنك أجبت دعائي وأعطيتني أجمل ما أتمنى في الحياة فهل كان يدور بخلدي وأنا شاب أطوف على شواطئ الأنهار وفي الخلوات وفي الحقول وأبحث في هذه الدنيا الجميلة دنياك البديعة، دنياك المملوءة زينة وبهجة وجمالاً.

أقول هل كان يدور بخلدي أن السؤالين اللذين كنت أسألكهما قد أجبتهما إجابة تامة وهما: هل العالم منظم حتى أعرف أن له صانعاً؟ وماذا يقول أهل أوروبا في وجودك؟ هل هم يقولون إنك موجود؟ لأني رأيت لهم تفوقاً على المسلمين. فهل هؤلاء الذين فاقوا الشرقيين يعرفون أن للكون صانعاً؟ هذان هما السؤالان اللذان كنت في شبابي أثناء انقطاعي من الجامع الأزهر في شغل بهما كما ذكرته مراراً في هذا التفسير. وهنالك سؤال ثالث وهو: لماذا تأخرت أمم الإسلام؟. هذه هي الأسئلة الثلاثة لتي كانت ترد على خاطري وتذهب بلبي وأقضت مضجعي وحرمتني النوم في أكثر الأوقات، والآن أقول وأصرخ بأعلى صوتي إني عرفت أن العالم منظم وله صانع، وهذا التفسير هو الذي جمع أجمل ما اطلعت عليه ووثقت به، وما أسعد حظي إذ كتبت فيه ما سمعته الآن أيها الذكي من آراء علمائهم وكيف أدركوا أن الديانات التي تقدمت الإسلام مرتبكة ضائعة، أفلا أكون الآن سعيداً إذ كنت في هذه الآيات ما أبان أن المسيحيين يعتنقون الإسلام وبأي سبب أسلموا، وكيف أدركوا حقائق الإسلام، وكيف يقول « اللورد هيدلي » إنه الآن سعيد لأن الله معه في كل حركاته وسكناته، وكيف يبرهن الأستاذ « توماس كارليل » ومثله « هنري » الفرنسي أن دين الإسلام هو الحق وهو يعلو ولا يعلى عليه، وكيف نرى أن المسيحيين في زماننا قوم لا يفكرون مطلقاً في حقائق الديانات ويسيرون تبع القسيسين بلا تفكير. إني أعلن اليوم أني قد نلت ما كنت أطلبه من الله وهو الوقوف على حقائق نظام الدنيا بقدر طاقتي البشرية واطلاعي على آراء الأمم المحيطة بنا في الديانات وما الحق منها، ثم إدراجي في هذا التفسير بلدور الإصلاح والإسعاد لأمم الإسلام، وأنا موقن أن الذي نصرني في أدوار حياتي وأدلني م أتمنى من تلك الآمال الثلاثة هو الذي سينصر أمم الإسلام بعد قراءتهم أمثال هذا التفسير، وستتغير خريطة الأرض ذلاً وعزاً وسعادة وشقاء، ثم أقول من ذا الذي كان يظن أن أوروبا التي ملأت الآفاق بمدارسها وعلومها تكون عقول رجالها نائمة إلى هذا الحد، فانظر ما يقوله « اللورد هيدلي » فيما يلي:

التحريف العمدي

كنت أطلع من وقت لآخر على كتابات « الإرساليات المسيحية » التي يطبعونها بشكل كراسات صغيرة ويدعون فيها أنهم يعطون معلومات حقيقية عن الدين الإسلامي، وإنني لفي شدة الأسف لأن أعترف بأني أشعر بذلة عظيمة وخجل كبير عندما أجد أحد رجال وطني ينحني للرياء

والتمويه والتحريف لكي يعزز آراءه نحو الغير . إن الدين الذي يمكن أن يدعى أنه دين يحب أن يعلم العدل الدقيق والحب للحق . وإنه ليذهل جداً إلى أي مدى تسير التعصبات الدينية المسيحية .

انظر إلى وجه الصورة الآخر ، ألا تدهشك رؤية مظاهر روح الحسنى التي يقررها القرآن وملاحظة الهدوء الذي يلاقي به المجتمع الإسلامي الشاسع الحملات عديمة القيمة التي تحمل عليهم وعلى دياناتهم باسم عيسى الكريم أحد أنبيائهم .

إننا لا نجد كما أعلم أي جور أو تحريف في أعمال محمد لأنه حتى وإن كانت هناك كلمات شديدة من جهة المسلمين ـ يعذرون من أجلها ـ إلا أنهم لم يلجؤوا إلى مثل هذه التهم المكذوبة كي يكونوا منها أهم أسلحتهم التي يهاجمون بها خصومهم . إنني وإن لم أبين أسماء هذه الكراسات المشار إليها آنفاً إلا أنه يمكن الحصول عليها بسهولة من الناشرين الذين أخذوا على عاتقهم طبع مثل هذا النوع من الأدبيات .

إني سأذكر الآن بعد قطع من كراسات وضعت خصيصاً لتشويه أخلاق النبي الكريم ، وسوف يرى كل شخص ذو عقل مستقيم أن سفالة الحقد وطلب الانتقام هو السلاح الذي استعمل ، وليس في تلك الكراسات حجج ولا إشارات إلى حقائق تاريخية بل ولا شيء أكبر من تقارير مثيرة متوالية يعرف المؤلف لها بأنها ليست ولا يمكن عدها تقارير جوهرية أو مبنية على أساس ، وسيرى القارئ منها هنا بعض أمثلة مقيتة إلا أنني أعتذر إليه لذكر مثل هذا الهذيان الغير الصحي ، وعذري في ذلك أنه يجب أن يعرف العالم مقدار تعصب وغرابة شكل الهجمات التي توجد ضد المسلمين من زمن بعيد ، والذين لا تسمح لهم حسناتهم وصبرهم وطول أناتهم وحسن ذوقهم بأن يقابلوهم بنفس هذه السفالة والأعمال المتذلة .

وهاهي تلك القطع التي ظهرت في جريدة « نور آفشو » وهي جريدة مسيحية أسبوعية تطبع في « لوديانا » :

(١) الوحي الذي نزل على محمد أتى من عند الشيطان .

(٢) المحمديون في الواقع حمر وأعمالهم كأعمال الحوش .

(٣) محمد كان عليماً يعجب بجمال النساء وحبياً .

(٤) المسلمون مربوطون بحبال الشيطان من رقابهم .

(٥) كل نساء بلاد العرب المتزوجات زانيات .

(٦) إن إله القرآن والحديث هو الذي خلق رجالاً ملوثين بالخطيئة ، والذي ليس فقط لا يدلهم على الطريق السوي بل يضلهم دائماً .

(٧) خلاص المسلمين مبني على ارتكاب الخطايا ، وجعلت الأعمال الطيبة عندهم كوسيلة للحرمان . أما الخطيئة فقد نظمت كفرض وحيد لحياتهم الطبيعية .

(٨) أسس محمد أمة جعلت ارتكاب الخطايا دينها ، وعلامتهم أن قوادهم يتعمدون الكذب ويسفكون الدماء ويرتكبون السرقة وقطع الطرق ، ويظنون أن الزنا من البشائر المفرحة وكل منهم مصحوب بالشيطان ومصيرهم إلى جهنم جميعاً .

والآتي أيضاً قد جمع من مصادر مختلفة، وظهر في المجلة الإسلامية تحت العنوان التالي:

« زنبات كفاره » بقلم « ت. هويل » راعي الكنيسة الإنكليزية بـ« لاهور »

(٩) قال الكاتب مخاطباً المسلمين بتعيير وتوبيخ: «ذلك لأن قوادهم مجرمون شريرون وعقولهم ضعيفة». « صحيفة ٣ ».

(١٠) بذور الجريمة التي تدعى نصيب الشيطان نبعت في كل وقت وآن من عقل محمد. « صحيفة ١٠ ».

(١١) من محض رغبته أو غوايته الشيطانية شكر محمد الأصنام وسجد لها « صحيفة ٢٠ »

(١٢) أنه ـ أي محمداً ـ ظل خاضعاً دائماً للشيطان والسحر. « صحيفة ٢٠ ».

« حضرة محمد » بقلم القس « ج. هـ. راؤس » دكتور في الكهوت

(١٣) هناك أشياء كثيرة تبرهن على أنه « محمد » مجرم أثيم. « صحيفة ٦ ».

(١٤) الطمع والغضب كانا من الشرور القوية الغريزية في محمد. « صحيفة ١٠ ».

(١٥) كان مجرماً. « صحيفة ١٤ ».

(١٦) أنه نفسه « محمد » مفتقر إلى الخلاص. « صحيفة ١٤ ».

(١٧) أنه « محمد » لا يستطيع أن يتخلص من جهنم بأي طريقة. « صحيفة ١٧ ».

(١٨) كان مجرماً وسيلقى في جهنم كباقي الخاطئين الآخرين. « صحيفة ١٤ ».

« حمرا شفيق كون هاي » بقلم القس « هـ. راؤس » دكتور كهنوتي

(١٩) كان محمد مجرماً ورغب أن يمدح بعدم الخطيئة. « صحيفة ٥ ».

(٢٠) سيحتاج محمد إلى شفيع ومخلص كباقي الخاطئين العاديين. « صحيفة ٦ ».

« دفع البهتان » بقلم القس « روكلين »

(٢١) لا نستطيع أن ندعو محمداً إلا بنفس الرجل الغني. بقصد الرجل الغني الذي كان ـ كقول سانت توما ـ من نسل إبراهيم وعاش عيشة فاخرة ولما مات ألقي في جهنم « صحيفة ٦٩ ».

(٢٢) أصحاب محمد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، يوصمون بأنهم سفاكو دماء وظلمة متوحشون وزناة وغشاشون ولصوص وقطاع طرق وفاعلو كل أصناف الآثام وهلم جراً « صحيفة ٨٧ ».

(٢٣) كان محمد رجلاً دنيوياً متمتعاً لشهواته، ومثل هؤلاء الرجال عادة يغرقون في مثل هذه الأشياء، الويل لكل أمثال هؤلاء الرجال لأن لهم مثل تلك الخاتمة وسيلقون جميعاً في غضب الله أعني في بحيرة النار والكبريت. « صحيفة ٥٤ ».

« صراط المسيح والمحمد » بقلم القس « ثاكرداس » المبشر الأمريكي

(٢٤) كان محمداً في شخصه مخطئاً حقيقياً. « صحيفة ٦ ».

(٢٥) شكل محمد الحقيقي كما صوره العرب كان أعظم الغارقين في الشهوة البهيمية وحب النساء « صحيفة ١٤ ».

(٢٦) كان محمد رجلاً ضالاً جهنمياً. « صحيفة ٣١ ».

(٢٧) يظهر أنه « محمد » اصطيد بالشيطان. « صحيفة ٣١ ».

(٢٨) حضرات القراء انتبهوا لئلا تؤخذوا بغش محمد. « صحيفة ٣٥ ».

« إنجيل أندرونا »

(٢٩) حامل علامة المسيح الدجال هو نفس الثعبان اللعيم إلا أنه عندما يفتح فمه يظهره فكاه مشخصاً في البابا ونبي بلاد العرب. « صحيفة ٧٠ ».

(٣٠) دين محمد ودين البابا هما فكا ثعبان واحد. « صحيفة ٧٤ ».

« محمدي تواريخ إجمال » بقلم القس « وليم من ريواري » وطبعت بمطبعة الإرسالية المسيحية

(٣١) محمد هو زعيم اللصوص والنشالين والسفاكين والغشاشين. « صحيفة ١ ».

(٣٢) كان محمد من أعظم الخطاة. « صحيفة ٨ ».

(٣٣) لو أن جبريل اجتهد في أن يزيل ظلمة قلب محمد الذي كان يحتوي على بذور الجريمة أو السائل المزري أو قسم من الشيطان بالغسيل المتكرر، إلا أنه لم يزل أبداً منه، فمحمد قد سود فؤاده بالانهماك في ارتكاب الجرائم المتعددة دون أن يرجعه عقله. « صحيفة ٢٥ ».

(٣٤) قد سجن محمد في داخل بخار جهنم، إلا أن كل ذلك حصل له لارتكابه الجرائم التي ظل يمارسها إلى أن مات. « صحيفة ٢٧ ».

(٣٥) علماء المسلمين قد ارتكبوا جرائم من الزنا والسرقة ومثل هاتيك الأشياء، وقد أتوا هذه الخطايا والتعديات إطاعة لرغبات محمد تحت ستار مبدئه « لا إله إلا الله ». « صحيفة ٣١ ».

(٣٦) لم تخلق الشرائع المحمدية الزانيات المحمديات بكثرة زائدة فقط بل حتى الجنة لامتلائها بالحور والغلمان وقد أصبحت « كرخانة » منظمة. « صحيفة ٣١ ».

(٣٧) ليست فقط الكلمة المحمدية هي التي تشجع المجرم على ارتكاب جريمته بخسارة فائقة بل تخدمه أيضاً كحبة « بلوعة » للهضم يهضم بها جرائمه ويشد بها عزمه لينكب على عيشة الجرائم المتناهية، وبركات الكلمة المحمدية تعم وتغمر الكرخانات. « صحيفة ٤٩ ».

(٣٨) حالة إله القرآن كحالة البلد التي دمرت والراجا الأعمى تماماً. « صحيفة ٥٥ ».

(٣٩) ملعون من لم يعتقد في كفارة المسيح. « صحيفة ٢٩ ».

(٤٠) القرآن مجموع من الحكايات التوراتية والإنجيلية واليهودية والمسيحية والقرشية الغير موثوق بها وخرائض الجهل وتقليدات غير معتمدة. « صحيفة ٣٩ ». وهكذا دواليك.

ليس في وسع الإنسان في الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادئ دينهم وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير لدينهم أنها محض كذب واختلاق.

إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست في حياة محمد الذي ـ سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد أو في زمن انتصاره وبجاحه ـ أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا يتسنى لمخلوق آخر إظهارها، فكل صفات الصبر والثبات في مقصده كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التي تألمها في مجهداته الأولى بمكة ولم يشعر في كل زمن هذا الجهاد بأي تزعزع في ثقته بالله وأتمّ كل واجباته بشمم وحمية.

كان صلى الله عليه وسلم مثابراً ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله، ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه، وقد أثارت تلك الشجاعة التي لا تعرف الخوف ـ تلك الشجاعة التي كانت حقاً إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة ـ إعجاب واحترام الكافرين، وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله، ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا وزاد إعجابنا به بعد ذلك في حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل بل عفا عن كل أعدائه.

العفو والإحسان والشجاعة، ومثل هاتيك المكارم كانت ترى منه في كل تلك المدة، حتى إن عدداً عظيماً من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤية ذلك.

عفى بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه. آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة، وأغنى فقراءهم، وعفا عن ألد أعدائه عندما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته، تلك الأخلاق اللاهوتية التي أظهرها النبي الكريم أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقاً، وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة. فكل المحاولات عديمة القيمة في تحقير عظمة شريعة النبي العظيم بالبذاءة وسوء الاستعمال والحجج المموهة المتضمنة كثيراً من طمس الحقائق والآثارات المكذوبة تقدمت كثيراً بتعمد القصد في إضلال الناس وإبعادهم عن الحقائق، وهؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأساليب يجب أن يتذكروا ـ إذا كانوا قد تنصروا مسيحيين ـ بأنه يجب عليهم على الأقل أن يقلدوا المسيح في عدم الكذب الذي كان أكره شيء في نظر أعظم معلمي الناصرة عيسى. هناك أصناف عديدة من الكذب: الكذب الأبيض وهو غير مهم حيث إنه لا يضر وغالباً ما يقال لحماية سمعة جار أو مساعدة صديق. وهناك الكذب الخبيث الضار الذي يهلك صديقاً أو جاراً، إلا أن ألعنها ما يقال باسم الدين لأنه يحمل على تقليل أهمية المولى عز وجل وهي جريمة لا يوجد أعظم منها.

في حلقة التمويهات المستمرة سعي في إظهار أن الدين الإسلامي هو المسؤول عن الآثام والسلب والنهب الذي أتته القبائل المتجولة التي صدف أن كانت مسلمة اسماً فقط. إنه من العدل أن يلام المسيح مثل ذلك تماماً على التعذيب وإحراق الأساقف والآخرين أحياء في بلادنا هذه السعيدة وليس ذلك من سنين بعيدة. حقاً إن الديانة المسيحية ما صادقت قط على شروط «محاكم التفتيش» الخبيثة المريعة أو الفظائع التي لا يمكن عدها التي فعلها المسيحيون في بعضهم وفي اليهود والمسلمين الآخرين الذين كانت لهم أفكار دينية تخالفهم. إنني لا أظن أبداً أنه يمكن إظهار أن المسلمين اجتهدوا قط أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس بالقوة والفظاعة والتعذيب. وإذا كان هناك مثل هذه الحالات فحينئذ يمكننا فقط أن نقول إن مرتكبي هذه الآثام ليسوا بمسلمين حقيقة لأننا لا نستطيع أن نشير إلى أن القرآن الشريف يصادق على أعمالهم. إن محمداً كان قنوعاً ومحارباً وعندما امتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط، ولم يعتدوا قط إذ كان النبي نفسه وديعاً رحيماً بأعدائه المقهورين. لكي نستطيع أن نكوّن الرأي الصواب عن صفات شخص يجب علينا أن ننظر إليه أيام شدته وأيام رخائه، فإذا كانت حالته دائماً حالة شدة وظل دوماً بين أيدي

مضطهديه تكون الظروف حينئذ لم تسمح له بأن يفعل شيئاً نحو أصدقائه أو أعدائه، وهنا يستحيل أن يعرف تماماً ما كان يمكن أن يفعله، كما أن أرقى الصفات لا يمكن أن تدل عليها الوداعة والخضوع فقط بل يجب علينا أن نرى أيضاً ضبط النفس وعفو الرجل الذي يتغلب على حواس الانتقام ويصل رفقه إلى أقصى منتهاه. حقيقة إن العفو لم يتسع دائماً ليشمل أعداء الإسلام الذين جعلوا قصارى جهدهم محاربة وإخماد الدين الإسلامي وأعملوا السيف في رقاب المسلمين ثورة وعصياناً لأن الرحمة من هذا النوع لا تدل إلا على مد القطاعة وإزهاق الأرواح.

قوة أخلاق الرجل تظهرها المحن والتجارب، وصفاته النبيلة الكريمة يستدل على أنها في أتم كمالها عندما يظهر رحمة وعفواً في يوم مسرته بالنجاح والقوة، وليس القلب الرقيق هو الذي يحتاج إليه رجل الله، إذ لا يستطيع أن يزعم أي كان بأنه يمكنه الوقوف ليكون مثالاً أو نموذجاً للجنس البشري، وهو لم يختبر تصاريف الدهر وتقلبات الحياة من فاقة وعز وتعاسة وسعادة وضعف وقوة. لا يمكنك أن تكون معلماً حقيقياً للصبر ما لم يمر عليك الغضب أو الألم أو النصب الذي يحتاج إلى ممارسة الصبر، الضيق فقط هو الذي يظهر أعظم المواهب العالية في الرجل الذي يحب الله من كل قلبه، ومثل هذا المخلوق المحزون ينظر لكل نازلة أو مصيبة تقطع الفؤاد كأنها تأديب من إله الرحمة، وكلما عظمت المصيبة والبلوى ازداد احترام وتذلل وندامة ذي الاعتقاد الصحيح الذي يعرف أن ربه القادر الحفيظ يقوده بذلك إلى الصراط المستقيم، إنه يؤمن بالحكمة غير المحدودة والحب غير المحدود والرأفة غير المحدودة التي لهاديه الوحيد في هذا العالم، إنه يعلم أن خالقه عالم بأنه يبغض الشيطان وحيله الشريرة، وهذا الاعتقاد فيه الكفاية لشد عزائمه في أية معركة مع الشيطان مهما كانت شديدة لأنه يعتمد على معونة مولاه في كل شيء، فالرجوع إلى الله القدير ذي الجلال والإكرام الرحمن الرحيم الذي لم يقترن اسمه بأي اسم آخر تنزه عن مثيل أو شبيه؛ يمد المؤمن بثقة تفوق إدراك البشر.

كل الأنبياء المقدسين في كل الأزمان والأوقات الذين كلفوا بتبليغ الرسالات للبشر قاموا بتبليغها بكل صدق وأمانة، إلا أنه لم يكن في كل هؤلاء الرسل من هو أرفع مركزاً من محمد صلى الله عليه وسلم.

إنه يفهم ويعرف جيداً أنه لا يتمكن من العفو إلا من أصبح قاهراً له، والقوة التي تمكنه من أن يصب جام غضبه وانتقامه على أعدائه الذين كان بين أيديهم ضعيفاً حتى يقدر الظروف التي كان فيها تحت رحمة الآخرين، لا يمكن أن يدعي الرحمة وهو لم يقع تحت طائل رحمته أي إنسان قط، وليس هنالك في التاريخ من يمكن أن تنسب له تلك الخاصية كمحمد النبي الكريم الذي رأى أعظم الإذلال وابتدأ حياته يتيماً، وإن كانت عين الله ترعاه ومرت عليه كل أطوار الحياة المختلفة وهو مستسلم الاستسلام الكلي لمولاه، ولم تتلوث أخلاقه العذبة أبداً بأي عمل دنيء أو خسيس، ولم يرتكب الظلم قط.

نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم هو أخلاق متينة وشخصية حقيقية وزنت واختبرت في كل خطوة من خطى حياته ولم ير فيها أقل نقص أبداً، وبما أننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة فحياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة.

حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوّن الإنسانية ، ونرى ذلك فيها بأنوار وضاءة . خذ أي وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياته ، ومحمد وصل إليه أعظم قوة وأتى إليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لا تجارى وكان ذلك سبباً في هدايتهم ونقائهم في الحياة .

إن الغيرة الشديدة التي لا تعرف الكلل التي كان يبذلها مؤسس الإسلام لإخماد عبادة الأصنام قد أثارت معارضة مريعة ضده ، فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمي ، وقد أشعلت كل قبيلة لظى الحرب كي تؤيد وتحمي أصنامها ، حصل ذلك عندما كان النبي بالمدينة ، وفي الواقع قد قضى هناك أياماً أصعب من أيام مكة ، ولما كان أعداؤه يشنون عليه الغارة دائماً من جميع الجهات أخذ في كل وقت وآن في مقاتلتهم ، أو إرسال رجاله لمقابلة التعديات ، فكانوا طوراً ينتصرون وتارة ينهزمون ، وكانت كل حادثة تخلق فرصة مناسبة للنبي الكريم ليظهر وجوه أخلاقه العظيمة المختلفة التي لو جمعها الإنسان ونسقها لوجد العالم فيها قوانين وأحكاماً للحرب أكثر إنسانية وملاءمة مما يمكن لمروجي مؤتمر لهاي أن يتصوروا .

ما أشهر السلاح محمد قط إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية ، وربما ادعى بأن الإسلام استعمل السيف في نشر الدين ، ولكن ألد أعداء الإسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من الأمثلة التي أثر فيها الحرب على هداية أي قبيلة أو شخص إلى الإسلام .

إن هذه الوقائع ما أفادت بلا شك إلا في إظهار كرم أخلاق محمد الذي امتلك كل قلوب مواطنيه ، وكانت أشد تأثيراً في الهداية من أي شكل من أشكال الإكراه ، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة التي كان يعاملها النبي للمنهزمين عجائب وغرائب ، فما أتاه ملتمس إلا ونال أكثر مما كان يؤمل أو يشتهي . اهـ .

تذكرة

ظهر الحق واستبان السبيل

أيها المسلمون : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ [يوسف : ٥١] ، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] . هاأنا ذا الآن أقول بأعلى صوتي وأجهر بأن أهل الشرق وأهل الغرب الذين نحن معهم على هذه الأرض جميعاً يعوزهم قول الحق والصراحة وإظهار الحقيقة ، فلنجهر لهم جميعاً ولنخاطب أولاً المسلمين فنقول لهم : هاهو ذا كلام العظماء من أوروبا في ديننا الإسلامي . فأي شهادة هذه ، وأي عظمة لديننا ولنبينا صلى الله عليه وسلم ، وأي حكمة أبدعت في القرآن .

هؤلاء نظرهم في الإسلام نظر عال سام شريف لم يطأطئوا رؤوسهم عند دراسة الدين ويدرسوا القشور ويدعوا اللب ، لم يتوجهوا لمباحث المعتزلة وأهل السنة والصوفية والثلاث والسبعين فرقة الإسلامية ، ولا الخلاف في البيوع والرهن والحج والصلاة والصوم والزكاة وما أشبهها ، بل هؤلاء درسوا نفس الدين ونفس الروح المحمدية ، فشهدوا بما علموا ، ورأوا أن هذا الدين يعلو إلى سماء المجد

والشرف ويبحث في الأفلاك والكواكب والطبيعة ومركز العلم، أليس هذا بعينه هو الذي حواه هذا التفسير؟.

سبحانك اللهم وبحمدك. نحن قوم محصورون في جدليات وعلوم جزئية وخلافات مذهبية وآراء سوفسطارية، فنقول حنفية أو شافعية أو مالكية أو حنبلية أو شيعية أو وهابية، ونتسكع في هذه الجزئيات ونذر الكليات، أو يقول المتعلمون تعليماً ظاهرياً في المدارس المصرية والفرنجية: هل ديننا يوافق العلم؟ إن العلم شيء والدين شيء آخر، وقد جهل هؤلاء هذه الحقيقة التي قالها «توماس كارليل» و«هنري» وغيرهما، وقالها الإمام الغزالي وابن رشد قبلهما، وهي أن معجزات الإسلام هي نفس العلوم لا أنه ضدها، إذن الإسلام غير الديانات الأخرى، فالإسلام خاصته العلوم وهي برهانه، وهل برهان الشيء ضده؟ ولولا هذه الحجب التي أسدلت على العقول الإسلامية ما أعوزنا أن نقول في سورة «طه» إن عبادة بني إسرائيل لعجل السامري بعدما رأوا معجزة العصا برهان على أن خوارق العادات لا تكفي في الإيمان، فلا بد من العلوم العقلية، وقد وجدنا الإمام الغزالي أوضحها وهاهم أولاء علماء الفرنجة يقولونها ويقولون: إن معجزة نبينا هو الكون، فهذه حالنا التي كان من نتائجها أن المرحوم العلامة «ادوارد براون» الإنجليزي الذي ذكرته سابقاً في هذا التفسير قال لي: لقد ذهبت إلى تركيا وإلى بلاد الفرس بأمر حكومتنا الإنجليزية لأعرف هل تتحد هاتان المملكتان، فوجدت أن أهل إيران مشغولون بقتل الحسين والروس إذ ذاك يجوسون خلال ديارهم يحاولون احتلالها ذلك أيام حكم القياصرة قبل اليوم بنحو ٢٥ سنة.

ويقول طالب من طلاب الفارسيين: لقد حاربت مع الروس ضد الترك الكلاب الكفار لأنهم من أهل السنة الذين قتلوا الحسين. فقال لي: لقد ضحكت من عقول هذه الأمم، وقلت: الحسين مضى له ١٣ قرناً ولكن الروس يدخلون عليهم الآن، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، قال: وحكمت بأن هذه الأمم لا تتحد.

أقول: وقد تغيرت الحال الآن وتعاهد الفرس مع مصطفى كمال باشا بعد أن زالت تلك العقول الصغيرة. هذه حال المسلمين وأنا وأنت أيها الذكي منهم. فنحن حصرنا في إبان الصغر وزمن الجهل في الجزئيات فلم يتضح لنا جمال الله في سماواته وأرضه، ولم نعرف جمال النبوة ولا بهجة الكمال المحمدي بطريقة مشوقة مثل الذي يقوله أمثال «هنري» وأمثال «توماس كارليل»، وأغمضنا أعيننا عن كل ما حولنا من جمال وكمال، وما نحن إلا قوم أشبه بمن حبسوا في سجن ضيق مظلم فيه قنديل ضئيل النور وفي خارجه أنوار الشمس البهجة الجميلة، فهؤلاء الأوروبيون الذين نظروا في ديننا، نظروا وهم خارج هذا السجن، فعقلوه وأحبوه وأحبوا نبينا صلى الله عليه وسلم وبينوا ظاهره على مقدار طاقتهم، أما نحن الذين حبسنا في سجن التقليد والكتب الفقهية والجدلية وأمثالها فإن كل من تخلص منا من ذلك السجن الذي لم يستضيء إلا بالضوء الضئيل الخارج من ذلك المصباح الضعيف، عده القوم خارجاً عن زمرتهم ورموه بالجهالة، ومن هؤلاء العلامتان ابن رشد والغزالي، هنالك بقي المسلمون في سجونهم وانحصروا في جلودهم حتى جاءت النهضة المباركة فخرج من السجن جماعة في أقطار الإسلام، ومن هؤلاء قراء هذا التفسير فهم والحمد لله اليوم تقابلوا مع من

خرجوا من ذلك السجن ورأوا ما رآه الخارجون عنه، وعرفوا ربهم وجمال نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهم لا يأبهون بسفاسف العقول الصغيرة المحبوسة الجاهلة النائمة من أمم الإسلام، هذا كلامي مع أمم الإسلام، أما أمم الفرنجة فإني أقول ولي الحق أن أقول إنهم إلى الآن عباد التقاليد، فلئن حبس المسلمون في ظلمات التقاليد واكتفوا بالعلوم الدينية الجزئية، وهم الآن يريدون الخروج، فهاهم أولاء الفرنجة محبوسون في دين قديم قد أكل الدهر عليه وشرب، وقد عرف عقلاؤهم الحقيقة ولا يقدرون أن يجهروا بها، فهم والمسلمون سواء في المخافة، المسلم محبوس في ظواهر الدين والفرنجي محبوس في دين قد نسجت عليه عناكب النسيان، وذلك كله بشهادة هؤلاء العلماء الأوروبيين فيما تقدم، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦].

أليس هذا أيضاً هو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠]. وآيات كثيرة في هذا المعنى، فأهل الأرض في الشرق والغرب قوم مقلدون فأين العقل إذن؟. الأوروبيون يعرف بعضهم حقيقة الإسلام فيخاف من أهله وذويه، والمسلم يتبع مذهباً ويخاف مخالفة أسرته وأهل بلدته، ولكن الأوروبي فتح له باب العلم. فيا رب أنت خالق الشرق وخالق الغرب وخالق كل شيء وأنت عالم بهم ومقدر هذا عليهم، ولقد وضعت كلاً في درجته التي لا يستحق سواها، ولقد قضت حكمتك اليوم أن تفتح البصائر وتلهم بهذا التفسير الذي سيقرؤه قوم في أنحاء هذه الكرة الأرضية، ويكون هو وأمثاله بذوراً لرقي العقول في الأمم ويصبح الناس في مسرة وحبور وحكمة ونور. هذا من جهة الدين.

أما السياسة فإن أهل الغرب وأهل الشرق لم يصلوا حتى كتابة هذه الأسطر إلى سياسة تسعدهم، وهذه أوروبا لها جمعيات كجمعية الأمم، ويظهر لي أن أهل الشرق الآن يريدون أن يكونوا جمعية أخرى ويظهر أن الأمم ستلاقي في السياسة ولا أدري متى يكون ذلك، وإذا قرأت كتابي «أين الإنسان» عرفت ما هي سياسة الأمم الحالية والتي قبلها، فسياسات الأمم تقليدية لا عقلية، ودياناتهم كذلك بالتقليد لا بالعقل. ومن درس هذا التفسير ودرس كتابي «أين الإنسان» وقف على حقائق الديانات وحقائق السياسات ونفع الأمم الشرقية والغربية في أديانهم وسياستهم.

فلتكن أيها الذكي منهم ولما وفقك الله لقراءة هذا الكتاب كان ذلك علامة على أنك من المصلحين النافعين للأمم الشرقية والغربية والله عز وجل يحب المصلحين، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

الجوهرة الثالثة في قوله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾

قد مرت عجائب كثيرة في هذا المعنى كالذي في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ١٦٤]، وكالذي في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[الآية: ٢٧]، وكالذي في «المائدة» و«الأنعام» و«الحجر» وغيرها من

السور، ولكن لا بد من ذكر عجائب هنا لم تقدم هناك ليبتهج بها المفكرون ويفرح بها العلماء العاملون، وهي جوهرة يتيمة في هذه الآية.

إن عناية الله بكل حيوان وكل نبات قد تجلت في هذا التفسير، وظهرت أيما ظهور في سورة «البقرة» و«آل عمران» و«المائدة» و«الأنعام» و«هود» و«النحل» و«طه» و«النمل» و«مريم» وغيرها من سور القرآن، ولقد جاء في كل سورة مما ذكر هنا وغيره ما فيه حكمة وعبرة ونور وهدى وجمال وبهاء، ولكن الذي أريد أن أبينه هنا تلك الغرائز العجيبة التي تفسر لنا قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، وتفسر قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣]. والحق يقال إن الإنسان لا سعادة له إلا بأن يقف على جمال هذه العوالم ويعرف أن هنا عناية فائقة وحكمة تامة شملت أدق الحيوانات الذرية وتكلفت بسعادة كل مخلوق، ولعمري متى أدرك الإنسان أن هناك هذه العناية التامة والحكمة الشاملة فإنه لا يشك أنه مغمور بتلك الرحمة مشمول بتلك النعمة ويصبح ويمسي وقد رأى رحمة الرحيم العليم الحكيم في كل يابسة وخضراء وجبل وبطحاء، وكأن صانع هذه العجائب معه أيما حل أو ارتحل، وليس يصده عن تذكره في غدوه ورواحه إلا ذلك الحجاب الذي ألقي بين هذه العوالم الأرضية وبين مبدعها، فإذا ارتقت النفس ونحن في هذا العالم فإنها تصبح وقد أحست بالسعادة الأبدية قبل أن تزور الرمس، ومن ملكت هذه الآراء فؤاده في الدنيا سعد السعادة التامة وليس يزحزحه عنها إلا قواطع الفواجع، ثم يرد إليها وهو في حبور فمن ذا الذي لا يدهش إذ يسمع ما جاء في مجلة مصرية:

(١) أن الفأر الذي يسكن بيتنا إذا أحس أن البيت الذي نسكن فيه يريد أن ينقض يفر منه حالاً قبل سقوطه بساعات، وإذا أحس بذلك في المركب هرب قبل وقوع الكارثة فيها. روت سيدة إنجليزية كانت تعيش في زمن الحرب في منزل قديم في «نور فلك» في إنجلترا أن الجرذان كانت تقلق راحتها كل ليلة بصريرها، ففي إحدى الليالي شعرت بضجة خارقة من الجرذان وكان صوت الضجيج يتجه إلى خارج المنزل، فاستنتجت السيدة أن الجرذان تبرح المنزل، ثم انقطعت الحركة وساد السكون وبعد ساعة واحدة سقطت قنبلة من منطاد ألماني وأصابت جناح من المنزل فدمرته، أما الجرذان فكانت قد نجت كلها. وقد شوهدت الجرذان تبرح إحدى القرى في زمن الصيف وتقيم على ضفاف النهر المجاورة لها وتحفر هناك أوكارها، ولكن قبل سقوط الأمطار بمدة قريبة تعود إلى أوكارها السابقة في القرية، فعندما يراها الأهالي راجعة يتوقعون هطول الأمطار وفيضان النهر، فهي لهم بمثابة ميزان للطقس يصدق كل الصدق في الدلالة عليه. ويروى عن إحدى المطاحن أن الجرذان برحتها فجأة واتجهت راكضة إلى الغابة المجاورة، وبعد وقت قريب طغى النهر على المطحنة واضطر صاحبها إلى الفرار بنفسه من دون أن يستطيع أن ينقذ شيئاً منها.

(٢) إن الجمل في الصحراء يمرغ رأسه في الأرض ويشخر شخيراً متواصلاً قبل هبوب عواصف الرمال بوقت قصير فيكون شخيره منذراً باقتراب العاصفة من دون أن يظهر في الجو دليل ما على ذلك.

(٣) ويعرف الذين ألفوا صيد السمك بالصنارة أن هناك نوع من السمك يختفي من النهر في أحد الأيام فجأة فلا يعثر له على أثر، وبعد اختفائه بقليل يطغى ويحدث فيضان كبير، فاختفاؤه خير

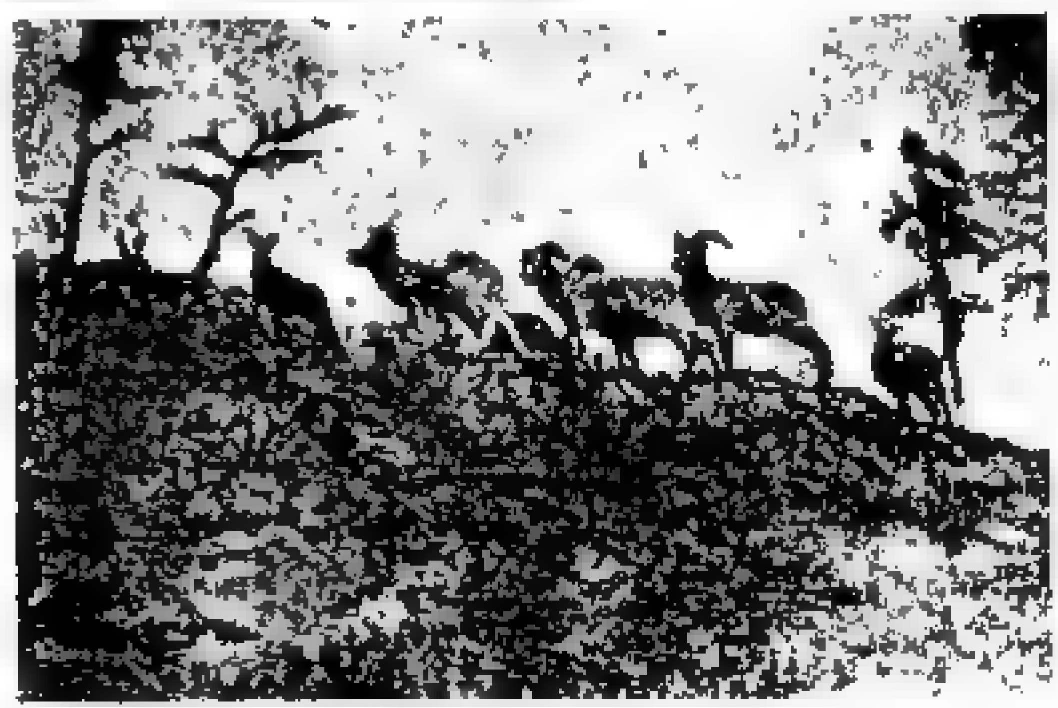
نذير للصيادين بأن النهر على وشك الفيضان، ثم إن هذا السمك يمتنع عن الأكل إلى أن تصل إليه مياه الفيضان فكأنه يتوقع أن تحمل إليه هذه المياه أغذية جديدة تستحق أن يصوم سلفاً ويستعد لالتهامها.

(٤) ويعزى السبب في مهاجرة كثير من أنواع الطيور إلى التنبؤ عن الطقس، فبعضها يتبع الربيع أينما سار والبعض الآخر يتبع الشتاء، ومن المشهور عن الهنود الحمر في أمريكا أنهم يتنبؤون عن الطقس بدقة عظيمة، ولكن ثبت بعد التحقيق أنهم يستندون في تنبئهم إلى تنقلات الطيور والحيوانات. ومن المشهور عن الحيوانات التي تسكن الجبال أن لها خبرة عظيمة في تقلبات الطقس فالوعول والأرانب البرية وبعض أنواع الدجاج البري تنزل من أعالي الجبال إلى منحدراتها قبل حلول عواصف الأمطار ويكون الجو عندئذ صافياً والسماء مشرقة ولكن لا يكاد ينقضي يوم أو بعض يوم حتى تتلبد السماء والجو بالغيوم وتسقط الأمطار، ومن المعروف عن الأرانب البرية التي تسكن الجبال أنها تهجرها في بعض الأحيان وتغيب عنها بضع سنوات فلا تجد فيها أثراً لأرنب ويحدث في خلال ذلك أن الأمطار تبقى غزيرة ويكون فصل الشتاء قاسياً، ولكن تلك الأرانب لا تلبث أن تعود فتكون عودتها دليلاً على توقع طقس حسن وشتاء محتمل، ولاشك أن أنواع الطيور والحيوان التي لها غريزة التنبؤ عن المستقبل كثيرة جداً فلا نرى بنا حاجة إلى الكلام عن كل نوع منها بمفرده. انتهى ملخصاً عن تلك المجلة المصرية. (انظر شكل٢٢) و(شكل٢٣).



(شكل ٢٢)

صورة نوع من الإوز البري يرحل عن المنطقة التي يسكنها متوقعاً اشتداد الشتاء وسوء الطقس فيه، مع أنه لا يوجد أي دليل ظاهر على ذلك عند رحيله.



(شكل ٢٣)

صورة انحدار الوعول من الجبال إلى السهول

هذا هو الذي أردت تلخيصه ورسم صورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾[العنكبوت: ٦٠]، أكتبه في تفسيرها، وأنا أعلم أن كثيراً من الناس يطلعون على هذا وهم لا يفكرون، ولكن بيانه وتفصيله في تفسير الآية هنا يجعل له رونقاً وحكمة يعقلها أولو الألباب.

خطاب المؤلف لصانع هذا العالم

(١) اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً، أحمدك على العلم وعلى الفهم.

(٢) يا رب هاأنا ذا أتيت إلى الأرض وسكنت فيها وعشت في أمم ودول وممالك وهم يتقاتلون وأكثرهم لا يذكرون.

(٣) بحثت عن الحقيقة أمد الحياة فعرفت أنك خبأتها في صور المخلوقات ودفنتها فلم يطلع عليها إلا الطالبون.

(٤) علمت من صنعك أن الغذاء والدواء والأوصاب والقتال والحروب والقضايا وأعمال الأمم، كل ذلك دخان قد غشيت به عقول الأمم والأفراد فأكثرهم لا يعقلون.

(٥) يتطاحنون ويتقاضون ويتقاطعون على زاد قليل وهم غافلون.

(٦) وفي أثناء ذلك تظهر لطائفة من تلك الأمم جمالك الباهر وعلمك البديع وحسن صنعك الجميل، فيبهرهم جمالك ويسحرهم بهجة صنعك، فهؤلاء لأجلهم خلقت الدنيا ولإسعادهم أنزلت الدين. هؤلاء هم الذين يقومون بإسعاد أممهم علماً وعملاً ابتغاء وجهك ويصرفون حياتهم في فهم سماواتك وأرضك ولا يريدون بك بديلاً.

(٧) يسخرون من الزخرف والجاه والمال، والناس حولهم بها لهجون، وهؤلاء لا يطلبون جزاء على عملهم إلا ما يحسون به في نفوسهم من الجمال والبهجة والنور، قد استوى الماضي والحال والاستقبال عندهم، وهم بذلك راضون ساكنون.

(٨) يرون لطفك وعطفك ورحمتك ورأفتك بالجرذان إذ أنت أعلمتها أن قنبلة ستسقط عليها من مدافع الألمان ليلاً فهاجت وماجت وخرجت ثم ساد السكون وبعد ذلك سقطت قنبلة الألمان، فهذه الطائفة إذا سمعت هذا فرحت وانشرحت وعلمت أن لطفك يحيط بالعظيم والحقير والجليل والصغير والإنسان والفيران ويرون لطفك بها، وقد أعلمتها بأن النار ستشب في مخازن الجمارك التي عاشت فيها فهاجرت وتركت المكان.

(٩) وأي عجب أكثر من أن الوعول والأرانب البرية تنزل من أعالي الجبال قبيل هطول الأمطار ولا علامة في الجو، وإنما هي حكمة الحكيم الرحيم أعلمتها بما سيكون.

(١٠) الجهلاء من الناس لا يعبؤون بهذه الرحمات إلا على سبيل الروايات، أما الفضلاء من الناس فإنهم يرون هذه العوالم فصلت تفصيلاً وقد شملها كلها من سماوات وأرضين تدبير محكم منتظم لا يشغله العظيم عن الحقير ولا الكبير عن الصغير، فهو مع الفأر في جحره ومع الطير في جوه ومع الكوكب في مداره، فكأن هذه الدنيا جسم واحد له رأس وقلب وحواس وأحشاء وأعضاء والروح لا تغفل عن الصغير ولا عن الكبير.

(١١) فهؤلاء الحكماء الذين ظهرت لهم هذه المعاني وحضرت في أكثر أوقاتهم هم المصطفون الأخيار، هؤلاء يدركون في هذه الحياة أنهم في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمفكرين الذين يعقلون، وأي سعادة أكبر من الوقوف على الحقائق، هذه هي السعادة التي تصغر في جانبها جميع السعادات، وهذه هي سعادة كلية من نالها فهو في جنة العرفان، يرى أن الرحمة والعلم والنعمة تحيط بالعالم الذي هو فيه وهو يحس بها وسواء من الناس بها لا يعلمون. إن في الأرض حجاباً حجب أكثر الناس عن هذا الجمال، كما قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾[الأعراف: ٤٦]، فالحجاب مضروب على قلوب أهل هذه الكرة الأرضية. ظهرت لهم الرحمة نقمة والسعادة شقاء، وذلك لأنهم في عالم من العوالم المتأخرة هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

بعد أن كتبت هذا حضر عندي قاضي محكمة «دكرنس» من أعمال «الدقهلية» بالوجه البحري من القطر المصري، ولما اطلع على عجائب هذه الحيوانات وعلمها بما سيحصل قال: وأنا أحدثك حديثاً شاهدته بعيني رأسي، ذلك أني كنت قاضياً في «مديرية سوهاج» من مديريات الوجه القبلي، ومن عادتهم هناك أن المدير وأعيان المديرية يحضرون اجتماعاً عاماً لافتتاح الترعة المسماة «الترعة السوهاجية»، وهذه الترعة لا تفتح إلا أيام تمام النيل، قال: وقد حضر المغنون والمطبلون والزامرون وما حضرت أنا معهم ليلاً، فمر المدير على منزلي صباحاً فلم يجدني، فتوجه لي بالمحكمة وقال: تعال معي لنفتح الترعة اليوم، قال: فذهبت معه فوجدت أنواع الحشرات والحيات والعقارب وما أشبهها تجري جرياً حثيثاً مسرعة لتدخل البلدة، فسألت عن ذلك فقيل لي: إن هذه الحشرات والزواحف كل سنة قبيل فتح الترعة بساعات نراها أخذت تهاجر من مساكنها التي استقرت فيها بهذه الترعة اليابسة، فهذه الحال نراها كل سنة. اهـ.

هذه هي الحادثة التي حدثني بها القاضي وهو أدرك مغزاها، ولكن العامة لم يدركوا مغزاها ولم يعقلوها ولم يفكروا فيها، فهم رأوها كما يرون شروق الشمس وغروبها ويرون الولادة والموت، إما العبرة والجمال وإما الحكمة فلا، لهذا نرى المسلم اليوم إنما ينقل هذه العجائب عن الأمم الفرنجية لأن كثيراً من الناس هناك يعقلون ما يرون. هذا ما اتفق لي عند كتابة هذا الموضوع، وهنا يسأل سائل فيقول: كيف ألهمت هذه الحيوانات أمراً غائباً كهذا، أما الإنسان فلا، ونحن نجيب عليه فنقول:

(١) إن الله قدر فهدى وأعطى النعم والحكم بقدر، أعطى الإنسان دولاً وممالك وحكماء وعلماء، فليس من المصلحة أن يشغله بأمور قامت بها دولته التي وزعت الأعمال عليها.

(٢) إن علم المستقبل لهذه الحيوانات مقدر بقدر وهو الأمر العام لعمومهم ومستقبلهم، بدليل أننا نقتل الحيات ونصطاد الطيور ولا علم لها بما سنفعله معها، فهذا العلم بالمستقبل مقدر بقدر وهو النظام العام لها لا لأفراد خاصة.

(٣) إن الإنسان يتنبأ عند التنويم المغناطيسي كما تراه فيما تقدم في سورة «البقرة» عند آية السحر هناك، إذ ترى رجلاً منوماً ـ بفتح الواو ـ قد أخبر بسير مرضه ووصف الدواء لذاته ثم فاجأه عارض فمات، فاستنتج العلماء أن نفوس الناس في حال إزالة الموانع الجسمية تعرف كل أحوالها المستقبلة ولكنها لا تعرف ما يصادفها من العقبات الخارجية.

(٤) إن العلم بالمستقبل يصرف الإنسان عن العمل له ويقعد في الكسل وذلك لا يرقيه وما رقي الناس إلا بأن يجهلوا مستقبل الأمور ويلهموا إلهامات جزئية كإلهام أم موسى، ثم هم بعد ذلك يبنون على هذا الإلهام علماً وعملاً، فأما إذا كان كل شيء ممهداً فلا سبيل إلى رقيهم، إذن الرقي بالعمل ولا عمل إلا لمن حجبت عنه الأمور المستقبلة فسارع لإسعاد نفسه المجهول عنده، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾[آل عمران: ١٧٩]، لتجدّوا في عملكم حتى تلقوني. انتهى صباح يوم الاثنين ٨ يوليو سنة ١٩٢٩ عند طبع هذه السورة.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

هل لك أيها الذكي أن أحدثك عما خبرته بنفسي وعرفته من أحوال الناس في زماننا من حيث طول الأمل بسبب الوسواس الخناس، فأحدثك حديث وزير عظيم ومدرس كبير ورجلين في بلاد الفلاحين بالشرقية.

الوزير: كنت أعرف وزيراً من عظماء الأمة المصرية، وكانت لي معه مجالس علمية، فحادثني يوماً قائلاً: هل أنت موقن يا شيخ طنطاوي بأن كلام الديانات حق وأن هناك جنة وناراً وسعادة وشقاء بعد الموت؟ فقلت: نعم، فتعجب غاية العجب وقال: وكيف ذلك؟ فأخذت أذكر الحجج المعروفة، فقال هو: إن العلم الآن ينفي ذلك وما هذه الدنيا إلا دار مغالبة ومكابرة ومصابرة وجهاد، فالغالب فيها هو الذي ازداد بها استمتاعاً كما هو مذهب النشوء والارتقاء كما جاء في كتاب «بخنر الألماني» شرحاً على مذهب «داروين»، وملخص المذهب أن العوالم التي نراها آخذة في الارتقاء وأقواها يغلب أضعفها وهناك يحصل الانتخاب الطبيعي، فالطبيعة لا تبقي إلا ما هو أكمل وتفني ما هو أقل كمالاً وجمالاً. خذ لك مثلاً، نحن الآن نركب العربات في الطرقات ولا نركب «الترام» كالعامة وإذا ركبنا في قطار السكة الحديدية نركبنا في الدرجة الأولى بخلاف الناس جميعاً، وهانحن أولاء نسكن في مساكن جميلة ونتمتع بنعم عظيمة ويضرب العسكر لنا سلاماً بالسلاح، هذا هو الانتخاب الطبيعي وهذا هو مذهب «داروين» وأنا به أدين. فهذا الوزير لم يوصله العلم إلى أكثر من أنه يعيش في نعيم الدنيا وليس هناك عالم آخر وهو يكذب جميع الأنبياء وأنت تعلم أيها الذكي من هذا التفسير أن نفس النعيم الدنيوي عذاب على صاحبه، فمن لم يروض نفسه ويتعلم القناعة في المآكل والمشارب الخ، أحاطت به الأمراض وذل في حياته، ولكن هذا وأمثاله لا يعقلون أكثر مما أسمعتكه في هذا المقام.

المدرس العظيم الممتاز

لقد كان بمدرسة دار العلوم مدرس كبير يخرج على يديه مئات من المدرسين فحدثني أحد تلاميذه قال ناقلاً عن أستاذه ذاك المدرس العظيم، قال: لقد كنت في أول حياتي مجاوراً بالجامع الأزهر ولم يكن لي مال، وإذا جاء زمن البطالة توجهت إلى قريتنا بالصعيد فكنت إذا أردت أن أذاكر الدروس أجلس تحت شجرات بالقرب من منزلنا، ولما صرت موظفاً ومنّ الله علي بالثروة والغنى واشتريت نفس تلك الأرض التي فيها الشجرات التي كنت أجلس تحتها للمذاكرة أيام الفقر، فلما أن اشتريت هذه الأرض استأجرها مؤجرون من الفلاحين فزرعوها قطناً، فتوجهت يوماً إلى تلك الأرض وأخذت

أجوب جنباتها وأجول في عرصاتها وقد أعجبني القطن فتذكرت أيام الفاقة إذ كنت أجلس تحت الشجرات ولا أملكها، فأخذت من شدة الفرح أغني لهذه النعمة التي نلتها.

فهذا المدرس رأى غاية نعم الحياة أنه يملك هذه الأرض، ولما أحس بالنعمة أخذ يغني ونسي أنه من الجامع الأزهر وأنه كبرت سنه وأن الله يقول: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤]، ونسي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[القصص: ٧٦]. وكان حرياً به حينما رأى هذه النعمة وتذكرها أن يكثر من الاستغفار كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[النصر: ١-٣].

فأما الرجلان ببلاد الفلاحين بالشرقية فإن أحدهما وكان له مقام واحترام بينهم قال: ما القصد من الحياة؟ القصد منها أني إذا كنت ألبس قفطاناً لا أنزل إلى ملابس الفقراء، وأما الثاني فإني سمعته يقول: ما القصد من الحياة؟ عندنا الجاموسة والبقرة وفيهما اللبن وعندنا الذرة فنحن والحمد لله أغنياء.

وإني ذكرت لك هذا أيها الذكي لأذكرك بما تعرف الناس حولك، فجميع أهل الأرض لا يخرجون عن أمثال ما ذكرته الآن، ولكن العلم والحكمة والدين تخرج الإنسان من فكرة العامة إلى مقام العلماء وآداب الحكماء، وإذ ذاك يعرف الإنسان قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤].

فيا ليت شعري ما هي الوزارة قصيرة الأجل؟ وما هي الثروة والمال لاسيما لمن كبرت سنه فهي إن دامت له فرضاً فإن حياته وصحته لا يدومان. انتهى والحمد لله رب العالمين.

خاتمة السورة

خطاب العنكبوت للمفكرين في الإسلام في زماننا والذين سيقرؤون أمثال هذا الكتاب ومن بعدهم

تقول العنكبوت: أيها العلماء إنني لكم آية لا للجهال، ألم تروا أنكم تبنون بيوتكم بطين تحرقونه فيصير آجراً وبه تبنون القصور والدور، وتلبسون ملابسكم مما تستنبتونه في الأرض من الكتان والقطن وما تستخرجونه من الحرير الذي ينسجه الدود، وتستعينون بالحديد والخشب على إكمال البناء وتشييد القصور وصنع السفن في البحار والطيران في الهواء. فأنتم تبنون وتلبسون وتركبون بآلات مختلفات. أما أنا فلي مصنع واحد في جسمي منه أبني بيتي وأصنع طياراتي وأصطاد فريستي وأبني قنطرتي، قام مقام الخشب والحديد والطين وإحراقه والقطن وغزله ونسجه وما يتبع ذلك من آلات نسج وغزل وأخرى لسقي الأرض ولتنقية الحشيش الخ. فدنياكم كلها قد حيزت لي بأكملها، وهذا المصنع الذي في جسمي إنما هو من غذائي الذي تستقذرونه. أنا التي أكلت الحشرات الفاتكات بزرعكم الملطفات لحوكم بتعاطي المواد العفنة، فأنا أتلقاها وأفترسها بعد أن أدت وظيفتها لكم ولم يبق إلا ضررها. فهذه تنقلب في جسمي في محل مخصوص ما يشبه الحرير أو القطن أو الكتان. هذا هو المصنع الذي أعطانيه ربي، قام مقام آجركم وخشبكم وحديدكم وقطنكم وتيلكم، ولم أحتج إلى نجار لبناء سفينتي ولا بناء لبيتي ولا مهندس لحجراته ولا آلة بخارية لسقي قطني. بل مخزني الذي

اختصني به الله هو الذي كفاني كل ما أحتاج إليه وهـذا أيها العقلاء في كتابكم. يقول الله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١]، فهذه إحدى خزائنه خصني بها وحرم سواي وهو ناظر إليّ راحمي بها. أفلستم ترون أيها المفكرون في هذا العالم أني أكفيكم في معرفة منظم هذا الكون الذي أحسن كل شيء خلقه، أفلا ترون أن هذا هو الحسن والجمال، فقد أحسن الله خلقي ولكن لا يعرفني إلا العلماء المفكرون، فإذا أردتم دليلاً على ربي فأنا أكبر دليل، بل نظامي وحده كنظام السماوات والأرض، وإذا نظرتم إلى أمر المدينة والرقي فأنا مع ضعفي وإن بيتي أضعف البيوت ينبت على الشجر في أرضكم بيوتي، واتخذت سفناً في بحاركم وأنتم تجهلون وظيفتي بينكم ولا تعلمون أني حارسة لحقلكم وطرت في الجو بطيارتي أفلا تخجلون أيها المسلمون أن أطير بآلتي المنسوجة من غزل جسمي وقد قلدني الفرنجة وأنتم لا تقلدون وفي آيات ربكم لا تفكرون.

هذا هو بعض معنى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. انتهى تفسير هذه السورة ليلة الخميس الخامس من شهر مارس سنة ١٩٢٥م. والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه
الجزء الرابع عشر من كتاب
« الجواهر » في تفسير القرآن
ويليه الجزء الخامس عشر
وأوله تفسير سورة « الروم »

فهرس الجزء الرابع عشر
من كتاب تفسير الجواهر

سورة القصص، ولها ثلاث مقدمات، وهي أربعة أقسام ٣
المقدمة الأولى ـ نموذج في كيفية فهم قصص القرآن ٣
التربية والآداب في قصص القرآن ٣
المقدمة الثانية : محادثة ٥
المقدمة الثالثة : أحوال الدول في قصص فرعون وموسى عليه السلام ١١
إنشاء الأمم ١٣
القسم الأول : من أول السورة، إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وفيه فصلان ١٨
الفصل الأول : يدل على علو فرعون في الأرض وظلمه ٢١
الفصل الثاني : يدل على أن المظلومين نصرهم الله ٢١
رأي سقراط في السياسة ٢١
البولشفية في مصر قبل ٤٠٠٠ سنة ٢٢
اللطائف الإلهية والتدبير لإنقاذ بني إسرائيل من الذل ٢٤
خوف أم موسى عليه وفزعها وإرجاعه لها وإرضاعها إياه ٢٥
نبوغ موسى عليه السلام في العلم ٢٦
قتل موسى عليه السلام للقبطي ٢٦
ورود موسى عليه السلام ماء مدين، وسقيه لابنتي شعيب، وتزوج بإحداهما ٢٧
إرسال موسى، وظهور المعجزات على يديه، وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم ٢٨
نظرة المسلمين في هذا الزمان ٣٣
البلاغة والعلوم ٣٦
قصص موسى عليه السلام ٣٦
الألفاظ العربية في العلوم العصرية ٣٧
جوهرة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ٣٨

القسم الثاني: من قوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم ﴾ إلى قوله: ﴿ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ ٤٢
جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ ﴾ ٤٦
القسم الثالث: من قوله: ﴿ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ٥١
عجائب القرآن في هذه الآيات ٥٢
النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر ٥٥
نتيجة هذه الآيات ٥٦
الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ٥٦
ضوء الجوهرة في قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ٥٨
بعض أسماء الله الحسنى ٦٠
نظام الأمم الأرضية ٦١
الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ٦٢
الجوهرة الثالثة: في بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ ﴾ ٦٤
نور الجوهرة الثالثة: الصحة والشمس ٦٧
الجوهرة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ٦٧
التعليم في الهواء الطلق ٧١
الفصل الأول: في منافع الشمس وما يتخيله الناس في مستقبل أمرهم بالنسبة لها ٧٢
الشمس مصدر كل قوة في الأرض ٧٢
الفصل الثاني: علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم، وفيه مقصدان ٧٤
المقصد الأول: آراء ابن خلدون في أن التضييق على المتعلم يورثه الخيبة ٧٤
المقصد الثاني: فيما قاله العالم السويسري الذي جاء إلى مصر ٧٥
الفصل الثالث: في أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ٧٥
الفصل الرابع: في شرح الكلام على الرحمة في هذا المقام ٧٥
الفصل الخامس: آرائي في التعليم عند المسلمين اليوم وفي المستقبل ٧٦
القسم الرابع: من قوله: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ إلى آخر السورة ٧٧
ضرب مثل لحال المسرفين في مالهم بالمسرفين في مآكلهم ٨٣
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ ٨٧
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ٨٧
الموازنة بين فهم الصحابة رضي الله عنهم وبين فهمنا في القرآن ٨٨
الكشف الحديث في إيضاح قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ٨٩
إيضاح هذا المقام: النظرية القديمة ٨٩
نقض هذه النظرية ٨٩

المادة لا تنعدم ولا تتجدد ٨٩
الرأي الحديث الموافق لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ٩٠
حظ هذا التفسير ٩١
ظهور هذه الوحدة في النبات والحيوان........ ٩١
هل المادة موجودة وجوداً حقيقياً ٩٢
آراء المحدثين ٩٣
آراء أفلاطون........ ٩٤
هل هذه العوالم صائرة إلى الزوال ٩٥
جوهرة في سر ﴿طسٓمٓ ﴾ أي: الطاء والسين والميم في أول سورة القصص ٩٩
الكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت........ ١٠٠
بيان ما يشير إلى هذا المعنى عند الأمم السابقة........ ١٠٢
سورة العنكبوت وهي قسمان........ ١٠٤
القسم الأول: في تعليم الصبر والجهاد، وطاعة الوالدين........ ١٠٤
جوهرة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾ ١٠٩
لباس الإحرام........ ١١٠
خطابي للمسلمين........ ١١٣
رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح ١١٤
الصوم للمعالجة........ ١١٦
ضرب مثل لحال العابدين الذين يفكرون بالعبادة بحال قراء القرآن بلا تعقل........ ١١٨
الجهاد بالغريزة ١١٩
الجهاد بالعقل ١٢٠
الجهاد بالوحي الذي هو أعلى من سابقيه ١٢١
خير مناهج الجهاد........ ١٢١
بيان عام في أمر الجهاد........ ١٢٩
جهاد بعض المتأخرين من الأمم الإسلامية السابقة جهاد خذلان وانتكاس........ ١٣١
كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الإسلام ١٣٤
يوم إعلان حقوق الإنسان ١٣٥
قصة نوح عليه السلام........ ١٣٦
جوهرة: في قصة نوح وسفينته........ ١٣٧
جغرافية العالم القديم. الحيوانات الباقية والمنقرضة ١٣٧
قارة اتلنتس وقارة أخرى كانت في الأوقيانوس الباسفيكي ١٣٨

القصة البابلية والصينية والهندية ١٣٩
الأدوار والأكوار ١٤٠
قصة إبراهيم عليه السلام ١٤١
قصة لوط عليه السلام ١٤٢
قصة شعيب عليه السلام ١٤٣
قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام ١٤٣
قصة موسى عليه السلام ١٤٣
لطيفة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ١٤٤
نظام السماوات ١٤٥
نظام الإنسان والحيوان والنبات والمعادن ١٤٦
النظر في المعادن ١٤٦
العناصر عند علماء العصر الحاضر ١٤٧
نظام العناصر الطبيعي والكيميائي ١٥٠
معجزات العلم وعجائب القرآن ١٥١
الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها ١٥١
نظام النفوس الإنسانية والملائكة ١٥٢
اللطيفة الخامسة: في أن حاجة الناس دفعتهم إلى هذه العلوم ١٥٣
ذكر البارود والعناصر التي ركب منها عند الأمم ١٥٣
الجمال في هذا العالم ١٥٥
اللطيفة السادسة: مقاصد الصلاة في الإسلام والعلوم والحكم وارتقاء العقول بها ١٥٦
اللطيفة السابعة: في تسلط الفرنجة علينا لما سبق في علم الله أنا جامدون ١٥٨
القسم الثاني: في محاجة الكفار وأهل الكتاب وإثبات النبوة ١٦٠
العنكبوت ١٦٤
العنكبوت البنّاء ١٦٥
عنكبوت البساتين ١٦٥
العنكبوت أيضاً ١٦٦
كيف تعيش العنكبوت ١٦٨
نسج العنكبوت ١٦٨
أنواع المصنوعات العنكبوتية ١٦٨
هل يجوز رسم الحيوان في الصُّور ١٧١
محاكاة الطبيعة ١٧٦

جوهرة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ١٨٠
إيضاح الكلام على الصلاة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ١٨١
بهجة هذا المقال ١٨٣
سبب إسلام الأستاذ عبد الله كويلم الإنجليزي ١٨٤
الصلاة اليوم في بلاد الإسلام ١٨٥
الفصل الأول: في ما ذكر ما دار من الحديث عن الصلاة بيني وبين تلاميذ المدرسة الخديوية ١٨٥
الفصل الثاني: فيما كتبه كاتب إنجليزي أيام مطالبة بلادنا المصرية بالدستور ١٨٦
الفصل الثالث: في ذكر ما قصه عليّ والد أحد المعلمين لوليّ عهد الخديوي عباس ١٨٧
الفصل الرابع: فيما قصه علي أستاذي الشيخ حسن الطويل في هذا المقام ١٨٧
الفصل الخامس: في حديث محمد بك عرابي عن أهل سيلان ١٨٨
الفصل السادس: فيما قرأته في كتاب: خواطر وسوانح في الإسلام ١٨٨
الفصل السابع والثامن: في صدق العلم في الجامع الأزهر ١٨٨
الأحاديث النبوية في فضائل الصلاة ١٨٩
فضيلة المكتوبة ١٨٩
فضيلة إتمام الأركان ١٩٠
فضيلة الجماعة ١٩٠
فضيلة السجود ١٩١
الفاتحة وعلوم الحكمة ١٩٢
لطيفة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ١٩٣
الأمراء ١٩٤
الحكماء ١٩٤
الأنبياء ١٩٤
جوهرة في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ١٩٤
الفصل الأول: في الكلام على اللورد هيدلي رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية ١٩٥
سلم الإسلام ١٩٧
الفصل الثاني: فيما ذكره العلامة الكونت هنري دي كاستري ٢٠٤
صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ٢٠٦
الفصل الثالث: فيما ذكره العلامة توماس كارليل ٢١٦
من هو توماس كارليل ٢٢٩
إيضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات ٢٢٩
التحريف العمدي ٢٣١

ظهر الحق واستبان السبيل ٢٣٧
جوهرة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ٢٣٩
خطاب المؤلف لصانع هذا العالم ٢٤٢
لطيفة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٢٤٤
المدرس العظيم الممتاز ٢٤٤
خاتمة السورة خطاب العنكبوت للمفكرين في الإسلام في زماننا ٢٤٥

